

المستأن

مطبعة خان مكتبة مصر

الحصان

تأليف

عبد الحميد جوده الشمار

الناشر : مكتبة مصر
٣ شارع كامل مندي الهلالا

دار مطر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

قال سليم بك شلى لابن أخيه عثمان ، وهو فى طريقه إلى مكتبه فى صدر
الغرفة :

— ألم يتصل بك أحد من الحزب ؟
— لا .

— قال لى رفعة الباشا إن الإنعامات الملكية ستوقع اليوم .
وجلس سليم بك فى مقعده الوثير ، ومال إلى الوراء فى خيلاء ، وشرد
ببصره ينظر إلى لا شىء ، وتدسست إلى رأسه رؤى لذيلة ، أشرق لها وجهه
الأبيض ، وانفرجت أسنانه عن بسمة خفيفة تنم عن عذوبة الأحلام .
كان فى السادسة والأربعين ، ممشوق القد ، عريض الكتفين ، فخما
مهيبا ، فيه اعتداد وثقة فى نفسه لا تحد ، عوده زمنه النجاح فى كل ما يقبل
عليه ، لذلك قلما كانت فكرة الإخفاق ترواده .
ووقف عند رأسه ابن أخيه عثمان ، وقد انحنى حتى دنا فمه من أذنه ، فقد
اعتاد عثمان أن يلتقم أذن البك وأن يهمس له بكل ما يريد أن يفضى به إليه ، وقد
لازمته هذه العادة ، فكان يهمس بأقواله فى أذن عمه ولو كانا منفردين .
وأدار سليم بك عينيه فى الغرفة ، فألقى صورة الملك قواد ما تزال معلقة فوق
رأسه ، فالتفت إلى عثمان وقال :

— ما هذا يا عثمان ؟ لقد مات الرجل وشيع موتا ، ماذا يقول المهثون عندما
يرون هذه الصورة !
وخف عثمان إلى الصورة ينتزعها وعمه يتسم ، ويدبر عينيه فى كل مكان

يفحص عن الأثاث والطنافس وتنسيق الغرفة ، لقد كان مكتباً فخماً رغم أنفه ، فما كان يحفل به قبل يومه . وإن بذل عثمان قصارى جهده في تزيينه وجلب بعض التحف إليه .

وأقبل الخادم يحمل القهوة وخرج عثمان وقد تأبط صورة فؤاد ، والبك يرشف القهوة وهو ينظر إلى التليفون ، فقد احتلت رأسه فكرة أن يتصل بالحزب ويستفسر عن الإنعامات .

وهم بأن يمد يده إلى التليفون ولكن كبرياءه منعه ، فأخذ يعبث في الأوراق الموضوعه أمامه ، ويقرأ ما سطر فيها دون أن يعي مما يقرأ شيئاً ، ونهض يذرع الغرفة جيئة وذهوباً ، وما كان ينهض عن مقعده إذا جلس إلا ليغادر المكان . وعاد عثمان وهو يلهث ، وبين يديه صورة الملك الذى لم يبلغ سن الرشد بعد ، وذهب ليضعها في صدر المكان . قال العم :

— من أين جئت بها ؟

— استعرتها من دكان الحلاق حتى نشترى صورة .

وتأخر سليم بك بخطوتين إلى الوراء . ونظر إلى الصورة ملياً ، ثم قال : — رأيت صورة السلطان حسين وهى تهبط من مكانها لترفع صورة فؤاد ، ورأيت صورة فؤاد تنكس لترفع صورة فاروق ، وما أحسبني سأعيش لأرى صورة من يأتى بعده .. إنه لا يزال غضاً ، أصغر من ابني بستتين .

وعاد إلى مقعده ، واضطجع فيه ، ودنا عثمان منه وهو يلتفت لا يستقر له قرار ، وتفرس عنه فى وجهه قليلاً ، ثم قال :

— على شفئك كلام يريد أن ينطلق ولكنك تمنعه ، ماذا تريد أن تقول ؟
فمال عثمان وقال همساً :

— فكرت طويلاً فى العشرة الآلاف جنيه التى دفعناها ثمننا للباشوية المنتظرة ، فوجدت أنها لا تستأهل مثل هذا المبلغ الكبير . عشرة آلاف جنيه لقاء كلمة !

فنظر إليه عمه طويلا في استخفاف ثم قال :
— أعتقد أن الباشوية لا تساوى عشرة آلاف جنيه ؟
— اعتقاد اليقين .

— وأنا مغبونون في هذه الصفقة ؟
— غبنا ما بعده غبن .

فقال له عمه وهو يتسم :

— لا زلت غبيا كعهدي بك .

ففغر عثمان فاه وهو ينظر إلى عمه يحاول أن يقرأ ما في عينيه ، ولكنه لم يستشف شيئا ، فلاذ بالصمت ، ولاحت في صفحة وجهه بلاهة .
واعتدل سليم بك في مقعده وقد اتخذ هيئة قائد يشرح خطته وقال
— هذه أربح صفقة عقدناها .

— أربح صفقة ؟

— وأفضل عملية استثمارية قمنا بها

— لا أفهم شيئا .

فقال سليم بك متطلق الوجه :

— لو كنت تفهم لما كان هذا حالك .. أبواب الوزارات كلها ستفتح في وجوهنا ما دمنا نحمل الباشوية . الموظفون سيتنافسون في تلبية رغباتنا ، الأرض البور التي اشتريناها ستشقى فيها ترعة ، أربعة آلاف فدان من الأرض البور تصبح جنة وارفة الظلال ، ألا يساوى ذلك ما دفعناه ؟

فقال عثمان متهلل الوجه :

— الآن استرحت ، لقد غمى أن يخطر على قلبي أننا عقدنا مرة صفقة خاسرة .

فقال سليم بك في اعتداد :

— لو لم تكن غبيا يا عثمان لما خطر لك على بال أننى أعقد صفقة خاسرة .

وابتسم عثمان راضيا ، كأنما كان عمه يقرظه ، وشاء أن يكون حبل الحديث موصولا بينهما ، فقال :

— من الذى يأخذ الآلاف العشرة ، الحزب أم السراى ؟

— إنها تقسم بينهما مناصفة .

— تقسم مناصفة ؟! وكيف ينفق منها بعد تقسيمها على المشروع الخيرى

الذى تبرعنا له ؟

— هذا مشروع وهمى يا عثمان ، ماذا كان إفطارك اليوم ؟

فقال وهو يضحك :

— قول .

— الظاهر أنك أكلته قبل أن يدمس .

كان سليم بك متفتح النفس ، فترك نفسه على سجيتها وراح يداعب ابن أخيه ، وكانت فيه دعاية ، ولكنها كانت تغمر فى خضم الأعمال ، ومشاغله الكثيرة التى كانت تلتهم حياته التهاما .

ورن جرس التليفون ، فخفق قلب سليم بك فى شدة ، وتسمر عثمان فى مكانه وقد اتسعت عيناه ، وجعل يرقب عمه الذى غاض لونه قليلا ، وأحس نحوه لإشفاقا ، فقد كانت أول مرة يراه فيها مضطربا .

ورفع سليم بك سماعة التليفون وقال فى صوت قلق :

— آلو ...

— مكتب سعادة سليم باشا شلى ؟

— نعم . أنا سليم شلى .

— مبارك يا سعادة الباشا .. الإنعامات صدرت ، وستظهر فى صحف

المساء ..

واستشعر بالحديث يدغدغ حواسه ، فاضطجع فى مقعده يصغى منتشيا ، وقد امتلأت جوانحه بالغبطة وفاضت على حياه . وراحت أسارير عثمان تهلل ،

كأنما انتقلت إليه الفرحة بالعدوى وهم بأن يندفع إلى عمه مهنتا ، ولكنه تريث ، حتى يفضى إليه الباشا بالنبا السعيد .

ووضع الباشا سماعة التليفون ونهض مرحا ، ومرر يده على شاربه في زهو وقال :

— عثمان ، غير اللافتة اليوم ، واكتب في اللافتة الجديدة : « دائرة سليم باشا شلبي » .

وابتسم الباشا ، واندفع عثمان إليه يهنئه بحرارة ، وقد اغرورقت عيناه بالدموع.



البيت زاخر بالأثاث والرياش ، والأرض كلها مغطاة بطنافس وسجاجيد عجمية ، وعلى الشبايك والأبواب أسجاف من المخمل ، ومن الأسقف تتدلى ثريات ، وفي الزوايا تماثيل ، وعلى الحيطان صور ولوحات ومرايا ، وعلى الرغم من البذخ والثراء ، فإن تكدس الأشياء والستائر التي تحجب النور عن المكان تبعث في النفس الانقباض .

وجلست أمينة هانم تتحدث في التليفون ، وعلى مقربة منها سليم باشا يقرأ برقيات التهاني التي جاءت من العزبة ومن المحلج ومن رجال البورصة ومن أقطاب حزبه ومن يطمعون في كرمه .

ووضعت أمينة السماعة ، والتفتت إلى الباشا قائلة :

— سيدات أسرتنا كلهن هنعنونا بالرضا السامي ، كن يتمنين أن يحضرن للتهنئة بأنفسهن ، ولكنهن يعلمن أنك لا تقابل سيدات في البيت .

فرفع عينيه عن البرقية التي كانت بين يديه وقال :

— والله إننى لا أحب مقابلة السيدات لا في البيت ولا في المكتب ، إننى

لا أدري ماذا أقول لمن ، هل أحدثهن عن البذرة أو عن أسعار القطن ؟ إننى رجل ليس لى إلا عملى أعيش له .

فقالت له زوجته وهى تضحك :

— إنك قادر على إرضاء أية سيدة ، وما أحسبك تكره النساء ، فلو كنت تكرهن لما تزوجت اثنتين .

ورنا إليها من طرف عينه وقال مداعبا :

— الحمد لله فقد أراحنى من الأولى .

ولم تفتن إلى دعايته ، ولم تعاونه على إتمام ما كان يتراقص على طرف لسانه من كلمات ، فما كانت لمأحة ، وقالت :

— ولكنتك كنت تجمع بيننا قبل أن يريحنا الله منها .

وشرد ببصره وقال :

— لقد رفضنى أبوك فى أول الأمر .

— من الصعب أن يوافق أب على تزويج ابنته برجل متزوج وله من زوجته ابن .

— لا أظن أن هذا كان سبب الرفض .

— لم يكن هناك سبب غيره .

— لا . كان هناك سبب آخر لم يفصح عنه أبوك ، كتبه فى صدره ، كان

يرى أننى فقير ، وأنتى لا أستطيع أن أنهض بعبء بيتين .

وقبض على البرقيات بين أصابعه وهزها فى نشوة وقال فى زهو :

— أين أبوك الآن ليقرأ هذه البرقيات !

فقالت وهى تمصمص بشفتيها :

— ألى عند رب كريم .

— ليته يستطيع أن يرى ما أنعم الله علينا به .

ووقف وقال بصوت مرتفع ليسمعه الموتى :

— أنا سليم باشا يا حاج على ، أنا أول باشا في أسرتي وفي أسرتك ، أأد ..
— أبى في قبره يا باشا ولن يسمعك .
— ليته يسمع .

ودق جرس التليفون ، ورفعت أمينة هاتم السماعه وقالت :
— ألو ..

وأصغت قليلا ثم قدمت السماعه إلى الباشا قائلة :
— عثمان يريد أن يحادثك .

وتناول الباشا السماعه ، وقال :

— ألو .. صباح النور يا عثمان .. ربنهارت لم بيع .. وكوبر لم بيع .. هيه ،
ولكن السعر المعروض سعر طيب .. اتصل بمكتبنا في البورصة ومره بالبيع ..
قلت لك مره بالبيع ، فلن يرتفع السعر عن هذا الحد .. لن آقى اليوم إلى
المكتب .. ابعت إلى بكل الرسائل والبرقيات .. شكرا وعليكم السلام ورحمة
الله وبركاته يا سى عثمان .

ووضع السماعه ودار دورة في رشاقه حتى أصبح أمام زوجته وجهها
لوجه ، وقال :

— سليم باشا !.. سليم باشا ! لم ينل ثور من ثيران أسرتكم هذا الشرف .
فقلت وقد تعلق عيناها به في وله :
— لم ينله إلا أنت .

فطن إلى النكتة وهم بأن يضحك ، ولكنه كان يعرف زوجه ، إنها
لا تقصد ما فهمه ، كان كل ما ترمى إليه أن تقصر ذلك الشرف عليه ، أما
القول بأنه الثور الوحيد في أسرتها الذى نال هذا التكريم ، فهذا بعيد كل البعد
عن ذكائها .

ذابت شخصيتها فيه ، فأصبحت ترى بعينه وتسمع بأذنيه وتنطق بلسانه ،
أما عقلها فقد قصر عن أن يعطاول إلى عقله ، فقد استراحت إلى النعيم الذى

تعيش فيه ، ولم تعد تجهد عقلها بالتفكير ، فضمير ضمور العضلة التي تركن للراحة ولا تتحرك إلا لأجل الحركات .
ومس أذنها طرق خفيف على الباب ، فقالت :
— ادخل .

ودخلت خادم في يدها ورقة بيضاء طويت طى السجل ، واتجهت إلى الباشا وقدمت إليه ما في يدها قائلة :
— من جاء بها طلب أن تسلم للباشا ، وهو ينتظر الرد .
ونشر الباشا الورقة الأنيقة ، ودنت أمينة هانم تنظر ، وأخذت تشارك الباشا في قراءة أبيات الشعر ، إنها دبجت بماء الذهب ، وكانت زاخرة بأحر التهاني بالإنعام السامى الكريم .
وأخرج الباشا من جيبه ثلاث قطع فضية ، اثنتين من ذات العشرة القروش ، وقطعة من ذات الخمسة القروش ، ووضع القطع الثلاث في يد الخادم وقال :

— أعطيه هذه وقولى له : الباشا يشكره على عواطفه .
ووقفت الخادم برهة قبل أن تدور على عقيها ، كانت لا تصدق أن خمسة وعشرين قرشا هي كل عطية الباشا لشاعر هنا بقصيدة كتبها بماء الذهب على ورق مصقول ، أحست في أعماقها خيبة الأمل التي ستصيب الرجل المنتظر في غرفة الاستقبال وهو يبنى قصور الأمانى ، أما أمينة هانم فلم تذكر شيئا ، ولم تستشعر حرجا فيما أتاه الباشا . كانت تعتقد في قرارة نفسها أن المال يجمع ليكثر وأن من السفه أن ينفق في غير ضرورة من ضروريات الحياة ، لذلك عاشت طوال حياتها فقيرة ، وإن بلغت أرصدة زوجها في المصارف آلافا مؤلفة من الجنيهات .

ودخل حلمى متطلق الوجه ، طويل القامة ، نحيل القد ، أسود الشعر ، أسمر البشرة ، دقيق التقاطيع ، له عينان واسعتان تأتلقان ببريق أخاذ ، يرتدى

جاكته قصيرة ، وبنطلون شارلستون يبلغ طول فتحته عند القدم ثلاثين سنتيمترا .

وتقدم رشيقا وبنطلونه يرفرف على قدميه ، حتى إذا بلغ أمه طوقها بذراعيه وقبلها في حنان ، فإذا بكل المشاعر الطيبة تنفجر في أعماق الأم ، وتزحف إلى وجهها فتكسوه نورا ملائكيا ينم عن أنبل ما في الناس من غرائز وإحساسات . ونظر الأب إلى ابنه منشرح الصدر ، فهو أمله ومحط كل رجاء ، فقد نال الباشا كل ما يحلم به من مال وجاه ، ولما تحققت كل أحلامه اشرب بعنقه إلى أمل عزيز المنال ، كان يتمنى في أعماقه أن يصبح وزيرا يوما ما ، ولكن ضالة نصيبه من التعليم جعلته يقيد تلك الآمال . تيقن أن تحقيق مطامعه ضرب من المحال ، فلم يقنط بل راح يعمل جاهدا على أن يحقق في ابنه ما كان يتمناه لنفسه من سلطان .

وجد أغلب وزراء حزبه من خريجي الحقوق ، بل إن جمهرة الوزراء إطلاقا في أى عهد من العهود من خريجي هذه الكلية ، فوقر في ذهنه أن ليسانس الحقوق هو أقصر طريق إلى الوزارة ، فأقنع حلمي بالالتحاق بهذه الكلية ، وإن هى إلا أربع سنوات حتى يحمل ابنه نفس المؤهل الذى يحمله أغلب الوزراء . واتجه حلمي إلى أبيه وقبل يده ، ثم قال :

— أخبرنى عبد الخالق أنه آت اليوم هو وبشينة .

فقال الباشا وهو ينهض :

— سيتناولان الغداء معنا .. إلى ذاهب لأرتدى ثيابى .

وخرج الأب ودار حلمي في رشاقة دورة ، ثم جلس إلى جوار أمه وقال لها وقد أمسك يديها بيديه :

— ماذا سيعطينى أى بمناسبة الإنعام عليه ؟

— سيارة جديدة .

— وأصدقائى ؟ إنهم يطالبونى بالاحتفال بهذه المناسبة التى لا تسنح فى

العمر إلا مرة واحدة .

— ادعهم للعشاء هنا .

فانفجر ضاحكا وقال :

— ما أطيبك يا أمي !

— لماذا ؟

— لأنك تقترحين على أن أدعو أصدقائي للسهر في مسجد ، إن وجود الباشا في البيت يجعلهم خاشعين خشوع المصلين ، إننا نريد أن نمرح ، أن نضحك من أعماقنا ، أن نرقص ، أن نتصرف في حرية ، أن ننطلق على سجايانا .

— وماذا تريد أن تفعل ؟

— أن أقيم حفلا في ملهى من الملاهي ، حفلا يليق بالباشا .

وانفجرت شفتاها عن أسنانها ، ولاح في عينيها أنها فطنت إلى ما يرمى إليه ، فقالت :

— كم تريد ؟

— مائتي جنيه .

فقالت في فزع :

— مائتي جنيه ؟ لا أظن الباشا يوافق على دفع هذا المبلغ .

وصمتت قليلا ثم قالت :

— كلمه أنت .

فطوقها بذراعيه وقال :

— لا أكلمه أبدا ولى أم تأثيرها عليه كالسحر .

كان في قرارة نفسه على يقين من كذبه ، ولكنه رأى أن يتملقها ليحرك حماسها له ، وما كانت تتحمس لشيء أبدا ، إلا إذا كان فيه مغنم لابنها ، وسرعان ما أصاب هدفه ، فقد قالت له :

— سأكلمه الليلة .

وترادفت قبلاته على خديها ، ثم تركها منصرفا ، فقالت له :

— إلى أين ؟

— أبلغ أصدقائي بموعد الحفل .

وقبل أن يغادر الغرفة التفت إليها وقال :

— سيكون حفل الموسم ، حفلا يليق بالباشا .

٣

جلس الباشا في صدر المائدة ، وقد ارتدى حلة رمادية فصلت على أحدث طراز ، ومال طربوشه الأحمر الفاتح إلى اليسار قليلا ، وثبتت الكرافاتة السولكا النيذية اللون بدبوس رأسه لؤلؤة ، ووضع في جيب جاكته منديل من قماش الكرافاتة على شكل هرم .

وكانت دلائل الصحة تترقق في وجهه : خداه متوردان ، عيناه تلمعان ببريق خاطف ، شاربه هذب دون أن ترقق حواشيه ، لم تتسلل فوديه شعرة واحدة بيضاء .

وجلس عن يمينه ابنه البكر عبد الخالق . كان ممتلئ الجسم قليلا ، فارع القامة كأبيه ، على رأسه طربوشه ، فما كان يجرو أن يظهر أمام الباشا عارى الرأس ، وكان أنيقا في ثيابه ، يحفل بدقائق ما يرتديه احتفاء الغانية بزيتها ، وقد ورث عن أبيه أناقته كما ورث عنه ملامحه ولون بشرته .

وكان أكبر من حلمى بسنوات لا تتجاوز السبع عدا ، ولكن من يراه يحسبه والدا لأخيه ، أو زوجا لامرأة أبيه ، فقد ظهرت حول عينيه دائرتان سوداوان تنمان عن جهد وإرهاق وسهر طويل ، كان الباشا يبدو أكثر منه شبابا وحيوية .

وجلست عن يمين عبد الخالق زوجه بثينة ، أبرز ما فيها شعر أسود وعينان خضراوان عميقتان لا يرى لهما قرار ، كانت ممتلئة الجسم ، ناهدة الصدر ، دقيقة الخصر ، مستديرة الأرداف ، تميل إلى الطول ، وقد أكسبها طولها وامتلاء جسمها فخامة ، أما بشرتها فقد كانت في لون الخوخ .

كانت أناقتها مجلوبة من باريس : الثوب الأزرق الجميل الذي كان يكشف عن الأنحدود الغائر بين ثدييها ، والقرط الماسي الطويل المتدلى من أذنيها ، والعقد المتلألئ حول عنقها يجذب البصر إلى الصدر العاري ، والأسورة العريضة الملفوفة حول المعصم تبدو كأنما صيغت من لجة تترقرق ، أما العطر الفواح فكأنما كان بخورا ساحرا ينشر غيوبة منتشية .

وجلس حلمى عن يسار الباشا ، وكان حاسر الرأس ، فهو وحده القادر على الظهور أمام الباشا دون طربوش ، فالباشا صارم في المحافظة على الشكليات حتى في بيته ، ويا ويل من يدخل عليه دون كرافاتة ، إن خرق الناموس أهون من ذلك .

كانت سمرة حلمى مشوبة بحمرة الدماء المتدفقة في شرايينه الشابة ، فكان لونه خمريا لطيفا ، وكانت خفة روحه تجذب إليه قلوب محدثيه ، وكانت نعم العون له في التخلص من المآزق التى ينزلق إليها .

وجلست الأم عن يسار ابنها : كانت لا تزال متماسكة ، فيها مسحة من جمال طبيعى ، عينان واسعتان ، أهداب طويلة ، أنف دقيق ، فم مستدير وشفتان ممتلئتان ، وكانت تشتري أغلى ما فى السوق من أقمشة وعطور ، ولكن هذه الأقمشة إذا ما فصلتها وارتدتها فقدت قيمتها ، وطمرت كل جمال لم تعبث به بعد يد الزمن والإهمال ، إذ كانت تختار أسوأ القصات لثيابها .

ووضع على المائدة ديك رومى فى صفحة من فضة ، وصفت حوله صحاف كثيرة بها ألوان متعددة من الأطعمة الدسمة ، فقد كان الباشا يكره أن يقدم إليه الطعام صنفا صنفا .

وامتدت الأيدي إلى الأطعمة التي كانت من طيبات البر والبحر ، وكانت أمينة هانم تختلس النظر إلى صدر بثينة فتستشعر امتعاضا لا يخلو من حسد ، كانت تمتعض من جرأتها على كشف صدرها أمام الباشا وحلمى ، وكانت لسعات خفيفة من الغيرة تلسع روحها ، فما من امرأة لا تشتبى أن يكون لها مثل صدر بثينة الناهد الزاخر بالحوية .

وضبطتها بثينة وهو تجول ببصرها لتكتشف منابت نهديها ، وأحست أمينة هانم كأنها فوجئت وهي عارية ، فاضطربت وانكمشت وقالت فى ارتباك :
— كيف حال أختك إلهام ؟

فقالت بثينة وهي تنظر إليها مفتوحة العينين ، دون أن تطرف أهدابها :
— بخير .

وقالت أمينة هانم دون أن ترفع عينيها إليها :

— ولماذا لم تأت لتشاركنا غداءنا ؟!

فقال الباشا وهو يلوك ما فى فمه :

— الذنب ذنبى ، فقد هنأتنى صباحا فى التليفون ، ونسيت أن أدعوها .

فقالت بثينة وهي تنظر إلى الباشا بكل جسمها :

— إنها معجبة بعبقريه الباشا .

فقال الباشا وهو يتسسم :

— تقصدين أنها معجبة بعصامية الباشا ، قولها ولا حرج عليك ، فإنه لما

يسرنى أن يذكر الناس عصاميتى ، إتنى لا أخجل من أننى كنت يوما رجلا فقيرا .

ويلتفت إلى زوجته ويقول مداعبا :

— ولا أخجل من تذكرى أن الحاج على أبازوجتى قد رفضنى أكثر من مرة

لفقرى .

واتسعت بسمته ولكن كلماته كانت تقطر مرا .

(الحصاد)

وقالت بثينة وهي تنظر إلى حلمى :

— سيكون حلمى بإذن الله مثل الباشا ، وسنحتفل بالإنعام عليه بالباشوية احتفالا ضخما ، ولكن سنحتفل بزواجه من غير شك قبل هذا ، فما أظن أن الباشوية تمنح لابن العشرين ، أما العروس فمن الجائز أن يعطاها وهو فى مثل هذه السن .

فقال حلمى وهو يضحك :

— العروس لا تعطى ولكنها تؤخذ ، والدليل على ذلك قولهم : اتخذ له زوجة .

وأشرق وجه الأم بابتسامة رضا ، وقال الباشا فى حنان :

— سواء أكانت تعطى أم تؤخذ ، فلن نعطيها ولن نسمح لك بأخذها قبل أن تحصل على الليسانس .

وكأنما شاءت بثينة أن تربط بين حلمى وأختها إلهام فقالت :

— ستحصل إلهام على البكالوريا هذه السنة ، وهي ترغب فى الالتحاق بالجامعة ، ولكننا لن نسمح لها بذلك .

فقال عبد الخالق :

— ولماذا لا تلتحق إلهام بالجامعة ؟

فقالت بثينة وهي تنظر إلى أمينة هائم من طرف عينيها :

— البنت ليبتها .

فقالت أمينة هائم متحمسة :

— هذا حق . على الرجل أن يسعى وعلى الزوجة أن ترعاه وترعى بيته

وأولاده .

وهم عبد الخالق بالدفاع عن رأيه ، وفطن الباشا إلى ذلك ، وما كان ممن

يرحبون بدخول الفتيات الجامعة ، فقال وهو ينظر إلى عبد الخالق :

— بلغنى أنك خسرت فى البورصة .

فقال عبد الخالق في انكسار :

— كنت مضارباً بالصعود ، وقد أخذت الأسعار في الارتفاع كما كنت مقدرًا ، ثم فجأة تدهورت الأسعار واضطرت للبيع .

— وما الذى اضطرك للبيع ؟

— كانت على التزامات .

— نصحتك أكثر من مرة قلت لك بع والأسعار آتخذة في الارتفاع ، لا

تنتظر حتى تبلغ الأسعار ذروتها ، ولكن من يسمع النصيحة !

— إننى أعياها جيداً ، ولكن من الصعب تطبيقها . كيف أبيع وأنا أرى

الأسعار فى تحسن مستمر ؟ ومتى أبيع ؟ إننى كلما ارتفعت الأسعار بنظراً أنتظر صعود بنط جديد .

— أنت مضارب مقامر ، أما أنا فتاجر ، أكتفى بالحسنة ..

إننى لا أفلس أبداً ، أما أنت فستفلس يوماً ، وما أحسب ذلك اليوم بعيد .

كان الباشا يتحدث فى بساطة كأنما يقرر حقيقة واقعة ، وأحس عبد الخالق

ضيقاً ، وحز الأمر فى نفس بثينة ، ولكنها كانت قادرة على كبح عواطفها ،

فلم يتلون وجهها ولم تختلج فيها خلجة ، ولم تستشعر أمينة هانم شيئاً ، لأن

زوجها كان يتحدث فى نبرات لينة فخيّل إليها أن الحديث يهب رخاء ، بلا

زوابع ولا أعاصير ، أما حلمى فقد أحس الجرح الذى أصاب نفس أخيه ،

فقال ليغير مجرى الحديث :

— بدأ زملائى فى الجامعة يتحدثون عن الحسوبيات والاستثناءات فى

الوزارة ، وما من وزير إلا وقد عين أقاربه ومحاسبيه وأغدق عليهم .

فاعتدل الباشا وقال :

— لا يستطيع الإنسان أن يعمل يا بنى وهو مطمئن إلا إذا كان من حوله ممن

يثق فيهم .

— وما ذنب الذين كانوا يعملون فى مكاتب الوزراء قبل تغيير الوزارة ؟

المفروض أن الموظفين أمناء على أعمالهم .

— المفروض شيء ، والكائن شيء آخر ، لأننى لست وزيرا ومع ذلك أستعين بعثمان ابن عمك ، ومع أننى واثق أن عثمان ليس أفضل البشر جميعا ، لماذا ؟ لأن عثمان من لحمى ودمى ، لأننى أثق فيه ، أطمئن إلى العمل معه ، إنه يتصرف بغباء أحيانا ، ولكنه بكل عيوبه أفضل من الغرباء . إن الإنسان يفضل أن يعمل مع ابنه وأن يعتمد عليه ، ولكن ماذا يفعل إذا كان الابن قد أثبت أنه ليس أهلا للثقة ؟ ليس أمامه إلا أن يختار أقرب الناس إليه بعد ابنه ، ولا تحسبن أن ذلك أمر هين ، إنه مر أمر من الصاب .

وتدققت الدماء حارة إلى وجه عبد الخالق ، وكان أبوه يعرض به ، فقد كان يعمل معه قبل عثمان ، ولكن أباه رماه بكل نقيصة ، واتهمه بكل ما يشين ، وكان لا بد من الفراق ، إنه قلما يجتمع بأبيه ، ولكن ما من مرة اجتماعا فيها إلا تكهرب الجو وهبت العاصفة الهوجاء .

وأحس حلمى أن التوتر قد بدأ ، فقال لأبيه :

— الكرافاتة التى تلبسها يا بابا تشبه الكرافاتة التى كان يلبسها رفعة الباشا فى اجتماع الأمس .

فقال الباشا متلهلل الوجه :

— بل إن الكرافاتة التى كان يرتديها رفعة الباشا تشبه هذه الكرافاتة ، لأننى أنا الذى أهديتها لرفعة الباشا .

وراح حلمى يداعب أباه حتى انقشع القلق ، واسترخت الأعصاب ، فنظرت بشينة إلى حلمى نظرة شكر ، فما كانت تحب أن ينقطع الخيط الواهى الذى يربطها بأسرة سليم باشا شلبى ، فهى تأمل أن تزداد هذه الروابط توثقا ، وتعمل فكرها لتزيد الأواصر بين أسرتها وأسرة زوجها ، إنها واثقة فى أعماقها أن أمينة هانم لا تحبها لأنها زوجة ابن ضررتها ، ولكنها ستغمر عينيها عن هذه الحقيقة البغيضة ، لتحقق ما يراودها من أحلام .

٤

ذهب عبد الخالق يلقي نظرة على البار ليتأكد من أن كل شيء قد أعد لسهرة الليلة ، فألقى رفعت يصف في عناية زجاجات الوسكى والبراندى ، وتلفت عبد الخالق برهة ثم قال :

— وأين النبيذ .

— موجود . اطمئن ، فقد تعلمت أن الأستاذ لا « يتسلطن » في الغناء إلا إذا شرب النبيذ .

وراح عبد الخالق يجوس خلال المكان ، ويحكم إغلاق النوافذ ، وإسدال الستر ، وتنسيق وضع التمارق ، وإضاءة الأضواء الخافتة التي تنفث في القاعة الواسعة ظلالا ساحرة من الضوء كأنها أطياف .

وأخذ رفعت يعد الشراب ، ويضع الفستق واللوز المقشور المملح في أوان من بلور ، وما كان يقادر على مقاومة إغرائها ، فراح يمد ، ويتناول فستقة يضعها في فمه ، ويستأنف عمله ، ثم يعود ويلتقط لوزة يركها متلذذا وهو ينمق وضع الأكواب على البار .

كان رفعت شابا وسيما ، فيه جرأة واعتداد بالنفس ، وما كان من الوسط الذى يعيش فيه ، إنه من أسرة فقيرة ، ولكنه كان تواقا إلى حياة البذخ والسهر والعريضة ، فراح يصادق زملاءه الأثرياء في المصلحة ، ويشاركهم لياليهم الحمراء ، ويقضى لهم ما يكلفونه به من خدمات لا تحلو السهرات إلا بها ، وغالبا ما كان يتطوع من تلقاء نفسه لتأدية تلك الخدمات ، ليؤكد ضرورة وجوده وأهميته .

جاء إلى بيت عبد الخالق ذات ليلة في رفقة أحد أصدقاء البيت من الفنانين ، فأغلب رواد سهرات عبد الخالق من كبار الممثلين والممثلات ، والمطربين

والمطربات ، والشخصيات المتألقة في سماء الفنون . وبهره البذخ الذى عاش فيه تلك الليلة ، وأرضى غروره وجوده فى مكان واحد مع أسماء لها شهرتها ، فوطن النفس على معاودة الزيارة وحده ، وجاء وسهر ورحب به عبد الخالق وزوجه ، وصار من بعدها ملازما للبيت ، وواحدا من أهله ، يكلفه عبد الخالق بأعمال تتصل اتصالا وثيقا بخصوصياته ، وتبعثه بثينة هانم إلى محال الأزياء ليحلب لها ما تحتاج إليه منها .

وعاد عبد الخالق إلى البار ، ووقف يراقب رفعت وهو منهمك فى عمله ، ثم قال له :

— لو تركت وظيفتك واشتغلت « بارمان » لكان أكسب لك .

فقال رفعت وهو يعيد زجاجة براندى إلى مكانها على الرف :

— اتفقنا . كم تدفع لى فى الشهر ؟

— ولماذا أدفع لك إذا كنت تعمل عندى بلا أجر .

— لأننى أمضيت فترة التدريب بنجاح ، وأستطيع الآن أن أحصل على

مخدوم غيرك .

ثم ضحك وقال :

— والله لو دفعوا لى مائة جنيه فى الشهر على أن أترككم ، ما تركتكم أبدا .

وأراد عبد الخالق أن يغير الحديث ، فقال :

— ما الأخبار ؟

فقال رفعت وهو يهز كتفيه .

— لا حديث فى البلاد إلا عن إقالة الوزارة ، والأقارب والأصهار

والمحاسب واستغلال النفوذ .

— وماذا يقولون عن استغلال النفوذ ؟

— يقولون أن مشروع خزان أسوان أحيل من الأشغال للمالية لأنه قد ثبت

بالمستندات التى لا يتطرق إليها شك أن وزير الأشغال ضالع مع الشركة التى

ستقوم بالمشروع .

— من حسن حظك أن الباشا لم يسمعك .

— ما أقوله كتب في الصحف .

— الباشا لا يعترف بما يكتب في صحف المعارضة .

— ولماذا أقيمت الوزارة إذا لم تكن إقالتها لتفشى المحسوبة واستغلال النفوذ ؟

— الباشا يقول إنها أقيمت لسبب آخر .

— وما هو ذلك السبب ؟

وأصاخ رفعت سمعه ، لا لأن السبب يهمه ، فقد كان كعبد الخالق لا تهمة السياسة في كثير أو قليل ، ولكن ليروى ما سيسمعه لزملائه في الديوان ليثبت لهم أنه على صلة برجال مصر ، وأنه عالم ببواطن الأمور ، قال عبد الخالق : — يقول الباشا : إن حاشية الملك القاصر أرادت أن تتملقه وتتودد إليه وتكسب رضاه فزينت له أن يكون تتويجه دينيا ، أن يضع الشيخ الأكبر التاج على رأسه ، وصادفت الفكرة هوى في نفسه ، فطلب من وزارته أن تعد العدة لذلك التتويج ، ولكن رفعة الباشا رفض ذلك ، وأمعن في الرفض ، فكانت الأزمة وكانت الإقالة ، وكانت المعارضة التي اختلقت وأصبحت المادة التي تلوكها صحف المعارضة صباح مساء .

فقال رفعت في عجب :

— ومن كان يضير رفعة الباشا لو قبل التتويج الديني ؟

— كان ذلك يجر البلاد إلى متاعب لا قبل لها بها ، سيشجع ذلك الملك

الشاب على الظن بأنه حاكم ديني ، وسيجعله يحلم دائما بأنه خليفة المسلمين ، وسيأتي من الأفعال ما ينفر الدول الإسلامية كلها منا والبعد عنا .

وسمع عبد الخالق وقع أقدام خلفه فالتفت ، فألقى إلهام ترتدى بالطو من الفرو ، وعلى رأسها قبعة لا تكاد تغطي جزءا من مؤخرته ، وقد تهدل شعرها الكستنائي على جبهتها في روعة ، تشع من عينيها العسليتين الصافيتين نظرات

هادئة ، وكان أنفها دقيقا ولكن شامخا ، وشفتاها رقيقتين . كانت تجتاز عتبات
سن الرشد ، ومع ذلك لم تكن فى حركاتها خفة أو رعونة ، كانت ثابتة الخطو ،
تنطق كل خلجة فيها بالتعقل والرزانة .

وراحت إلهام تخلع قفازها ، وقال عبد الخالق وهو فى طريقه لملاقاتها :
— الدنيا برد فى الخارج .

قالت وهى تبتسم :

— ولا غرابة فى ذلك ، فنحن فى أواخر ديسمبر .

ومدت يدها وصافحته ، وقال لها :

— تفضلى ، لا تزال بثينة فى حجرتها ، إنها تتزين .

ومد ذراعه وبسط كفه وانحنى قليلا ، فسارت إلى حيث أشار وانطلق
خلفها يحادثها ، حتى إذا بلغا مخدع بثينة ، طرق الباب طرقات خفيفة ،
وقال :

— إلهام هنا .

وارتفع صوت بثينة من الداخل :

— أهلا . أهلا .

وفتح الباب ، وظهرت بثينة فى قميص وردى اللون ، وسحبت أختها من
يدها ، ومد عبد الخالق رأسه ينظر مداعبا ، فدفعته فى رفق كله دلال ،
وأغلقت الباب فى وجهه .

وتعانقت الأختان ، وخلعت إلهام معطفها ، فبدت رشيقة ، وكان أجمل
ما فيها الساقان المتناسقتان ، والخصر النحيل ، والصدر الشامخ فى غرور
والبسمة الرقيقة التى تعرف طريقها إلى القلوب .

وعادت بثينة إلى مقعدها أمام المرأة تكمل زينتها ، وجلست إلهام بالقرب
منها ، فنظرت بثينة إلى صورة أختها فى المرأة وقالت :
— حدثينى عن آخر أخبارك .

فأطرقت إلهام حياء ، ثم قالت دون أن ترفع عينها :

— لمح لى بدر الدين برغبته فى خطبتى .

فاستدارت بشينة حتى واجهت أختها وقالت :

— وماذا قلت له ؟

— لزمت جانب الصمت ، لم أنبس بكلمة .

— حسنا فعلت .

— لا أظن أننى أحسنت بصمتى ، لو طاورت قلبى لشجعته على أن يشنى

ما فى نفسه ، إننى أحبه ، وأحسب أنه فتى أحلامى .

— بالله لا تذكرى الحب ، فما زلت طفلة ، لقد تفتحت عيناك على بدر

الدين ، فهو ابن خالتك ، فألفت وجوده ، فلما تحركت فىك أنوثتك حسبت

أن ليس فى الوجود رجل غيره ، وتوهمت حبه .

— لم أعد طفلة ، إننى أعرف حقيقة مشاعرى ، فالسعادة التى تغمرنى إذا

ما تحدث إلى ، تختلف عن الأحاسيس التى أحسها إذا ما تحدث إلى رجل

آخر . إن حديثه ينسكب فى أذنى كنغم رقيق ، والبسمة التى تتوج شفثيه

تضىء ظلام نفسى ، ونظرة طيبة من عينيه تعبث بأوتار قلبى . إننى أجد جمالا

فى كل ما يفعل وكل ما يقول ، أفتقده إذا غاب ، وأشتهى أن يظل معى إذا

حضر ، فإذا لم يكن هذا هو الحب ، فماذا يكون ؟

— يكون أحلام مراهقة ، قولى لى ماذا يعجبك فيه ؟

— شبابه ، رجولته ، اعتماده على نفسه .

— أهذه هى كل صفات الرجل الذى ستقضى مع العمر كله ؟

الشباب يزول ، والرجولة لا يمكن قياسها أو وزنها أو اختبار معدنها فى

لحظة من لحظات الصفاء ، فالشدائد فى الزمن الطويل هى محكها وميزانها

ومقياسها الدقيق ، أما اعتماده على نفسه فإلى ماذا يقود ؟

— يقود إلى النجاح .

— وما مقياس النجاح لمهندس مبتدىء مثله ؟ أن يذيع اسمه ، أن يقبل الناس عليه ، أن يجمع مالا يوفر لأهله حياة سعيدة رغدة ، أليس كذلك ؟ ونظرت إليها إلهام مفتوحة العينين دون أن تنطق كلمة ، أحست أنها تقودها إلى شرك ، فجعلت تزن كل ما تنفوه به أختها ، وتشحذ ذهنها لمحدثها ، قالت بثينة :

— فالمال إذن هو غاية النجاح .

فقالت إلهام فى حماسة :

— ليس المال وحده هو غاية الكفاح ، إن فى بذر بذرة فى الأرض ورعايتها حتى تنمو وتشتد وتثمر لذة قد تفوق جمع الثمار ، وإن فى معاونة زوجة لزوجها والسهر عليه ودفعه فى طريق النجاح لذة تفوق بلا شك لذة الحصول على المال .

فقالت بثينة فى استخفاف :

— هذه فلسفة المحرومين ، ماذا تفعلين بالمال الذى تحصيلين عليه بالعرق والجهد والصبر والحرمان بعد أن تنقضى أيام الشباب ؟ لماذا الجرى والتعب والشقاء ، إذا كان ما نجرى ونتعب ونشقى من أجله يمكن أن نحصل عليه دون جهد ومرارة وانتظار ؟ لن تتزوجى بدر الدين ، ولن يضيع عمرك فى قلق وجهاد وانزعاج . لا بد أن تتزوجى من شاب غنى يسعدك ويحقق لك كل ما تشتهين ، وإن ما نطلبه ليس بعيدا ، إنه فى قبضة يدنا هذه ، وما علينا إلا أن نطبق يدنا عليه .

وصمتت بثينة ، وتفرست فى وجه أختها لترى هل فطنت إلى ما كانت ترمى إليه ، ولكن إلهام ظلت ترقبها وقد ارتسمت على وجهها أى الدهش وحب الاستطلاع ، وابتسمت بثينة وقالت :

— ستزوجين حلمى .

— حلمى ! وهل فاتحك فى هذا الأمر ؟

— لم يفاتحنى فى شىء ، ولكننى أعرف كيف أجعله ينطق بما أحب أن ينطق به .

وأربد وجه إلهام وقالت :

— أحب أن أكون مطلوبة لا أن أكون طالبة .

فدنت بثينة منها وقالت :

— أموال الباشا كلها ستكون لنا .

— أموال الباشا كلها لا تدير رأسى ، لا تستطيع أن تجعل قلبى يخفق بالحلب .

— أموال الباشا هى الشباب المتجدد ، هى السعادة الدائمة ، وستكون لنا وحدنا .. من يزرع يحصد .. من يزرع يحصد .



كان حلمى يقود سيارته فى بطء شديد ، وكان صديقه الجالس إلى جانبه يخرج رأسه وينظر ويقول :

— حاذر .. أمانا عمود .. حاذر الطوار .. حاذر أمامك جندى المرور .

كان الظلام حالكاً ، المصابيح طلعت بلون أزرق قاتم ، ومصابيح السيارة لا تكشف من الطريق شيئاً ، فقد حجبت بأحجبة كثيفة كتمت أنفاس أضوائها ، وجعلتها ترسف فى القيود ، وأصحاب الحوائث آثروا العودة إلى دورهم ، والستائر أستدلت على النوافذ ، وأصوات ترتفع من هنا وهناك تصيح : « أطفئوا النور » ، فقد دخلت إيطاليا الحرب إلى جوار ألمانيا ، وقاست الإسكندرية والقاهرة من وطأة الغارات .

وارتفع صوت الجالس إلى جوار حلمى يقول فى حدة :

— تريث ! جندى بريطانى يرفع يده يأمرنا بالوقوف .

ووقفت السيارة ، واقترب جنديان بريطانيان منها ، والتفت أحدهما إلى حلمى وقال له :

— هات خمسين قرشا .

ورمقه حلمى فى دهش ، وقال الجندى فى بساطة :

— نريد أن نسكر ونذهب إلى السينما .

وهم الجالس إلى جوار حلمى بدفعه بعيدا ، وتحفز الصديقان الآخران الجالسان فى المقعد الخلفى للمعركة ، ولكن حلمى قال :

— لا داعى لتعكير صفاء ليلتنا .

ومديده فى جيبه وأخرج خمسين قرشا ، وضعها فى يد الجندى البريطانى ، وإذا بالجنديان يقفان منتصبين ويحييان حلمى تحية عسكرية ، وانطلقت السيارة تتحسس طريقها .

وراح الشبان الأربعة يتحدثون ، قال قائل إن دفع ملهم واحد لهؤلاء الأفاكين فيه كل ما فى الإذلال من مرارة ، وإن دماءه لا تزال تفور فى عروقه . إنه يرى أن الرفض كان أكرم ، ولتكن النتائج ما تكون . وقال حلمى إنه فعل عين العقل ، فما تساوى الخمسين قرشا تمزيق الثياب ، وتجريح الوجوه . وصاح الجالس إلى جواره :

— حذار .. أماننا طوار .

وعاد القائل يقول :

— لن تغمض عينى الليلة وأنا مستريح الضمير ، قبل أن أرد للإمبراطورية البريطانية إهانة سلب أموالنا ونحن ننظر .

فقال حلمى فى هدوء ، وإن بدأ يحس مرارة :

— هون عليك ، دفعنا مبلغا تافها عن طيب خاطر .

— إذا كان ما دفعناه عن طيب خاطر ، فماذا يكون الإكراه إذن ؟ إننا

دفعناه من كرامتنا وماء وجوهنا .

ووقفت السيارة أمام ناد ليلي كان غارقا في الظلام ، علق عند مدخله مصباح أحمر خافت . ودلف الشبان الأربعة إلى القاعة الواسعة التي صفت فيها مقاعد متناثرة حول حلقة الرقص . كانت الأضواء خافتة ، ودخان السجائر يسبح في الفضاء كسحب بيضاء ، فيضفى على المكان غموضا ، وجلس إلى النضد ضباط الحلفاء في ثياب الجيش والطيران ، ومعهم بعض أرتيستات الحرب ، ذوات الشعور المقلقة والبشرات السمراء . وراح الجرسونات يغدون ويروحون بزجاجات الويسكى والشامبانيا والنبيد .

واتجه الشبان الأربعة إلى نضد قريب من حلقة الرقص ، وراحوا يكشفون المكان بعيونهم . ولمح أحدهم فتاة شقراء جالسة وحدها ، كانت بيضاء البشرة ، وعيناها في لون زرقة السماء الصافية ، ووجنتاها كتفاحتين ، وعنقها طويلا ، وسحرها في شبابها ، فما كانت قد تجاوزت العشرين بعد .

ولكز الشاب حلمى لكزة خفيفة ، وأشار برأسه إلى حيث كانت تجلس الفتاة ، فنظر حلمى طويلا ، ثم قال :

— إنها أجنبية ، والظاهر أنها وارد جديد .

والتفت الشبان الأربعة إلى حيث كانت تجلس ، وقال قائل :

— رزق ساقه الشيطان إلينا .

ورفت البسمات على الشفاه ، وقال حلمى :

— قولوا : من أين ؟

فقال أحدهم :

— فرنسية .

وقال آخر :

— أسترالية .

وقال الثالث دائما :

— من بلاد الملاعين .

فضحك حلمى قائلا :

— كلهم من بلاد الملاعين ، فأى الملاعين تقصد ؟

— الملاعين الذين يوضعون فى رأس القائمة .

وأدار عينيه فى المكان وقال :

— تراودنى فكرة القيام وضرب كل الإنجليز الموجودين هنا .

وانبعثت أنغام الموسيقى الراقصة ، ونهض حلمى وتقدم فى خطوات ثابتة إلى حيث كانت الفتاة الشقراء ، وانحنى أمامها فى أدب ودعاها لتشاركه هذه الرقصة ، وأصداقاه يرصدون ما يجرى فى انتباه .

ونفضت الفتاة وسارت أمامه إلى حلقة الرقص ، ورفع يدها بيده ولف ذراعه حول خصرها ، وراح يرقص فى مهارة ، حتى أن الفتاة رفعت رأسها ونظرت إليه فى إعجاب . وقالت بالفرنسية :

— مدهش .

فابتسم قائلا :

— شكرا .

ثم قال :

— ما اسمك ؟

— إيفا .

— من أين ؟

— من النمسا .

فقال فى دهش :

— من النمسا ؟ ما كان ذلك يخطر لنا على بال .

فقالت فى مرارة :

— كنت أعمل فى فرقة فنية خارج بلادى لما دهمها النازى ، وقد قررنا أنا

وزملائى ألا نعود إلى الوطن وهو فى محنته ، فجعلنا نجوب العالم الحر .

وصمتت قليلا ، ثم غمغمت في سخرية :

— العالم الحر !

وأحس الأسى في نبراتها ، قال في حنان :

— قاسيت كثيرا ؟

— لو أنني أعيش على أمل العودة إلى بلادى يوما بعد أن تتحرر ، لمت

كمدا ، كم هي قاسية هذه الحياة التي نحياها !

— وماذا تعملين في الفرقة ؟

— أغنى للمخمورين .

— لست راضية عن حياتك ؟

— وهل لرضاي أو تدمري وزن !!

وصمتت قليلا ثم قالت :

— آسفة ، ما كان لي أن أحملك همومي ، إنني متعبة قليلا فنطق لسانى بما

يتوهمه خيالى من قسوة الحياة ، إننى جحود ، كان على أن أشكر قدرى لما أنا

فيه من عافية . من يدري ماذا جرى لأترابى فى الوطن ؟ ماذا فعل بهن جنود

الغزاة ؟ إننى أضيق هنا بسخافات السكارى ، وأنا قادرة على دفعهن بعيدا

عنى . ترى ماذا فعل جنود النازى بهن .. أوه لماذا أقص عليك هذا وما تزال

شابا صغيرا من حقلك أن تصغى إلى أهاليج الحب وأياشيد الغرام .

فابتسم قائلا :

— عندنا مثل عربى يقول : لا بد للشهد من إبر النحل ، إننى على

الاستعداد للإصغاء إلى متاعبك وما قاسيت من أهوال ، وأن أمسح ما فى

صدرك من هموم ، على أن أنعم بأنشودة حب تغنيها لى وحدى .

فنظرت إليه وفى عينيها مولد بسمه وقالت :

— أجمل ما فى الشباب إقدامه .

فقال وهو يدور بها فى رشاقة :

— شكرا .

— وعلام الشكر ؟

— لأنك لم تقولى : أجمل ما فى الشباب تهوره .

فقال وقد رقت على شفتيها بسمه صافية :

— يصف الشيوخ إقدام الشباب بالتهور غيرة وحسدا ، ولم أبلغ مرتبة الشيوخ بعد .

وصممت الموسيقى ، وعاد الراقصون إلى موائلهم ، وسار حلمى إلى جوار إيفا حتى بلغت مكانها ، وجلست وظل هو واقفا يرنو إليها ، فقالت له :
— تفضل ، إذا لم يكن بعدك عن أصدقائك يضايقهم .
فقال وهو يجلس :

— إننى مع أصدقائى دائما ، وإنه لما يدخل السرور إلى قلوبهم أن أسعد بهذه اللحظات التى قلما يجود بها الزمن .

وراح ينظر إلى أصدقائه فألفاهم يرمونه بنظرات كلها حسد ، فابتسم راضيا ، وأقبل على إيفا يحادثها ، قال لها :

— ستجرب الليلة مباراة فى الرقص ، فما رأيك فى أن نجرب حظنا معا ؟
وكان لوقع « نجرب حظنا معا » فى أذنيها جرس جميل ، فتهللت أساريرها وقالت :

— لا بأس ، نجرب حظنا معا .

ووقف فى وسط حلقة الرقص رجل يرتدى بذلة سوداء ، وقميصا أبيض ، ورباط عنق على شكل فراشة سوداء ، ورفع يديه وأعلن بالفرنسية ثم بالإنجليزية بدء المباراة ، وأشار للأوركسترا بيده ، فانبعث الأنغام ودوى المكان بالتصفيق .

وسار الرجال والنساء اثنين اثنين إلى الحلقة ، ونهض حلمى وإيفا يجربان حظهما معا ، وكانت حلقة الرقص غاصة بالراقصين والراقصات ، وكان

أغلبهن من السكر يترنخ .

وراح حلمى وإيفا يجوسان خلال الحشد فى رشاقة الغزلان ، ويدوران فى خفة الأطياف ، بينما كانت أجساد الآخرين فى شد وجذب واحتكاك وارتطام . وارتفعت الموسيقى ، وحسمى وطيس الرقص ، ودب التعب فى الأجسام التى أنهكها الشراب ، فراح بعض المتبارين ينسحبون زوجا إثر زوج ، وخف الزحام فى الحلقة ، فراح الراقصون يعرضون فنون رشاقتهم ، ويتميلون تمايل الأغصان فى توافق وانسجام .

وبرز حلمى وإيفا ، وضابط فرنسى وصاحبه التى كانت فى لون الشيكولاتة ، وطيار بريطانى وزميلته وكانت من فتيات الترفيه اللاتى يرتدين ثياب الوحدة التى يعملن بها : كانت ترتدى « السيرج » الأزرق ، وكانت رائعة وهى تهز أردافها فى مرح .

وحيت المنافسة بينهم ، وأخذت إيفا تبتعد عن حلمى وتدنو منه على أنغام الموسيقى وكل مفاتن جسدها تهتز فى حيوية وإغراء حتى أن العيون كلها تعلقت بها ، وأخذت الفتاة السمراء التى تصاحب الفرنسى تعرض كل فنونها ومهارتها ، وراحت فتاة الترفيه تهز صدرها وأردافها كأنما كانت ترقص رقصة شرقية .

واشتدت الموسيقى وخفتت الأصوات ، ولم يعد يسمع إلا وقع الأقدام ، وراح أصدقاء حلمى يرقبونه وقد اتسعت عيونهم ، وانبهرت أنفاسهم ، فقد كانوا يرصدون كل ما يجرى أمامهم بأعصابهم . وأحس الطيار البريطانى أنه سينهار ، فجذب زميلته من يدها ، وانسحب من الحلقة ، فلم يبق بها إلا حلمى وإيفا ، والضابط الفرنسى وصاحبه التى كانت فى لون الشيكولاتة . واستعرت المنافسة ، واشتعل لهيبها ، فقد كان كل منهم يرى قطوف النصر دانية فتشجذ عزمته ، ويزداد إصرار على نيل الفخار ، وراح كل زوج ينثر كل ما فى جعبته من إثارة وفن وإغراء .

(الحصاد)

وظلوا يرقصون فى عناد ، وعرض الفرنسى وصاحبه رشاقة رقصهما ،
وراح حلمى وإيفا يدوران ويدوران ، ما تكاد أرجلهما تلمس الأرض حتى
ترتفع ، لكأنهما يسبحان فى الفضاء . وصفق أصحاب حلمى فى حماس ، وإذا
بالمكان يدوى بالتصفيق ، ووقف الفرنسى وصاحبه يرقبان حلمى وإيفا وهما
يبتسمان ، وإن كانت سحب الحسد تعكر صفو عيونهما .
وقدمت الكأس لحلمى وإيفا بين الهتاف والتصفيق ، وأعطى حلمى الكأس
لإيفا وهو يهمس :

— إنها من نصيبك ، فالفضل لجمالك .

فقالت بصوت مثدج ، فيه رنة فرح :

— شكرا . شكرا .

وعادا إلى مقعدهما وهو يقول لها :

— هذا أول رباط بيننا ، سأمر عليك غدا ..

وقبل أن ينتهى من حديثه ، انقض عليه أصحابه يهتفونه ويقبلونه ويضمونه

إلى صدورهم فى فرح ، وقال الثائر دائما :

— لو فاز عليك البريطانى لمت حزنا .

وجلسوا يشربون احتفالا بنصر الليلة ، ويتبادلون النكات بالعربية

ويضحكون من أعماق قلوبهم ، وإيفا تنظر إليهم دون أن تفقه مما يقولون

شيئا ، ولكنها كانت مسرورة ، فقد استشعرت سعادة حققة لأول مرة .

وراح سمار الليل ينسلون من المكان وهم يترنحون ، وقامت إيفا مستأذنة

وصافحت حلمى وهى تشكره على الليلة الطيبة ، كانت كلماتها رقيقة عذبة ،

ولكن البريق الذى التمع فى عينها كان أكثر رقة وعذوبة ، وأعمق معنى ودلالة .

ونهض الرفاق الأربعة منصرفين ، وما إن غادروا الملهى حتى ألقوا الظلام

ناشرا جناحيه على الكون ، فقد كانت ليلة تكاثفت فيها السحب حتى حجبت

نجوم السماء ، ونامت الأصوات إلا أصوات السيارات وفهقهات المخمورين ،

وضحكات بائعات الهوى .

ووقف الثائر دائما ينظر وإذا بفكرة تقفز إلى رأسه يرتاح إليها ، فالتفت إلى حلمى وقال له :

— سأسير فى هذا الطريق على قدمى ، سر بالسيارة إلى جوارى .

— ماذا ستفعل ؟

— سترون .

وسار وساروا إلى جواره ، ولحق بريطانى يلف ذراعه حول خصر فتاة ، فجمع قبضة يده ، وسدد إلى وجه البريطاني ضربة أودعها كل حقهده ، ولم ينتظر ليرى البريطاني وهو يتدحرج على الأرض ، بل أغذ السير حتى لحق بآخر فسدد إلى فكه ضربة قاضية ثم جرى حتى لحق بثالث يخاصر فتاة ، فضربه بقدمه فى ساقيه فإذا بالجندى يسقط ، ودفع الفتاة بيده فسقطت فوقه ، وجرى إلى السيارة وقفز إليها ، ثم دخل واندفع حلمى كالريح وهو يضحك ، وزفر الثائر دائما فى راحة وهو يقول :

— الآن أستطيع أن أنام وأنا مرتاح الضمير .

٦

هبت أمينة هانم من فراشها مفزوعة على صوت صفارة الإنذار ، وراحت تردد فى رعب :

— غارة .. غارة .

وصاح الباشا وهو يدس رجله فى « الشبشب » ويضع الروب على كتفيه :

— أطفئوا النور .

وهرولت الأم ، على بصيص النور الخافت المنبعث من مصباح طلى

بالأزرق ، إلى غرفة حلمى وصوت الباشا يلاحقها :

— قلت أطفئوا النور .

وألفت الأم ابنها يغط فى النوم ، لم يسمع الصفارة ، ولم ينخلع لها قلبه ، فطفقت تهزه فى رفق وتقول فى صوت خافت فيه رنة فزع :

— حلمى ! غارة . حلمى غارة .

فتقلب فى ملل وقال :

— بالله يا أمى دعينى أنام .

وتناولت الروب من مشجب قريب وقبل أن تعود لهرز ابنها ، اهتزت الجدران وتتابع الانفجارات ، واختلطت أصوات القنابل بأصوات المدافع المضادة التى كانت تطلق قذائفها من كل مكان ، فهب حلمى من نومه وهو مرعوب ، يحس قلبه يغوص فى قدميه .

وراح الباشا والأم والابن يتسابقون فى الدرج إلى الخبأ ، الأم تردد دون وعى : « يا لطيف .. يا لطيف .. يا لطيف » والباشا يقرأ : « الله لا إله إلا هو الحى القيوم .. » وحلمى يقول فى ضيق : الله يلعنهم كان النوم للذيذا . وبلغوا مدخل الخبأ ، فوجدوا البواب يتطلع إلى السماء فى فرح ، ويقول فى ابتهاج :

— اضرب . اضرب يا حاج هتلر .

وسمعه الباشا ، فصاح فيه بعد أن دخل الخبأ :

— ادخل يا مجنون .

وجلست أمينة هائم فى ركن من الخبأ ، لا تنبس بكلمة ، وإن أرهفت حواسها ، بفزعها ديب التمل . وراح الباشا يغدو ويروح فى الخبأ ، كأسد حبس فى قفص ، وحمل حلمى رأسه بيديه وأخذ يقاوم النوم الذى يداعب عينيه .

ودوت قنبلة دويا هائلا ، فقال البواب فى فرح :

— هذه فى العباسية فى « الأورنس » .

ورفع رأسه إلى سقف الخبأ وقال .

— الله يحميك .

وصاح الباشا فيه :

— اسكت .

وصمت البواب ، وساد السكون برهة ، وضايق أمينة هانم الصمت المخيم على المكان ، وتمنت أن يتكلم أحد ليشق هذا الصمت الذى يرهقها ، والتفت البواب إلى حلمى وقال :

— يقولون إن فتيات ألمانيات يشتركن فى هذه الغارات . آه لو كان ذلك صحيحا ، لكان فيه عار الإنجليز .

وابتسم حلمى وقال :

— وما العار فى ذلك ؟

فقال البواب فى استغراب :

— وهل هناك عار بعد ضرب النسوة لهم !

وقال الباشا فى ضيق :

— والله لا أفهم منطق الذين يطالبون بأن يزجوا بنا فى هذه الحرب . إننا لم نشترك فيها ، وعلى الرغم من ذلك نضرب كل ليلة ، ونفر إلى الجحور كالأرانب .

وقال البواب فى إنكار :

— أنحارب مع الإنجليز ؟ هذه خيانة .

فقال له الباشا فى ضيق :

— اسكت أو اخرج من هنا .

وأحس البواب أن كرامته جرحت ، فانسёл خارجا من الخبأ ، ليصيح فى حرية :

— اضرب .. اضرب .

وتتابعت الانفجارات ، وصاحت أمينة هائم في خوف :
— والله لا أبيت هنا بعد الليلة ، سأذهب إلى العزبة ، أعصابي تلفت إننا
نموت كل ليلة .

وطار النوم من عيني حلمي ، وراح ذهنه يعمل في سرعة ، إن سفر أمه
وأبيه إلى العزبة معناه أن يصبح البيت له ولإيفا ، إنه يقضي الآن معها بعض
ساعات ثم يضطر لمغادرتها ، أما إذا هاجر أبوه وأمّه كما هاجر كل من خاف على
نفسه . فسينعم بقرب إيفا ، ويشرب ككوس الوصال مترعة دون أن يخشى
رقبها .

ولم يشأ أن تضيع هذه الفرصة التي سنحت فقال :

— كان علينا أن نهجر إلى العزبة من مدة طويلة .

فقالت الأم في رقة :

— والله ما منعني من الهجرة إلا أنت ، فكيف يغمض لي جفن هناك وأنت

هنا عرضة للقنابل الغادرة ؟

فأراد أن يهون الأمر عليها فقال :

— إننا في نهاية السنة ، أسافر معكم وأستذكر دروسي هناك ، ثم أعود في

أيام الامتحان .

ونظر إليه أبوه في إنكار ، كان على الامتحان أسابيع كثيرة ، وما كان حلمي

صادقا فيما قال ، ولكن الباشا لزم الصمت ، فقد حسب أن ابنه قد كذب

ليبعد أمه عن مواطن الخطر .

واستراحت الأم لقول ابنها ، فقالت في إصرار :

— غدا صباحا نسافر .

فقال لها الباشا :

— غدا صباحا نسافر .

وأطلقت زمارة الأمان ، وأضيئت الأنوار ، وخرج الباشا من الخبأ وفي أثره زوجهم وابنه ، وراحوا يصعدون في الدرج ، وما إن بلغوا الطبقة الثانية حتى قالت أمينة هانم :

— ما رأيك يا باشا في دعوة عبد الخالق وزوجته ليسافرا غدا معنا ؟

فقال الباشا في فتور :

— لا بأس . غدا أحادثهما .

— من الأفضل يا باشا أن تحادثهما الآن ليستعدا .

ورفع الباشا سماعة التليفون ، وراح يطلب ابنه ، وقال :

— آلو .. عبد الخالق ! قررنا أن نسافر غدا إلى العزبة . تعال معنا .. لا ..

لا .. لم يعد هنا أمان بعد كل هذه الغارات .

وراحت أمينة هانم تقول لزوجها :

— قل له أن يحضر إلهام معها .

فقال الباشا :

— وقل لبشينة أن تحضر إلهام معها .. سنسافر في التاسعة .. ستلحق بنا

هناك ؟ لا بأس .

واندس حلمى في الفراش وراح يفكر في الطريقة التي يتخلص بها من الخدم

ومن البواب ، ليخلو له الجو هو وإيفا الحسناء .

٧

كانت سراى الباشا في العزبة لا تقل روعة عن السرايات المنتشرة في جاردن سيتي ، كانت من طبقتين في لون الرماد ، وكانت في الطبقة العليا شرفة فخمة ، فوق المدرج الرخامي الكبير الذى يقود إلى المدخل الرئيسى ، وكان عن يمين السراى فيلا بنيت حديثا ، وأعدت لاستقبال الزوار ، وحول السراى

والفيلا سور يضم فناء واسعا وقفت فيه ثلاث سيارات فاخرة ، وقامت في وسطه شجرة ضخمة ، وزرعت حوله أشجار الجزورينا .

وكان في السور بوابة كبيرة ، عن يمين الداخل منها مكتب الباشا ، وعن يساره مكتب عثمان ، وكان عثمان يستعمل مكتب الباشا طالما كان الباشا غائبا عن العزبة ، أما إذا كان الباشا حاضرا ، فإن عثمان يقبع في مكتبه ، عاكفا على عمله ، دون أن يرتفع له صوت ، أو يسمع له أمر ، أو يمارس أى سلطان . ونزل الباشا والهائم وحلمى في السراى ، ونزل عبد الخالق وبثينة وإلهام في الفيلا على الرغم من إلحاح أمينة هائم وإصرارها على أن ينزلوا في الطيقة الثانية معهم .

وتمدد عبد الخالق في السرير من عناء السفر ، وجلست بثينة وإلهام في شرفة تطل على الأرض الخضراء الممتدة إلى الأفق البعيد ، وراحت بثينة تزجى نصائحها لإلهام :

— إني أعرف أن أمينة هائم لا تحبني ، إني زوجة ابن زوجها ، فكيف تحبني ؟ إني مضطرة إلى ذلك حتى لا تسفر عن عدائها ، إني أتحمل كثيرا لأبقى الخيط الرفيع الذى يربط بيني وبين الباشا ، أتعرفين لماذا ؟ فقالت إلهام في تبرم :

— أعرف ، فقد سمعت ذلك منك طوال الستين الثلاث التى انقضت ، تتحملين ذلك من أجل ، من أجل أنا ، ليتزوجني حلمى ، ولقد قلت لك مرارا ، إني أحب بدر الدين ، ولن أتزوج غيره ، لقد شق طريقه وفتح مكتبا ، وأصبح يستطيع أن يكون أسرة .

— سينال حلمى الليسانس هذه السنة ، وبعدها سيتزوج ، وليس أمامه إلا أنت . إن كل شيء يتوقف عليك : تودد إلى أمينة هائم ، وبعض كلمات الثناء تثرينها على الباشا ، وتطويق حلمى بذراعيك ، ثم تصبح هذه الأرض كلها لى ولك ، هذه الأرض التى تمتد لتصبح ألف فدان .

فقلت لإلهام في تبرم :

— سواء تزوجنى حلمى أم لم يتزوجنى فنصف هذه الأرض لك ، فما الذى يدفعك إلى هذا الإصرار والتشبث بإتمام هذا الزواج ، وإن لم تكن فيه سعادتى ؟

— لأنك أختى ، ولأننى واثقة أن أموال هذه الأسرة ستسعدنا ، ولأننى أريد أن يكون زوج أختى كفى لنا .

فثارت إلهام وقالت :

— بدر الدين كفاء ليصاهر أعرق الأسرات ، إنه مهندس ناجح . يعتمد على ساعده ، ويشق طريقه بمنكبيه .

ولمحت بثينة حلمى وهو يهبط إلى الفناء الواسع ، فقلت لإلهام وهى تنهض :

— هيا نتمشى قليلا .

وهبطتا صامتتين ، وكان عثمان أول من قابلهما ، فقال وهو يتسهم وينحنى فى أدب :

— صباح الخير .

فقلت بثينة دون أن تلتفت إليه :

— صباح النور .

وظل عثمان يتسهم ، وإن كان يحس إحساس الملك الذى نزل الغزاة بأرضه ، غشيه الانكسار وكساه الدل ، وتضاءلت نفسه ، وأيقظ نزول الأسرة المفاجئ فى العزبة مخاوفه ، فحلمى لم تعد بينه وبين التخرج إلا شهور قليلة ، فماذا هو فاعل لو استقر حلمى فى العزبة يباشر أعمال والده ؟ إن ذلك إيذان بزوال سلطانه . فراح يعمل فكره ليدرك ذلك الخطر الداهم ، الذى يزلزل كيانه ويقوض استقراره ، ويدك قصور الأمانى التى تتراءى له فى أفق مستقبله المتألق بالإشراق .

كان له غريمان : عبد الخالق وحلمى ، وقد تمكن مرة من إقصاء عبد الخالق ، وهو قادر على أن يقصيه مرات ، فالباشا لا يثق فيه ، أما إقصاء حلمى فيحتاج إلى دهاء ، وتغليف ذلك بغلاف الغيرة على تحقيق ما فيه مصلحة الفتى الحبيب ، وأطلق لفكره العنان .

ولمحت بثينة حلمى وهو فى طريقه إلى البوابة ، فنادت :
— حلمى ! إلى أين ؟

فالتفت حلمى وقال :

— أدور بالسيارة حول أرض الباشا .

ف قالت بثينة وقد أمسكت بيد إلهام :

— انتظر ، سنأتى معك .

وانتظروهما حتى إذا لحقتا به ساروا إلى سيارة فورد ، كانت تستخدم فى المرور . وركب حلمى خلف عجلة القيادة ، وركبت إلهام إلى جواره ، ووقفت بثينة تتظاهر بالتردد ، ثم قالت :

— إننى لم أسلم على ماما بعد ، اذهبا أنتما وسأنتظركما فى البيت .

ورفعت يدها وجعلت تهزها وتقول وعلى شفقتها بسمة واسعة :

— مع السلامة .

وانطلقت السيارة ، وقد تدسست إلى صدر بثينة نشوة النصر .

وخلع حلمى قبعته ووضعها على رأس إلهام وهو يقول :

— الشمس حامية اليوم .

— متشكرة .

واستأنف ما كان فيه ، قال :

— قطعة الأرض هذه ثلاثمائة فدان ، إنها أول أرض ملكها الباشا ، إنها

أحب ملكه إلى قلبه ، وإنه كلما مربها يقف عندها مدة ويحيل بصره فيها والحب

يترقرق فى عينيه ، فقد باتت قطعة من نفسه .

وسارت السيارة فى الأرض الطيبة التى تشققها قنوات تبدو فى الشمس كجداول من الجين ، وقامت فيها أشجار تحمل ثمارا خضراء وصفراء ، وامتدت العرائش وتدلت عناقيد العنب ، وتنفس الكون بالحياة ، فقال حلمى فى زهو :

— آه لو رأيت هذه الأرض وهى قاحلة قبل أن تمسها يد الباشا السحرية ، لما صدقت عينيك .

ولاحت على البعد مبان بيضاء ، فقال حلمى :
— وهذه القرية بناها الباشا للفلاحين ، وهذه معذنة المسجد الذى سيفتتحه قريبا .

وانطلقت السيارة ، والتصق كتف حلمى بكتف إلهام ، ومرر يده على يدها مرة ، ولف ذراعه حولها ، ولكنه لم يجد منها تشجيعا ، فنظر إلى المحارث الميكانيكية التى كانت تحرث الأرض ، وقال :

— الباشا يستخدم أحدث الآلات الزراعية فى أرضه : المحارث .. الدراسات .. المضخات ، ومع ذلك يعنى بالحيوان عناية فائقة ، تعالى نشاهد الحظائر

واتجهت السيارة إلى الحظائر وهبطا معا ، وراح حلمى يروى تاريخ كل بهيمة وعلاقة الباشا بها ، وكانت إلهام تصغى ، وقلما كانت تنفوه بكلمة . وانتهى الطواف ، وعاد حلمى وإلهام وذهبا إلى حيث كانت بهينة وأمينة هانم ، وما إن وقعت عينا أمينة هانم عليها ، حتى انفرجت شفتاها عن بسملة ود صادق ، وقالت فى ترحيب :

— أهلا وسهلا .

وأقبلت على إلهام تحادثها وتتلطف معها ، وكانت صادقة فى كل مشاعرها التى كانت تترجم عنها بكلمات رقيقة قلما كانت تخرج من بين شفتيها ، فقد كان قلبها يتفتح لإلهام ، ولو كان الأمر لها وحدها لخطبتها فى هذه اللحظة

لابنها .

وسأل حلمى :

— أين بابا ؟

فقالت أمينة هانم وهى ترنو إليه فى وله :

— ذهب إلى المكتب يا حبيبى .

واستأذن حلمى للحاق بأبيه ، ووجدت بثينة أنه لم يعد هناك جدوى من

المكث مع أمينة هانم ، فقامت مستأذنة وانصرفت لتسمع من إلهام ما جرى بينها

وبين حلمى ، وليطمئن قلبها ..

وانفردت بثينة بإلهام فقالت لها فى لهفة :

— أنبئنى بكل ما جرى .

فقالت إلهام فى هدوء :

— أخبرك بحقيقة ما شعرت به دون أن تغضبى ؟

— قولى .

فقالت إلهام وقد اتهمت عيناها بيريقي خاطف :

— كنت أفكر فى بدر الدين وحلمى إلى جانبى

فهبت بثينة وقالت فى ثورة .

— أنت مجنونة .

وقالت إلهام دون أن تأبه لغضب أختها :

— عرفت اليوم فقط ما كنت أقرؤه وأعجب به ، وإن كنت لا أتعمق

حقيقة معناه ، إن من يملك شيئا يصبح عبداً لذلك الشيء ، أما الذى لا يملك

شيئا فهو يملك كل شيء ، إن الباشا وأولاده يملكون هذه الأرض ، إنها كل

دنياهم ، إنها تشدهم إليها ، وتربطهم بها ، لا يستطيعون فكاًكا ، أما الذين

لا يملكون شيئا ، فالسما والنجوم والكواكب والبحار والأنهار وأرض الله

الواسعة وكل ما فى الكون من خيرات ملك لهم ، ملكهم فسيح لا يحده ..

فقالت بثينة في حلق :
— كفى ! كفى !. أفسدتك الروايات التي تقرئينها .

— بل قولي حررتني ، ما الذي يعجبك في حلمي هذا ، إنه لا شيء ، آله
تتغنى بمحاسن الباشا وتسبح بحمده .

ثم تقول مقلدة صوت حلمي :

— هذه أرض الباشا .. هذه القرية بناها الباشا .. آه لو رأيت هذه الأرض
قبل أن تلمسها يد الباشا ، إنه لم يفعل شيئا ، كل مؤهلاته أنه ابن الباشا ، إن
اللوحه التي يخطها بدر الدين بعرقه وجهده أشرف عندي من كل هذه الأرض
لو آلت إلى حلمي بعد موت أبيه .

فأمسكت بثينة رأسها بيدها وقالت :

— رأسي يدور ، إنني لا أصدق أن فتاة ترفض هذا التعميم ، إنني أشك في
عقلك .

فقالت إلهام في استخفاف :

— ولا غرابة في ذلك ، فأنت مثلهم أسيرة هذه الأرض . كبلتك بالقيود .
إنك تريد أن تمارا بلا تعب ، أما أنا فإنني أمقت أن أجنى دون كفاح ومشاركة
في الجهود . لو كان حلمي كالباشا قبل أن يثرى ، وكان فيه ما كان في الباشا من
حب الكفاح لقبلة مسرورة ، أما حلمي هذا الذي يعيش على أمل موت أبيه
ليشعر بكيانه واستقلاله ، فإنني أرفضه ، أرفضه دون تردد أو تفكير .

فقالت بثينة في حلق :

— هذه ثورة الشباب ، لقد طافت كل هذه الأفكار برعوسنا قبل أن تطوف
برأسك ، ولكن الأيام أخذتها .

— ستؤجج الأيام نار ثورقي اندلاعا .

فقالت بثينة في تحد :

— الأيام بيننا وسنرى .

ودخل عبد الخالق عليهما ، فلزمت الأختان الصمت ، وإن كانت كل منهما تفكر في ذلك النقاش الذى احتدم بينهما .

٨

جلس الباشا فى مكتبه فى العزبة وقد ارتدى ثيابه البلدية ، ووقف عثمان إلى جواره ، يهمس فى أذنه كعادته ، راح يفضى إليه بأنباء الزراعة والمحلىج والبورصة . ولما انتهى من سرد كل ما يتعلق بعمله ، راح يوسوس للباشا بأخبار ولديه ، وكان الباشا يصيخ سمعه لكل من يحدثه عنهما . يرتاح لسماع القدرح فى عبد الخالق ، ويشرح صدره المديح الذى يكال حلمى بغير حساب ، وكان عثمان أدرى الناس بهواه ، فكان ينقل إليه كل ما يرتاح إليه .

راح عثمان يهمس فى أذنه :

— طاف حلمى بالأمس بالأرض وكانت معه إلهام .

وصمت قليلا ثم قال :

— أظن ، وبعض الظن إثم ، أن بثينة تلعب لعبتها .

وظل الباشا صامتا ، وإن لاح فى وجهه الاهتمام ، واستمر عثمان فى وسوسته

قال :

— إنها تحاول أن يقع حلمى فى الفخ ، وأن يتزوج من إلهام .. معذورة ،

حلمى صيد سمين .

وتنهى ثم قال :

— لو كان لى بنت تمنيت أن تفقأ لى عين ويتزوجها حلمى ، حلمى زين

الشباب .

ونظر إليه الباشا وقد انبسطت أساريره وقال :

— وما رأيك أنت ؟

ووجد عثمان الفرصة سانحة ليدس في رأس الباشا الفكرة التي ستبعد حلمي من طريقه ، فقال في رقة :

— أمنيته أن أرى حلمي دكتورا .

فقال الباشا في استغراب :

— دكتور ؟ كيف ؟

فقال عثمان في ابتهاج ، فقد أثار اقتراحه اهتمام الباشا :

— سينال حلمي الليسانس بإذن الله بعد أشهر ، فلو أنه كان قد بلغ الثلاثين لرشحناه في الانتخابات ليكون نائبا ، ولكنه لا يزال صغيرا ، نرسله إلى الخارج ليحصل على الدكتوراة .

فقال الباشا وهو مطرق يفكر :

— كيف نرسله إلى الخارج والحرب مشتعلة ، والمواصلات مقطوعة ، والخطر يخلق فوق الرؤوس :

— لن تستمر الحرب إلى الأبد . ستضع أوزارها يوما .

— من رأيي أن نزوجه بعد أن يتخرج ، ولما تنتهى الحرب نرسله هو وزوجته إلى الخارج .

— نرسله إلى إنجلترا ؟

فقال الباشا وهو يهز رأسه :

— من يدري لمن تكون الغلبة ، سياسة الملك بنيت على احتمال انتصار الألمان .

فقال عثمان في استسلام :

— من نعرفه خير ممن لا نعرفه ، إننى لا أستطيع أن أتصور حالة البلاد إذا دخلها الألمان .

فقال الباشا وقد شرد ببصره :

— ستكون جرائب وأنقاضا وأكواما من التراب .

ثم مد بصره إلى أرضه الخضراء الممتدة إلى مدى البصر ، وقال في حرارة :
— اللهم احفظنا .

وضايقه الخوض في هذا الحديث الذى يحرك مواجعه ، فقال ليوجهه وجهة
أخرى :

— إذا أردنا أن نزوج حلمى ، فمن أى أسرة نختار ؟
فقال عثمان فى حماسة :

— لو كان لرفعة الباشا ابنة لاخترناها لحلمى ، ولكن ليس لرفعة الباشا
ولد ، ليته لم يؤخر زواجه .

فقال الباشا وهو يزفر فى ضيق :

— ليته تزوج فى شبابه أو ليته لم يتزوج .
وراح عثمان يردد مفكرا :

— من أى أسرة يتزوج ؟ من أى أسرة يتزوج ؟

ونبتت فى رأس الباشا فكرة ، ورأى أن ينهى هذا الحديث ، فقال :
— ربنا يقدم ما فيه الخير .

وفهم عثمان أن الباشا قد أغلق هذا الموضوع ، فتظاهر بأنه يتأهب
للانصراف ، ثم التقم أذن الباشا كأنما قد تذكر شيئا هاما كان غاب عنه ، وراح
يقول :

— اتصل عبد الخالق أمس بالإسكندرية .

وهز رأسه أسى ثم قال :

— مسكين عبد الخالق ، سيء الحظ .

فقال الباشا وهو يتطلع إليه :

— خسر ثانية !؟

— تصور يا سعادة الباشا أنه باع فى نفس اليوم الذى بعنا فيه ، ولكنه باع

بعدنا ببضع ساعات ، فكسبنا نحن وخسر هو خسارة جسيمة ، إنه سيء

الحظ .

فقال الباشا في ثورة :

— لا تظلم الحظ ، إنه أكبر مغفل ، قلت له أكثر من مرة لا تضارب أبدا ، ولكنه لم يسمع لنصحي ، إنه سيفلس ، سيفلس من غير شك .. أين هذا الحمار ؟

فقال عثمان متظاهرا بالإشفاق عليه :

— كفاه يا باشا ما هو فيه من نكد . مسكين ابن عمي ، حظه عاثر .

فصاح الباشا قائلا :

— حظ .. حظ ، لو كانت المسألة مسألة حظ لكسب مرة وخسر مرة ، ولكنه يخسر دائما ، اذكر لي مرة واحدة كسب فيها . إن أمواله تنبخر .
— ويقال يا باشا إنه على الرغم من خسائره هذه ينفق بغير حساب . بيته متددى للمطربين والممثلين والممثلات ، والخمر تجري أنهارا في لياليه الحمراء ، ويقال — وما أكثر ما يقول أولاد الحرام — إن كل لياليه حمراء .

فهز الباشا رأسه في أسى وقال :

— صدق رسول الله ، قال : (تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس) إنه لأخواله ، إنه مثلهم مبذر متلاف لا يعتمد عليه : لم يأخذ مني شيئا .. لم يأخذ مني شيئا .

فقال عثمان متملقا :

— لو أخذ عنك يا عمي بعض خصالك ، لكان اليوم من أعظم رجال هذا العصر ، فقد كانت ظروفه خيرا من ظروفك .

فراح الباشا يقارن بين نفسه وبين ابنه . وما كانت نبراته مشوبة بأسى ، بل فيها

رنة فخر ، قال :

— تعلمت في الأزهر وتعلم في الجامعة ، كونت نفسي بكدي وعرق ، ولما شب هو وجد كل شيء ممهدا ، شققت طريقى في الصخور ، ووجد (الحصاد)

طريقه مفروشا بالورود ، رحت أرقى سلم المجتمع درجة درجة ، وحمل الثقل الذى أحمله يكاد ينقض ظهرى ، وفتح هو عينيه فوجد نفسه يتنسم الذروة ماذا كان يريد أكثر من هذا لينجح ؟

وتأهب عثمان ليقول إنه كانت تنقصه الزوجة الصالحة ، ثم يعرج على بثينة يأكل لحمها وهو يستغفر الله مرات ، وكان يستهدف من ذلك هدفين : إيفار صدر عمه على عبد الخالق وزوجه ، وإشباع لذته التى يستشعرها كلما لآك سيرة الناس ، ولكن حلمى دخل الغرفة مرتديا كامل ثيابه ، فاضطر عثمان أن ينسل من المكان ، ويخلى بين الباشا وابنه .

قال حلمى وهو يدنو من أبيه :

— جئت أستاذن فى السفر إلى القاهرة ، لأننى لا أستطيع أن أبتعد عن الجامعة طوال المدة الباقية على نهاية السنة .

فقال له الباشا وهو ينهض :

— ألم تقل إنك ستستذكر دروسك هنا ، ولن تذهب إلا أيام الامتحان ؟ فقال الطالب الراقص :

— (تمبو) التدريس يرتفع فى نهاية السنة دائما ، إننى فى حاجة إلى محاضرات الأساتذة الأخيرة .

وابتسم ، لا لأن الباشا انبسطت أساريه ، بل لأن صورة إيفا احتلت رأسه ، ولف الباشا ذراعه حول عنقه وقال :

— ستأتى كل يوم بعد انتهاء المحاضرات لتبيت هنا .

— المسافة طويلة ، وفى السفر فى الصباح والعودة فى المساء إرهاق يضيع علىّ فائدة المحاضرات وفرص الاستذكار .

وقال الباشا فى إشفاق :

— ومع من ستبيت ؟

— مع أصدقائى .

وابتسم قائلا :

— لن أكون فى القاهرة وحدى .

وسارا نحو الباب ، وقال الباشا :

— هل تعلم أملك أنك ستبيت فى القاهرة ؟

— لم أقل لها .

— لماذا ؟

— لأننى أعلم أن أية كلمة منك ستريحها ، إنها توافق دائما على كل ما توافق

عليه ، وترضى بما ترضى به .

فقال الأب منشرحاً :

— إنها تطيعنى فى كل شئ ، وترضى عن كل ما أقول ، إلا فيما يتعلق بك .

فقال حلمى وهو يتجه إلى سيارته الواقعة فى الفناء الواسع الذى تطل عليه

السراى والفيلا :

— إنها تطيعك حتى فيما يتعلق بى وبنفسها .

وانطلقت السيارة ، والباشا يرمقها فى حب .



راحت السيارة تشق طريقها فى الظلام فى حرص شديد . وقد أرهفت

حواس حلمى واتسعت عيناه ، كان يخشى أن يرتطم فى عمود ، أو يصطدم

بسيارة ، أو يرتكب مخالفة تضطره إلى الذهاب إلى الشرطة ، فيتكشف أمره

قبل أن يسعد بالمتع التى عاشها بخياله قبل أن يحققها واقعه الذى ينتظره .

والتصقت إيفا به ، وظلت صامتة تنعم بالمشاعر اللذيذة المعتملة بين

حناياها ، كانت تحس أننا وراحة واستقراراً ، وزاد فى غبطتها أن انقشعت

منابت القلق التى تفور دوماً فى أعماقها فوران حبيبات المياه الغازية .

وقال حلمى دون أن ينظر إليها :

— ليت المحور يحترم صفاء ليلتنا .

فقالَت إيفا وهى تزداد به التصاقا :

— ستخفق جميع قتابل المحور فى زعزعة الأمن الذى أحسه الليلة ، وجودنا إلى جوار من نحب يشرح الصدر وينزل بالقلوب سكينَة ودعة ، السلام لا يمكن أن يأتى من الخارج ، إنه ينبعث من دأخلنا .

وكانت صادقة فى الترجمة عن إحساساتها ، لم تزدهر مشاعرها مذ غادرت بلادها إلا بعد أن قابلت حلمى ، عرف قلبها البهجة بعد طول الأسى ، والتفريد بعد النواح ، كانت ترقب غدها فى اضطراب ، فأصبحت تعيش يومها فى نشوة محبة .

ودلفت السيارة إلى جاردن سيتى ، ووقفت أمام سراى الباشا ، وقفز حلمى فى رشاقة وأسرع يفتح لها باب السيارة ، فهبطت فى رقة الطيف ، وانطلقت إلى جواره تجتاز الباب الخارجى الكبير .

وراحت ترقى فى الدرج وهى تحس إحساس الهائم فى حلم لذيذ ، كان الضوء الخافت الأزرق ينعكس على الرخام ، فيبدو كموج متكسر ، أو كتقوارير ممردة مزجت بفضة ومدت فيها عروق من ذهب .

وبلغا باب السراى الداخلى ، فوضع حلمى المفتاح وأداره ، ودفع الباب فى رفق ، وأضاء الكهرباء ، ولف ذراعه حول خصرها ، وتقدما ، وإيفا غارقة فى الدهشة ، أقدامها تسوخ فى البسط ، الثريات البلورية المتدلّية من السقوف تبهرها ، التماثيل التى تملأ الأركان واللوحات المنتشرة فى كل مكان تخطف أبصارها ، الأسجاف الفخمة الهائلة ، على النوافذ والأبواب تملؤها روعة ، إنها تتقدم كالمسحورة .

وصعدا فى الدرج الداخلى إلى الطيفة الثانية ، فألفت مرآيا هائلة تعكس الأشياء وتزيد المكان روعة وغموضا ، ونظرت إلى نفسها فى المرآة ، إنها هى

بعينها إيفا التي هامت على وجهها في الأرض ، دون أن تجد لها مستقرا ، وإن كانت تحس في تلك اللحظة أنها سندريلأ أخرى ، إنها خلقت خلقا جديدا .
وراحت تجوس خلال الغرفات كروح هائمة ، دخلت غرفة نوم الباشا ،
وغرفة استراحته ، ومكتبه الذى كان أبرز ما فيه خزانة حديدية ضخمة ،
ودلفت إلى حجرة نوم حلمى ، ثم ارتمت فى السرير بشياها وجعلت تمرح فيه فى
ابتهاج وتقول :

— رائع ! ما كان يخطر على قلبى أن على الأرض مثل هذا النعيم .
واعتدلت فى السرير ولفت ذراعها حول حلمى وقبلته فى وله وقالت :
— قل لى إن ما أحسه حقيقة ، إننى لست حالة .
وراح حلمى يمرر يده على شعرها فى حنان ، ويقبلها حيثما تقع شفتاه ،
فقال فى توسل :

— ضمنى إليك فى قوة ، دعنى أحس وجودى . إننى سعيدة .. سعيدة .
وضمها إليه بقوة ، ثم نظر إليها فإذا بعينها غائمتان بالدعوى ، فقال فى
دهش :

— أتبكين ؟

فقال وهى تتلفت فى وله :

— من فزط سعادتى .

وغابا عن الوجود فى قبلة طويلة ، ثم قالت إيفا :
— لم يكن لى أبدا غرفة وحدى . كان أخى وأختى يشاركاننى غرفتى ،
ولما سافرت مع الفرقة الموسيقية التى كنت أعمل فيها كنت أبيت فى غرفة
واحدة مع بعض زميلأتى ، وبعد أن شبت الحرب كنا نبيت حيثما نجد مكانا
يقينا البرد ، بتنا مرة فى حظيرة للخيول . ومرة فى عربة قديمة ، وما أكثر
ما أمضينا الليل فى الحقول ! يا طالما ذقنا مرارة التشريد والعوز والجوع ! لقد
قاسينا كثيرا ، تصور فرقة من التمسأ تجوب بلاد الحلفاء بعد أن سقطت بلادهم

في أيدي الألمان ، كانت نظرات الريب توجه إلينا ، وكم صفت آذاننا كلمة :
جواسيس ، وما أكثر ما عوملنا بغلظة حتى كدنا نضعف ونتمنى أن نعود إلى
وطننا الذي كان بمن وطأة الاستعمار 11

ودارت بعينها في المكان وقالت :

— لم يطف بذهني أبدا هذه الجنة ، كل ما سرح إليه خيالي غرفة بها سرير
وصوان ومراة ، تكون لي وحدي ، لا يشاركني فيها أحد ، أحس فيها أنني
طليقة ، أستطيع أن أفعل ما أريد دون رقيب .

ووضعت جبهتها على جبهته وقالت وهي تنظر في عينيه :

— كم أنا سعيدة !

فقال لها وهو يحك أنفه بأنفها :

— سيكون لك بيت ، لك وحدك ، وستكونين ملكته المتوجة .

فأمطرته بقبلاتها وهي تقول :

— حقا ! إنني لا أكاد أصدق أذني . قل لي إنني لست حاملة ، قل لي إنني

يقظانة .

فقال وهو يبتسم :

— وسوف أستأذنك في أن أزورك في مملكتك .

— مملكتي بدونك لا تساوي شيئا ، تركزت أمانى كلها في أن تكون لي

جوارى ، فما عدت أحفل بشيء ما دمت معي ، الحقل والحظيرة والعربة

القديمة ، والقيافي والقفاز كلها جنتي إذا كنت في رفقتي .

وضمته في شوق ، وقالت :

— ليتنا نظل هكذا إلى الأبد ، أو تتوقف عقارب الزمن عن الدوران .

وابتعدت عنه فجأة ثم قالت :

— كنت قد استرحت إلى اليأس ، ولم أكن أخشى شيئا ، أما الآن فقد

تحركت مخاوفي .

فقال لها في رقة :

— مخاوفك مم ؟

فقالت في نبرات مضطربة :

— من أن يفرق الزمن بيننا يوما ، وتفر من بين أصابعي السعادة التي قبضت عليها .

فغمغم وهو يتمرغ في صدرها :

— لن يفرق بيننا شيء أبدا .

واتحدا وهي تهتف في حنان :

— حلمي .. حلمي .

وتمنت من كل قلبها أن يظل اتحادهما إلى الأبد .

١٠

عكف عثمان على عمله ضيق الصدر ، فقد برم بمكث الباشا وأسرتة بالعزبة ذلك المكث الذي لا يدري متى ينتهى ، فالغارات على القاهرة والإسكندرية لا تزال مستمرة ، وقوات المحور فى كر وفر بشمال إفريقيا ، ولم يكن استقرار الباشا وحده هو الذى يضايقه ، بل كان يحرك غيظه . أنه اشترى عشرين فدانا ولا يجد الفرصة لنذهاب إلى القاهرة لتسجيلها .

لم يكن يجرؤ أن يطلب من الباشا الإذن له بالغياب يوما عن العزبة ، فالباشا سيستفسر منه عن السبب الذى يدعوه للغياب ، وهو لا يجد سببا معقولا يتعلل به . آه لو درى الباشا أنه ذاهب لتسجيل الأرض التى اشتراها ، إذن لنصب له الميزان ، وحاسبه حسابا عسيرا يخشاه دائما ويتحاشاه .

وسمع عثمان صوت الباشا مقبلا ، فخف إليه يستقبله ، وقد انقشع عبوسه ، وارتسم على وجهه آى البشر والترحاب ، وفتح للباشا باب مكتبه

ووقف ينتظر دخوله وهو ينحنى تأدبا ، وتقدم الباشا وهو يقول :

— هل وصل البريد ؟

فقال عثمان وهو يتسهم :

— الخير كثير ، بريد من مصر ، وبريد من الإسكندرية .

وجلس الباشا خلف مكتبه ، وذهب عثمان ليحضر البريد ، وجاء فلاح يرتدى جلبابا أزرق ، مفتوح الصدر ، وعلى رأسه لبدة ، يحمل صينية من نحاس أصفر ، عليها فنجان قهوة وكوب ماء ، ووضع الصينية والفنجان أمام الباشا وانصرف .

وراح الباشا يرشف قهوته وقد شرد ببصره ، فقد ازدحم رأسه بأشياء كثيرة لا تناسق بينها ولا ارتباط .

وأقبل عثمان بالرسائل وراح يفضيها رسالة رسالة ويدفع بها إلى الباشا ، دون أن يقرأ منها حرفا ، وكان الباشا يلقي نظرة على كل منها وينحيا جانبا ، وأمسك برسالة مكتوبة على ورق أزرق ، وطفق بقرؤها في إمعان ، وقد انبسطت أساريره ، والتمعت عيناه ببريق خاطف ، وانفرجت شفتاه عن بسمة رقيقة ، ولما أتى على الرسالة ، التفت إلى عثمان وقال :

— هذه رسالة من جمعية الفتيات الصالحات ، إنها من الست أنهار ، تذكرنا بالمبلغ الذى ندفعه للجمعية ، لقد نسيناها في غمرة الأعمال ، وما ينبغى أن تلهينا الدنيا عن فعل الخير . ابعت إليها بمائة جنيه .

فقال عثمان ليرضى الباشا :

— سأبعث إليها بشيك الآن .

— قلت لك يا غبى أكثر من مرة : إن الخير لا يدفع بشيكات . أفضل الصدقات ما كانت مستورة .

وتمنى عثمان لو أن أنهار كانت في القاهرة ، إذن لحمل إليها المبلغ بنفسه ، ولتمكن من تسجيل أرضه ، ولكنها كانت في الإسكندرية ، لم تغادرها على

الرغم من قنابل الألمان ، وقال :

— أأسجل المبلغ في الدفاتر باسمها ؟

فقال الباشا في ضيق :

— قلت لك أكثر من مرة : إننى لا أحب أن أشهر بمن نحسن إليهم .

فقال عثمان في همس كأنما يفضى بسر :

— ولكن الضرائب لا تعترف بالمبالغ التى ندفعها في وجوه الخير ما لم تكن

ثابتة بإيصالات .

فقال الباشا في بساطة :

— أمر الضرائب يهون .

وطوى الباشا الرسالة الزرقاء وغيبها في جيب جلبابه . ولما انتهى من

الرسائل الأخرى دفع بها إلى عثمان وهو يقول :

— غدا ليلة النصف من شعبان ، غدا الوسعة ، من وسع فيها على عباد الله ،

وسع الله عليه في جنته ، هل أعددت الحبوب ؟

— أعددت كل شيء يا باشا ، سأرسل إلى الفلاحين في الظهر ، وأعطى

كلا منهم زرقه .

فقال الباشا في زهو :

— سأعطيهم بيدي .

— هل أبعث في طلبهم الآن ؟

— لا . سأمر على بيوتهم بيتا بيتا .

وتحرك في كرسيه لينهض ، ولكنه رأى عبد الخالق يتقدم ، فثبت على حافة

المقعد ، وأخذ يرقب ابنه مفتوح العينين ، يحاول أن يقرأ الانفعالات المنعكسة

على وجهه .

قال عبد الخالق في صوت منكسر :

— صباح الخير .

وأحس الباشا فى صوته قهرا ، وفطن إلى سبب قدومه ، فقال وعينه تتبعان عبد الخالق وتتسللان للغوص فى أعماقه :

— صباح النور . تفضل .

وغاص عبد الخالق فى المقعد الموضوع أمام المكتب ، وظل مطرقا لا يرفع عينيه ، وغادر عثمان الغرفة كارها ، كان يحس اقتراب هبوب عاصفة ويتمنى من كل قلبه أن يشد عضدها ، وأن يعينها على ألا تبقى ولا تذر .

رمى الباشا ابنه بنظرة طويلة ، ثم قال :

— خيرا .

وقال عبد الخالق وهو يفرك يديه ، ويزداد إطراقا :

— خسرت كل أموالى ، كنت سيئ الحظ .

فقال الباشا فى حدة :

— لا تذكر الحظ ، أرجوك ، طالما نصحتك ولكنك لم تستمع لنصيحى .

فقال عبد الخالق ليبرر خسارته :

— لست وحدى الذى أصيب بخسارة ، كل المشتغلين بالقطن خسروا .

— لا تقل كل المشتغلين بالقطن ، بل قل المضاربين ، إننى لم أخسر مرة

واحدة ، قل لى لماذا ؟

وسكت عبد الخالق ولم يجر جوابا ، وضاق الباشا بالصمت والقلق الذى

ران عليهما ، فقال :

— قل لى : ماذا تريد الآن ؟

فقال عبد الخالق فى صوت خافت :

— أن تغطى خسائرى .

فهب الباشا كثور هائج ، وصاح بصوت عال بلغ مسامع عثمان :

— أنت تخسر ، وأنا أغطى خسائرك ، أنت تلهو وتعبث وتبعثر الأموال

بغير حساب ، وأنا أكّد وأسقى هذه الأرض بدمى . ماذا جرى لعقلك . هذه

الأرض أَرْضِي أنا ، سقيتها بعرقى ، وكونتها بكفاح الأيام وسهر الليالى
والحرمان والصبر على الحرمان ، لأننى لم أرثها عن أحد ، أتحسب أننى أسمع لك
بتبديدها وأنا أنظر ؟! هيهات ! هذه الأرض لن تنقص قيراطا ما دام فى عرق
ينبض ، لن تنقص أبدا .

فقال عبد الخالق فى حدة :

— لماذا كل هذه الثورة ؟ لأننى لم أطلب منك أن تبيع أرضك .

فقال الباشا وهو يسند كفيه على المكتب ، ويميل بجسمه إلى الأمام فى تحفز :
— وماذا تطلب إذن ؟

— تغطية خسائرى لا تستوجب منك بيع أرضك .

— ومن أين أعطيها ؟

— لو أمرت البنوك أن تدفع إليّ فوائد أموالك التى تودعها فيها بلا فوائد ،
لكان ذلك كفيلا بتغطية خسائرى .

— ما شاء الله ، تحرضنى على قبول الربا الذى حرمه الله ، لتنفقه أنت على
لذتك ؟ تريد أن تقحمنى فى النار ، لتتفق على الممثلين والممثلات بغير
حساب ؟ أنت مجنون ، ولو لم تكن مجنونا لما خطر لك ذلك على بال .

فقال عبد الخالق وهو يتحاشى أن تلتقى عيناه بعينى أبيه :

— إذا كنت لا تقبل ذلك ، فغطنى بأموالك .

— أموالى أنا حر فيها ، ولن أسمح أبدا أن تغترف منها لتنفقها فى سبيل

الشیطان .

— أموالك هذه المقدسة المكنوزة لا خير فيها ، إذا لم تقينا مذلة الدين

والحرمان .

فقال الباشا فى انفعال ، وقد كادت الدماء تطفر من وجهه :

— أموالى المقدسة المكنوزة ؟! ما شاء الله ! تتطلع إلى أموالى ؟! تتعجل

موتى ؟! تريد أن ترثنى ؟! لا يا عبد الخالق ، لن أتركك ترثنى أبدا وأنا حى ،

لن ترثنى أبدا وأنا حى .. تريد أن ترثنى .. تتعجل موقى .. تتمنى أن أموت .. لا .. لا . لن أمكنك أبدا من أن ترثنى وأنا حى .. أبدا .. أبدا .

وغادر عبد الخالق المكتب فرارا من الكلمات القاسية التى كانت تصب فى أذنيه الشواظ من النار ، واندفع إلى الفيلا كعاصفة هوجاء ، ومر ببثينة وهو فى طريقه إلى غرفته دون أن يلتفت إليها . وفطنت إلى ما أسفرت عنه المعركة التى نشبت بينه وبين أبيه ، فهزلت خلفه ، ولحقت به وهو يجذب حقيبته ليجمع فيها أشياءه ، قالت له فى رقة :

— ماذا جرى ؟

فقال عبد الخالق فى حدة :

— قنابل هتلر أمون من البقاء مع هذا الرجل ، يتهمنى بأننى أتمنى موته ، وأننى أريد أن أرثه ، ليحقرنى ويحطمنى حتى لا ألح فى طلب المبلغ الذى طلبته منه ، إنها طريقته ليفر من طلباتى ، إذا طلبت منه شيئا كفرت ، أما حلمى فله كل شيء .

فقالت وهى تكاد تلتصق به فى دلال :

— هون عليك .

— إننى أفلست ، لم يعد عندى ما أنفقه .

كانت لا تريده أن يغادر الفيلا ، وألا يقطع الخيط الواهى الذى يصل بينهما وبين أسرة الباشا ، فغدا الخميس وسيقبل حلمى ، وسيمكث معهم يومين ، وهى تأمل أن تربطه بالهام . وأن تحكم الرباط ، وما كانت تريد أن تفلت منها هذه الفرصة ، فقالت فى رقة :

— أموالى كلها تحت أمرك .

وأحس راحة ، ولكنه ظل يجمع حوائجه ، فأمسكت بيده وقالت :

— لن نسافر اليوم ، ولن نترك العزبة .

— لماذا ؟

فقالته وهى تتصنع الجدد :
— لأن لنا فيها مثل ما لهم .
ولم يقنعه منطقها فاستأنف وضع أشياءه فى الحقيية ، ولكنها عادت
وأمسكت بيده وقالت :
— ولأن رفعت حدثنى الآن من القاهرة وقال إنه قادم غدا ومعه الأستاذ
ليمضيا معنا ليلة الجمعة ، وسيحضر رفعت معه مؤونة الأسبوع .
ورسمت بيديها فى الهواء شكل زجاجة ، وغمزت بعينيها ، ثم طوقته
بذراعيها وراحت تقبله ، فاستكان فى أحضانها استكانة طفل إلى صدر أمه التى
ألقيته ثديها بعد طول صياح وعويل .

١١

كانت القرية غارقة فى الذل : الطرق ضيقة ملتوية كثعبان ، والقمامات هنا
وهناك ، والذباب يغطيها ، وبعض كلاب عجاف تسير فى تراخ ، ودجاجات
تنقر روث البهائم الذى تغوص فيه الأرجل الحافية .
وكانت الأرض موحلة ، وفى منخفضاتها رسب الماء وأسن ، وراحت
الحمير المحملة بالبرسيم والمحارث والطناير تنطلق فى بلادة وعبوس ، كأنما
كانت تستشعر الهوان الذى يعيش فيه أصحابها .
وعلى أبواب الأكواخ المبنية بالطين جلس بعض النسوة فى ثيابهن الزرقاء
أو السوداء التى كلح لونها ، ذابلات الأعواد بارزات الوجنتات ، تنفر عروق
أعناقهن ، ويكاد ينطننى بريق عيونهن ، وحولهن صبية حفاة ، أجسامهم
هزيلة ضامرة ، عليهم جلابيب مرقعة ، لا يظهر لونها من الأوساخ ، لأنها كل
ما يملكون من ثياب ، وإنهم ليمكثون عرايا يوم تغسل حتى تجف ، وما أقل الأيام
التى تغسل فيها .

لقد شاركتهم هذه الثياب حقبة طويلة من أعمارهم ، وشهدت معهم
مواسم وأعياد كثيرة حتى لقد سئموا طول معاشرتها لهم ، وتمنوا أن يبدلوها .
بخير منها ، ولكن من أين والأزمة طاحنة ، والنقود القليلة التي تصل إلى
الكادحين منهم لا تكاد تمسك الرmq .

وأخرجت امرأة لابنها الصغير الباكي ثديا أشبه بقربة فارغة ، ووضعته في
فمه ، ومص الصغير الملفوف في خرقة بالية مصات ، ثم عاد يعوى من الجوع
ويرفس بساقيه العاريتين اللتين كانتا عظمتين دقيقتين شد عليهما جلد خشن
أسمر .

وجلس بعض الرجال على المصاطب ، وقد لوحت الشمس بشرتهم ،
وانتشرت الصفرة في وجوههم ، وضمحلهم حتى بدت أحواض غائرة عند
منابت رقابهم ، فيا طالما قاسوا من الحرمان والعسرة والبلهارسيا التي تأكل
البقية الباقية من عافيتهم .

سنون طويلة من الذل والاستعباد والمسغبة ومص الدماء مرت عليهم ، وهم
صابرون بمضغون المر ، وكأنما لم يكن نصيبهم من الذل كافيا ، فإذا بالحرب
تضييق عليهم الخناق ، وتسلبهم النزر اليسير من ضرورات حياتهم حتى الكفاف
عز عليهم .

وقامت عند مدخل القرية أبنية بيضاء ومسجد بنى بالحجر الأبيض
وارتفعت مئذنته ، فكانت كالأحمر الذي طليت به حدود عجوز شمطاء ،
ينهش السل صدرها .. لقد شيد الباشا هذه الأبنية ليراها زواره من بعيد
ويؤمنوا معه بأنه مصلح كبير ، ويعمل على إسعاد فلاحيه ويرفع شأنهم .

وانطلق في القرية بوق من أبواق الباشا يعلن أن الباشا قادم في أثره ليوزع
الحبوب على فلاحيه في كل موسم ، وتلقى الرجال والنساء والأطفال النبأ في
فتور .. كانوا يحسون في أعماقهم أن ما يتصدقون به عليهم إن هو إلا جزء يسير
من حقهم ، إنه بعض ما يسلبهم إياه لتمتلىء به كروش أهل المدن ، وجيوش

الحلفاء وتربو به كنوز الباشا ، التى تمكته من شراء أرض جديدة ، واستعباد أناس آخرين .

وتقدمت سيارة الباشا « الفورد » التى تستخدم فى المرور ، واجتازت الأبنية الجديدة وخلفها سيارتا نقل ملئت بالذرة والقمح ، وتمدد فوق الحبوب رجال فى أيديهم مكاييل متباينة ، وكان الموكب كله يبدى ما يحسبه الباشا صدقه ولا يخفيها ، فما كان الباشا يؤمن فى مثل هذه المناسبات بحكمته التى كان يرددها : أفضل الصدقات ما كان مستورا .

وضاق الطريق حتى عجزت السيارات عن التقدم ، فهبط الباشا من سيارته وهبط عثمان خلفه ، وسارا صوب الرجال والنساء الذين انتصبوا واقفين ، وعلى وجوههم بسمات صفراء ذابلة .

وبدأ الباشا الجميع بالتحية ، فردوا بأحسن منها ، ولمح امرأة عجوزا شعشاء الشعر ، بيضاء العينين ، غائرة الوجنتين ، زاد فى غورها فراغ فمها من أسنانها ، ترتدى مرقعة سوداء ، تمزقت عند صدرها ، فبدت بعض أضلاعها ، وتقدم لها متوددا :

— كيف الحال يا خالة ؟

فقالت المرأة الفانية فى صوت خافت :

— الحمد لله .

وأطالت النظر إليه ، فعخيل إليها أنه صار أكثر شبابا وأوفر صحة ، وأنضر مظهرها . إنها تذكر أول يوم وفد فيه إلى القرية ، بعد أن اشترى بضعة أفدنة فى الناحية ، كان نحىلا ، فى وجهه صفرة وشحوب ، كان جلد وجهه مشدودا ، ولم يكن متورد الخدين كما تراه الآن ، ولم تكن آى العزة المترقرة فى محياه قد عرفت بعد طريقها إليه .

وهمس فى أذن عثمان بكلمات ، فإذا بعثمان يهرول إلى حيث وقفت السيارات ، ويأمر الرجال بالشروع فى توزيع الحبوب على كل بيت .

وراح الباشا يمر على الدور دار دارا ، والحبوب فى أثره ، وكانت الأيدى تمتد لأخذ الحبوب ، وفى العيون حسرة ، وعلى الشفاه مرارة .. إن ما يوزع عليهم يكفيهم يوما أو يومين ، فماذا يفعلون طوال أيام السنة الباقية ، تلك الأيام العجاف القاسية التى تأخذ منهم كل شئ ، الصحة والعافية والعمر ، ولا تجود عليهم بما يستر الجسد ، ويسكت صراخ البطون .

واستمر الباشا فى طوافه ، ينظر إلى الأشباح المنتصبه أمامه دون أن يرق لها قلبه أو يحس نحوها شفقة . كان الرجال الذين نال منهم الهزال ، والنسوة اللاتي غابت من وجوههن النضارة ، والأطفال الضامرون الذين يقاسون من الأسقام — كانوا كلهم فى نظره تلك اللحظة أشياء تتلقى منه الصدقة .

وأسر الباشا إلى عثمان بكلمات ، فخف عثمان إلى الرجال يقول لهم :
— سيقراً الليلة فى المسجد مقرأ من القاهرة ، وسيدعو دعاء النصف من شعبان ، تعالوا ندعو الله أن يديم علينا نعمه ، وأن يرزقنا القناعة والستر وحسن الختام .

ونظر رجل إلى الباشا وقال :

— سندعو الله أن يرفع عنا الغمة .

فرفع عثمان أكف الضراعة إلى السماء وقال :

— اللهم ارفع عنا الحرب والكرب ، والغلاء والبلاء وسوء الحال .

وظفق الرجال يرمقون عثمان وفى عيونهم ثورة ، وفى أجوافهم نار تتلظى ، ولو خلى بينهم وبين جلادهم لفتكوا بهم ، ولكنهم كانوا مغلوبين على أمرهم فأكلوا لحومهم كلهم من ذوى النفوذ والسلطان .

وظل الباشا يطوف بالدور حتى غابت الشمس ، وجاء الليل وساد الظلام ، ولم يضأ فى القرية مصباح واحد ، فما كان فى القرية كلها نقطة من النفط ، ولولا البدر الصاعد إلى السماء ، لما عرف الباشا طريقه .

ودخل الباشا سيارته مزهوا ، واندس عثمان إلى جواره ، وقفل الركب

عائدا إلى السراى ، والباشا يحس راحة وسعادة وأمنا ، فقد ألقي على الفلاحين أوزاره ، واعتقد أنه بذلك القليل الذى تصدق به قد طهر أمواله .

١٢

سار عبد الخالق وفي يده زجاجة ويسكى يطوحها كلما هز ذراعه وإلى جواره الأستاذ يحتضن عوده فى رفق وحنان ، ومن خلقهما إلهام وحلمى يتحادثان ، ووراءهما رفعت يقبض على زجاجة نبيذ ويحمل فى الأخرى بعض كموس الشراب ، وإلى جواره بثينة فى ثوب سبور ، يكشف عن فتنة الصدر والأذرع والسيقان . كانوا يخترقون الحقول الخضراء ، مخلفين وراءهم سراى الباشا والفيلا ، فقد قرروا أن يحتفلوا بليلة النصف من شعبان على طريقهم ، بعيدا عن غضب الباشا وثوراته .

كان القمر بدرا ، ففرش السندس الأخضر بغلالة رقيقة من فضة ، ونفث فى الكون سحرا ، وهبت النسائم رقيقة تداعب أوراق الشجر ، وتبعث وسوسة الخفيف التى تدغدغ النشوة ، وارتفع نقيق الضفادع كما يرتفع صوت المغنى على الآلات الهامسة التى تخلق جوا ، وامتزج بالخفيف والنقيق صفير الصراصير ، فأصاخ الأستاذ سمعه وأطرق كأنما يتلقى وحيا ثم قال :
— هذه هى موسيقى الطبيعة الحاملة .

ثم التفت إلى عبد الخالق وقال فى مرح :

— لقد أوحى إلّى لحنا ، لحنا رائعا ، سأسميه « الأرض الطيبة » .

وراح يلعب على عوده فى نشوة ، وانبعث الأنغام حلوة نابضة بالحياة ، تصور الطبيعة وتهول جمالها ، كأنما ليس فى الطبيعة إلا هفهة النسيم ، وزقزقة العصافير ، وتغريد العندليب .

وانتهى من عزفه ، والتفت إلى السائرين خلفه وقال :

(الحصاد)

— ما رأيكم ؟
فقلت بثينة في حماس :
— رائع ! جميل .
وقال رغبت وهو يرنو إلى بثينة في وله :
— الرأى ما قالت سيدتى .
وقال حلمى وهو يتسسم فى خبث :
— يخيل لى أنى سمعت هذه القطعة من قبل .
فقال الأستاذ مؤكدا :
— أبدا . هذه أول مرة تعزف فيها .
فقال حلمى فى تحد :
— أنا واثق أننى سمعتها أكثر من مرة ، إنها قطعة روسية مشهورة .
فقال الأستاذ فى تحاذل :
— الفنان دائما يتأثر بما يقرأ وما يسمع .
فقال حلمى :
— هناك فرق بين الاقتباس والتأثر ، فرق كبير ، والاسم الذى أطلقته عليها ليس جديدا .
فقال الأستاذ فى ضيق :
— كل أرض تنبت خيرا ، فهى أرض طيبة .
وخشى عبد الخالق أن يفسد حلمى جو الليلة قبل أن تبدأ ، فقال للأستاذ :
— سمعت يا أستاذ آخر قطعة سجلتها ، كانت تحفة ، قطعة خالدة .
والتفت الأستاذ إلى صديقه الذى يقدره ، وراح عبد الخالق يكيل له
الثناء ، حتى هدأت نفسه ، وانبسخت أساريره ، وبدأ عليه البشر .
وجلسوا على أرائك صفت تحت خميلة جميلة ، ودارت الكؤوس على
الجميع ، وراح رفعت يشرب وهو يختلس النظرات إلى بثينة ، فالبريق الذى

يشع من عينيها الفيروزيتين يعبث بأوتار قلبه ، وشعرها الأسود المتهدل كالنخمل
يتمنى من أعماقه أن يمرر عليه يده ، وجسمها البض الممتلئ المشرب بحمرة
يسكره ويبعث في جسمه دفعا أمتع من كل دفء تجلبه بنات الكروم . كان
يشتهىها بكل جارحة من جوارحه ، ولولا نخشيتيه من أن يأق ما يغضبها وما قد
يتسبب عنه طرده من جنتها لجمع أطراف شجاعته وبشها لواعج نفسه التي
تضنيه .

الاستار الكثيفة التي تحول بينها وبينه لا يجزؤ على رفعها ، إنه ينتظر صابرا أن
ترفعها بنفسها ، وهو لا يمل الانتظار ، ويعتمد أن يروى النكات الجنسية
المكشوفة والحكايات المثيرة ، لعلها تقدم على ما يتمناه ، ويرتجف من الإقدام
عليه فرقا .

وراح يروى قصة اختلقها خياله ، وحشدتها كل أمانيه ، قال متظاهرا
بالضيق :

— أصبحت الحياة في القاهرة لا تطاق ، تصوروا ! كنت سائرا أول أمس
في شارع جانبي ، شارع من الشوارع المتفرعة من شارع فؤاد الأول
والشوارع كلها مظلمة في هذه الأيام . وبيننا أنا في طريقي مررت بجندى
بريطاني يضم فتاة ممتلئة إلى صدره ، ويمرر يده على شعرها الأسود ، ثم يقبلها
قبلة طويلة كلها اشتاء ، ويا ليتة اكتفى بذلك .

وصمت ، ثم مصمض بشفتيه حسرة ، وطوح يده في ازدراء . وقال له
عبد الخالق وهو يعب كآسبه :

— ثم فعل ماذا ؟

— فعل .. فعل .. الله يخزيه .

وأطرق متظاهرا بالحنجل ، وضحكت بثينة ضحكة ناعمة ، فراح رفعت
يرمقها من طرف عينه ، وصوت في أعماقه يصيح : « آه لو قدر لي أن أضم
هذا الجمال ، وأضع شفتي على شفتيه ! » .

وقال حلمي :

— وماذا فعلت أنت ؟

فقال رفعت وهو يمثل الرعب :

— سرت في طريقى ، لم أتلفت ولم أنبس بكلمة .

فقال الأستاذ مبتسما :

— شجاع .

فقال رفعت مدافعا عن نفسه :

— الجبن سيد الأخلاق في مثل هذه الحالات ، أظن أنك سمعت قصة الموريثان الذى قتل رجلا ثارا للكرامة ، لما رآه في نفس الوضع الذى رأيت فيه البريطانى .. ذهب الرجل فطيسا ، واستمر الشرف يطعن في أحشائه كل لحظة .

وساد الصمت برهة ، وشرد حلمي ببصره ، ثم قال دون مقدمات :

— قولوا لى : كيف تطبخ الملوخية ؟

فضحكت إلهام ، وقالت بشينة :

— يطبخها الطباخ .

وقال رفعت في ضيق :

— أوه ! كيف تتذكر الملوخية في مجلس الويسكى والنيبذ والكونياك ؟

وقال حلمي لرفعت :

— أتكره الملوخية ؟

فقال رفعت في امتعاض :

— أكره كل ما يذكرنى بفقرى ، حتى كشك الفقراء .

وعاد حلمي يقول :

— بالله كيف تطبخ الملوخية ؟

فقالت إلهام وهى تبتسم :

- أتريدها بالدجاج أم بالأرانب ؟
— بالأرانب .
فاعتدلت إلهام وقالت :
— تذبح الأرانب ...
وقاطعها حلمى فى اهتمام وقال :
— كيف تذبح ؟
فضحك عبد الخالق وقال :
— يذبحها الطباخ .
وقال حلمى فى جد :
— وإذا لم يكن فى البيت طباخ ؟
فقال رفعت يجاريهم فى الحديث الذى لا يفهم له معنى :
— ترسل إلى أقرب جزار ليذبحها .
فقال حلمى فى سرور :
— كلام جميل . ذبحنا الأرانب .، ثم ماذا ؟
فقال إلهام وهى تبتسم :
— أتريد الملوخية « بورانى » أم « شوربة » أم « فتة » بالثوم والخل ؟
فقال الأستاذ وهو يتأود :
— الله ! ما ألد الفتة بالثوم والخل .
فقال حلمى وهو ينظر إلى إلهام فى اهتمام :
— أريدها « فتة » بالثوم والخل .
وابتسمت إلهام لتسرد على مسامحه طريقة طهوها ، وإذا ببثينة تصيح :
— كفى بالله ، نريد أن نسمع الأستاذ .
وقال رفعت وهو يتأفف :
— لم نتجشم السفر لنشنف آذاننا « بفتة » الملوخية .

وتناول الأستاذ عوده وراح يغنى ، مقلدا قدامى المغنين :
— آه الفت ، يا سيدى ع الفت ، يا عينى ع الفت ، والله فت . فت ،
يا سيدى ع الفت ، يا روحى ع الفت ، والله فت . فت ..
ونهض حلمى وجذب إلهام من يدها وهو يقول :

— تعالى أريد أن أسمعك أنت .

ونهضت إلهام معه وهى تضحك ، وجعلت بثينة ترمقهما فى نشوة ،
وتداعبها الآمال ، فقد حسبت أن حلمى بدأ يسير صوب الفخ ، وأن قليلا من
الدعابة الرقيقة العذبة ، ورنوة متكسرة من عينى إلهام ، وبسمة جميلة من
شفتيها ، كفييلة بأن تقود حلمى إلى غاية ما تتمناه .

وجلسا بعيدا ، وطفقت إلهام تتحدث وحلمى يعيرها سمعه ،
ويستوضحها بعض ما غاب عنه ، كان أشبه بطالب نجيب يستوعب درسا ،
وراح الأستاذ يغنى وعبد الخالق يعب كأسه وهو يهز رأسه طربا ، ورفعت
يدس عينه فى صدر بثينة ، ويلمس بهما ساقها ، ويتأوه طربا ، فقد راحت
تعربد فى أعماقه مشاعر طاغية من الرغبة .

وطالت جلسة حلمى وإلهام ، فصاح رفعت :

— ألم تشبع ؟

فقال حلمى وهو يضحك :

— لم نبدأ فى الأكل بعد ، الملوخية لم تنته ، لا نزال نطبخها .

فقال الأستاذ :

— عندك حق ، إننى أشم رائحة « التقلية » .

فقالت بثينة :

— نذرا على إن نجحت يا حلمى لأقيم وليمة تكون الملوخية أساسها .

فقال رفعت فى ضيق :

— سبحان الله ، ناس تمنى الكافيار ، وناس تشتهي الفقر !

١٣

وقفت سيارة حلمى وهبط منها وفي يده كيس من قماش يستعمل فى حمل
الخضر ، وصعد فى الدرج قفزاً وهو متطلق الوجه ، فمشاعره كلها تترنم
بأنشودة غرام ، ووضع يده على جرس الباب ، وأخذ يدقه دقات مرحة كأنما
يضرب على طبلة فى مهارة ليهز أعطاف راقصة غارقة فى النشوة .

وفتح الباب عن إيفا ، ولما وقعت عينها عليه ، انشرح صدرها ،
وانبسطت أساريرها ، ورفعت مقلتها بالفرحة والرقّة ، والتشويق والهيّام ، ولم
تحاول أن تكبح جماع عواطفها ، بل طوقت عنقه بذراعيها ، وأخذت تقبله فى
حرارة وهى تغمغم :

— حلمى ! لكم اشتقت إليك ، بالله لا تغب عنى .
وأغلق الباب خلفهما ، وانطلقا إلى المطبخ وقد لف كل منهما ذراعه حول
صاحبه ، وجعلا يتبادلان القبل كزوج من الحمام ، التقيا بعد غياب . ومد
يده فى الكيس وأخرج منه الملوخية ، فلما رأتها قالت :
— ما هذا ؟

وقبلها حلمى قبلّة خاطفة وقال :
— أطعمتنى كل الأكلات التمساوية ، وسأطعمك اليوم أكلة بلدية .
وأخرج زوجين مذبوحين من الأرناب وقال :
— ملوخية بالأرناب .
وأخذت منه أرناباً ، فألفتها لا تزال دافئة ، فقالت :
— لم تشتريها من الثلاثجة !

فقال وهو يضحك ، كأنما كانت شاهدة الحوار الذى جرى بينه وبين
أصحابه فى العزبة :

— ولم يذبحها لى أقرب جزار ، ذبحتها وسلختها السيدة التى اشتريتها منها .
واتجهها إلى غرفة النوم ، كانت بسيطة غاية البساطة ، وكانت رائعة كل
الروعة ، استمدت رونقها من ذوق إيفا ، وانعكس عليها صفاء روحها ،
كانت كل قطعة تنطق بلمستها الفنية ، والورود الصغيرة المشغولة بزوايا المفارش
تشى برقة أناملها :

وراح حلمى يخلع ثيابه ، وإيفا تعاونه وتداعبه بدغدغته وحك ذقنها فى
ظهره ، ولمست يدها شعر صدره وهى تمسك بطرفى فتحة قميصه ، فتركت
القميص وتناولت شعرة بين أناملها وجذبتها ، فاستدار حلمى يقبلها ويضربها
على أردافها .

وارتدى حلمى بجامته ، ثم قال :

— أين فوطه الطيبخ ؟

فقالت وهى ترنو إليه فى حب :

— فى المطبخ .

واتجهها إليه ، ما يسيران خطوة حتى يقفا ليلتصق الصدر بالصدر ، وتعب
الشفاه من الشفاه عصير أجمل ما فى الوجود ، وتناولت الفوطه وهمت بارتدائها
فوق ثيابها ، فجذبها منها فى رقة وهو يقول :

— أنا اليوم الطباخ ، أنت ضيفتى وسيدتى ، وأنا عبدك .

وراح يرتدى الفوطه ، وقبلته قائلة :

— بل أنت سيدى ورجلى وحبيب الفؤاد .

وتأخرت خطوة وأخذت تتطلع إليه مفتونة ، ثم قالت :

— لو كان كل الطباخين أنت ، لكانت الخيانات الزوجية أمرا لا مفر منه ،

لو جاعنى زوجى بطباخ مثلك لضمن عدم مغادرتى البيت ، ولما تدمر أبدا من
كثرة خروجى وتغيبى عنه .

وجلس إلى الملوخية يقطفها ، وجعلت ترقبه مدة ، ثم جلست إلى جواره

تعاونه ، مسترسلة فى الحديث ، وهو يصفى إليها منتشيا ، تغمره سعادة طاغية ، وقالت :

— كنت أرتجف فرقا من مستقبلى ، أخشى ما تخبئه لى الأيام ، أما الآن فأنا مطمئنة ، أشعر بأننى غنية ، وأن الثروة التى جمعتها تكفينى للأيام المجيدة التى سأعيشها ، مهما طالت ومهما قسا على الزمن .

وابتسم حلمى وقال مداعبا :

— إذن لن أخشى الفقر ما دمت معى .

فقلت فى حماسة :

— كيف تخشى الفقر وأنت الذى جدت على بكل ما أملك من كنوز !

ورمقها دهشا ، وراحت تتحدث وهى شاردة فى نشوة :

— كنت أعيش على ذكريات قليلة كادت تفقد روعتها من كثرة ما قلبتها فى خيالى ، كنت فى ساعات وحدتى القاسية أهتم بروحى إلى بلادى ، إلى التيرول ، فأرى بيتى الحبيب على سفح الجبل الجميل ، وأبى وأمى وإخوتى ومدرستى وصديقات طفولتى ، وشارع مارى تريزا ، وكنيسة مارى تريزا ، والرجال فى بنطلوناتهم الجلدية القصيرة ، وقبعاتهم التى تزينها ريشة طويلة ، وبنات بلدى فى ثيابهن الوطنية الزاهية يرقصن فى حلقة وهن يصفقن لاثنتين منهن تتمايلان فى رشاقة داخل الحلقة ، وكنت أرى البيرة تسيل على جوانب الكوبات الكبيرة ، وأرقب بعين خيالى المطر المنهمر ، وترن فى أذنى ضحكاتى المرحية وأنا أجرى فى المطر كشيطان صغير .

كانت هذه هى كل ذكرياتى ، وقد فطنت قبل أن ألقاك إلى أننى فقيرة حتى فى الذكريات ، وفجأة ظهرت فى حياتى ، ففجرت فى نفسى يناعيع غنية من المشاعر الرقيقة ، وجعلتنى أكشف كنوز قلبى التى بهرتنى ، فلولاك لظل أئمن ما فى نفسى مطمورا فى مجاهل أعماقى .

ومال عليها وقبلها ، فنظرت إليه فى وجد وقالت :

— كانت أمنيته أن يكون لي بيت وحدي ، أحس لذة امتلاكه ، أتصرف فيه على هواي ، لقد كانت أمنية ساذجة ، أمنية تتفق مع طفولة تفكيرى ، ولما عرفتكم نضجت فجأة واتسعت آفاقى ، وتعلمت أن غاية وجودى أن أكون معك ، أكشف على يدك أسرار نفسى المغلقة ، لقد كنت جاهلة ، لم أكن أعلم أننى فى عالم فسيح زاخر بينابيع ساحرة من اللذة ، وكنوز غنية بالعواطف النبيلة ، وأنهار دفاقة بالركة والحنان ، إننى قادرة على أن أتغذى من حبى العظيم مابقى لى من عمر .

ورفع ذقنها بيده فى تأثر ، وراح ينظر فى عينها برهة ، ثم قال :
— أنت طيبة يا إيفا ، وما زلت شابة جميلة ، وما ينتظرك من سعادة أضعاف ما تذوقته منها .

— بلغت سعادتى غايتها ، ويا ليتها تدوم ، آه لو دامت لكنت أسعد من فى الوجود .

وصمتت قليلا ثم قالت :

— أعرف أن السعادة لا تدوم ، كل ما أرجوه أن تطول مدتها ، وألا تكون فى عمر الورود .

فقال لها فى إشفاق :

— أنت قلقة .

فقالت فى إيمان :

— قلق الحب لذة .

— ما زلت ترهبين المجهول .

— إننى ككل الأغنياء أرهبه ، وإن كانت أرصدنى الضخمة تقنعنى أننى لن أموت فيه جوعا ؟

وساد الصمت اللذيذ مدة ، وتحرك غروره ، فالتفت إليها وقال :

— إيفا ، هل أنا أول رجل فى حياتك ؟

فقلت في بساطة :

— لا يا حلمى ، عرفت قبلك رجالا ، ولكنك حبيبى الأول والأخير .
وتعانقا وغابا في قبلة طويلة حارة ، وراحا يتعاونان على تفجير ينابيع جديدة
من اللذة في أنفسهما ، وكشف أسرار ذلك العالم الهائل الكائن في أغوارهما ،
وتضخيم رصيد الذكريات الذى يتفق منه في الليالى الجذب الطويلة .

١٤

كان كل من في العزبة في ضيق ، فإلهام في حيرة ، تبخرت سكينه نفسها
وفرت طمأنينة وجدانها بعد أن تلقت رسالة بدر الدين ، إن أفكارا كثيرة تمر
في حناياها وقد اختلط عليها أمرها حتى لم تعد تتبين طريقها ، إن كل كلمة في
الرسالة مست وترا في نفسها ، وخفق لها قلبها ، لقد قبلت كل ما جاء فيها
مستريحة الضمير ، ودار رأسها من نشوة الفرحة لما دعاها صراحة للعودة ليعلنا
خطبتهما ويستعدا للزفاف ، فالحياة بدونها فارغة لا معنى لها .

كل ما في الرسالة جميل ، ولكن كيف تتصرف ؟ هل تدفع بالرسالة إلى
بثينة وتقول لها إنها قد وهبت قلبها لبدر الدين من زمن طويل ، وأن حياتها ملك
لها ، وإنها ستتصرف بوحى مشاعرها التى لا نخدعها ؟ وهل تقبل بثينة هذا ؟
ولو كان هناك أى احتمال لخضوع بثينة لمشيئتها لذهبت إليها من فورها ،
وراحت تقرأ على مسامعها الرسالة الحبيبة وفي القلب فرحة ، وفي الصوت
تهديج ، وفي العين بريق غبطة ، وإذا أحسست أنها على وشك أن تهزم فستقسم
بأغلظ الأيمان أنها بريئة منها إن تزوجت دون موافقتها بدر الدين .

إنها تعلم أن بثينة قلقة وأنها في ضيق ، كانت تحسب أن حلمى سيتزوج عقب
نجاحه في الليسانس ، وقد نجح ومرت شهور طويلة عقب تخرجه ، وكانت في
كل مناسبة تثير موضوع زواجه وتلقى في براعة الأضواء عليها ، ولكنها لم تنجح

حتى الآن فى اصطلياد وعد من حلمى أو من الباشا أو من أمينة هانم .
إن بثينة تمتعت أمينة هانم ، إنها تغزو كل إخفاق يصيبها إلى هذه السيدة التى
تتظاهر بالبساطة والبراءة والسذاجة . وهى نار تسرى تحت الهشيم ، ومما يزيد
فى ضيق بثينة وحنقها اضطرارها إلى تملق أمينة هانم ، والمبالغة فى خفض جناح
كبريائها لتكسب ودها .

إن إلهام فى أعماقها لا تقتنع بمنطق بثينة أبدا ، ولكنها كانت تتحاشى إثارة
أعاصير نفسها لأن بدر الدين لم يتقدم بطلب يدها صراحة ، ولكنه فى هذه
الرسالة يذكر الخطبة والزواج وضرورة الإسراع بالعودة حتى يقضى على ذلك
العطب الذى بدأ يتسرب إلى روحه ، إنه فى حاجة إلى قلب رحيم إلى جانبه
يأخذ بيده فى مسالك الحياة ، وإنه ليحس فى أعماقه أنها ستكون له نعم العون
ونعم الرفيق .

كم هو لطيف بدر الدين ، إنه رقيق الحس ، طيب القلب ، فيه أريحية ودمائة
خلق ، فلماذا تفضل بثينة عليه حلمى ؟ هل حقاً مات فيها كل إحساس ولم تعد
لها من أهداف إلا أن تضع يدها على أموال الباشا ؟ وهل لو تحقق حلمها يتحقق
حتماً كل ما تصبو إليه من سعادة ؟ إنها هى إلهام الصغيرة التى لا تملك بعض ما
تملكه أختها لا تهفو نفسها إلى امتلاك هذه الأرض التى يروىها مئآت المساكين
بعرق جباههم وعصير حياتهم . كانت قبل أن تفد إلى العزبة لا تطمع فى
الأرض ولا فى أصحابها ، وإنما بعد أن عاشت فيها حياتها المملة المكرورة
أصبحت أكثر زهدا فيها .

إنها لن تقبل أن تتزوج حلمى من أجل أطيان أبيه ، فقلبها لم يخفق أبدا بحبه ،
وهى تحس أنه بعيد عنها وهو يجلس إليها يداعبها ويجاذبها أطراف الحديث ، لقد
لمست يده يدها مرات ، ولكنها لم تستشعر الرجة اللذيذة التى تحسها لما يلمس
بدر الدين يدها ، فلمسة بدر الدين سحرية تسرى إلى مهجتها ، وتدغدغ
أعماق سريرتها ، وتغرقها فى غيوبة مفعمة بالنشوة والانشراح .

لكم هو كيس بدر الدين ! إنه لا يزال يذكر يوم خرجت معه ووقفت أمام عقد تظهر إعجابها به ، لقد اشترى لها ذلك العقد ، وسيقدمه لها يوم الخطبة ، لقد نسيت هى تلك الرغبة التى تملكها لحظات ، ولكن هو لم ينسها وصمم على أن يحقق لها ما تمننت ، كم هو ظريف وهو يسرد لها فى كلمات نابضة بالحب كل ذلك فى رسالته الغالية .

ولماذا لا تفر الآن من العزبة وتلحق به ؟ ولكن لماذا الفرار ؟ إنها لا تخشى أحدا حتى تفر ، وهى حرة فى تصرفاتها ، ستذهب إليه مرفوعة الرأس ، وستغضب بشينة مدة ، ثم يتنقش غضبها ، ولكن لماذا الذهاب إليه ؟ لماذا لا تكتب إليه رسالة تشكره فيها على عواطفه ، وتقول له فيها إنه لما يشرفها أن تكون له زوجة ، وإنها قادمة لإتمام إجراءات الزواج . واستراحت للفكرة ، فراحت تغدو وتروح تفكر فى الكلمات النابضة التى تعبر عن حقيقة مشاعرها .

وبلغت النافذة المطلة على الفناء الواسع بين الدهرين ، فشردت ببصرها إلى الأفق البعيد وهى تحاول أن تمسك بالعبارات التى تستطيع أن تترجم عن بعض إحساساتها الرقيقة الحلوة الدافئة النابضة المشحونة بالأمن واللذة والنشوة ، التى يعجز البيان عن تصويرها حية كما تحسها ، وهمت أن تدور على عقبيها منفعة ، فلمحت حلمى يذهب ويجيء فى الفناء وهو قلق مضطرب ، فجعلت ترمقه برهة ، وسرعان ما غابت عنه فى غمرة مشاعرها .

وكان حلمى فى ضيق ، إنه بعد أن نال اللسانس أصبح أمر غيابه عن العزبة عسيرا ، كان يحتاج بالجامعة ومحاضراتها ، وكانت أمه تتوسل إليه أن يبقى إلى جوارها ، ولكنه كان يفلت من توسلاتها بإقناعها أن أيام الجامعة محدودة ، وأنه بعدها لن يتعد عنها ، إلى أن تنقش سحب الحرب الجاثمة على أنفاس الناس . أما الآن فما من حجة مهما قويت بقادرة على أن تفلته من قبضتها الحديدية . ذهب مرة إلى القاهرة دون موافقتها وبات مع إيفا ليلة ، فلما عاد وجدها غاضبة

باكية ، ومما زاد الطين بلة تلك الغارات المروعة التى شنت على الإسكندرية .
كان يذهب إلى إيفا صباحا ويعود إلى العزبة قبل الغروب ، ولكنه اشتاق
إلى الليالى المترعة باللذة ، يحن إلى العزبة الساكنة التى ينتشر فيها ضوء الأباجرة
الخافت ، فينفث فيها روعة وسحرا ، فما جعل الليل إلا للحب وعذوبة
اللقاء ، فقبله المساء أرق وأعذب من عشرات القبل المتبادلة فى النهار ، لأن
الحس فى النور صباح واع . وفى الظلام مهوم مشتاق إلى العطف والحنان
والفناء فى روح آخر .

إنه وهو فى بيته الذى أسكن فيه إيفا يحس رجولة وفحولة واستقلالا ، إنه
السيد المرموق إذا دخل ، والسيد المترقب وفوده إذا غاب ، إنه رب من
الأرباب ، أما وهو فى العزبة فهو حسنة من حسنات الباشا ، إن كان إنجاب
الأبناء من الحسنات ، وهو تابع وظل وفرع ، ولن يكون أصلا ما دام الباشا
متربعا على عرشه كالطود .

كانت رجولته ومشاعره وكل خلجة فيه تهفو إلى إيفا ، تحرضه على أن يطير
إليها ، وقد ازدحم رأسه بأسباب كثيرة يعتذر بها عن غيابه عن العزبة ، وتقدم
من مكتب الباشا ، فألفاه جالسا على كرسيه وعثمان يلتقم أذنه كمعاده يوسوس
له بما شاء له الشيطان أن يوسوس .

وقبل أن يقتحم الباب وقف فجأة وأطرق ، فقد نبئت فى ذهنه فكرة
استراح لها ، إنه يستطيع أن يستأذن فى السفر إلى القاهرة لقضاء بعض
حاجاته ، وأن يؤكد عودته قبل الغروب ، ومن القاهرة يتصل بالباشا
تليفونيا ، ويخبره أن عطبا أصاب محرك سيارته وأن عودته لسوء حظه أصبحت
متعذرة . وألقى على الباشا وعثمان نظرة خاطفة ، ثم أسرع إلى السراى ليخبر
أمه أنه ذاهب إلى القاهرة .

وكان عثمان يوسوس للباشا بأخبار عبد الخالق وزوجته والرجال والنساء
الذين عرفوا طريقهم إلى العزبة ، وراح يقول للباشا أن الوافدين كلهم يحملون

معهم لعبد الخالق زجاجات الخمر ، وأن عبد الخالق أصبح لا عمل له إلا أن يشرب .

وكان الباشا يصغى وهو مهووم ، ولم تكن أنباء عبد الخالق سبب حزنه ، بل كانت المخاوف والأوهام تمور في رأسه ، وتجري في سريرته ، ولم يكن عثمان يحس السعادة التي يحسها . كلما أكل لحم الناس ، بل كان في ضيق لأن وجود الباشا في العزبة أثناء وقوع أزمة الخبز فوت عليه جنى أرباح كانت تمكنه من شراء بضعة فدادين يضمها إلى رقعة الأرض التي يملكها ، والتي يذل كل ما أوتي من مكر ودهاء وخسة ليوسع مساحتها .

كان أهل القرية لا يجدون إلا كسرات من الخبز الأسود . وسكان البندر يتجمعون أمام الأفران يخطفون ما يخبز فيها ، فلو كان طليق اليد ، وليس عليه رقيب ، لباع ما في المخازن من حبوب ووضع في جيبه فروق الأسعار الهائلة ، إنه يحب هذه الحروب ويكرهها ، يحبها لأن ارتفاع أسعار السلع مكنه من أن يجنى لنفسه مبالغ من الأرباح الضخمة دون أن يخشى انكشاف أمره ، ويكرهها لأنها اضطرت الباشا إلى الإقامة في العزبة ، مما فوت عليه فرصة يتمنى جشعه لو أنه كان وحده ليهتلها .

وكان الباشا في ضيق ، كلما مد بصره إلى أرضه الواسعة المزدانة بالخضرة ، النابضة بالحياة اندلع لهيب مخاوفه ، وراح يهمس في أغواره ذلك الحديث الذي سمعه بالأمس في صوت كفحيح الأفاعى . وضاق الباشا بالأفكار التي كانت تتمدد في صدره حتى كادت تمزقه ، فالتفت إلى عثمان وقال في صوت مضطرب :

— أراضينا كلها مهددة بالغرق .

فقال عثمان في دهش وقد اتسعت عيناه :

— بالغرق ! إننى لا أفهم شيئاً .

فقال الباشا وفي نبرات صوته رنة أسى :

— بلغنى أن مدير مكتب وزير الحرية دخل عليه وقال له : إن الجنرال ستون فى طريقه لمقابلة معاليه ، وإن الجنرال قادم ليطلب من معاليه التوقيع على أمر بقطع جسور النيل وإغراق مديرية البحيرة كلها ، إذا دعت ضرورة الدفاع إلى ذلك .

فقال عثمان فى إنكار :

— الدفاع عن ماذا إذا كنا سنغرق أراضينا ! .

— الدفاع عن الإمبراطورية البريطانية .

— وماذا فعل معالى الوزير ؟

— التفت إلى مدير مكتبه وقال : « أشعر بتعب فى عينى ، أريد أن أضع فيهما قطرة ، هل عندكم قطرة هنا ؟ » . وأرسل مدير المكتب إلى تومرجى الوزارة ، وجاء ووضع القطرة فى عينى الوزير .

وقال معاليه لمدير مكتبه : « لا أرى شيئا ، إننى لا أستطيع أن أرى شيئا ، انقلونى إلى البيت .. إلى البيت » . وخرج معالى الوزير وهو يتوكأ على كتف مدير مكتبه والتومرجى ، فى سلم الوزارة التقوا بالجنرال ستون وهو صاعد للمقابلة ، ولما رأى الوزير وهو مغمض العينين ماذا يده أمامه كالأعمى جعل يرمقه وهو يتميز غيظا ، وأفلت الوزير بذلك من توقيع الأمر .

— ما من مصرى يقبل أن يوقع مثل هذا الأمر .

فقال الباشا وهو يهز رأسه :

— لا يعدم الإنجليز أن يجدوا من يوقعه ويلبس قراره ثوب البطولة والوطنية .

وشرد بصره برهة ثم قال :

— لن تعرف الطمأنينة طريقها إلى قلبى إلا إذا عاد رفعة الباشا إلى الحكم .

وقال عثمان متملقا :

— رفعة الباشا لا يوقع مثل هذا القرار أبدا .

كانت أمينة هانم تشرف على تنظيف البيت في البكرة ، وكانت أربع فتيات من العزبة ينظفن البسط ، ويكنسن الغرف ، ويمسحن البلاط ، ويعدن تنسيق الأثاث ، ويضعن كل قطعة منه حيث تأمرهن الهانم .

وكانت الفتيات يقبلن على عملهن منشركات ، وكل منهن تفكر فيما ستفعله بالأجر الكبير الذى ستجود به الهانم عليها ، راحت إحداهن تمنى نفسها بشراء ثوب يدهشها فى هذا البرد الزمهرير الذى ينفذ إلى عظامها ، وتتيه به على أترابها ، وراحت أخرى تتصور سعادة أخيها لما تضع فى يده المبلغ ليذهب إلى البندر يشتري من العطار الدواء الذى وصفته له خالته ، وكانت الثالثة تغدو وتروح فى نشاط وكل أملها أن ينتهى العمل سريعا ، وأن تنقدها الهانم أجراها لتشتري خبزا لأمها وأخواتها الصغار ، وراحت الرابعة تحلم بسداد جزء من دين البقال .

وانتهى تنسيق السراى ، وراحت كل فتاة تنظف وزه مذبوحة ، وعادت الآمال العراض تنتشر فى الصدور المنهوكة ، فالباشا يعد اليوم وليمة فى الغداء ، والخيرات ممدودة ، وستجود الهانم عليهن بالقليل من الكثير الذى وقعت عليه عيونهن الجائعة . سيكون يومهن هذا عيدا ، فسيدخل دورهن الخاوية طعام فاخر طهى فى سراى الباشا .

وظلت أمينة هانم بينهن فى ثيابها المتزلية ، تحرضهن على الإسراع ، وترقبهن فى حرص شديد ، خشية أن تخفى إحداهن قلب الوزه أو كبدها لما تفتح بطنها .. وقطعت الأرجل وأخرجت الأمعاء ، وهمت الفتيات بإلقائها بعيدا ، فإذا بالهانم تأمرهن بتنظيفها وشقها وإزالة الجلد عن الأرجل ، ولف الأرجل بالأمعاء المشقوقة ، وراحت تخبرهن أنها تصنع من الأرجل الملفوفة بالأمعاء (الحصاد)

حساء لذيذا .

وراحت الفتيات المتسريلات في جلابيب سود كلح لونها ، والمتعصبات بمناديل ممزقة يتبادلن النظرات في حذر ، وقد كانت نظرات ازدراء وإنكار فهن الفقيرات اللاتئ قد تمر عليهن سنون دون أن يذبحن وزه ، لا يسلخن أرجلها ولا يشققن أمعاءها لتلف حول الأرجل إذا قدر لهن يوما أن يذبحن وزه .
ورأت في عيونهن ذلك الإنكار الصارخ ، وقلما كانت تفهم لغة العين الفصيحة ، فلم تنفعل بل رأت أن من واجبها أن تزيل ذلك الجهل الجاثم على صدورهن ، فراحت تقول لهن حكمتها الفريدة :

— البطر يزيل النعم .

ولم تستوعب الفتيات حكمتها ، لم يكن للفظه البطر عندهن مدلول ، فالكفاف عز عليهن ، ولو وجدن خبزا أسود وفحلا من البصل أو قرنا من الفلفل الأخضر لقبلن حمدا أكفهن بطنا وظهرا . لم تكن الهائم موفقة في حكمتها ، فولدت على شفاههن بسمات ساخرة .

ووضعت أواني الطهو على مواقد كثيرة ، وأتمت الفتيات أعمالهن ووقفن في المطبخ ينتظرن ، وجرت إحداهن وراء خيالها جريا حثيثا ، فعرضت آمالها حتى إنها في أعماقها كانت تغبط نفسها على توفيقها في يومها هذا .

وجاءت أمينة هائم وشكرتهن ، وكان ذلك الشكر في حقيقته أمرا لهن بالانصراف ، فخرجن من المطبخ ساهمات ، تقوض في لحظة أملهن العزيز الذي داعبهن ساعات ، أمل العودة إلى دورهن المقفرة الخاوية بطعام من سراى الباشا .

انقبضت قلوبهن ، ولكن اليأس لم يتسرب إليها ، فإذا كان حلم العودة بطعام فاخر بددته الحقيقة ، فلا زال بصيص من حلم آخر يقاوم الظلام الزاحف على نفوسهن ، حلم العودة بنقود تحقق الأمان والآمال .
ومدت أمينة هائم يدها بقطعة فضية من ذات العشرة القروش ، ووضعتها في

يد إحداهن قائلة :

— قسمنا فيما بينكن .

وعلا وجوههن وجوم ، وزاغت أبصارهن ، وقطعت نياط قلوبهن ،
وخرست ألسنتهن ، وإن تدفقت في حناياهن مشاعر الخنق والغضب والأسى
وكل ألفاظ السباب .

وسرن مطرقات الرعوس ، يشعرن كأن جفاف الحزن يكسادهن بخرط
حلوقهن ، وأن دموعهن لتغسل وجوههن ، وجعلن يشددن على أنفسهن
حتى لا تنهار مقاومتهن ، وما إن غادرن السراى ، حتى عجزت إحداهن عن
كبح عواطفها الثائرة ، فراحت تنشج وتجهش بالبكاء .

وأقبل على السراى أحد أقارب الباشا ، وكان ذلك شيئا غير مألوف ،
فالباشا لا يزور أحدا من أقاربه ، ولا يزوره منهم أحد ، ولولا أن أرسلت أمينة
هانم في طلبه ما فكر أبدا في هذه الزيارة .

كان الرجل مسنا على أعتاب السبعين ، أطلق لحيته البيضاء وأمسك في يده
مسبحة ، كان يحرك حباتها بين أصابعه وشفته دائمة التسبيح . وجاءت أمينة
هانم وصافحته في توقير ، وأقبلت عليه تحدّثه في ود صادق ، كانت كلماتها
منبعثة من قلبها .

وجاءت خادمة شابة تحمل القهوة ، كانت متناسقة التقاسيم ، في وجهها
ملاحة ، وكانت كل الفتيات اللاتي يعملن في السراى على جانب من
الوسامة ، فالباشا لا يطيق أن تقع عيناه على فتاة دميمة .

ورشف الرجل من الفنججان رشفة ، والتفت إلى أمينة هانم وقال :

— خيرا ؟

قالت وهي ترمقه في احترام :

— قيل لي أنك مسافر إلى الحجاز .

فقال الشيخ في بساطة :

— بإذن الله . سأحج حجتي الثالثة .

فقلت في توسل :

— لي عندك رجاء .

— أنا خادمك .

فقلت في إنكار :

— العفو .. أنت الخير والبركة .

وصمت قليلا ثم قالت وفي صوتها نبرات فرح :

— عندي مبلغ من المال أريد أن أتصدق به على فقراء مكة والمدينة ،

ولما علمت أنك مسافر قلت جاء الفرج .

فقال الشيخ في اعتزاز :

— على الخير وقعت ، إننى أعرف فقراء مكة والمدينة بيتا بيتا ، يا طالما

أعطيتهم بيدي هذه أمانات أهل الخير .

ورفع يده إلى السقف وقال :

— اللهم أعطنا من فضلك لتتصدق ، إن للتصدق حلاوة وطلاوة .

وقامت إلى صوانها ، وعادت وفي يدها مائة جنية ، وضعتها في يد الشيخ ،

فتناولها وهو يقول :

— سيخلفه الله عليك ، فما من يوم يصبح فيه العباد إلا وملكاً ينزلان

فيقول أحدهما : اللهم أعط منفقاً خلفاً ، ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكاً

تلفاً .

وتملل في مقعده وهو يقول :

— اللهم اجعلها من المنفقين .

ونفض لينصرف ، فقالت له :

— والله لا يصح أن تنصرف وقت الغداء ، امكث لتتغدى معنا .

فقال وهو يدور ويتجه نحو الباب :

— فى الأفراح إن شاء الله .
ولم تلح عليه ، كانت تخشى ألا يصادف بقاؤه هوى فى نفس الباشا ، فقالت
فى تخاذل :

— يحتفل الباشا اليوم بعودة رفعة الباشا إلى الحكم ، ابق معنا .
فقال وهو يخرج من الباب :

— عامر . دائما عامر .

وقالت فى راحة :

— نراك بخير إن شاء الله .

فقال فى صوت وصل خافتا إلى مسامعها :

— وأنتم بخير .

وراح يبتعد وهى ترمقه وبين ضلوعها نشوة وسعادة وطمأنينة وسلام
وأمل دفىء ، فقد كانت تؤمن بكل جوارحها أنها قد وضعت بذلك المبلغ الذى
تصدقت به على فقراء مكة والمدينة أساس قصرها الشاىخ فى الجنة !

١٦

كانت الوليمة قاصرة على الباشا وزوجته وحلمى وعبد الخالق وبثينة
وعثمان ، وقد غابت عنها إلهام فقد أصرت على العودة إلى القاهرة بعد أن تلقت
من بدر الدين رسالته التى هزتها ، وجعلتها تغيب عن كل ما حولها لتفنى فى دنيا
حبيب القواد ، إنها لم تصارح بثينة بما بيتت عليه عزمها ، بل تعللت بالشوق إلى
أهلها وفتور الغارات ، وألحت بثينة عليها لتبقى ، ولم توافق على سفرها
إلا لما مكرت بها إلهام وأفهمتها أنها ستسافر مع حلمى فى سيارته ، وأنها قد
رتبت ذلك معه .

حسبت بثينة أن كثرة التقاء حلمى بإلهام أثرت الثمرة التى ترجوها ، بدأت

تجذب قلبه إلى قلبها ، وأن كثرة العيون والرقباء لم تتح لهما بث لواعج النفس وتباريح الغرام ، فدبرا أمر تلك السفرة ، ولكن إذا كان الحب قد ربط بين أختها وحلمى ، فلماذا لم تزف إليه إلهام الخبر وهى تعلم أن ذلك غاية أمانها ؟ إن إلهام معتزة بنفسها ، لا تحب أن تتحدث عن شيء لم يتبلور بعد ويسفر عن حقيقة ، خشية جرح كبريائها إذا قدر لذلك الشيء ألا يكون ، ولكن لا بأس ، يكفى أنها أصبحت تسير على الدرب الذى رسمته بثينة .

وراحت بثينة تؤازر حلمى ، وتفكر معه فى الأسباب التى يتحللها كلما أراد أن يسافر إلى القاهرة ، ويبيت بها ، وكانت واثقة فى قرارة نفسها من أنه يقابل إلهام ، فإنها تستطيع أن تقرأ سطور الحب المكتوبة فى عينيه عقب عودته إلى العزبة ، فعين المحب خائنة ، تثرثر دواما بما فى السرائر .

كانت تحدثه تلميحا عن حبه المترقق فى وجهه ، المتألق فى بسمته ، المتحدث فى لفتته ، المشع فى نفسه رقة وحنانا ، وكان يتسم فى رضا ، لا ينكر حبه وإن حرص على عدم كشف الستار عنه ، وكادت أكثر من مرة تسأله عن إلهام ، وعن أخبارها معه ، ولكنها كانت تكبت رغبته الملمحة ، فمن الأكرم لها ولأختها أن يفصح هو عن هيامه دون أن يدفع إلى ذلك دفعا .

التقوا حول المائدة وقد ارتدوا ثيابهم كاملة . لم يشفع لهم أنهم فى العزبة ليتحللوا من قواعد اللياقة الصارمة التى لا يتساهل فيها الباشا أبدا ، كان عبد الخالق يرتدى بذلته وطربوشه ، وعثمان فى أناقته الريفية ، وحلمى عارى الرأس ولكنه يرتدى بذلة أنيقة ، وكرفاته سولكا ، لا تقل فخامة عن الكرافاتة التى تزين صدر الباشا .

وصمم حلمى على أن يتنزه فرصة عودة الوفد إلى الحكم ليسافر إلى القاهرة ليقابل إيفا ويقضى بين أحضانها ليلة ، فقال :

— سأسافر بعد الغداء لأهني رفعة الباشا ..

وكان عبد الخالق يمقت وجود الوفد فى الحكم ، فذلك يزيد الباشا غطرسة

وعجرفة ، فقال وهو يتعمد جرح إحساسات أبيه :

— الأمر لا يحتاج إلى تهينة بل تعزية .

فقال الباشا في تحد :

— لماذا ؟

وشعر عبد الخالق أن معركة ستنبش بينه وبين أبيه ، وأنه قادر على أن ينتصر في هذه المعركة ، فرحب بها ، فقلما نازل أباه في معركة وانتصر عليه ، قال :

— سيكون ٤ فبراير يوما أسود في تاريخ الوفد ، فقد عاد إلى الحكم على دبابات الإنجليز .

فقال الباشا منفعلا :

— رفعة الباشا بقبوله تأليف الوزارة أنقذ العرش .

فقال عبد الخالق في زراية :

— رفعة الباشا المطالب باستقلال البلاد ، يعترف بتدخل الإنجليز في شئوننا الداخلية ، ويتلقى أمر تعيينه من سير مايلز لامبسون .
فقال عثمان وهو يتطلع إلى الباشا بين وقت وآخر ، كأنما يقول له انظر إننى أؤيدك :

— فضحك عبد الخالق في استخفاف وقال :

— وقد أيد احتجاجه بالصورة التى ظهرت له ولرفعة الهام وللسير مايلز لامبسون وقد وضع السير ذراعا في ذراع الباشا والأخرى في يد الهام !
وشاءت بثينة أن تعلن للباشا أنها في صفه ، فقالت :

— انتقم الرجل لإقالاته التى لم يكن لها ما يبررها .

وقال حلمي ليرضى أباه :

— لو قبل تشكيل وزارة ائتلافية ، هل كان موضوع التدخل البريطانى

أثير ؟

لا أظن ، كان جميع الزعماء الساخطين الآن يمجدون وطنية رفعة الباشا .
وقال الباشا في حماسة :

— كان الملك في مجالسه يتحدث عن هزيمة الإنجليز في شماتة ، وكان رجاله يتصلون بالألمان سرا ، إننا في زمن حرب لا يحتمل فيه مثل ذلك العبث ، فكان لا بد من أن يضع الإنجليز حدا لهذا ليحموا ظهورهم ، فزحفوا إلى القصر بدباباتهم ، وكادوا يطيحون بالملك .
فقال عبد الخالق :

— ولماذا أرغموا الملك على تكليف عدوهم اللدود المطالب بجلاتهم عن البلاد بتأليف الوزارة ، في البلد كلاب كثيرون غيره مستعدون لإعطائهم أكثر مما ينتظر أن يفرط فيه الوطنى الكبير !
فقال عثمان :

— لأن رفعة الباشا ديمقراطى والإنجليز يدافعون عن الديمقراطية .
ولم يعجب ذلك الرد حلمى ، فقال :
— لأن رفعة الباشا هو الذى وقع معهم معاهدة ٣٦ وهو أقدر الزعماء على تنفيذها .
فقال عبد الخالق :

— جميع الزعماء اشتركوا في توقيع معاهدة ٣٦ .
فقالت أمينة هانم في بساطة :
— رفعة الباشا لا يشك في وطنيته أبدا ، أنا أثق فيه ثقة مطلقة .
ورمقتها بثينة دون أن تنبس بكلمة ، وإن راودتها أمنية كسر رأسها ورؤية ما يجرى فيه من خواطر وأفكار ، إنها مقتنعة أنها داهية ، وأنها الوحيدة التى تنقض غزلها ، وإن تظاهرت بالسذاجة والبساطة ، إنها نار تسرى فى الهشيم .
وقال الباشا شارحا الموقف :
— طلب رفعة الباشا بالذات لأنه زعيم الشعب . الذى يثق فيه الشعب ،

والذى يسلس له قياده ، فهو وحده القادر على إدخال الطمأنينة فى القلوب ،
وتهدئة الجبهة الداخلية ، فيتفرغ الإنجليز للحرب وهم مطمئنون .

فقال عبد الخالق وهو يلوى شفته فى سخرية :

— وهل هذه هى الوطنية ، إن كان ذلك صحيحا ؟

فقال حلمى :

— إذا لم تكن هذه وطنية ، فماذا تكون ؟

وجبن عبد الخالق عن أن ينطق الكلمة التى تتراقص على لسانه ، خشى ثورة
أبيه العارمة ، فقال :

— تكون ما يقوله المعارضون .

وثار أبوه وقال :

— كل ما تقوله المعارضة افتراء وكذب .

فقال عبد الخالق ، دون أن يرفع عينيه عن الطبق الذى أمامه :

— وكل ما يقال للناس بعيد عن الحقيقة .

وأراد عثمان أن يخرج عبد الخالق ، فقال له :

— فما هى الحقيقة إذن ؟

وكان عبد الخالق يستدرجهم ليسألوه عن ذلك ، فاعتدل وقال :

— الحقيقة هى أن أزمة الخبز استفحلت ، اختفى الخبز من الأسواق ،

فتذمر الناس ، وانصب غضبهم على الإنجليز ، وكان الموقف ينذر بالانفجار ،

ولو اندلعت الثورة فى الداخل ، لأصبح موقف الإنجليز فى الميدان حرجا ،

ولازداد سوءا ، فأروا إحداث أزمة فى الداخل ليشغلوا الشعب بها عنهم ،

وكان لهم ما أرادوه .

كان عثمان يتمنى أن تدوم هذه الأزمة إلى بعد ترك الباشا العزبة ، فهو لن

يطيق المكث بها واجتماعات الحزب على قدم وساق ، آه لو كانت قد استمرت

بعد سفر الباشا لجنى أرياحا يسيل لها لعاب طمعه ، فقال فى مرارة :

- لقد قضى رفعة الباشا على أزمة الخبز في يوم وليلة .
فقال عبد الخالق في استخفاف :
— هل أفهم من ذلك أن رفعة الباشا استورد القمح اللازم للبلاد ؟
فقال حلمى في بساطة :
— فتح الإنجليز مخازنهم وأخرجوا كل ما فيها من غلال .
فقال عبد الخالق :
— ولماذا لم يفعلوا ذلك مع حسين سرى باشا ؟
فقال الباشا :
— لأنهم لا يثقون فيه .
فقال عبد الخالق ساخرا :
— الحمد لله الذى جعل رفعة الباشا موضع ثقة الإنجليز .
فقالت أمينة هانم في سذاجة :
— من العجيب أن يكون القمح في مخازنهم ويتركوا الشعب يموت جوعا .
فقال عبد الخالق :
— من العجب ألا يفعلوا ذلك ، ضنوا بالغلال ليخرجوا الملك والوزارة ،
ولما جاءوا برفعة الباشا فتحوا له مخازنهم ، ليزيدوا هوة الفرقة اتساعا .
فقال حلمى وهو ينظر إلى أخيه في استخفاف :
— وكيف كان ذلك ؟
قال عبد الخالق :
— أعطوا رفعة الباشا ما ضنوا به على من قبله ، ليلبسوا رفعتهم ثوب
البطولة ، ولتتاح الفرصة للهتافة أن يهتفوا ، وللنافخين في أبواق الدعاية أن
ينفخوا ، وللطبل والزممر والرقص أن يبلغ مداه ومنتهاه ، وبذلك ننشغل
بالتهريج وبمخصوصاتنا عن عدونا الحقيقى الذى يترنح أمام عدوه الذى يكيل له
الضربات .

وضاق صدر الباشا بكلام عبد الخالق ، فقال له :

— وماذا كنت تريد من رفعة الباشا أن يفعل ؟

فقال عبد الخالق :

— أن يرفض تكليف الإنجليز له بتأليف الوزارة .

فقال عثمان في فزع :

— ويسمح بخلع الملك ؟

— لو وقف الزعماء كلهم في جانبه لما استطاعوا أن يخلعوه .

فقال حلمي :

— لو وقف الشعب والزعماء معه لخلعوه ، إنهم مسلحون ... في

حرب .. ونحن عزل من السلاح ، ما كانوا يترددون في ضربتنا وإعادة فرض
الحماية علينا لو أحسوا بواذر الثورة .

فقال عبد الخالق :

— لم نسمع ولم نقرأ أن دولة نالت استقلالها بالمفاوضات ، كانت فرصة

نادرة ضيعها رفعة الباشا .

فقال الباشا في حنق :

— كنت تريد أن تحارب الإنجليز ؟! فالح .

وكأنما أراد أن يخرسه فقال :

— وقد ظهر فلاحك في شعونك كلها ، في صفقاتك التي تقوم بها في

أرباحك العظيمة التي تجنيها ، في نجاحك المطرد المرموق !

وتهللت أسارير عثمان ، أثلجت صدره اللطيمات التي وجهها الأب لابنه

وصحمت حلمي ولم ينبس بكلمة ، وإن استشر أسى ، فلم تعجبه الطريقة التي

أنهى بها الباشا المناقشة ، وكانت بثينة راضية كل الرضا ، فصمود زوجها لأبيه

يمدها بأمل قدرته على الوقوف في وجهه إذا ما تأزمت الأمور ، ولم تكن قد

تأزمت بعد بالنسبة لها ، كانت لا تزال تأمل في الباشا وفي حلمي ، أما أمينة هانم

فلا أمل فيها ، كل ما ترجوه أن تسكت عنها .
ورأت أن توجه الحديث وجهة أخرى ، فقالت :
— أرجوك يا حلمى أن تمر على قبل سفرك لأعطيك رسالة لإلهام .
والتفت الباشا إلى عثمان وقال :
— سنعود إلى القاهرة غدا إن شاء الله .

وساد الصمت برهة ، شغلوا بأفكارهم عن كل ما حولهم ، الباشا يفكر في الحزب واجتماعاته ونفوذه الذى عاد إليه ، ويمنى النفس بمقابلة أنهار ، فقد أرسل إليها ما كان يرسله لجمعية الفتيات الصالحات ، ولكن من أرسله عاد إليه يخبره أن أنهار وفتياتها الصالحات قد هاجرن إلى القاهرة بعد تلك الغارة العنيفة التى تعرضت لها الإسكندرية ، وحلمى يفكر فى إيفا والأعداء الجديدة التى سينتقلها ليغيب عن البيت فى القاهرة ، وراودته فكرة أن يتعلل بالسفر إلى العزبة ، فابتسم ابتسامة خفيفة ، فالقاهرة تحلو له لما يكون أهله فى القاهرة ، ولولا ظهور إيفا فى حياته ، لما قبل أن يظل تحت الولاية حتى الساعة ، فإنه لشيء جميل أن يحس المرء أصالته واستقلاله .

وراح عبد الخالق بمضغ مرارة كلمات أبيه مع الطعام الذى يلوكه ، فالباشا يعذره دائما بخسائره ويقسو عليه كأنما يتلذذ بهذه القسوة ، إنه لم يكن يكره الباشا ، ولكن الباشا يلقي فى صدره بذور المقت ، ويخصب لها الأرض بأفعاله ، وإنه ليحس أنها بدأت تمت جذورها فى أعماقه .

وأخذت بثينة تفكر فى حلمى وفى إلهام وفى الأرض الخضراء التى تنبت الخير التى ستصبح فى حوزتها بعد زواج حلمى وإلهام ، واستراحت لأوهامها فراحت تهتف فى أعماقها فى حماسة : « حقا من يزرع يحصد » .

وجعل عثمان يفكر فى الفرصة الذهبية التى لم يستطع أن يستغلها كل الاستغلال لوجود الباشا فى العزبة ، فرصة أزمة الخبز ، وراح يعزى نفسه بأن هذه الأزمة إذا كانت قد مرت دون أن يستفيد منها ، فما أكثر الأزمات القادمة

التي سيجنى من ورائها أرباحا تمكنه من توسيع رقعة أرضه .
وكانت أمينة هانم تفكر في فقراء مكة والمدينة والمائة جنيه التي دفعتها ،
وقصرها الذي ستشيده في الجنة .

١٧

وقفت إيفا أمام المرأة تصلح زينتها ، كانت ترتدى ثوبا بسيطاً أحمر يكشف
عن صدرها وذراعيها وقد حسر عن ساقها ، وكان البشر يتألق في وجهها ،
وعيناها الساحرتان تشعان فرحة ورضا ونشوة وسلاما ، فقد كانت تهيم في عالم
وردي من الرؤى العذاب التي تنسكب في سريرتها ، فتدغدغ حواسها ،
وتجعلها تذوب في دنيا السعادة الشفافة الرقراقة التي تخدر المشاعر خدرا يسرى
في الروح كوقع أول قبلة على شفاه عذراء .

وأضاءت النور الأحمر الخافت ، ومالت على السرير تبسط ثنيات المفروش
الحريرى في رقة وحنان وحب ، فقد كانت تقبل على كل ما تفعله من شرحة
الصدر ، تستشعر تعاطفا بينها وبين كل الأشياء . وتناولت قارورة العطر
وراحت تضغط على منفاخها المطاط وهي تسرى في الغرفة رشيقة كالطيف ،
فتعقب الحجرة بالعطر الفواح .

وانسلت من الغرفة ، وأغلقت الباب خلفها هونا ، وفاضت سعادتها
فأخذت تترنم بأغنية عاطفية تصف سعادة المحبين ، وقد ترنمت بها مرارا في
بلادها ، وفي أثناء هيامها على وجهها بعد أن اجتاحت النازى التيرول الحبيب ،
وكانت تحس حرقة في حلقها وهي ترددها وغالبا ما كانت تطفر الدموع من
عينها ، أما ما تحسه في هذه اللحظة فهو شيء آخر يختلف عن كل ما أحسته من
قبل ، شيء آخر لذيذ يتغلغل في الأعماق ليفجر كنوز المشاعر الدافقة النابضة
بالأمل وحلاوة الحياة .

وراحت تعد السفرة ، كانت تتكون من نضد صغير وكرسیين من الخيزران ، ولكنها كانت في عينيها أجمل مائدة في الوجود ، أجمل من كل قاعات الطعام التي شاهدها في الفنادق الفخمة التي عملت بها ، فقد كانت تلك القاعات الواسعة الفسيحة كمتاهات تبعث في النفس رهبة وقلقا وانقباضا ، أما نضدها فيتنفس بالذكريات ، إنه قطعة من سويداء قلبها ، تحبه وتستشعر تعاطفا معه وانجذابا إليه ، وولعها به يفوق حبها لكثير ممن تدفعها ضرورات الحياة إلى أن يرتبط بينها وبينهم الأسباب . ووضعت قدحين وزجاجتي بيرة وصحفة من بلور بها جذاذات من خضر وجزر أصفر وشرائح من الطماطم وزينتها بخسة زرعتها في الصحفة . كانت تهفو إلى البيرة والخمر لتفر من نفسها ، وتقضى على القلق الموار في جوفها ، وتحرك النشوة الغافلة تحت وطأة حياتها ، وتفتعل السعادة الشاردة من دنياها ، ولكنها أمست تتناولها لتنعيم بحقيقة جديدة تكشفت لها ، أزاح الستر عنها حبا الصادق المتغلغل في حشاياها ، حقيقة فيضان النشوة الطبيعية على كل نشوة مفتعلة حتى تغمرها ، فالنشوة المخلوقة من قبلة الحبيب تبخر أعتى نشوة تولدها أعتى الخمر ، وشتان بين النشوتين : إحداهما باقية تتغلغل في الأعماق ، وتكتنز في الحنايا ، ويزكو عبرها على مر الزمن ، والثانية سرعان ما تتلاشى ، مخلفة الصداع والألم ودق القواديم في الرعوس .

واتجهت إلى الراديو وأدارت مفتاحه ، فسرت موسيقى حاملة تعاونها على الهيام في عالم وردى ورقاق تنتعش فيه الرؤى العذاب المجنحة ، كانت فرحتها مزغردة في ضميرها ، لا لأن حلمي سيزورها الليلة وحسب ، فيما طالما زارها وأسعدها ، بل لأنه سيزورها لأول مرة بعد ذلك الإحساس الجديد كل الجدة ، العظيم غاية العظمة الذي غرسه فيها ، والذي بدأت تحس نبضه في حشاياها .

إنها تحب حلمي من أعماقها ، كل خلجة من خلجات نفسها تترنم بذلك

الحب وتسبح له ، فهو الندى الذى فتح ورود مشاعرها ، وهو البلبل الصداح الذى شدا بالحياة فى روضة نفسها المهجورة ، وهو اللمسة السحرية التى بدلتها تبديلا ، فحولت قلقها سلاما ، وخوفها أمنا ، وكفرها إيمانا ، إنه مفجر الخير فيها وموقظ أنبل أحاسيسها ، وإن ذلك العالم الأخير الذى أخذ بيدها إليه هو العالم الذى بهرت لذته كل عوالم اللذة التى عبرتها معه فى سفينة غرامه المفعمة باللذات .

كانت تخشى الفناء ، ترتجف هولا إذا ما طافت بذهنها فكرة أنها ستصبح ذات يوم عدما ، هى وذلك التراب الذى تدوس عليه سواء بسواء ، ولكنها بعد ذلك الكشف الجديد غشيتها طمأنينة عجيبة ، فلن تفتنى أبدا ، وستستمر حياتها ويتجدد شبابها ، فقد وهبها حلمى الخلود والحياة الأبدية .

وراحت تقلب وجهها فى جنتها ، فتنزل السكينة فى قلبها وتغشاها طمأنينة ، وتفكر فى كل هذه السعادة التى تكتنفها فتنبثق من أعماقها مشاعر حنان دافق ، وتقع عيناها على صورته فتتجذب إليها وتقف أمامها خاشعة برهة ، ثم تقلبها فى حرارة استجابة لتلك العواطف الجياشة التى فاض بها فؤادها .

ودق جرس الباب فى رفق ، فخفت تفتحه خافقة القلب ، ورأته أمامها يبتسم فأشرق قلبها بالنور ، وسار إلى جوارها يقبلها ، ورأى المائدة نسقت فى روعة ، وأحس روحا جديدا يسرى فى العيش الجميل ، كانت تتألق دائما فى تنسيق مسكنها ، ولكن الجو الذى هيأته الليلة يفيض رقة وعذوبة ، ويوحى بأنها تحتفل بمناسبة سعيدة ، فنظر فى عينيها طويلا ثم قال :

— هل اليوم عيد ميلادك ؟

فقالت وقد توجت شفتيها بسمة :

— اليوم أسعد أيام حياتي .

وشرد بصره قليلا ثم قال :

— احتفلنا بمرور سنة على تعارفنا منذ تسعة أشهر فقط ، ولم يحن بعد موعد احتفالنا بمرور عامين ، فماذا نحتفل الليلة ؟

فقالت في صوت منهدج مشحون بالفخر والسرور :
— نحتفل بشمرة حبنا .

فرمقها مذهولا وقال :

— ثمرة حبنا ؟!

وتعلقت بعنقه وراحت تقبله في حرارة وهي تقول مزهوة :
— سأصبح أما .. سأصبح أما .

ونظرت إلى حلمي في وجد وعيناها تشعان حبا وهياما ، وقالت في رقة ساحرة :

— وأنت يا طفلي الكبير ستصبح أبا .

وراحت تلعبه بعيونها وموسيقى ملائكية تسكب أعذب الألحان في أعماقها والكون يغني لها ، وأحست رغبة في أن تتحدث ، أن تعبر عن القرحة المعربدة في جنبات صدرها ، فأخذت تقول وهي ترنو إليه مأخوذة :

— إن ذلك الشيء الذي في أحشائي عجيب ، فجر في نفسي ينابيع هائلة من الحب ، ينابيع غنية بالحنان ، لم أذوق لها طعما من قبل ، أليس مما يدعو للعجب أن تحب شيئا قبل أن تراه ، إنني أحب ذلك الشيء الذي في بطني حبا عميقا جارفا ، استولى على كل عواطفى ، إننى لو خيرت بين أن أضحي به أو أضحي بنفسى لما ترددت ، أصبح هو أولا وبعده كل شيء .

وصمت قليلا ، وجعلت تمرغ وجهها في صدره في وله ، ثم أسندت جبهتها بجبهته ، ونظرت في عينيه اللتين أخذ القلق يترجح فيهما وقالت :

— أنت حبي الأول ، وهو حبي الأخير ، إننى لن أنسى ما حييت أنك الذى أدخلتنى هذا العالم الساحر الجميل ، وأنت الذى فجرت في سريرتى كل هذه الينابيع الغنية بأرق العواطف وأطهر الأحاسيس ، كنت قبل أن ألقاك لا أعرف

إلا القلق والعذاب والخوف من المجهول الذى كنت أتصوره غولا فاغرا الى فاه ليبتلعنى ، ولكن بعد أن عرفتك انبثقت كنوز نفسى التى بهرتنى مفعمة بألوان عجيبة من الحب ما كنت أتصور أن لمثلها وجودا ، ومن أين للمحروم أن يعرف طعم الطيبات التى يزخر بها الوجود ؟

وجعل يرمقها وهو صامت ، ويمرر يده على شعرها فى فتور ، وإن كان فى نفسه يعجب من الفرحة الطاغية التى استولت عليها ، إنه يحس خوفا يزحف فى جوفه وينتشر فى جنباته ، فقال فى صوت خافت :

— ألسنت خائفة ؟

فقلت وهى تبتسم فى اطمئنان :

— خائفة ؟ لم يراودنى هذا الشعور لحظة ، إننى لم أعرف سكينه النفس وطمأنينة الوجدان من قبل كما أشعر بها الآن ، كنت أختزن فى نفسى الذكريات العذاب لأجد فيها متنفسا لحبى إذا ما قسا الزمان يوما وحرمنى الحبيب ، ولكن ذلك الذى فى أحشائى سأغمره بكل طاقات حبى ، سأضمه إلى صدرى لأستشعر أننى لست وحدى ، إننى أشكر لك ما صنعتته من أعماق لأنك وهبتنى هذه النعمة ، ولن أسمح لنفسي مهما أسأت إلى أن تغضب أو حتى تفكر فى عتابك ، لأنك أب لولدى ، ولأنك الذى جعلت منى أما تسعد بكل ما فى الأمومة من جمال .

وراحت تقبله وتنحسس ذقنه فى حنان ، ونبت فى رأسها فكرة أشرق لها وجهها ، وكانت سعادتها فوارة ، فعجزت عن أن تحتفظ بها فى ضميرها ، فقلت وهى ترنو إليه فى هيام :

— رائع أن يكون لى ولد منك ، وأن يكون جده باشا .

وراحت تغنى له أغنية الفالس التى يحبها : « أقبل يدك يا سيدتى وأتمنى لو كانت شفتيك ؟

I kiss your hand, Madam, I wish it was your lips.

(الحصاد)

وربت مخاوف حلمي لما صكت لفظة « الباشا » أذنيه ، وتقاصرت نفسه ، وازدحمت رأسه بأفكار بغیضة زعزعت أمنه ، أنه لا يدري ماذا يقول للباشا لو انكشف أمره ، وهو لا بد أن ينكشف يوما ، فما يستطيع أن يخفي ولده إلى الأبد عن أعين الناس .

ولده ؟ إن هذا لم يخطر له قط على بال ، ما كان يتصور أن يكون له ولد وهو في هذه السن ، ومن ؟ من إيفا الفتاة النمساوية الطريفة التي ألفت بها المقادير في طريقه .

إنه لا يريد ذلك الشيء البغيض الذي تدعوه ولده ، ينبغي أن يتخلص منه ، ولكن كيف وهو ليس بين أحشائه ولكنه بين أحشائها ، لا بد أن توافق هي على ذلك الخلاص ، وما يحسب أنه قادر على إقناعها بهذا الرأي وهي على ما هي عليه من فرحة بذلك الحدث الجديد الذي هزه هزات عنيفة قاسية .

عليه أن يترى وأن يستعين بالصبر والدهاء حتى ينفذ إلى هدفه ، ويتخلص من ذلك الشيء الذي يهدده بالعار ، وراح يجاريها في عواطفها وقد غفت كل مشاعره ، إلا أحاسيس الألم والقلق والرغبة فقد أخذت تتضخم وتتضخم حتى ابتلعتته .

١٨

كانوا في غرفة الاستقبال يتسامرون ، عبد الخالق يتحدث إلى الأستاذ عن الموسيقى ويلقى على آخر ألحانه وأغانيه ، وجلست قبالتها سيدة متأنقة ، تحاول أن تبدو شابة وإن كانت إلى الشيخوخة تسير ، إنها صاحبة فرقة مسرحية وممثلتها الأولى وإلى جوارها مرسى يسر في أذنها حديثا تنبسط له أسارير السيدة ، كان يحدثها عن فتاة جميلة في السابعة عشرة قبلت أن تذهب إلى شقته في شارع سليمان باشا لتقابل الممثلة الكبيرة التي تقدرها وتعجب بها .

ومرسى شاب أسمر ، له أنف كبير ، وعينان مضعضعتان ، تنم كل حركة من حر كاته عن ضعة أصله .. إنه يعمل فى مسرح السيدة . لم يظهر على خشبة المسرح ، ولم يواجه الجمهور ، ولكنه هو الذى يرفع الستار لتبدأ المسرحية ، وهو الذى يسد لها لينهى بعض الفصول ، ثم ينزلها على الفصل الأخير .

كانت هذه مهنته العلنية ، وكانت مهنته المستورة لا تختلف كثيرا عما اعتاد أن يقوم به فى المسرح ، إنه صاحب شقة فاخرة فى سليمان باشا ، كلها غرف نوم ، ودوره فيها أن يفتح الباب لرجل وامرأة وأن يغلقه خلفهما ، لا يشاهد المسرحية ولا يشترك فيها ، وقد يسرت له شقته وكتمانه وحفظه للأسرار اندماجه فى الطبقات الموسرة التى تقدر خدماته الجليلة !

ودخلت بثينة الغرفة وهى تبتسم ، وألقت على الموجودين نظرة ، وهمت بأن تعود من حيث جاءت . ولكن الأستاذ قال وهو يتململ :
— جعنا .

فقال بثينة :

— أنا جاهزة ، ولكن رفعت لم يأت بعد .

فقال مرسى فى لهجة بلدية :

— كان ابن الكلب أول قادم ، فما الذى أخره الليلة ؟

فقال عبد الخالق وهو يبتسم :

— تكلم فى التليفون وقال إنه قادم ومعه هدية يسيل لها لعابكم ، وطلب أن يترك وسط المائدة لهديته .

وقالت بثينة وهى تضحك :

— إنه لم يطلب ، ولكنه أمر ، وقد وضعت فى وسط المائدة صفحة كبيرة فارغة من الفضة .

فقال الأستاذ وهو يضحك :

- هل تنتظرون أن يحضر رفعت ديكاً رومياً !
فقالت الممثلة الكبيرة وهي تضحك :
— ومن أين لهذا الشحاذ بمثل هذه الهدايا ؟ إنه لو بيع كله لما اشترى بثمانه
ديك رومى .
وضحك الأستاذ وقال :
— الاختلاسات هي مودة هذه السنة ، أخشى أن يكون رفعت قد صادق
صراف وزارته وأغراه على أن يختلسا معا مال الدولة . رفعت يعملها ..
سأه .. ثعبان ...
فقال مرسى :
— لو فعلها ابن الكلب وانكشف أمره لجررنا كلنا إلى المحاكم .
فقالت بثينة مدافعة عنه :
— رفعت لا يسرق أبدا .. إنه ابن حلال مصفى .
فقالت الممثلة الكبيرة :
— وهل يسرق إلا أولاد الحلال ؟
وضحك الجميع ، كانوا يضحكون مجاملة لكل ما تقول ، وقال عبد
الخالق :
— رفعت رجل الملمات . يعرف من أين تأتى الخمور .
وضايق مرسى أن يكون هناك آخر ينافسه فى منطقة نفوذه ، فقال لعبد
الخالق :
— لو أمرتنا لوجدتنا فى الخدمة .
فقال الأستاذ وهو يضحك :
— فرق كبير يا سيد مرسى بين من ينتظر حتى يؤمر ، وبين من يتطوع
للخدمة من نفسه .
فقالت الممثلة الكبيرة وفى صوتها رنة ساخرة :

- مرمى رجل خدوم ، والرجال قليل .
فقال عبد الخالق وهو يضحك :
— على قفا من يشيل يا ست .
فقال الأستاذ وهو ينظر إلى المثلة الكبيرة بنظرة ذات معنى :
— الست يا ما شالت .
ولم تغضب المثلة الكبيرة ، وقالت في حسرة :
— الله يرحم زمان ، النفس انقطع ، والمزاج المحرف .
ودارت بثينة على عقبيها وسارت بضع خطوات ، والمثلة الكبيرة تنفرس
في ظهرها في إعجاب واشتاء ثم قالت :
— لم تخطري يا بثينة على المسرح امرأة ألبتة في مثل جمالك .. لو قبلت أن تعمل
معي لأعطيتك .. ثم ضحككت قائلة :
— ماذا سأعطيك وقد أعطاك الله كل ما تشتهين !
فقال مرمى وقد قرأ الرغبة المشتعلة في عيني المثلة الكبيرة :
— ستمنحنيها الشهرة وذئوع الصيت .
وكانت بثينة قد وقفت وراحت تنظر إليه من فوق كنفها دون أن تستدير ،
فزاد ذلك في فتنة ظهرها ، وتطلعت المثلة الكبيرة إليه وقالت :
— لقد سمعت ما قال ، فما رأيك ؟
فقالت بثينة وهي تبتسم :
— موافقة .
والتفتت المثلة الكبيرة إلى عبد الخالق وقالت :
— وما رأيك أنت ؟
فقال عبد الخالق وهو يضحك في سخرية :
— يفتح الله .
وقال الأستاذ في حماس :

— والله لو قبلت بثينة أن تمثل لأسندت إليها دور البطولة في فيلمي القادم ،
الدور كله إغراء وأنوثة دافئة .

فقالت الممثلة الكبيرة :

— الدور لا يليق بها .

فقال الأستاذ في دهش :

— لماذا ؟

فقالت الممثلة الكبيرة :

— لأن أية فتاة تستطيع أن تمثل الأنوثة الدافئة ، أما بثينة فأنوثتها طاغية ، إنها
لهيب نار .

وقالت بثينة في انشراح :

— بدأ رأسي يدور .

وسمع صوت رفعت آت من بعيد ، فقال مرسى :

— جاء ابن الكلب أخيرا .

وقال الأستاذ وهو ينهض :

— هيا ، لقد كدنا نموت جوعا .

ودخل رفعت وتحت إبطه لفافة زيت بشرط أحمر ، وألقى التحية على
الموجودين وهو مشرق الوجه ، وساروا جميعا إلى المائدة وهم يتحدثون
ويضحكون ، ورفعت ينظر إلى بثينة نظرات كلها اشتها .

ووضع اللفافة في الصحيفة القضيية وفضها في حرص شديد ، فإذا بها
مكعب من الخبز « الفينو » فصاح الجميع في فرح :

— خبز أبيض !

وقال مرسى .

— والله لقد نسيت أن في الدنيا خبزا أبيض .

وراح رفعت يقطع الخبز بالسكين وهو يحس زهوا ، ويقول :

— كنت أستطيع أن أبذل هذا بزر جاجة ويسكى .

فقالت الممثلة الكبيرة :

— الويسكى موجود ، أما هذا الخبز فقد نسيناه ، إنه أندر من الشرف في هذه الأيام .

فقال عبد الخالق :

— ومن أين جئت به ؟

فقال رفعت وهو يتسسم في ظفر :

— من مخازن الإنجليز .

فقالت بثينة وهي تنظر إليه في إعجاب :

— اشتريته من هناك ؟

فقال رفعت وهو يتسسم :

— اشتريته ممن سرقه من هناك .

فقال مرسى في أنفة :

— أنا أكل حراما ؟

ونظرت إليه الممثلة نظرة تصيح به قائلة : « يا منافق ، يا بن الكلب » .

وقال رفعت وهو يوزع الخبز على الصحاب ، كما يوزع صنفا نادرا :

— أفتى بعض رجال الدين أن سرقة الإنجليز حلال وأموالهم غنيمة

للمسلمين .

فقال عبد الخالق :

— أموالهم فقط ؟

فقالت الممثلة الكبيرة :

— الباقي لا يحتاج إلى فتوى .

ونظر الأستاذ إلى الخبز الأبيض الموضوع أمامه وراح يغنى :

— أبيض ملك روحى ، يا حبيبى تعال .. تعال بالعجل .

وقالت الممثلة الكبيرة وهى تتمايل :

— بالعجل .

وضحكت ضحكة مجلجلة ، ومالت على بثينة وطوقتها بذراعيها ثم قبلتها ،
ورفعت ينظر إليها فى غيظ وحسد .

١٩

عكف عبد الخالق يدرس الرسائل التى تسلمها من البنوك ويراجع حساباته
فينقبض ويسرى الحزن فى أرجائه ، إنه على شفا الإفلاس ما لم يتداركه الباشا
ويرخى قبضته القوية التى أمسك بها رقبتة ، إنه يخنقه فى قسوة ليزهق روحه .
وأقبلت بثينة تمشى هونا ، وجاءت من خلفه ، ولفت ذراعيها البضتين
حول عنقه ومالت عليه فغاص رأسه فى صدرها ، وطبعت على خذه قبلة ، فلم
تنبسط أساريره بل ظل فى شروده ، ونظرت إليه فقرأت الحزن فى عينه ،
فدارت حتى أصبحت أمامه ، وقالت له فى حنان :

— ما بك ؟

فقال فى ثورة :

— لماذا يضطهدنى الباشا ؟ لماذا يحاول تحطيمى ولا يمد إلى يده ، الآن أُمى
قد ماتت ! إننى ابنه مثل حلمى سواء بسواء ، فلماذا يغدق على حلمى ويقتِر
على ، اشترى لحلمى سيارة ، ملأ جيبه بالنقود ، أرخى له الحبل على غاربه ،
كل ما يقوله خفيف على قلبه ، كل ما يطلبه مجاب ، أما أنا فقد طردنى من إدارة
أملأكه ، ادعى أننى أسرقه ، أنا أسرقه وعثمان أمين على ماله ، ذهبت إليه أكثر
من مرة أقول له إننى فى مأزق فلم يرق لى قلبه ، كأننى لست من لحمه ودمه ،
ويا ليتة كان يعتذر إلىّ بالتى هى أحسن ، بل كنت فى كل مرة أخرج من عنده
وأنا ألعق جروح نفسى ، ألم أنقاض كرامتى المحطمة .

فقلت بثينة :

— العيب ليس عيب الباشا ، امرأته هى سبب كل هذا ، لأنها لا تحبنا أبدا ، لا تطيق أن ترانا وإن تظاهرت أمامنا أنها ساذجة . وإن بالغت فى إظهار حبها لنا ، امرأة كهينة .. داهية .. تقتل القتل وتمشى فى جنازته ، أمتيتى فى الدنيا أن أكسر رأسها وأرى ما فيه .

ونفض عبد الخالق كالمحموم ، وقال فى انفعال :

— العيب على الرجل الذى ينقاد للمرأة ، كيف يسمح لها أن توغر صدره على ، أن تبذر الكراهية فى صدورنا . كنت أحب ذلك الرجل كما يحب كل ابن أباه ، ولكن طول جفاه ، وقسوته المريرة فى معاملتى ، والنظر إلى كأننى قذى فى عينيه ، أماتت كل مشاعرى الطيبة نحوه ، وجعلتها تتعفن وتجري فى دمائى كالصديد ، لقد تقيحت نفسى وأصبحت أمقته بكل جوارحى .

ما من مرة طلبت منه عوناً إلا ثار فى وجهى واتهمنى بأننى أتمنى موته ، إننى أريد أن أرثه ، لقد اقشعر بدنى أول مرة لما رمانى بذلك الكلام المقيت ، كدت أموت من فرط حساسيتى من ذلك الاتهام الجائر البغيض ، ولكن لما كثر ترديده على مسامعى تبدلت مشاعرى ، وألفته ، بل أصبحت ارتاح إليه وأتمنى أن يكون ، ليته يموت ، ليتنى أقرأ فى الصحف نعيه ، ليتنى ألتقى العزاء فيه . واحتقن وجهه ، وبلغ انفعاله منتهاه ، فخفت إليه بثينة وضمته فى حنان ، وقالت له فى رقة وتوسل .

— اهدأ ، اهدأ ، ماذا ستأخذ إذا انفجر لك شريان ، أو سقطت فريسة

المرض !

وراحت تربت على خده وتمرر يدها على شعره ، وهو يغمغم :

— هذا الرجل سيقضى على .. سيجهز على .. سيفترسنى .

وسارا معا حتى إذا بلغا مقعدا طويلا أجلسته وهى حريصة على راحته ، وأخذ يمرر يده على وجهه كأنما يمسح من رأسه رؤى مفزعة ، ووضعت أمامه

نضدا صغيرا ، ثم غادرت الغرفة ، وما لبثت أن عادت وفي يدها زجاجة خمر
وفي الأخرى كأس ، ووضعت الكأس على النضد وصبت فيها مما في
الزجاجة ، ثم وضعت الزجاجة إلى جوار الكأس .
ومد يده وتناول الكأس وراح يغيب ما بها في جوفه وهو عابس ، كأنما كان
يتجرع دواء ، وجلست بالقرب منه ترقبه وهو يشرب كأسا إثر أخرى .
وجاءت خادم وطرقت الباب في رقة ، وقالت بثينة :
— ادخلي .

وتقدمت الخادم خطوات وقالت :
— إلهام هانم هنا .

ونهضت بثينة ، ومررت يدها على ثوبها تصلح ثنياه ، ثم مررتها على
شعرها ، وغادرت الغرفة منطلقة إلى غرفة الاستقبال .
وتعانقت الأختان ، وقالت بثينة :
— ما كل هذه الغيبة ، أسبوعان مرا منذ آخر مرة سمعنا حسك فيها .
فقال إلهام في هدوء :

— كنت مشغولة في ...

وصمتت قليلا ، ثم قالت وهي تنظر في عيني أختها :
— في إعداد ثوب الخطبة .

فقال بثينة في إنكار :

— الخطبة ؟ أية خطبة ؟

— عرض محلى بدر الدين الزواج فوافقنا ، واشترينا معا الشبكة وحددنا
يوم الأحد القادم لإعلان خطبتنا .

فقال بثينة في غضب :

— كل هذا دون علمي ؟ دون علم الكلبة .

فقال إلهام في صوت متهدج :

— قلت لك يا أختي أكثر من مرة : إننى أحب بدر الدين ، وكنت أنتظر منك أن تباركى هذا الحب ، ولكنك كنت دائما تعارضين وتهدين و ... وقال بثينة فى انفعال :

— كيف تريدن منى أن أوافق على زواج غير متكافئ ؟
فقالت إلهام فى حرارة :

— بدر الدين ابن خالى ، وهو مهندس كفاء لى ، بل أكثر من كفاء ، ومن البطر أن أرفض . هذا إذا لم يكن قلبى قد خفق بحبه . ولكننى أهواه .. أحبه .. أتمنى أن أمضى العمر كله إلى جواره .
فقالت بثينة فى سخريه ومرارة :

— خادمة .

فقالت إلهام فى حماسة :

— وهل يعينى أن أخدم زوجى ؟ إنه لمن دواعى سرورى أن أكون له خادمة .

— ولماذا كل هذه اللهفة ؟!

فقالت إلهام فى تحد :

— وماذا أنتظر ؟ أنتظر الأوهام التى تعيشين فيها ؟

وضايق بثينة تجريح أختها لها ، فقالت :

— أوهام ؟ لولا الظروف القاسية التى مرت بنا لكنت الآن فى بيت

حلمى ، وستكونين له يوم الأحد ، قبل يوم خطبتك .

فقالت إلهام وهى تبسم فى سخريه :

— والله لو تقدم إلى الساعة ، لما ترددت لحظة فى رفضه .

— ولماذا ؟

— لأنه ليس الطراز الذى يستهوينى ، أحب أن أثق فى زوجى . أطمئن إليه

إذا ما سافر أو غاب عن البيت ، أما حلمى فلن تطمئن له زوجة تعرف ماضيه .

فقلت بثينة في إنكار :

— ماضيه ؟ وما هو ماضيه ؟

— سيكون حاضره الآن ماضيه ، كل البلد يتحدث عن الفتاة المتساوية التي يعيش معها .

— إذا كان هذا صحيحا فلا عيب فيه ، إنه طيش الشباب ، وسيهجر كل ذلك بعد الزواج .

فقلت إلهام في حرارة :

— الفاسد قبل الزواج فاسد بعده ، ما يفعله حلمي الآن ليس طيش الشباب ، إنه فساد وإصرار عليه ، ولن يسלוه إذا تزوج ، أغفر للشباب نزوات شبابه ، أما احترام الدعارة فهو شائن لا يغتفر ، إنه كالمرأة التي تحترف الدعارة عن رغبة واشتهاء ، لا أمل في توبتها .

فقلت بثينة في ضيق :

— أفسدت تفكيرك الروايات التي تقرأينها ، جعلتك بعيدة عن واقع الحياة ، تعيشين في عالم من الأوهام ، الخبرة لا تكتسب من الكتب بل من ممارسة التجارب ، أنا أكثر منك معرفة بالحياة ، أقول لك إن حلمي سيكون زوجا من أفضل الأزواج .

فقلت إلهام في إيمان :

— إذا لم تكن لي تجارب بعد كتجاربك ، فبصيرتي تؤكد لي أنني وحلمي لن نتفق أبدا إذا كان لنا أن نعيش معا ، حتى إذا لم يكن قلبي قد خفق بحب بدر الدين ، إنني لن أقبل بديلا بمن نبض بحبه الفؤاد .

— ماذا عليك لو تريثت قليلا ؟

— ليس هناك ما يدعو للتريث . حددنا لإعلان الخطبة يوم الأحد ولن نؤخرها عن ذلك اليوم مهما حدث .

فشردت بثينة قليلا ، ثم قالت :

— أى بعد خمسة أيام . ما أكثر ما يمكن أن يحدث فى هذه الأيام الخمسة . وراحت تنظر إلى إلهام وهى ساهمة ، لا تعنى مما تقول شيئا ، كانت تفكر فى حلمى والفتاة التمساوية التى يعاشرها ، والطريقة التى تنفذ بها إلى إثارة موضوع زواجه ، وقررت أخيرا أن تذهب إليه وتحديثه عن الفتاة التمساوية صراحة ، إنها إذا ما ولجت باب هذا الموضوع فستشقى طريقها إلى أهدافها ، وبعدها ستفعل كل شئء لتحطيم معارضة أختها ، ولن تحجم عن معاملتها فى قسوة ، إذا ما اضطرتها إلهام إلى ذلك ، فأبغض ما تبغضه أن يقف أحد فى طريق رغبتها .

٢٠

كانت بثينة تتحدث إلى أمينة هانم حديثا كله ود وتملق ، وكانت إلهام تصغى إليها مسرورة ، وسألت بثينة عن حلمى ، فقالت لها الهانم إنه فى غرفته لم يخرج بعد ، فقالت بثينة إنه قد مضت مدة طويلة لم تره فيها ، وإنها ذاهبة إليه لتراه قبل أن تنصرف .

وانتهجت إلى غرفته وهى تفكر فى الطريقة التى تفتح بها موضوع الفتاة التمساوية ، فرأت أن تشير إلى الفتاة عرضا فإذا ما راغ من الخوض فى الحديث ، حامت حوله فى لباقة ، وألقت إليه بطرفه وهى تغريه بأن يجذبه ، ولن يستطيع أن يروغ منها طويلا .

ودخلت عليه وحينه ، وقبل أن تجلس ، باغته قائلة :

— وكيف حال فتاتك التمساوية ؟

وامتقع لون حلمى ، واضطرب قليلا ، ولكنه لم يحاول أن يفر من الحديث ، بل أحس راحة لإتاحة الفرصة لينفس عن مشاعبه ، التى ضاق بها صدره ، فقال فى صوت خافت :

— وما أدراك بها ؟!

- ذاع في كل الأوساط خبر معاشرتك لها .
فقال في أسي :
— هذا أمر لا يمكن أن يخفى طويلا .
فقالت وهي تحس سرورا ، فما كانت تحسب أن الأمر سيكون بمثل هذه
السهولة :
— وما هي نهاية هذه العلاقة ؟
— ستنتهي يوما .
— ولماذا لا تعجل بقطعها قبل أن تتعقد الأمور ؟
فقال وهو يشرد ببصره :
— لا أحسب أنها ستتعقد أكثر مما تعقدت . إنني لا أدري يا بشينة ماذا
أفعل ؟
فقالت في اهتمام :
— قل لي كل ما حدث . لتعاون معا على إيجاد حل لمشكلتك .
فقال وهو مطرق :
— لقد حملت الفتاة .
فقالت بشينة في فزع :
— حملت ؟!
وأطرقت قليلا ، وسرعان ما رفعت رأسها وقالت في تصميم :
— لا بد أن تجهض .
فقال حلمي في يأس :
— حاولت كثيرا دون جدوى ، إنها تصر على الاحتفاظ بما في بطنها .
فقالت بشينة في حيرة :
— إما أنها مجنونة ، وإما أنها تريد أن تبتز أموالك .
— إنني لا أدري ماذا أفعل .

— لا بد أن تتخلص منها .

— كيف ؟

— اهجرها .

— وهل هجرها يضع حدا لهذه المأساة ؟ إن ذلك الذى ستضعه سيكون
ابنى .

— انكره .

— إن أنكرته بلسانى ، فلن أستطيع أن أنكره بقلبى ، سأظل مرتبطا بها
ما دامت على مقربة منى .

فأطرقت بثينة قليلا ثم قالت :

— نعوضها بعض المال ونطلب منها أن تغادر البلاد .

فقال فى ضيق :

— ليس معى ما أدفعه لها

فقالت وعلى شفقتها بسمه فوز :

— نأخذ من الباشا .

فقال فى فزع :

— لن يعرف الباشا شيئا من هذا .

وتسللت إلى رأسها كتسلل الضوء فكرة أن الباشا سيصبح أسير معروفها
إذا ما علم بما فعله ابنه ، وبما ستفعله لإنقاذه ، وأن هذه الزلة ستحطم
كبرياءهما ، وستجعل أمر موافقتهما على زواج حلمى من إلهام سهلا ، لذلك
عزمت فى نفسها على إشراك الباشا فى المشكلة فقالت :

— لا بد أن يعرف الباشا .

فقال فى خوف :

— مستحيل .

فقالت فى توسل :

— من الأفضل أن يعرف الخبر منا من أن يسمعه من غيرنا مبالغا فيه .
فقال حلمى وقد اتسعت عيناه وانهرت أنفاسه :
— ومن يفضى إليه بالنبأ ؟
— أنت ..

— لا . لا .. لا أستطيع . إننى أجب من أن أحدثه فى هذا .
فقالت والنشوة تزغرد فى جنباتها :
— إذن أخيره أنا .

وتحركت بثينة وانهار حلمى فى مقعده زائف البصر ، يكاد قلبه ينخلع من
الرغبة .

ودخلت على الباشا ، وسلمت ثم قالت وقد أسبلت جفניה على عينيها
الخضراوين :

— جئت يا باشا أحدثك فى موضوع يحتاج إلى سعة أفق ورحابة صدر .
إنه شائك ولا بد من معالجته .

ونظرت إليه من بين أهدابها لترى وقع كلماتها فى وجهه ، فلما لاح عليه
الاهتمام ، أحسست راحة ، وقال وهو يراقبها مفتوح العينين :
— خيرا ؟

وسرها لعبا به لعب القط بالفأر قبل أن يلتهمه ، فقالت :
— الأمر يتعلق بحلمى .

وزحف فى مقعده حتى جلس على حافته ، وقال :
— قولى .. ماذا حدث ؟

واستمرت فى خبثها به ، فراحت تقول فى هدوء :
— تعلم يا باشا أن الشباب أرعن ، وأن الشبان غالبا ما يتورطون فى علاقات
غرامية .

فقال الباشا فى ضيق :

— هل حلمى علاقة بامرأة ؟

ولاح فى وجهه الغضب ، ولم يكن سبب غضبه أن ابنه انزلق ، ولكنه غضب لموقفه المشين هذا الذى يقفه أمام بثينة ، وقالت فى نبرة فيها شماتة :
— إنه يعاشر فتاة نمساوية .

فقال فى حنق :

— يعاشر فتاة نمساوية ؟! ومن ذا الذى قال لك ؟

فلم تأبه لحنقه . بل قالت فى صوت خافت :

— وقد حملت منه .

فهب الباشا كليث جريح وراح يزأر :

— هذا جنون ، حلمى يفعل هذا ؟! أين المجرم ؟ الكلب ...

فقالت بثينة فى برود :

— لن تجدى الثورة فتىلا ، وقع المحذور ، علينا أن نفكر فى طريقة نتخلص

بها من العار الذى يتربص بنا .

فقال الباشا وقد احتقن وجهه بالدم :

— وماذا تريدننى أن أفعل ؟

فقالت لتذله :

— أن تذهب إليها تفاوضها على ترك البلاد لقاء مبلغ من المال .

وأحس أن كبرياءه طعنت ، وأنه يتمرغ فى الوحل ، فقال :

— أنا أذهب برجلى إلى بيت عاهرة ؟! هذا لن يكون أبدا .

فقالت لتزيد فى تعذيبه :

— أتسكت حتى يذاع الخبر فى طول البلاد وعرضها ؟ من مصلحتنا أن نند

هذا الذى حدث قبل أن تفوح رائحته .

فقال الباشا مهزوما :

— مستعد أن أعرضها عما جرى ، أما أن أذهب إليها فهذا مستحيل .

(الحصاد)

فقالَت بثينة وفي صدرها بسمة لم ترسم على شفيتها :

— أذهب أنا إليها .

— أنت ؟

فقالَت في ثقة :

— أعتقد أن المرأة أقدر على التفاهم مع المرأة في مثل هذه الأمور .

وأحس كأن حملا انزاح عن صدره ، فقال في عتاب :

— لماذا فعل المجنون هذا ؟ لماذا يا حلمي تلطخنا بالعار ؟!

فقالَت بثينة لتصل إلى هدفها :

— كان علينا أن نزوجه بعد تخرجه في الجامعة .

فقال الباشا وكأنا يعتذر لنفسه عن ذلك التقصير :

— كنا في العزبة فرارا من الغارات ومن الموت المحلق فوق رؤوسنا ، لم نتح

الفرصة لنا لنفكر في زواجه ، هل كانت هناك فرصة ؟!

— زواجه يا باشا لا يحتاج إلى تفكير طويل .

— كيف لا يحتاج إلى تفكير ؟ اختيار الفتاة اللائقة به يحتاج إلى رؤية .

وأرادت أن تذكره بأختها ، فقالَت وهي تنهض :

— إلهام في انتظاري ، أرجو أن تسمح لي .

فقال الباشا وهو ينهض :

— لم تأخذى المبلغ الذى ستدفعينه لها . كم تريدین ؟

فشردت بثينة قليلا ثم قالت :

— خمسمائة جنيه .

فقال الباشا في إنكار :

— أليس كثيرا ؟

فقالَت بثينة في شماتة :

— ليس كثيرا لتربية طفل مدى الحياة .

وهت بأن تقول : « إنه لا يليق بحفيد الباشا » ولكنها كبتت جماح لسانها ، وقال الباشا في تسليم :
— لك ما تريدن .

وأحست بثينة انشراحا ، فخطبتها تنفذ في يسر عجيب ، أفضى حلمى بسرره دون أن يحاول أن يروغ ، كأنه كان في انتظار من يشاركه في حمل همومه ، وانهارت كبرياء الباشا . ونهت إلى ضرورة تزويج حلمى ، وذكرت لإلهام متعمدة لتذكر الباشا بها وتقول له تلميحا إنها كفء له وأن الأمر لا يحتاج إلى طول تفكير ، كل ذلك جميل ، وأجل منه أن تتم خطبة حلمى لإلهام قبل يوم الأحد الذى حددته إلهام العنيدة لإعلان خطبتها ليدر الدين ، وإن كل المقدمات لتوحى بأن أمنيتها الحبيبة وشيكة التحقيق .

٢١

دخل الباشا على زوجه وهو مطرق يفكر فيما دار بينه وبين بثينة ، ويعجب للهزيمة التى دبت في قلبه سريعا عقب أن أفضت إليه بما بين ابنه وخليلته التساوية ، لقد تعطل تفكيره حتى إنه لم يسألها عن اسمها ولم يصبر على معرفة مصدر هذه الأنباء ، ترى ماذا يكون موقفه لو أنكر حلمى كل هذه القصة ؟ وهل سيكشف ابنه ما علم ؟ وهل لو كاشفه يستطيع أن يكبح جماح عواطفه ويحدثه في هدوء كما يفعل كلما ثارت بينهما مناقشة سياسية ؟ دماؤه الحارة المتدفقة في شرايينه تؤكد له أنه سيثور ، وأن مرجل غضبه سينفجر ، وأن السباب سيتدفق من فمه دون إرادة ، فما فعله حلمى لا يمكن السكوت عنه .

وإذا ثار وسب وهدد وتوعد ، ألا يثير ذلك الفضيحة التى يتوقاها ؟ ستصل ثورته إلى مسامع الخدم ، وما هى إلا لحظات حتى يطير الخبر وينتشر

أسرع من الريح ، وإذا لزم الصمت ولم يحرك ساكنا ، ألا ينرله ذلك في عين ابنه درجات ؟ سيستهن بأمره وستلاشى هيئته ، إنه يحب ابنه ويحب في نفس الوقت أن تظل مهابته كوالد ، لذلك عزم على أن يقابل ابنه متجههم الوجه ، وأن يحدثه عن فضيخته تلميحا ثم يغلق فمه ، وسيخلع صمته قلب ابنه ويجعله يعيش في قلق ، وإن ذلك القلق سيكون أقسى من الزجر والصياح والفضيحة .

وبثينة ، هل تمسك لسانها ؟ إنها إن أخفت السر عن الناس جميعا فلن تخفيه عن زوجها ، ولن يسكت عبد الخالق عن ضعف أخيه ، سيوسع الأرض إذاعة ، وسيتندر في مجالسه بما كان في مجالس المثلين والمثلات والمغنين والمغنيات ، والأخبار تنتشر عن طريقهم كالطاعون .

ولماذا لم يقع أحد على هذه الفضيحة غير بثينة ! المعارف كثيرون ، ورواة الأخبار أكثر من الهم على القلب ، لو أن عثمان هو الذي عرف السر لكان الأمر ، فبطن عثمان كله أسرار ، وما تفوه يوما بما أؤتمن عليه ، فمن خصال الرجل الحميدة أنه كتوم .

وطافت به موجة من الشك فراح يتساءل : ما أدراني أن بثينة صادقة فيما زعمت ؟! لعلها كذبت لتحتال عليّ . ولكن لا — بثينة لا تجرؤ على اختلاق مثل هذا الاتهام المهين ، لو لم تكن واثقة لما جسرت على أن تواجهني بالأمر في ثبات ورباطة جأش ، بل في شجاعة وسرور .

وأمه هل يفضي إليها بالخبر ؟ وما جدوى ذلك ؟ إنه في حاجة إلى من يشاركه في ضيقه وإلى من يحادثه لينفس عن صدره ، ويستتير برأيه ، ولكنه يعرف أن زوجه لا ينتظر منها رأى صائب ، كل حسناتها أنها راضية عن كل ما يفعله ، وأنها تعتبره سيدها الذي عليه أن يشير وعليها أن تلبى إشارته دون تدبير أو تفكير .

ولاحظت الزوجة سهوم زوجها وصمته ، فقالت له :

— ما الذى يشغل بالك ؟

فقال وهو شارد :

— كنت أفكر فى حلمى .. فى موضوع زواجه .

فقالت منشرحة الصدر ، متهللة الأسارير :

— والله فكرت بالأمس فى أن أفتحك فى هذا الموضوع .

وقال الباشا كأنما يناجى نفسه :

— صدق عثمان ، لو كان لرفعة الباشا ابنة لما تحيرت فى الفتاة التى أختارها

له ، ولكن رفعة الباشا لا ابنة له ولا ولد .

وقالت الزوجة :

— ما الذى يحيرك ؟

فقال وهو يقدح زناد فكره :

— الفتاة التى تليق بحلمى .

فقالت أمينة فى حذر :

— إلهام جميلة وطيبة .

وصمت الباشا ولم يجر جوابا ، وظنت أن صمته علامة الرضا فشجعها

ذلك على أن تسترسل فى حديثها :

— وإلهام منا ، إنها أخت بثينة ، ولن تكون غريبة عنا ، وأظن أن حلمى

سيرحب بالزواج منها .

فقال الباشا وهو غارق فى تفكيره :

— لا . لا .

فقالت أمينة هانم فى تخاذل :

— وما عيب إلهام ؟

فقال الباشا وهو يشرد ببصره :

— أريد لحلمى زوجة يشرفنى أبوها إذا ما وقف إلى جوارى فى المناسبات ،

ابنة باشا له وزنه في الحياة الاجتماعية .

وصممت أمينة هانم ، إنه قد قرر وهو يعرف طريقه ، فما عليها إلا أن ترقبه صامته حتى إذا ما انتهى إلى رأى باركته وأيدته في حماس .

وراح الباشا يغدو ويروح في الغرفة وهو يتمتم :

— محفوظ باشا له ابنة جميلة .. وعبد الستار باشا له ابنة ظريفة .. الفئتان تصلحان لحلمى ، ولكن محفوظ باشا ألمع من عبد الستار باشا .. المستقبل له . وظل مطرقا يعقد المقارنات التي يعقدها دائما قبل أن يقبل على تنفيذ صفقة وأسفرت مقارناته على أن ابنة محفوظ باشا أربح فقال ليسمع زوجته قراره :
— ابنة محفوظ باشا رقيقة وخفيفة الظل وجميلة ، إنها أصلح ما تكون لحلمى .

قرر عقد الصفقة ، فكان على الجميع أن يحترموا قراره ، لأن نجاحه في كل صفقة تجارية عقدها جعل قراراته قدسية ، لا يجروا أحد على أن ينقدها أو أن يأخذها بخذر ، فلم يخطر على بال أمينة هانم أن تقترح أخذ رأى حلمى ، بل قالت في غبطة :

— سميرة بنت محفوظ باشا طيبة وبنت حلال .

وصممت ، فقد كان هذا هو كل ما يمكن أن تعلق به على فتاة ستصبح زوجة ابنها الحبيب ، إنه ابن باشا وسيتزوج من ابنة باشا ، وهى شابة وهو شاب ، وهذا كله يكفى لقيام زيجة سعيدة .

وراح الباشا يرسم لخطوط المستقبل ، قال فى زهو :

— سيحضر رفعة الباشا عقد القران ، وسيقوم بالعقد الشيخ الأكبر وسيدعى إلى الحفل الشيوخ والنواب وعلية القوم وزهرات المجتمع .. سيكون زفاف الموسم بلا مرء .

ووسوس فى أذنيه صوت بغيض :

— والغارات !؟

فراح يطرد ذلك الوسواس ويؤكد لنفسه أنه يستطيع أن يقيم الحفل داخل السراى ، وأن يسدل الستائر فتحجب النور المتلألئ عن أن يتسرب إلى الخارج .

وغرق فى النشوة حتى كاد ينسى فعلة حلمى البغيضة .
ودخل حلمى وهو يقدم رجلا ويؤخر أخرى ، مطرق الرأس ، فى وجهه قلق وانكسار ، فقد استقر رأيه على أن مواجهة الموقف خير من انتظاره ، وأن مقابلته لأبيه أمام أمه خير من مقابلة أبيه على انفراد ، فهو لن يواجه ثورة الباشا وحده .

ورماه الباشا بنظرة يتطاير منها الشرر ، ارتجفت لها أوصاله ، ومرت لحظة من الصمت كانت أقسى على نفس حلمى من وقع السياط وقال الباشا فى غضب :

— قالت لى بشينة كل شيء عن عبثك ، ما كنت أحسب أبدا أنك تفعل ما فعلت .

وتخاذل حلمى وأحس إعياء ، وتأكد الأب من أن بشينة لم تختلق قصة الخليفة التمساوية ، وكان هذا كل ما يريد أن يعرفه ، فغادر الغرفة وهو مقطب الجبين ، باسر الوجه ، فقد احتشد الغضب فى عينيه .

ووقف حلمى برهة وهو صامت ، يعضغ قلقه ويحس الهوان الذى غمره ، وجعلت الأم تنقل بصرها بين الأب المنسحب من الغرفة ، والابن المطرق فى خزي وانكسار ، ولم تفقه مما وقع أمام عينيها شيئا ، وقامت الأم إلى ابنها وقالت وهى تنظر إليه فى إشفاق :

— ماذا جرى ؟

فقال حلمى فى ضعف :

— لا شيء .

وراح يلم شعث نفسه التى طارت شعاعا ، وبدأ يفرخ روعه ، وقالت

الأم :

— كان الباشا منشرحاً قبل أن تدخل ، كان يحدثني عن زواجك ويقول لي : إنه وقع اختياره على سميرة بنت محفوظ باشا لتكون زوجة لك ، كان مسروراً حتى إذا ما دخلت اكفهر وجهه وغضب ، فما الذي بينك وبينه ؟ وفطن حلمي إلى أن أباه لم يتحدث مع أمه عن علاقته بإيفا ، وأنه يريد أن يستر الأمر ويدراً الفضيحة ، وأنه يفكر في زواجه ليقيده بمسؤوليات تنأى به عن مواطن الزلل ، فاستراح إلى تصرف أبيه ، وراح فكره يعمل سريعا ليبرر ذلك النفور الذي بدا من الباشا نحوه قال :

— كنت في حاجة إلى نقود وقد طلبت من بثينة أن تشرح له ظروفى .
فقالت الأم في إنكار :

— بثينة ؟ ولماذا توسط بثينة بينك وبين أبيك ؟ وأين أنا ؟ لا يا حلمي أنت مخطئ وللباشا كل الحق أن يغضب منك .
فقال وهو ينظر بعيدا :

— أنا آسف .

ولم تحتمل أن تراه حزينا ، فطوقته بذراعيها وقالت :

— لا عليك ، ما أسرع أن ينقشع غضب الباشا ، الباشا طيب القلب ، لو رأيته وهو يتحدث في حماس عن زواجك للمست مقدار محبته لك .
ونظرت إليه مليا ، ثم قالت في نشوة :

— ستتزوج سميرة بنت محفوظ باشا . مبارك . هذا يوم المنى .
ومالت عليه وقبلته قبلة أودعتها كل ما في قلبها من حب وحنان ، وترقرقت دموعه في عينيها فمسحتها بظهر يدها وقالت في صوت كله رقة :

— أصبحت أعز أمانى أن أحمل ابنك على ذراعى كما حملتك من قبل .
وأطرق حلمي ساهما ، وسرت في بدنه رعدة خفيفة ، فقد احتلت صفحة ذهنه صورة إيفا التي ستضع له ولدا كتب عليه ألا يراه .

كانت إيفا ترتدى ثوبا منزليا بسيطا ، وكانت مضطجعة فى كرسى طويل
تغنى أغنية عذبة تتحدث عن جمال الأمومة ، وكانت غارقة فى غيبوبة من
النشوة المنبعثة من مشاعرها الحاملة المحلقة فى دنيا مشرقة بالآمال .

ماتت مخاوفها ، وانقشع ذلك القلق الممض الذى ظل يحوم حولها وينغص
عيشها سنوات طوالا ، ونسيت تشريدتها وعرفت الاستقرار والثقة فى
المستقبل .

كانت إذا ما غنت تلون صوتها بالحزن الدفين ، ونم عن النفس المضطربة
والروح الحائرة الهائمة فى دياجير الظلام ، ولكن أغانيها اليوم زاخرة بالركة
جياشة بالعواطف الطيبة المنبعثة من نفس مطمئنة ، راضية كل الرضى بالشايطىء
الذى دفعها إليه تيار الحياة .

ودق الجرس ، فقامت فى تراخ ، وانطلقت وهى تردد أغنياتها التى تحس
وقعها عذبا فى فؤادها . فتحت الباب فألفت أمامها سيدة أنيقة ، شعرها أسود
وعيناها خضراوان ، ممتلئة قليلا ، كلها حيوية وشباب ، وظلت إيفا ترمقها فى
إنكار ثم قالت بالفرنسية :

— نعم :

فابتسمت السيدة قائلة :

— أنا بثينة زوجة أخى حلمى

ففسحت إيفا الطريق وقالت فى ترحيب :

— تفضلى .

وسارتا إلى أقرب مقعدين ، وجلست بثينة ، وأخذت إيفا تمرر يدها على
ثوبها وتقول :

— آسفة . لم أكن أنتظر أن يزورنى أحد فى هذه الساعة .

فقلت بثينة وهى تنفرس فى وجهها :

— أنت رائعة هكذا .

وكانت بثينة صادقة ، أعجبت بجمالها ولمست جاذبية روحها ، وقالت إيفا وهى تبسّم فى رضا :

— متشكرة .

وجلست إيفا فى هدوء ، لم تكن توجس خيفة من هذه الزيارة ، وراحت تنظر إلى بثينة كأنما تلتمس منها أن تبدأ الحديث الذى تحب أن تتجاذب أطرافه ، واعتدلت بثينة وقالت فى هدوء :

— آسفة أن أقول لك إن زيارتى هذه ليست ودية .

واضطربت إيفا ، وامتنع لونها ، وقالت فى قلق :

— ليست ودية ؟ لماذا ؟

— كلفت أن أحمل إليك رسالة قاسية .

فقال إيفا فى انفعال :

— ممن ؟

— من حلمى ومن الباشا .

واشتد وجيب قلب إيفا ، وعادت المشاعر البغيضة التى جلت عن صدرها وجنباتها تزحف إلى مواقعها ، وتضيق أنفاسها ، وقالت وقد ذهبت نفسها شعاعا :

— وما هى الرسالة ؟

فقلت بثينة دون أن تختلج عيناها :

— بقاؤك هنا أصبح غير مرغوب فيه ، ينبغى أن ترحل عن البلاد .

وأحسّت إيفا خنجرا مسموما يدفن فى صدرها ، فقلت فى أنين :

— لماذا ؟

— لأن الباشا علم بما بينك وبين ابنه .

— وهل علم بما فى بطنى ؟

— نعم .

— ومع ذلك يرى طردى ؟

— هذا هو أس طلب رحيلك .

— هذه قسوة . فظاعة . بشاعة ، لا . لا . لن أرحل من هنا أبدا ، هذه

قسوة ..

فقالت بثينة فى بساطة :

— أعرف .

فقالت إيفا فى قوة ، مدافعة عن كيانها :

— لن أرحل أبدا .. لن أرحل أبدا ، إذا كان حلمى قد غسل يده منى فهو

حر ، وإن كان ذلك يحز فى نفسى ، ويمزق قلبى . أحبته حبا صادقا ، وهبته

كل شئ عن طواعية وأنا قريرة العين ، وإن من يهب لا يطلب لهبته ثمنا ، فإذا

كان يريد أن يهرب من تبعاته ، فأنا لست حاقدة عليه ولست نادمة على ما

كان ، سيظل أبدا الرجل الذى كشف كنوز نفسى ، وعلمنى كيف أتذوق

الحياة ، فإذا كان قد سئمتنى فلا يحاول تخطيمى ، وليدعنى وليمض فى طريقه ،

وأقسم لكم بحبى أننى لن أحاول أن ألقاه أو أعترض سبيله .

فقالت بثينة فى رقة ، كأنما ترد على مجاملة :

— آسفة أن أقول لك إن بقاءك هنا أصبح مستحيلا .

فقالت إيفا فى ثورة :

— إنكم لا تتصورون مدى بشاعة ما تطلبونه منى فى بساطة ، هل سبق لك

أن همت على وجهك بلا وطن ولا أهل ولا صديق ولا مأوى ؟ هل ذقت

الحرمان وزمهرير الشتاء فى الخلاء ، ولفح الهجير ؟ هل صوبت إليك عيون

الشك والريبة والعيون الجائعة التى تمس نفسك أمامها عارية تماما بلا شئ

يسترك أو يحميك ؟ هل قاسيت مضايقات السكارى وتحاميت قبلات
المخمورين ؟

بقاؤك هنا أصبح مستحيلا ! يا للبشاعة ! أين أذهب ووطنى أين تحت أقدام
النازى ، وأهل لا أدري إن كانوا فى الجبال يهيمون ، أو فى أغلال السجون
يرسفون ، والحبيب الصديق الذى قادنى إلى الجنة تنكر لى ، والعش الجميل
النابض بأرق الذكريات على أن أهجره ؟ ويا ليتنى كنت وحدى ، ولكن هذا
الذى فى بطنى ما ذنبه ؟ ما الذى جناه ليتغذى بالألم والمرارة وقسوة الحرمان ؟
بشع .. بشع هذا الذى تطلبين . لن أرحل . لن أرحل أبدا مهما كانت
الظروف .

وأخرجت بشينة ورقة من ذات المائة الجنية ووضعتها على نضد قريب ،
فقالت إيفا فى غضب :

— لا أريد نقودكم .. ابعدوا عني .. كل ما أريده أن تبتعدوا وتركونى فى
سلام لا أريد منكم شيئا .. دعونى .. دعونى .

فأخرجت بشينة ورقة ثانية من ذات المائة الجنيه ووضعتها فوق الأولى وهى
تقول :

— اسمعى نصيحتى ، من الخير لك أن ترحلى .

فقالت إيفا فى إنكار :

— من الخير لى أن أرحل ؟ وهل هناك أسوأ مما تطلبين منى أن أفعله ؟ إنكم
تريدون إخراجى من جنتى وإلقائى فى الجحيم ، كنت أحس اليم وأنا مع رفاقى
نضرب فى بيداء الحياة على غير هدى ، نعيش فى تيه من القلق والخوف
والفزع ، ولم يكن وجودى مع زملائى يذهب بالوحشة التى كانت قابضة فى
كهف نفسى ، فكيف لى وأنا وحدى ، أحمل ذلك البائس الذى فى بطنى ،
أصارع بيدي الواهنتين جبروت أيامى الطاغية وليالى الطافحة بالرعب والألم
والاضطراب ؟ إنها لقسوة . تقشعر منها الأبدان أن يلقى لى فى محيط العالم

المتلاطم الأمواج دون ناصر أو رفيق . أين أذهب ؟ وماذا أفعل ؟ وكيف أواجه هذه الدنيا وحدي ؟ لا . لن أرحل أبدا ، ولن يستطيع كائن من كان أن يرغمنى على هذا الرحيل .

— ما أيسر طردك من البلاد الآن ، بل الساعة .

فهبث إيفا منتصبية وهى تزجر :

— من الذى يطردنى ؟

فقالت بثينة فى جبروت :

— مكالمة واحدة من الباشا لوزارة الداخلية تلقى بك خارج الحدود .

فقالت إيفا فى مرارة :

— وماذا يقول الباشا لوزارة الداخلية ؟ أيقول لها إن ابنه قد اعتدى على ،

وإنه فعل ما فعل ثم قرر أن يتخلص منى لأنه أجبن من أن يتحمل تبعه تصرفاته ؟

فقالت بثينة فى حدة :

— يقول إنك جاسوسة .

فقالت إيفا فى دهش :

— جاسوسة ؟

فقالت بثينة لتدك مقاومتها :

— إنك من النمسا ، من بلاد يحتلها النازى ، وما أيسر توجيه تهمة

الجاسوسية إليك .

وانهارت إيفا ، وجلست مطرقة وصدرها يعلو وينخفض فى انفعال ،

وقالت وهى تجذب شعرها فى قسوة :

— هذا ظلم . هذا ظلم .

وأخرجت بثينة ورقة من فئة الخمسين جنيتها ووضعتها فوق المائتين ،

ولم تلاحظ إيفا ما فعلت ، كانت مشغولة عن كل ما حولها بالمشاعر القاسية التى

راحت تنهش صدرها وتوسع روحها وتغذيها بالقلق والضنى والعذاب .
وتناولت بثينة الأوراق الثلاث دستها في يد إيفا ، فأبعدت إيفا يدها في فرع
كأنما قد لسعتها أفعى ، وقالت :

— لا . لا أريد مالا .. إن ما أعطيته لا يقدر بمال .
وأجهشت إيفا بالبكاء ، وكان ذلك بمثابة رفع راية التسليم ، فأعادت بثينة .
الأوراق المالية إليها وهي تقول في حنان مفتعل :

— خذى .. ستحتاجين إلى مال .
إنها لا تستطيع أن تصمد في وجه هذا الطغيان ، فتضاءلت وأحست مذلة
وهوانا ، وراحت مشاعر الهزيمة تهصرها هصرًا .
وقامت بثينة ، منتشية بالنصر ، وقالت :

— أمامك ثلاثة أيام .
وانسلت بثينة من المكان ، وإيفا مطرقة ، في وجهها فرع ، وفي قلبها أسى ،
وراحت مشاعر القلق والخوف والاضطراب تندفق في غزارة في جوفها حتى
أغرقتها ، فجعلت تن أنين النفس المعذبة المضاربة في ليل سرمد ليس له نهار

٢٣

أخذت بثينة خمسمائة جنيه من الباشا لتدفعها تعويضا لإيفا ، ولكنها لم تدفع
إلا نصف المبلغ ووضعت النصف الآخر في جيبيها دون أن تخبر حتى عبد
الخالق ، وقد بررت فعلتها لنفسها بأن ما أخذته إن هو إلا ثمن جهودها !
وأنفقت على حفل ليلة الجمعة بهسقاء ، كانت راضية كل الرضا ، فقد
غادرت إيفا البلاد ، وقالت لها أمينة هانم : إن خطبة حلمي قد تعلن في غضون
يوم أو يومين ، وقد تحدثت عن إلهام حديثا يقطر رقة وعدوبة . وتمنت لها
أطيب الأمنى . ولعن كانت أمينة هانم لم تتحدث عن خطبة حلمي لإلهام

صراحة ، فإنها قد فهمت من حديثها أن الباشا سيمهد لإعلان الخطبة ثم يدعو رفعة الباشا والوزراء وأعيان البلاد .

ولم يقلق بال بثينة اقتراب اليوم الذى حددته إلهام لإعلان خطبتها من بدر الدين ، فما أسير إلغاء كل ما تم من إجراءات لو أن الباشا فاتحها فى الأمر الليلة أو غدا ، فبدر الدين وإلهام لم يدعوا للشهود الخطبة إلا حفنة صغيرة من أقرب الأقارب .

وراحت تنتقل كالفراشة بين أصدقائها تداعب كلامهم بكلمة ، أو تصغى إلى ما يهمسون به فى أذنها ، فقد كانوا غالبا ما يفعلون ذلك للتدليل على مكانتها فى نفوسهم وعلى أنها الأثرة بأسرارهم ونكاتهم .

وأشارت الممثلة الكبيرة لها بأصبعها فى دلال ، كأنما تقول لها : ها فى أذنك . ومالت بثينة فوقها ، فراحت الممثلة الكبيرة تمرر يدها على فخذها فى رقة ، وتمد عينيها إلى صدرها الشاخص البض الممتلئ فى اشتها ، وقالت فى صوت خافت :

— إذا سافر زوجك أو غاب عن البيت أرجو إبلاغى ، فأمنيتى أن أبيت معك ليلة .

وابتسمت بثينة ودفعت الممثلة الكبيرة فى صدرها فى خفة ، وراح رفعت يرقب ما يجرى بينهما فى ضيق ، بينما كان مرسى ينظر منشراح الصدر ، فأعز أمانيه أن تصبح بثينة من رواد شقته .

وانتقلت إلى حيث كان عبد الخالق والأستاذ ووقفت تصغى إلى حديثهما برهة ، كان الأستاذ أقل الأصدقاء مداعبة لها ، بل كان لها منافسا يسره مثلها أن يكون محور حديث الرفاق ، وأن يوجه إليه وحده كل ثناء ، وكان عبد الخالق يكيل المديح كيلا ، ويبدل كل جهد ليرضى غروره . وملأت لهما كأسيهما ثم ذهبت إلى حيث كان رفعت .

ومال رفعت على أذنها وقال وهو يرمز بعينه ناحية الممثلة الكبيرة :

— هل رأيت الخدوش التى فى وجهها ؟

فقلت بثينة وهى تبسم :

— نعم . لمحتها .

فقال ليثير حب الاستطلاع فى نفسها :

— هل عرفت سببها ؟

فقلت بثينة وهى تدنى أذنها من فمه فى اهتمام :

— لا . قل .

فقال وهو يتسم فى سخرية :

— نشبت بينها وبين المطربة الكبيرة مشاجرة استعملت فيها الأظافر وخمش

الوجوه ، وتقطيع الشعور .

— وما سبب هذه المشاجرة ؟

— تنافسهما على فتاة من الجامعة .

وراح رفعت يقص قصته ويعلق عليها فى إسهاب وبثينة تصغى إليه منتشية ، فأحاديث الجنس تصادف من نفسها هوى ، وكان رفعت يلاحظ البشر المتألق فى وجهها فيتمنى لو أنها تخطو الخطوة الأولى الفاصلة بينه وبينها . تلك الخطوة التى لا يجرؤ على أن يخطوها .

وظفق مرسى يرصد من بعيد ما يجرى بين رفعت وبثينة وهو يرجو أن تقطف ثمرته فى شفته ، لم يكن يهمه أن تأتى بثينة مع الممثلة الكبيرة أو مع رفعت أو مع الأستاذ ، أو أن يأتى عبد الخالق مع من يشاء ، فما كانت الرواية تستحوذ على انتباهه ، وما كان يميز بين ممثل وممثل ، كل ما يهمه أن يرفع الستار أو يسدله ، أن يفتح الباب ثم يغلقه ، وأن يملأ جيبه نقودا .

وجاءت خادم ووقفت بعيدا ، ولمحتها بثينة فخفت إليها تسألها عما تريد ؟
فقلت :

— حلمى بك يطلب حضرتك فى التليفون .

وسرت في بثينة موجة من الاضطراب اللذيذ ، ها هي ذى خطتها تتحقق
أخيرا ، وها هو ذا حلمي بنفسه يطلبها ليقول لها إنه يخطب إلهام ، كانت واثقة
أن هذا سيكون ، لم تخامرها ريبة ، ولم يطف بها ظل من شك ، وخفت إلى
التليفون مسرورة ، وقالت في صوت له لون وله طعم :

— ألو .

وإذا بصوت حلمي يمس أذنيها رقيقا زائرا بالسعادة الفياضة .

— بثينة ؟! مساء الخير .. آسف إذا كنت قد أزعجتك في هذه الساعة .

فقلت في انشراح :

— أبدا . إننا لم نتناول عشاءنا بعد . تستطيع أن تأق وتفضي سهرتك معنا

— شاكر . ولكنني مشغول جدا هذه الأيام . أستعد لإعلان خطبتي

فقلت في شيء من القلق :

— خطبتك ؟ ممن ؟

فقال في انفعال :

— من سميرة بنت محفوظ باشا ..

ومادت الأرض تحت قدميها ، أحست كأن الدنيا تقوضت فوق رأسها ،

وانفجرت فيها مشاعر الحنق والضيق والغضب حتى كادت تمزق صدرها ،

وقبضت يد فولاذية على عنقها حبست صرخات الألم المدوية في جنباتها ،

وتحجرت الدموع في مقلتيها ، فعصفت بها أحزانها حتى كادت تنوء إعياء .

واستمر حلمي في حديثه وهي تصغي إليه في ذهول ، فقد كانت تتلقى أنباء

فجيعتها في آمالها ، وقال :

— اتفق أُنَى مع أبيها ، وسأختار غدا الشبكة ، ولما كنت أثق في حسن

ذوقك فقد رأيت أن أترك لك اختيارها . سأمر عليك غدا في العاشرة صباحا .

وقالت في ألم :

— غدا ؟!

(الحصاد)

فقال في فرح :

— إلى الغد . أراك بخير .

ووضع سماعة التليفون ، وظلت هي شاردة لا تتحرك ، تتلقى طعنات أفكارها القاسية ، فيا للسخرية ، طردت إيفا من البلاد ليخلو الجو لسميرة . لو كانت تدرى لخرضت إيفا على البقاء ، وأبقتها سلاحا في يدها تطعن به حلمى والباشا وأمينة هانم ، الأفعى التى تبدى ما لا تبطن . إنها هى التى جعلت حلمى يعرض عن إلهام ، وإنها هى التى لفت أنظار الباشا وابنه إلى سميرة لتشجيع بوجهها عن أصلها وأصل زوجها ، فقلبا يقطر سما وإن أعطت الحلاوة من طرف لسانها .

ويا للسخرية ، لم يجد حلمى من تختار لخطيبته الشبكة إلا هى ، إنها لن تذهب معه ، فما أقسى ذلك على قلبها ، وما الذى يرغمها على الذهاب معه ، ولم يعد هناك موضع لمعاملة ؟ ستعلن الحرب على الباشا وحلمى والعلبة الماكرة . وأرادت أن تنفس عن الحقد المتلظى فى جوفها ، فوضعت سماعة التليفون ثم رفعتها وأخذت تدير القرص فى انفعال وثورة ، ثم قالت :

— ألو . سميرة هانم موجودة ؟ قولى لها صديقة تريد أن تهنيئها بخطبتها . وانتظرت وهى حائقة ، نار الحقد ترعى فى حشاياها ، ومرارة الهزيمة فى حلقها ، ومشاعرها المتعفنة تمور فى أعماقها ، وفى اللحظة واحدة صارت سميرة غريميتها ، كل غايتها أن تعذبها وأن تطعنها ، وإن لم تكن هناك ثمرة من ذلك الاضطهاد .

— ألو .

ومشت فى أوصال بيثينة رجفة ، وراحت تقول فى صوت أحست وقعه غريبا فى أذنيها :

— سميرة !؟ أنا صديقة لك . اسمى ؟ لا أهمية له . قد يكون زينب . فتحية . عليه . الأسماء كثيرة ، ولكن ما أريد أن أقوله لك لا يعرفه أحد

غيرى ، وقعت عليه مصادفة فرأيت أن من الوفاء أن أبصر ك قبل أن تتورطى
فيما أنت مقدمة عليه . أعرف أن خطبتك لحلمى بن سليم باشا ستعلن قريباً ،
ولكننى أقول لك : إن حلمى هذا ليس أهلاً لك ، إنه يعاشر فتاة غمساوية ، وقد
حملت منه ، وأنه ..

وأغلق التليفون فى وجهها ، ومع ذلك راحت تقول فى حلق :
— إنه سافل .. سافل .. سافل .

وظلت قابضة على سماعة التليفون وقد بلغ حنقها منتهاه ، كانت غاضبة على
نفسها ، لماذا طردت إيفا من البلاد ، لماذا حطمت يدها سلاحها البتار ؟ وهل
كانت تعرف أن حلمى والباشا والساهية الداهية سيلعبون بها ! آه لو كانت
تعرف إذن لدبرت أمرها وأحكمت خططها بحيث كان الباشا راکعاً على
ركبتيه أمامها الساعة ، إنها لن تنسى أبداً ما كان ، ولن يقر لها قرار قبل أن تحطم
الباشا وتمرغ أنف حلمى والمرأة الخبيثة فى الرغام .

ووضعت السماعة ورأسها مزدحم بالأفكار ، وصدرها جياش
بالانفعالات . ووقفت برهة تجمع شتات نفسها ، وتحاول أن تعيد السكينة
إلى قلبها ، وبررت فكرة أن يكون حفل إعلان خطبة إلهام لبدر الدين حفلاً
رائعاً ليفهم الباشا وأهل بيته أن إلهام ليست أقل شأنًا من سميرة ، وإن لم يكن
أبوها باشا .

وعادت إلى حيث كان الصحاب ، وعلى فمها بسمه مغتصبة ، واتجهت
إلى الأستاذ وقالت :

— خطبة إلهام يوم الأحد وستحىي الليلة .

فقال الأستاذ وهو يتسهم :

— أنا فى الخدمة .

والتفتت إلى الآخرين وقالت :

— كلکم مدعوون يوم الأحد .

وارتفعت التهاني والتعليقات من كل جانب ، وظلت بثينة تنظر ولا تسمع شيئا ، كانت غارقة في مشاعر الأسى المتفجرة في أعماقها .

٢٤

الباشا في مكتبه يشرب فنجان القهوة ، يدخل عليه عثمان وهو يحمل أضيابة بها برقيات وقصاصات من الصحف والمجلات ، يضع الأضيابة أمام الباشا وهو يتسم ابتسامة عريضة ، ويقول :

— لا تزال برقيات التهاني تترى ، ولا حديث للصحف والمجلات إلا حفل زفاف حلمى . قالت مجلة إنه حفل الموسم ، وراحت مجلة أخرى تحصى الباشوات والبكوات والنواب والشيوخ الذين حضروا الحفل . وقدرت قيمة الألباس الذى تزينت به المدعوات بميزانية دولة صغيرة .

وراح الباشا يتفرس في الصور المنشورة للحفل ، ووقع نظره على صورة لرفعة الباشا والراقصة تتثنى حتى يكاد رأسها يلمس حجره ، فقال الباشا :

— يا للخبثاء !

وقرأ اسم الصحيفة وقال :

— طبعا من صحف المعارضة .

فقال عثمان متملقا الباشا :

— فليموتوا بغيظهم ، لن ينالوا بمثل هذه الصور من رفعة الرئيس . الشعب يحبه ويرضى عن صورته سواء أكانت في مسجد أم في حفل .

وراح الباشا يقرأ بعض برقيات التهاني منشرحا ، وعاد إلى قصاصات الصحف يقرأ . وقلب قصاصة فرأى في ظهرها حديثا طويلا عن الملاريا في الصعيد ، وعن أمر الملك بإرسال الجيش إلى هناك للإشراف على توزيع المؤن والأدوية والبطاطين ، لأنه قد اتضح أن الإسعافات تسرق في الطريق ،

ولا يصل منها إلى المنكوبين شيء .
وأطرق الباشا ساهما مدة ، ولاحظ عثمان صمته ، وكان قد قرأ المقال فقال
ليهن الأمر على الباشا :
— هذه مبالغات المعارضة .

فقال الباشا في صوت خافت :
— والمملك ؟

— إنه ضالع مع المعارضة ليخرج الوزارة ، والشعب كله يعرف ذلك ،
ولن تنطلى عليه مثل هذه الأمور ، الملك يريد أن ينتقم للإذلال الذي أحسه يوم
٤ فبراير .

ولم يقتنع الباشا بمنطق عثمان ، وأطرق يفكر في علة يبرر بها الفساد المعيب
الذي فاحت روائحه في الجهود السريعة التي بذلت لإنقاذ الصعيد من كارثة
الملاريا ، واستمر إطراقه مدة ، ثم رفع رأسه وقال :

— وماذا يفعل الباشا إذا كان الموظفون كلهم لصوصا ، ونزعت من قلوبهم
الرحمة ؟ التموين يسرق ويبيع قبل أن يصل إلى المنكوبين ، والكيين يسرق
ويبيع والمساكين يموتون ، والبطاطين تسرق وتباع والجامبيا تفتك بالنفوس .
هل كل الموظفين وفديون ؟ هل الوفد مسئول عن فساد الدواوين ؟ ماذا
يستطيع أن يفعل رفعة الباشا وحده ؟ هل يقوم بتوزيع التموين والكيين
والبطاطين بنفسه ؟

وعجب عثمان لقول الباشا ، إنه يعترف بكل ما ترددده صحف المعارضة ،
يقر بسرقة التموين والأدوية والأغطية ، ثم يلتمس لرفعة الرئيس أعذارا واهية
لا تستقيم مع مسئولية الحكم ، إنه كان يفضل لو أن الباشا أنكر حوادث السرقة
والتبديد ولج في النكران واتهم المعارضة بالغرض ، في تضخيم حوادث فردية
لتنال من سمعة الحكم ونزاهته ، وأراد أن يلفت نظر الباشا إلى وجهة نظره في
لباقة ، فقال :

— خطير أن نعرف بأن كل شائعات السرقة والإهمال حقيقة واقعة ، إنها مبالغات المعارضة .

وعز على الباشا أن يعارضه عثمان ، فقال متشبثا برأيه :
— إننى أتمس للحكومة الوفدية العذر حتى إذا كان كل ما يقال حقيقة قد وقعت ، فماذا يستطيع فعله حفنة من الرجال إذا كانت الأمة كلها فاسدة ؟ وصمت عثمان ولم ينبر للدفاع عن الأمة ، إنه هو نفسه قد استغل سيارة الباشا فى نقل مواد التموين من القاهرة إلى القرية وهو آمن ، فالباشا من الشيوخ وسيارته تتمتع بالحصانة البرلمانية ، لقد جمع مالا من الاتجار فى السوق السوداء . ولو كان فى الصعيد لما أحجم عن الاتجار فى مواد التموين والكيين والبساطين ، فمن ذا الذى يبعث به إلى هناك ليستغل هذه الفرصة ! إنه لا يصدق أن هناك بشرا يستطيعون مقاومة إغراء المال ، أو يهتمون بالفرقة بين الطيب والخبيث ، كان يحكم بطبعه ، وقيس الناس كلهم بنفسه ، فأقر فى سريره بفساد الأمة .

وانسل من الغرفة ، وترك الباشا وحده يتلذذ بقراءة البرقيات والمقالات والنوادر اللطيفة التى لم تقع منها نادرة واحدة فى الحفل ، بل كانت من نسيج أخيلة محررين يطعمون فى كرم الباشا .

وراح الوقت يمر ، وفتح باب مكتب الباشا مرة ثانية ، ودخل عثمان وهو مشرق الوجه وقال :

— الست أنهار هنا .

فالتفت عينا الباشا بيريق خاطف ، وقال وهو ينهض استعدادا للقائها :
— دعها تفضل .

وخف عثمان إلى الباب وفتحته وانحنى قليلا وقال :
— تفضلى .

ودخلت الست أنهار وخرج عثمان وأغلق الباب خلفه فى حرص ، كانت

الست أنهار ترتدى ثوبا أسود فوقه جاكته من الفرو الأسود ، وتغطي رأسها
طرحة سوداء ، ووجهها لا أثر فيه لأبيض أو أحمر ، وعيناها بلا كحل
وصدرها وذراعها مستورة ، عاطلة من كل زينة .

وقابلها الباشا في وسط الغرفة ، وصافحها في ود وهو يقول :
— أهلا .. أهلا . خطوة عزيزة .. أين أنت من شهور طويلة ؟ أرسلت
إليك في الإسكندرية فعلمت أنك رحلت عنها .

فقالت وهي تتجه إلى الكرسي الموضوع أمام المكتب :
— اشتدت الغارات وأقفرت الإسكندرية من الناس ، هاجروا إلى الأرياف
وإلى القاهرة ، فلم أجد مفرا من أن ألجا أنا والبنات إلى القاهرة .
فقال الباشا في عتاب :

— في القاهرة من مدة ولا تتصلين بنا ؟

فقالت أنهار معتذرة :

— كان أمر تدبير مسكن لائق للفتيات متعذرا ، فاضطررت إلى إنزال كل
واحدة منهن في بيت من بيوت صديقاتي .

فقال الباشا وهو يعود إلى مقعده :

— وهل وجدت سكنا طيبا لهن ؟

فقالت أنهار وهي تبتسم :

— الناس في القاهرة بعضهم فوق بعض طبقات ، من العسير في هذه الأيام
أن تعثر على ثقب إبرة خال .

— وعلام عولت ؟

— قررت أن أعود إلى الإسكندرية هذا الأسبوع ، لقد هدأت الغارات ،
وبدأت الحياة تدب ثانية في المدينة .

فقال الباشا في ود :

— ولكن الألمان يتقدمون على الساحل .

— إنهم يتقدمون ثم يتقهقرون ، وسرعان ما يتقدمون ليتقهقروا ، وحتى إذا دخلوا الإسكندرية ، فماذا سيأخذون منا ؟ .. ستعود كل الفتيات اللاتي كن معي في الإسكندرية وقد انضمت إليهن فتيات من القاهرة .
فقال الباشا وهو يتسم :

— كلام جميل .

ودق الجرس ودخل عثمان ووقف ينتظر التعليمات وإن كان يعرفها سلفا .
قال الباشا :

— هات المبلغ الذي ندفعه دائما لجمعية الفتيات الصالحات .
وخرج عثمان ، وفتح درج مكتبه ، وراح يعد مائة جنيه ثم أعاد باقي الأوراق المالية إلى مكانها ، وأغلق الدرج وأدار فيه المفتاح ، ثم فتح دفتر أمامه وراح يكتب « ١٠٠ جنيه أعمال خيرية » .

ونهمض في تناقل وطرق الباب في رفق وعادت البسمة إلى شفثيه ثم تقدم إلى الباشا ووضع المبلغ في يده وانسحب في تباطؤ لعله يسمع الحديث الدائر بين الباشا والست أنهار ، لأنه لا يدرى سر ذلك الحذب الزائد على جمعية الفتيات الصالحات ، ولا يستطيع أن يقنع نفسه أن الباشا يدفع ذلك الراتب الدائم لوجه الإحسان ، فما أكثر الجمعيات الخيرية التي تلوذه ويصدها صدا كله جفاء ، وإن كان ما تطلبه لا يصل إلى عشر المرتب الذي يدفع للفتيات الصالحات .
وخرج عثمان وهو حائق بالكلمات القليلة التي وصلت إلى مسامعه لم تشف غليله ، وإنه لما يقلق مضاجعه أن يطوى دونه سر مهما قل شأنه ، وأنه يثلج صدره أن يعرف نقائص الناس . فذلك يقنعه أنه وسائر البشر في الخسة سواء .
ووضع الباشا المبلغ في يد الست أنهار ، فتقبلته شاكرة ، وقالت وهي تنهض للانصراف :

— يسر الفتيات الصالحات أن يزورهن الباشا في الإسكندرية .
فقال الباشا وهو يتسم :

— قريبا . إن شاء الله .
ومدت يدها فصافحها وسار خلفها ، حتى إذا ما بلغت الباب التفتت إليه
وقالت :
— أكرر شكرى ، وأكرر رجائى أن تتفضل سعادتك بزيارتنا .
فقال وهو يودعها :
— بإذن الله .
وخرجت أنهار ، وعاد الباشا إلى مكتبه وهو يفكر جادا فى هذه الزيارة التى
يشتااق إليها كل الشوق .

٢٥

كان عثمان يغدو ويروح أمام تليفون العزبة وهو قلق مضطرب يكاد قلبه
ينخلع رعبا ، فالألمان يتقدمون فى هجومهم ، لقد وقفوا عند العلمين
يلتقطون أنفاسهم قبل أن يقطعوا الشوط الأخير لبلوغ الإسكندرية ، والحلفاء
يستعدون لإغراق بعض أراضى الدلتا لتعويق تقدم قوات المحور ، وقد أخذ
أنصار الديمقراطية يغادرون البلاد فرارا من جهورا لهم بالعداوة ، واليهود
يبيعون أملاكهم ويهربون قبل أن يقعوا فى قبضة هتلر .
قال للباشا مرة : إن الإنجليز قد وضعوا خطين للدفاع فى خططهم : خط
عن يسار ترعة الزمر ، وخط عند مصرف المحيط ، وقد سخر الباشا منه ،
وقال : إن رفعة الرئيس لن يوافق أبدا على إغراق البلاد ، ولكن ها هى ذى
الاستعدادات على قدم وساق لقطع الجسر ، إنهم فى أغسطس ، والفيضان
عال ، فإذا ما قطع الجسر ستغرق الأراضى كلها وتحل الكارثة .
وظل يغدو ويروح أمام التليفون وهو يكاد يتمزق غيظا ، والوقت يمر وثيدا
وثيدا ، وزاد فى ضيقه ذلك الإحساس الباطنى الذى كان يحسه بقيمة الزمن ،

فكل دقيقة تمر قد تكون هي الفاصلة بين ضياع الأراضي أو إنقاذها . ولم يكن القلق القاتل الذى يستبد به مبعثه خشيته من أن تغرق أرض الباشا ، بل خوفه من أن تصل المياه إلى الفلاديين المائتين التى بذل فى سبيل اقتنائها عرقه وماء وجهه وشرفه وذمته وأمانته .

واتجه إلى التليفون فى عصبية ، وأدار اليد وهو يلتقط أنفاسه فى جهد كأثما يقوم بعمل شاق ، ثم رفع السماعة وقال فى حدة :
— طلبت القاهرة من مدة .. مستعجل جدا .

فجاء الصوت من الطرف الآخر :

— آسف ، الخطوط كلها مشغولة .

ووضع سماعة التليفون وهو يسب ويلعن ، وراح يتذكر ما قاله الباشا تعليقا على ذهاب جنرال ستون إلى وزير حرية الوزارة السابقة يطلب منه التوقيع على أمر إغراق بعض أراضي الدلتا إذا ما اقتضت الضرورة الحربية ذلك ، وتحايل الوزير للفرار من تلك المقابلة الحرجة . قال الباشا وقتها : « لن تعرف الطمأنينة طريقها إلى قلبي إلا إذا عاد رفعة الباشا إلى الحكم » ، وها هو ذا رفعة الباشا مترجع فى الحكم وقد ضلت الطمأنينة طريقها ، فكيف تطمئن القلوب وقد تقطع الجسور بين لحظة وأخرى وراح يسب الباشا ورفعة الباشا والحلفاء والمحور .

ومر الوقت بطيئا ثقيلا قاسيا ، وهو متوتر الأعصاب ، زائغ البصر ، تتجاذبه أفكار متباينة ، رأى يزين له الذهاب من فوره إلى القاهرة ليحرض الباشا على مقابلة رفعة الرئيس لوضع حد لهذه المهزلة ، ورأى يخذله عن ذلك ويوسوس له أنه لو ذهب لبعد عن مسرح الحوادث ولقضت عليه مخاوفه . ورن جرس التليفون رنينا متصلا انخلع له قلبه ، وأسرع يرفع السماعة ويقول فى انفعال : .

— ألو .

— القاهرة .

— ألو .. ألو .. سعادة الباشا ! المسألة فى غاية الخطورة ، الاستعدادات على قدم وساق ، ستغرق الأراضى عند أول إشارة .. لا بد من مقابلة رفعة الباشا .

— لقد قابلت رفعة الباشا ، قال إنه لا يوافق أبدا على إغراق الأراضى وطلب منى مقابلة عثمان باشا ، وقد قابلته وقال لى إنه سيقطع رقبة المهندس الذى يقوم بقطع الجسور .

فقال عثمان فى ضيق :

— وما الذى سنستفيدة من قطع رقبته بعد أن تغرق الأرض ؟ الرجل معه أمر كتابى من وكيل الوزارة .

— وكيف يصدر الوكيل أمرا دون علم الوزير ؟ عثمان باشا أنكر إنكارا تاما علمه بهذه الأوامر .

فقال عثمان فى ثورة :

— الرجل فى دهشة من هذا الأمر ، ذهب إلى مفتش الرى يبدى اعتراضه ، فقال المفتش ساخرا : أتريد أن تقف أمام بريطانيا العظمى وحدك ؟! اذهب ونفذ الأوامر . الأمر خطير .. وإذا طلب الإنجليز الساعة إغراق الأراضى فستغرق ، لا بد من معاودة الاتصال برفعة الباشا ، وسأذهب الآن لمقابلة الرجل المكلف بالتنفيذ .

— أنا ذاهب الآن لمقابلة رفعة الباشا . واتصل لى إذا جد جديد .

وجرى عثمان وجرى الباشا ، وراحت عقارب الساعة تدور ، ولهث عثمان ولهث الباشا ، والخوف يستبد بالنفوس ، وعاد الاتصال التليفونى بين العزبة والقاهرة ، قال عثمان وهو يكاد ينوء إعياء :

— سعادة الباشا ، صدرت الأوامر فعلا بقطع الجسور ، الرجل المكلف بالعمل يتلکأ فى التنفيذ ، ذهب إلى مفتش الرى يسأله الرأى ، فكتب المفتش

على الأمر : « ينفذ فوراً » الرجل فى حيرة ، لقد اهتدى إلى طريقة يعوق بها التنفيذ ، وجد فى المنطقة عشر شون لبنك التسليف ، بها مائة ألف أردب حبوب ، إذا غرقت فستجوع القاهرة ، إنه يرى أن يتلكأ البنك فى نقلها حتى يأتى الفرج ، سيعمل من جانبه وعلينا أن نعمل من جانبنا .

فقال الباشا وهو يلهث :

— سأتصل برفعة الباشا .

فقال عثمان يائساً :

— لا أمل يرجى من الاتصال برفعة الباشا ، اتصل سعادتك بينك التسليف ، على البنك أن يتلكأ فى نقل الحبوب ، فمن يدري ماذا يحدث فى المعركة الدائرة فى العلمين ، قد يأتى من هناك الفرج .

فقال الباشا فى لهفة :

— سأتصل الآن بينك التسليف ، وداوم الاتصال بى .

وهروى عثمان يتلفت فى فزع ، وأسرع الباشا إلى بنك التسليف وقابل رفعة الباشا وعثمان باشا ولم يسمع كلمة واحدة مطمئنة . فكل ما كان يقوله وزير الأشغال : إنه لم يأمر ولن يسمح أبداً بإغراق الأراضى وأنه سيقطع رقبة كل من يطلق فيها الماء .

وتقضت ثمان وأربعون ساعة كلها قلق وفزع وأرق وعذاب ، وعاد الاتصال التليفونى بين العزبة والقاهرة ، قال عثمان فى حنق :

— خاننا بنك التسليف ، وضع كل همه فى نقل الحبوب ، لم يضع لحظة واحدة ، نقل مائة ألف أردب فى يومين .. بذل كل جهده لئلا يمكن للإنجليز إغراق الأرض .. هذه خيانة .. ضعنا .. ضعنا يا باشا .

فقال الباشا فى غيظ :

— الكذابين ، أهذا وعدهم ، قالوا لى إنهم لن ينقلوا الحبوب .

فقال عثمان فى تأكيد :

- الحكومة أمرتهم بسرعة نقل الجيوب .
- الحكومة لم تأمر بشيء ، ولا علم لها بشيء .
- لا يعقل يا باشا أن الحكومة لا علم لها بهذا الأمر الخطير .
- سأتصل برفعة الباشا ، وسأخبره بكل شيء ، وسأقول له إذا ما قطعت الجسور فأنا مستقيل من الحزب .
- ضعنا يا باشا .. ضعنا يا باشا .
- إننى ذاهب للوزارة وداوم الاتصال بى .

ووضع عثمان سماعة التليفون وهو حائق ، يتميز غيظا ، فماذا سيعود عليه من استقالة الباشا من الحزب لو وقع ذلك الشر المستطير ؟ ستغرق أرضه وستغرق أرض الباشا ، وستغلق كل الأبواب فى وجهه ، سيصبح فقيرا معدما ، أهون عليه أن يغرق مع أرضه من أن ينظر إليها وهى قاع صفصف يقلب فيها النظر حشرات . وتبخرت كل طمأنينة ، وطار النوم من عينيه ، وانتابه جزع كاد يهدد كيانه ، وهام على وجهه ليقابل ذلك الرجل الذى سيدمر مستقبله بإشارة من يده ، إنه لو أمر رجاله بقطع الجسر لانهى كل شيء ، وتحطمت حياته ، وتقضت ساعات من الهول والرعب والفرع واليأس والقنوط والحنق على كل ما فى الوجود ، وعاد الاتصال التليفونى بين العزبة والقاهرة ، وراح عثمان يقول فى صوت أقرب إلى حشجة الموتى :

— انتبهنا يا باشا ، أطلقت المياه وبدأ إغراق الأراضي ، غرق من المنضورية خمسة وأربعون بيتا ، ومن برقاش خمسة وخمسون بيتا ، المياه تزحف ولن نستطيع لها صدا ، إننى لن أسمح أبدا بأن تغرق أرضى وأنا أنظر ، سأقتل كل من يفرقها وأغرق معها ...

وراح الباشا يصرخ من الناحية الأخرى :

— قل لذلك المجنون أن يكف عن إطلاق الماء ، عثمان باشا سيقطع رقبتة ..

فقال عثمان وقد اتسعت عيناه :

— أنا الذى سأقطع رقبتى ، ورقبة كل من يمس أرضى بسوء .
ووضع عثمان سماعة التليفون وراح يهرول صوب أرضه كالجنون وهو
يصيح فى صوت ملهوف :
— أرضى .. أرضى .

ومر يومان مريان قاسيان ، وأصبح عثمان كالخيال ، يكاد يحن وهو يرقب
المياه الزاحفة صوب أرضه ، وفجأة راح يعدو إلى العزبة كارد جبار ، وعاد
الاتصال التليفونى بينه وبين الباشا ، وراح يقول فى فرح وابتهاج :
— ألو .. مبارك .. مبارك يا باشا . صدرت الأوامر بوقف الإغراق .
فقال الباشا مبتهجا :

— ألم أقل لك إن عثمان باشا سيقطع رقبة من يتجاسر على إغراق الأرض ؟
فقال عثمان فى شماتة :
— عثمان باشا لم يأمر ولم يفعل شيئا .
فقال الباشا فى عجب :

— فمن إذن الذى أصدر أوامره بوقف إغراق الأراضى ؟
فقال عثمان وهو يلهث :
— جاء ضابط بريطانى وقال : إنه لم تعد هناك ضرورة لإغراق الأراضى ،
فقد هزم الألمان فى العلمين .
وألقى عثمان بالسماعة ، وجعل يلتقط أنفاسه فى راحة .

كان القلق يحيم على المكان ، والضيق يستبد بالصدر ، ويأس يمحور فى
جنبات عبد الخالق ، وثورة تتأجج فى صدر بشينة ، كان عبد الخالق مطرقا يفكر
فى مرارة فيما آل إليه حاله ، أنفق ثروة زوجته ، اقترض من البنوك حتى

تراكمت ديونه ، وهو لا يدري كيف يسدد ما عليه ، والباشا يكتنز ماله ولا يعطيه منه ما يكفل له أن يعيش كطبقة من أولاد الباشوات ، ولم يجد له مخرجا إلا أن يموت الباشا ويرثه ، من هذا التقتير .

صار يعيش على أمل العاجز أن يأتيه الفرج من السماء وهو قاعد يعاقر خمره ، ويسامر ندمانه ، ويشنف أذنيه بأعذب الأغاني ، وما كان يتصور الفرج إلا على صورة نعى يقرؤه في الصحف ذات صباح بعد أن ينهض من نومه اللذيد ، ويا طالما قرأ بعين خياله تحت خط أسود عريض اسم « سليم باشا شلبي » ، وكان ذلك التخيل يثلج صدره لحظات قصارا ، وما أسرع أن تبدد تبدد الوهم إذا ما سطعت عليه شمس الحقيقة .

وكانت بثينة ترقب زوجها في صمت وإن كانت نار الغضب تسرى في حشاياها ، فمال زوجها تبخر ، ومالها ذاب ، ولم يعد عندهما ما ييسر لهما حياة البذخ التي كانا يعيشانها ، إنها كانت تستطيع أن تحتل شظف العيش ، لو لم يكن الباشا يتعثر في أمواله ، ولو لم يكن ينفق على حلمى بسخاء يتعارض مع بخله المعروف ، ولو لم يكن ابنها قد خرج إلى النور ، إنها أصبحت أما وعليها أن تكافح لتهمي لابنها حياة سعيدة تليق بحفيد الباشا الغنى الذى تربو أمواله على مر السنين .

وضاقت بثينة بركون زوجها إلى الاستسلام ومهادنة أبيه إلى أن يموت ، فكانت كلما انفردا تحرضه على أن يثور في وجه الباشا العاق وأن يلزمه بالإنفاق عليه كما ينفق على حلمى ، راحت تقول في حدة وانفعال :

— لماذا يبسط يده لحلمى ويغلها عنا ؟ اشترى له سيارة ، دفع لإيفا خمسمائة جنيه تعويضا عن حماقة ، أقام له حفل خطبة وحفل زفاف تكلفا آلاف الجنيهات ، اشترى له ولزوجه فيلا جديدة ، ونحن لا شيء إلا طول اللسان والتعير . لماذا هذه التفرقة ؟ أنت ابنه وهو ابنه وهو ليس بأفضل منك ، بل الباشا يعلم علم اليقين أن حلمى نذل ، فعل فعلته وغسل يديه منها

وفر فرار الجبناء ، قِيلَ أن يلقى بلحمه ودمه مختارا إلى غول الحياة القاسى الذى لا يعرف الرحمة ، كيف طأوعه قلبه أن يلفظ فلذة كبده فى يسر كأنما يلفظ نواة ؟ لعل حلمى ورث عن أبيه تحجر قلبه على ابنه البكر .
فقال عبد الخالق منفعلا :

— ولكنى لست ابنا غير شرعى كابن حلمى ، إننى لست لقيطا ، إننى ابنه من زوجته الأولى التى شاركتة فقره وتحملت معه قسوة الأيام .
فقال بشينة فى غيظ :

— حتى ابن السفاح يخفق بحبه القلب ، كانت إيفا إنسانة وهى تستमित فى الدفاع عن ذلك الذى فى بطنها ، الذى لم تقع عليه عينها بعد .
وراح ينظر إليها فى إنكار ، أدهشه دفاعها عن إيفا ومهاجتها لحلمى ، وقد كانت من قبل تغفر له زلته ، وتصر على أن التمسوية الفاجرة هى التى نسجت له الشباك لتوقعه فى حبالها ، قال فى عجب :
— تقولين ذلك الآن وروحك ملطخة بدماء إيفا ؟
فقال مكابرة :

— لم أكن إلا الرسول الذى بلغ رغبات الذين أرسلوه وأملى شروطهم .
— بل كنت المحرك للمؤامرة والرأس المدبر لها .
فقال فى ضيق :

— هل كان حلمى قاصرا ؟ كان يريد أن يتخلص منها ، أفزعه أنها حملت فصارت أمنيته أن يغمض عينه ويفتحها فلا يجدها أمامه ، صارت كابوسا جاثما على صدره ، وأحس أنه لن يستطيع أن يتنفس فى حرية ما دامت كالسيف المسلط على رقبتة ، فلما فاتحته فى الأمر كان كالغريق الذى يتشبث بكل قوته باليد التى تمتد لإنقاذه ، لم يتردد لحظة واحدة لما عرضت عليه التخلص منها ، ولم يفكر فى ابنه الذى يتحرك فى أحشائها ، ولم تند منه كلة ندم أو إشفاق ، كانت حملا ثقيلًا كل بغيته أن يلقيه عن كاهله ، ولما علم بسفرها ابتسم فى

راحة ، دون أن يكلف خاطره أن يسأل عن وجهتها ، فإذا كانت إيفا التى عصر شبابها لا وزن لها عنده ، فما باله لم تذهب نفسه حشرات على بعضه الذى كتب عليه التشريد واليتم والعذاب ، إنه كأبيه قظ غليظ القلب . مظهر خداع وجوف كله خسة ودنائة ولؤم .

وقال عبد الخالق وهو ينظر إليها بطرف عينه :
— سبحان مغير القلوب ! كنت تلتهمسين لهما الأعذار إذا ثرت ، فما الذى فجر براكين غضبك ؟

فقالت بثينة دون أن تتلجلج :
— كنت مغدوعة فيهما ، ولكن حادثة إيفا كشفت لى نفسيتهما .
فقال فى عناد :
— بل هناك سبب آخر ، فقد كنت متحمسة لقرار حلمى .
فقال فى حرارة :
— كنت أؤيده بلسانى ، أما قلبي فقد كان ينفطر أسى .
— وما الذى كان يضطرك إلى تأييده ؟
فقال دون خجل :
— كنت أجامله وكنت أظن أنه على الرغم من هذه المجاملة لن يفرط فى ابنه ، إننى لو أعطيت العالم كله على أن أتكرر لابنى ما قبلت .
فقال فى بساطة :

— الحقيقة يا بثينة أنك كنت تزينين له طرد إيفا .
فقالت وهى تتظاهر بالدهش :
— وما مصلحتى فى طردها ؟
— أن يخلو لك وجه حلمى . أن يتزوج إلهام .
فقال فى انفعال .
— وهل كان حلمى أفضل من بدر الدين ؟!

(الحصاد)

كانت أمينتك أن تتزوج إلهام حلمي ، وكنت أرقب حذبك عليه ، وجهودك التي تبذلونها لتقربي بينهما ، ولكنني كنت أرجو من أعماقي أن تحقق هذه الجهود ، فإلهام فتاة طيبة القلب ، أكرم من أن يكون الباشا حماها وأن تكون أمينة هائم حماتها ، كانت سعيدة الحظ لأنها تزوجت بدر الدين .

فقالت وهي ترمقه بعينين مفتوحتين :

— ماذا تقصد ؟ أتقصد أنني خبيثة لأن الباشا حمي ؟ فماذا تكون أنت وهو أبوك ؟

فقال دون أن يغضب :

— امتزجت طيبة أمي بلؤم الباشا فجئت مزيجاً من الطيبة والخبيث ، وقد أصبحت أمقت في قرارة نفسي ذلك الجزء مني الذي شارك فيه الباشا ، ولو كان له في عضو خالص من أعضائي لبرته ، ولكنه يجري في دمي ، في كل كيافي ، ولن أتخلص منه إلا إذا لفظت آخر أنفاسي ، ولكن لا .. حتى الموت لن يرثني منه ، أتعرفين ما هو أسعد ما سمعته ؟ هو أننا سننسب إلى أمهاتنا يوم القيامة . إنه اليوم الوحيد الذي لن أذعى فيه باسم أبي .

فقالت في دهش :

— ما كل هذه المرارة ؟ أتمقتك إلى هذا الحد ؟

— أمقتك ؟! المقت والبغض والكراهية كلمات أهون من أن تعبر عن إحساسي الكريه نحوه ، إنه هو الذي بذر بذور الإحساس ، وهو الذي سقاها بكراهيته الصفراء ، وسمدها بظلام بغضه ، وأمددها بحرارة مقتته فأثمرت إحساساً بشعاً مدمراً يعصف بكل إحساس طيب في .

إنه يكرهني لأن وجودي يذكره بأيام بؤسه ، يشيح بوجهه عني لأنني شبح ماضيه ، يتمنى أن يقطع كل صلة بيني وبينه لأنني الحبل الذي يربطه بأصله الوضيع .

لن أغيب عنه أبداً ، ولن أمكنه من أن يفر مني ، سأظل قذى في عينيه ،

وسأرغمه على أن يعاملنى كما يعامل حلمى سواء بسواء .. لن أقبل أبدا هذه المهانة .. سأذهب إليه وسأطالبه بحقى ولن أخشاه .
وقام إلى حيث كانت كأسه وزجاجته ، وراح يلقي بالشراب فى جوفه كأنما يطفىء نارا متلظية فى أعماقه ، وبشينة ترقبه ساهمة وهى تتساءل أيصمد زوجها للباشا يوما ؟

٢٧

كان حلمى يعيث بخاتم الزواج وهو يصغى إلى أبيه ، ولم يكن متطلق الوجه ، كان مطبق الفم ، فى عينيه لمحة من أسى تكشف قلق روحه الذى حل بصدرة ، بعد أن انقضى على زواجه بضعة أشهر ، وكان أبوه يقرأ ما فى نفسه ويعلم أن ابنه غير سعيد فى زواجه ، ولكنه كان يتحاشى أن يفتح أبواب ذلك الحديث ويتمنى أن تظل مغلقة حتى يرزق الله ابنه ولدا تقر به عينه ، ويجد فيه منفسا لمشاعر الحب المواراة فى حناياه ، فقد بات الباشا يخشى أن تتصدع فجأة صداقته بمحفوظ باشا ، تلك الصداقة التى يرجو ألا يفسدها خلاف بين حلمى وسميرة ، حتى يظل تعاونه ومحفوظ باشا متآزرا . لتحقيق أمله الذى تركز فى تربع حلمى فى كرسى الوزارة .

أقبل حلمى على الزواج وهو واثق من أنه سيسعد به ، وسيجد فيه ما كان يجده عند إيفا من متعة وتحليق فى عوالم جميلة صيغت من رقة وحنان ونشوة ولذة المحبين إذا ما التصق الفم بالفم وامتزجت الروح بالروح ، ولكن ما انقضت شهور الزواج الأولى حتى أحس قيودا ثقيلة تكبله ، إنه إذا خرج فعليه أن يقول إلى أين هو ذاهب ، وإذا عاد وجب عليه أن يقص كل ما فعله فى الخارج ، وإذا ما اشترى لزوجته شيئا لا يقبل ذلك الشيء بابتهاج مماثل ذلك الذى كانت تعبر عنه كل خلجة من خلجات إيفا إذا ما أهدى إليها هدية تافهة ، وليت الأمر

يقتصر على الصمت بل إن سميرة تطلق لسانها ساخرة من كل ما يقدمه إليها ، وإذا قرر ألا يشتري لها شيئاً لينجو من هزئها ، كانت تركبه بلسانها وتهمه بإهماله إياها .

كان خروجها يضايقه ، وبقاؤه في البيت يمزق أعصابه ، وعودته تنقض ظهره بأحمالها الثقيلة التي كان جوهرها غضبا وعتابا وتقريرا . فقد في بيته كل حرية . حتى حرية الشرود ليعيش في ماضيه الذي صار يهفو إليه ، أصبح لا يستطيع ممارستها أمام زوجته ، فقد شرد ذات مرة وهو معها في غرفة مكتبه قبل أن ينقضي شهر العسل يفكر في أمر من الأمور العادية ، وإذا بها تفاجئه بقولها :

— أتفكر وأنا معك في فتاتك التماسوية ؟!

وفزع وتلون وجهه بحمرة الغضب ، وقال :

— فتاتي التماسوية ؟! ما هذا الكلام الذي تقولينه ؟

فقالت له في بطء وقد اتسعت عيناها ، ورفت على شفيتها بسمة كأنما كانت تلتذذ بأن تلهب روحه بسياط كلماتها :

— عرفت كل ماضيك ، حدثتني به صديقة قبل إعلان خطبتنا بأيام ، قالت لي إن لك صديقة من التماسا ، وأنها تحمل في بطنها ابنك .

فقال وهو يحس إحساس الفأر الذي وقع في المصيدة :

— هذا كذب ، هراء .

فقالت وهي تضيق عينيها :

— بل هذه هي الحقيقة .

فقال في تحد :

— إن كنت واثقة أن هذه هي الحقيقة ، فلماذا قبلت زواجي ؟!

ولم يفزعها تحديه ، بل قالت دون أن تنفعل :

— لأن ماضيك لك ، وحاضرك ومستقبلك لي .

وتصافيا في تلك الليلة ، وتعاهدا على قبر الماضي بخيره وشره ، وأن ينطلقا إلى مستقبلهما معا دون أن يتلفتا خلفهما ، وحسب أنه قد قضى على شبح ماضيه ، ولكنه ييقن أنه واهم بعد أول مرة غاب فيها عن البيت ، فقد راحت تتهمة بأنه كان عند فتاته التمساوية ، وأنه لا يستطيع أن يسلوها ، ولم يستطع أن يقنعها بأنها متجنية عليه في اتهامها هذا ، فقد أعرضت عنه وانخرطت في بكائها .

واستمرت تنبش القبر الذى تعاهدا على نسيانه ، وكان يزيد في حنقه اتهاماتها الظالمة ، فلو أن إيفا بقيت بقربه لما تردد في زيارتها ، ولاحتمل ثورة زوجته دون أن يتأفف ، أما وقد رحلت إيفا وتركت ذلك الفراغ في حياته ، فاثامات زوجه تزيد من آلام نفسه المجروحة .

كان يحسب أن إيفا ستظل في سريره سرا دينا ، يطوف بذكرها في ذهنه كلما حن إلى ماضيه واشتاق إلى التزود منه لأيامه الخاوية ، وإذا بزوجه تأنى إلا أن تعيش إيفا في بيته ، لتحول بينه وبينها ، فذكر الفتاة التمساوية إذا غاب وإذا شرد بذهنه ، يجدد حبه ويؤجج نار حنينه إليها .

إنه يريد أن ينسى ، أن يسعد بحاضره كما سعد بماضيه ، . يمكن سميرة تأنى أن تعاونه على النسيان . كلما أراد أن يلتئم الجرح نكأته ، وكلما تكونت طبقة من الرماد حركتها ونفخت في الجمرات التى تريد أن تحبوا فيندلع اللهب . إنها لا تريد أن تصدق أن الفتاة التمساوية قد رحلت قبل إعلان خطبته منها ، وطالما سأله عن عنوانها وعما كان يعجبه فيها ، فكان يجيب إجابات مقتضبة ليغلق الحديث . إنه لا يستطيع أن ينسى تلك الليلة التى صفا فيها جوهما وراحا يتناغيان ويهيئان في الواقع المسحور المغلف بضباب غيوبة منتشية ، وإذا بها تسأله فجأة عما كان يحسه وهو مع فتاته التمساوية في مثل هذه اللحظة ، فإذا بمشاعر الحنين التى كانت سارية في روحه وكيانه تتبخر ليحل محلها خوف وقلق وضيق ، ويشتد وجيب قلبه ، ويموت فيه كل إحساس باللذة .

وبات شبح تلك الليلة يؤرقه ويلهبه بسياط حامية كلما دنا من زوجته أو هم بها ، كانت أو هامه تصحو ، وأحاسيسه تتوتر ، والنفور مما هو مقدم عليه يربو حتى يطغى على كل عواطفه ، فتحمد الشهوة التي بذل لإثارته جهدا ، وتكبد في سبيلها تعباً ألم نفسه وآذاها .

خطر على باله يوما أن يستعين ببثينة لتقنع سميرة أن إيفا صارت كأمرسه الدابر ، وأنها ولت ولن تعود أبدا ، ولكنه تذكر ما كان من بثينة يوم ذهب إليها لتختار معه الشبكة ، اعتذرت بأنها مشغولة في الاستعداد ليوم إعلان خطبة أختها ، وتذكر سفرها في يوم زفافه فتيقن من أنها لن تمده له يدا . إنه يعرف أنها كانت تشتبه أن يتزوج إلهام ، وكانت كلما حدثته لمحت إلى هذه الرغبة ، فلما تزوج سميرة غضبت وقاطعت حفل زفافه ، ولم تفكر في زيارته مرة ، إنها إن استطاعت أن تقوض بيته فوق رأسه ورأس امرأته لما ترددت لحظة ، ووأد ذلك المخاطر الساذج الذي راوده .

كان يذهب إلى مكتب الباشا صباح كل يوم ، فيتجاذبان أحاديث السياسة ، وكان غالبا ما يتخذ جانب المعارضة ليضطر إلى تشغيل ذهنه والاندماج في محاوراته ليفر ساعات من نفسه المعذبة ، وكان في المساء ينطلق هو وسميرة إلى الحفلات والسهرات ليهرب من انفراده بزوجه ذلك الانفراد الذي بات يهابه ويكرهه .

قال الباشا :

— وماذا يقول الشانغون اليوم عن رفعة الباشا وقد هدد إنجلترا وفرنسا بالاستيلاء على قناة السويس ، إذا لم يفرج عن الشيخ بشارة الخورى وتنال سورية ولبنان استقلالهما .

فقال حلمى فى هدوء :

— يقولون إن رفعة الباشا ما تحرك هذه الحركة إلا بإيعاز من الإنجليز .

فقال الباشا فى عجب :

— وما مصلحة إنجلترا في ذلك ؟

— تريد أن تنتقم من فرنسا لطردها الملك فيصل من عرش سورية ، وقد كان فيصل من رجالها . جنرال سبيرز وقواته هناك ، فإذا ما تظاهروا بالإذعان لذلك التهديد وقبلوا الجلاء عن سورية ولبنان ، فليس أمام الفرنسيين إلا أن يجلوا عنها .

فقال الباشا مدافعا عن رئيسه .

— السياسى المحنك هو الذى يهتبل الفرص المواتية لمصلحة إخوانه ، قالوا إن مستر إيدن هو الذى أنشأ الجامعة العربية لتكون أداة في يده يحركها كيف يشاء ومتى شاء ، فإن كان هذا القول صحيحا فإيدن هذا رجل غبى ، فإذا كان الحكام الحاليون دمي في يده ، فما أدراه أن هؤلاء الحكام سيدومون ، ألا يخشى أن يأتى حكام لا يأترون بأمره ، فيكون كذلك الذى أطلق المارد من قمقمه ؟

— الإنجليز يثقون بدهائهم ، ويعتمدون على دسائسهم وعلى العداوات والخاوف التى يغرسونها في قلوب حكام العرب بعضهم من بعض ، إنهم على ثقة من أنهم سيجدون لهم عملاء في أى وقت ممن تستهويهم المناصب والسلطة والجاه .

فقال حلمى وهو يتنسم :

— جميل أن يهدد رفعة الرئيس بالاستيلاء على قناة السويس إذا لم تجل القوات الإنجليزية والفرنسية عن سورية ولبنان ، وأجمل من ذلك لو أنه طلب من الإنجليز أن يجلوا عن مصر بعد انتهاء الحرب .

— الرجل بينه وبين الإنجليز معاهدة ، وهو يجب أن يحترمها حتى يرغب الطرف الآخر على احترامها ، وهو يكره أن يخرج أصدقاءه في أيامهم العصية .

— أظن أن مصلحة البلاد فوق كل مجاملة .

فقال الباشا في حدة :

— ومن قال إن الباشا فرط في مصلحة البلاد ١٢ لا تقول هذا إلا صحف المعارضة التى تعمل لحساب الملك .

فقال حلمى وهو يتفرس في وجه أبيه :

— أنا واثق أن الملك قد كتب إقالة وزارة الوفد منذ يوم ٤ فبراير ، وأنه ينتظر الفرص ليؤرخها ، وحكومة الوفد في هذه الأيام تهيب له المناسبة التى يرقبها ، بتعيين الأقارب والأصهار ، والمبالغة في المحسوبية والاستثناءات .

— هذا غير صحيح ، هذه مبالغات .

— ولكن الشعب كله أصبح يؤمن بهذا الفساد .

— صحف الملك هى التى تنفث هذا السم .

فقال حلمى ليغير مجرى الحديث :

— نشرت الصحف كلها يا باشا أنك ستوزع الكساوى على الفلاحين الذين يعملون في أرضك ، ابتهاجا بنجاة الملك في القصاصين .

فقالت الباشا دون أن تطرف عيناه :

— كنت قد نذرت أن أوزع الكساوى على الفقراء إذا نجت الأرض من الغرق الذى كان يهددها إبان معركة العلمين ، فلما جاءت هذه المناسبة رأيت أن أوفى بنذرى ، والأعمال بالنيات ، ولكل امرئ ما نوى .

فقال حلمى وقد شرد بصره :

— يقال إنه كانت إلى جوار الملك امرأة ، وأنها ماتت في الحادثة .

فقال الباشا في صوت خافت :

— قيل هذا .

ثم أدار وجهه إلى ناحية القبلة ، ورفع أكف الضراعة وقال :

— اللهم استرنا واستر ولايانا .

ونفض حلمى مستأذنا وانصرف ، ودخل عثمان يرتدى نفس البذلة ونفس الكرافاتة ونفس الحذاء ونفس الأشياء التى كان يرتديها منذ سنة ، فثيابه هى

الشيء الوحيد التى يكن لها وفاء صادقاً لا تشوبه شائبة ، ووضع أمام الباشا بريد اليوم ، ثم قال بصوت خافت :

— عبد الخالق يقترض من البنوك كلها ، اقترض مبالغ كبيرة والبنوك تدفع له دون ضمان لأنه ابن الباشا ، ولأنها واثقة من أنه إذا توقف عن السداد فسيدفع الباشا ديونه ، لو أنه كان يقترض ليتاجر لكان هناك احتمال للسداد ، ولكنه أصبح يقترض لينفق على المغنين والممثلات الذين يستغلونه .
فقال الباشا ثائراً :

— اكتب للبنوك كلها أن البنك الذى يقترض عبد الخالق لن نتعامل معه أبداً ، وأن أى دين عليه لسنا مسئولين عنه .
وشرد قليلاً ثم قال فى أسى :
— لقد ورث عن أخواله هذه الخيبة .

وقال عثمان فى نشوة ، وإن لون صوته نبرات المشفق على ضيعة الأخلاق :
— هل بلغ الباشا أنباء آخر فضيحة للممثلة الكبيرة صديقة عبد الخالق ؟
فقال الباشا فى حدة :

— اكتب أولاً للبنوك ، أريد أن أوقع هذه الكتب الآن .
وخرج عثمان وهو يوسع من خطاه ، وعكف على الكتابة للبنوك وهو سعيد ، وقد أمدته رغبته فى قص فضيحة الممثلة الكبيرة على مسامع الباشا بطاقة كبيرة ، جعلت قلمه يجرى فوق الورق جرياً

٢٨

راحت الشمس ترسل أشعتها الحامية تشوى الوجوه وتكاد تصهر الأجساد ، وأخذ الهواء يهب ساخناً يحمل نار السعير ، وطفق الفلاحون يعملون فى أرض الباشا وقد تخففوا من بعض ثيابهم وسال العرق من وجوههم

يروى الثرى ربا عزيزا غاليا وإن كان لا يطفىء الظمأ ، كانوا كخزنة النار ملائكة كتب عليهم أن يقفوا بأبواب جهنم .

واحتفى الباشا فى مكتبه فى العزبة ، وقد وضع منديلا أبيض تحت طربوشه ، وراح يصب فى كوب أمامه ماء مثلجا من « ترموس » كبير ، ورفع الكوب وجعل يمص الماء مصا فتبسط أساريره للذة إطفاء الحرارة المنتشرة فى جوفه .

كانت النوافذ والأبواب كلها مغلقة ، ولكن الحوائط والسقف كانت تشع حرارة شديدة تبعث الضيق وتؤجج الملل ، ولولا ذلك الحر اللافت لخرج الباشا يمر بأرضه ويشرف على تسميدها بنفسه .

وفتح باب المكتب فى حرص ودخل عثمان يتصبب عرقا ، وسمع للهواء الداخلى معه فحيح أشبه بفحيح ألسنة النيران المتبعثة من فرن ضخيم فصاح الباشا قائلا :

— أقفل خلفك باب جهنم هذا .

وأغلق عثمان الباب فى سرعة ، وتقدم صوب المكتب ، والباشا يقول :

— الحر شديد هنا وفى القاهرة ، سأسافر غدا أو بعد غد إلى الإسكندرية .

وفطن عثمان إلى ما سيقوله الباشا فقال :

— وقد تمر سعادتك على جمعية الفتيات الصالحات .

فقال الباشا فى هدوء :

— قد أمر على الجمعية ، أو قد أبعث مع أحد الراتب الذى نرسله إليها .

فقال عثمان وهو ينحنى :

— أتريد سعادتك المبلغ الآن ؟

— لا . جهزه لآخذه معى عند سفرى ..

وسمع صوت محرك سيارة ، وأصاخ الباشا سمعه .. السيارة تدخل فناء القصر ، ونظر الباشا إلى عثمان كأنما يسأله عن القادم فى هذه الساعة ، فهز

عثمان كتفيه ولاح في وجهه الدهش ، فما كان ينتظر قدوم إنسان مترف في ذلك الجو الخائق الذى يكاد يزهق النفوس .

وفتح باب المكتب ودخل عبد الخالق يتفصد منه العرق ، وقد احمر وجهه كقطعة من حديد منصهر ، يكاد العرق المتسرب إلى عينيه يطفىء إشعاعات الغضب ، ولكن نفسه المنبهر وصدره الذى يعلو وينخفض ، والتقطيبات التى فى جبهته التى امتزج فيها التراب بالعرق فرسمت خطوطا رفيعة من الطين ، كل أولئك كانت توحى بالثورة العارمة المشتعلة فى جوفه .

وأحس الباشا انقباضا لما وقعت عليه عيناه ، فطن إلى أنه ما جاء فى هذا الجو القاتل إلا ليثير الزوابع والأعاصير ، فما من مرة جاء فيها إلا جاء بالمتاعب ، وأراد أن يرطب جوفه قبل أن تهب العواصف التى تجفف ريقه ، فصب فى الكوب ماء مثلجا ثم تجرعه وهو يرقب ابنه الثائر وهو يتقدم نحوه .

ووصل عبد الخالق إلى الكرسي الموضوع أمام المكتب ، فوضع يده على مسنده ، ونظر إلى عثمان نظرة طويلة كان فيها أمر له بالانصراف ، ولم يستطع عثمان أن يصمد أمام نظرتة فسرعان ما أسبل جفنيه ثم دار على عقبه وانصرف .
وراح الأب والابن يتبادلان النظر لحظات صامتة وإن كانت مفعمة بالإحساسات ، واستبد بكل منهما شعور بأن الذى أمامه غريمه الذى يريد أن يقضى عليه ، ورأى الأب فى عينى ابنه تحفزا للهجوم ، فهض وقد تأهب ليرد الهجوم بهجوم أقسى منه وأمر .

قال عبد الخالق فى غضب وقد ضاقت عيناه :

— أريد أن أعرف لماذا تكرهنى ؟ لماذا تضطهدنى ؟ لماذا تعمل على خراب بيتى ؟ لماذا تجد متعة فى تعذيبى ؟ لماذا تفرق بينى وبين حلمى ؟ لماذا تحرمنى وتغدق عليه ؟

— أنا حر فى مالى ، أفعل به ما أشاء ، وأنفقه كما أشاء ، ليس لأحد أن يحاسبنى عليه ، ومن قال لك إنك قد عينت وصيا علىّ ؟

— لا يا باشا ، لست حرا فى مالك ، العدل يقضى أن تسوى بينى وبين حلمى ، هو ابنك وأنا ابنك ، فإذا كانت أمى قد ماتت ، فهذا ليس ذنبى ، لا يجب أن يقع على رأسى وزره ، لو لم تمت أمى لحننت قلبك على كما تحنن الهانم قلبك على حلمى .

فقال الباشا فى غضب :

— اخرس يا كلب .

فقال عبد الخالق وهو يمدى وجهه من وجه أبيه فى تحد :

— الكلب يريد أن يعرف لماذا تكرهه ؟

فقال الباشا وهو يزفر فى صوت مسموع :

— إننى أكره أفعالك ، أمقت تصرفاتك الرعناء ، أتريد أن أعطيك مالى الذى جمعته بعرق جبينى لتنفقه على الرقعاء الذين تتخذهم أصدقاء ، على بطانة السوء الذين تزكم روائح فضائحهم الأنوف ، على مرسى الذى يدير بيته للدعارة ، وعلى الممثلة التى تتندر المجتمعات بما تفعله مع الفتيات ؟ كيف تنحدر إلى هذا وبيوتنا لا تزال مغلقة محرمة حتى على الأشراف من الغرباء ؟ أتريدنى أن أنتظر حتى أسمع فى المنتديات أن زوجة ابنى قد فرت مع ممثلة ؟ والله لموتك جوعا أهون علىّ من هذا .

فقال عبد الخالق فى انفعال :

— إذن أمرت البنوك بألا تقرضنى وهددتها بسحب كنوزك لتميتنى جوعا !

فقال الباشا فى نبرات فيها انتصار وإن لم تخل من قسوة :

— لتفض بطانة السوء من حولك ، أتحسب أنهم يصادقونك لسواد عينيك ؟ إنهم يطمعون فيك .

فقال عبد الخالق وهو يضرب المكتب بقبضته فى حنق :

— تريد أن تطهرنى بالموت ؟ ! يا لقسوتك ! من قال لك إننى قاصر ؟ ولماذا تحجر على تصرفاتى ؟ أنا حر . أصادق من أشاء ، وأقترض كما أشاء ، وأفعل

ماأشاء .

فقال الباشا معترضا :

— لا .. لست حرا فى تصرفاتك ، فحماقتك التى تركبها تسيء إلى سمعتى .. تضرنى ..

فقال عبد الخالق وهو يكاد ينفجر من الغيظ :

— حماقاتى التى لم أرتكبها إلا فى وهمك تسيء إلى سمعتك ، تضر بمصالحك ، أما أن يرافق حلمى فتاة نمساوية وأن يغربها وأن تحمل منه ، فهذا لا يسيء إلى سمعتك ولا يخذش كبرياءك !

فقال الباشا مكابرا :

— هذا كذب ، هذا افتراء . لم يحدث شىء من هذا .

— والخمسمائة الجنيه التى دفعتها ثمنا لسكوت الفتاة ؟

— لم أدفع شيئا .

فقال عبد الخالق فى حدة وقد ازداد فى حنقه إنكار أبيه :

— بل دفعتها لبثينة .

فقال الباشا فى صوت عال :

— كذابة ، إنها مثلك تكرهنا ، لا هم لها إلا أن تسيء إلينا ، ولكن لن يصدقها أحد مهما قالت ، فالكل يعرف أنها موتورة لأننى أقاوم نزواتها .

فقال عبد الخالق وهو يلهث :

— أنت ظالم . أهذا جزاؤها بعد الذى فعلته لإنقاذ سمعتك وسمعة ابنك ؟

لإنقاذ شرفك الذى تخشى أن يلوئه ؟ لو كانت تحقد عليكم كحقدكم علينا لما ذهبت إلى إيفا وحدها تغريها بالمال وتخوفها سلطانكم الجائر وتزين لها الفرار ، ولذهبت إليها مع وفد من محررى صحف المعارضة ، ليتها فعلت . ليتها فضحتكم ، ليتها مرغت كبرياءكم فى التراب .

فقال الباشا وهو ضيق الصدر :

— تتمنى الفضيحة لنا يا عبد الخالق ؟ أعرف أنك تكرهنا ، ولكننى
ما كنت أظن أبدا أن كرهك لنا يبلغ هذا الحد ! يا سافل .. يا كلب ..
يا منحط .. اخرج .

— أنت الذى علمتنا هذا الكره . أنت الذى غرسته فىنا ، أنت الذى سقيته
بقسوتك ، وأنت الذى ستجنى مره وحنظله .

وأراد الباشا أن يضع حدا لهذه المشادة التى تضيق أنفاسه ، فقال كعادته :
— تهددنى يا وغد ، تريد أن تقتلنى ، أن تفترسنى ، أن تقضى علىّ
لترثنى ؟ ولكن لا . لن أموت ... لن أموت أبدا قبل أن أكسر أنفك وقبل أن
أذلك ، وقبل أن تتضور جوعا أنت والحبيثة التى معك .
اخرج ، اغرب عن وجهى فلست ابنى ولا أريد أن أراك بعد اليوم أبدا ..
أبدا .

انفتح الباب ودخل عثمان مهرولا ، وانطلق إلى الباشا يهدئه :
— أعصابك يا باشا .. والدنيا حر .. ما الذى ستكسبه لو انفجر لك
شريان أو أصبت بفالج ؟

وغادر عبد الخالق الغرفة كعاصفة هوجاء وهو يزجر غاضبا ، وزاد فى
حنقه ذلك اليأس الذى يتسرب إلى نفسه ، وراح عثمان يعاون الباشا على
الجلوس فى مقعده ، ثم مد يديه يفتك له أزرار الجلباب الأبيض الذى كان
يرتديه .

وصب فى الكوب ماء مثلجا ، ثم رفع الكوب إلى فم الباشا وهو يقول :
— اشرب يا باشا ..

حملت بشينة ابنها ووضعتة فى سريريه ، وراحت تنظر إليه وفى القلب حب وفى الصدر ضيق ، كانت تحبه بكل جارحة فيها وكان يضايقها عدم اهتمام جده به وإعراضه عنه ، فالباشا بعث يوم مولده بهدية متواضعة لا يزيد ثمنها على جنيهين ، ولم يفكر أن يبارك له بعيد ميلاده الأول حتى بالتليفون ..

إن بعض أصدقائها من رؤساء تحرير المجلات نشروا فى أخبار المجتمعات أنها ستحتفل بعيد ميلاد ابنها الأول ، وقد جاءتها هدايا وبرقيات تنهى من كثيرين ما كان يخطر لها على قلب أن يهتموا بإظهار عواطفهم الطيبة نحوها فى مثل هذه المناسبة السعيدة ، فلا يعقل أن الباشا ، لم يقرأ النبأ ، وإن كان لم تقع عليه عيناه فلا بد أن أحدا من أهل بيته قد لفت نظره إليه أو أخبره به .

إذا كان الباشا أغلق قلبه دون ابنه البكر لأنه يذكره بأيام بؤسه ، كما يقول عبد الخالق ، فلماذا لم يفتح قلبه لحفيده الأول ؟ الرجل يكرهنا ويكره كل ما له صلة بنا ، وإن زوجته الساهية الداهية هى التى تؤجج نار كراهيته وتمدها بالحطب .

جاءت أمينة هانم ذات يوم لزيارتها وعاتبها لغيابها الطويل عنهم ، وحملت ابنها وراحت تضمه وتقبله وتقسم أنها أحبته ، وتطلب منها أن تبعث به إليها وألا تحرمها منه ، فلن يكون ابن حلمى إذا جاء أغلى منه ، ووضعت فى صدره ورقة مالية من فئة الجنيه .. يا للكهينة ! لن يكون ابن حلمى إذا جاء أغلى منه ، أتخسبني ساذجة حتى أصدق مثل هذا القول ؟ ! إننى أفضل عداوة الباشا السافرة على عداوتك المسمومة المغلفة برقة خبيثة ناعمة .

وغطت ابنها بغطاء رقيق ، فقد كانت الليلة من ليالى الصيف التى وهن فيها النسيم وراح يتحرك فى إعياء وضعف ، وما يلبث أن يقف مدة طويلة ثم

يستأنف حركته المتخاذلة التى لا تكاد تحس . ومالت عليه وطبعت على خده
قبلة ثم أطفأت النور وانسلت من المكان على أطراف أصابعها .

وذهبت إلى حيث كان عبد الخالق ، كان يرتدى بيجاما من الحرير فوقها
روب من الحرير فى لون التبيذ محلى بستان أسود ، ولم يكن وحده بل كان فى
رفقة زجاجة وكأسه ، يطفىء بهما إحساسات الألم التى تزخر بها نفسه ..
ويغرق فيهما همومه .. ونظرت إليه بثينة فى إشفاق وقالت :

— كفى ، شربت الليلة كثيرا .

فرفع رأسه ونظر إليها بعينين ذهب بريقهما وقال فى يأس :

— حطمنى ذلك الرجل وقضى علىّ .

فراحت تمرر يدها على شعره فى حنان ، وقالت لتبث فيه روح الكفاح :
— لن يحطملك أبدا ، إذا كنت قد كبوت فستنهض مرة أخرى .. ما تزال
أمامك فرص كثيرة ، الناس كلهم يلعبون بالمال لعبا هذه الأيام ، إذا كنت قد
خسرت من قبل فعاود الكرة هذه المرة وستكسب ، وإذا كان الباشا يصر على
أن يغفل يده عنا فقد كلمنا مرسى وقال إن صديقه يرحب بإقراضنا ما نريد .
فقال عبد الخالق فى استغراب :

— كيف يرحب بإقراضنا وهو لا يعرفنا ؟

فقالت بثينة فى حماس :

— قال مرسى إن الرجل رآنا أكثر من مرة ، ويعرفنا جيدا ، وإن كنا
لا نعرفه بعد .

ووضع عبد الخالق كأسه وقال :

— ولماذا يقرضنا دون ضمان ؟

فقالت بثينة وهى تبتسم :

— جمع الرجل أموالا كثيرة أثناء الحرب ، وفطن إلى أن المال وحده لا يكفى
ليجعل منه ما يريد ، أمنيته أن يندمج فى الطبقة الراقية وأن يصبح واحدا منها .

وهو بتعرفه بنا ومصادقته لنا يدخل هذه الطبقة من أوسع أبوابها ، إنه يؤدى لنا خدمة ، لنؤدى له خدمة ، وسيستفيد ممن سيعرفهم عن طريقنا أضعاف المبلغ الذى سيقرضه لنا ، إنها صفقة .

ودفعت زوجها فى رفق وقالت :

— قم .. لم يبق إلا نصف ساعة على حضوره مع مرسى ليحملنا إلى المكان الذى دعانا للعشاء فيه .

فقال وهو ينهض :

— أمر هذا الرجل غريب ، ولماذا يأتى إلينا بنفسه ليحملنا ، أما كان يكفى أن يحدد الميعاد والمكان وأن ينتظرنا هناك ؟

— يريد أن يتم التعارف بيننا ونحن فى الطريق ، حتى إذا ما جلسنا حول المائدة تسامرنا كما يتسامر الأصدقاء . هيا أسرع . إننى ذاهبة لارتداء ثيائى .

فقال عبد الخالق وهو يغادر المكان :

— وهل سيأتى رفعت معنا ؟

فقالت بثينة وهى فى طريقها إلى غرفتها :

— قلت لمرسى إن رفعت سيزورنا الليلة ، وإننا لا نستطيع أن نتركه وحده ، فقال لى إن رفعت مدعو معنا .

ودخلت غرفتها ، وأخذت تتزين ، وبطبيعة الأنثى راحت تتفنن فى إبراز كل فتنها ، وكانت حركاتها كلها تشع دفقا وحرارة ، فقد كانت تبني آمالا على هذه المقابلة ، وتمنى نفسها بقرض يعاونها على الصمود فى وجه الباشا ، ويحطم حصاره الذى ضربه حولها وحول زوجها ليزل كبرياءهما .

وجاءت الخادم وطرقت الباب فى رفق ، ثم قالت :

— رفعت بك فى الصالون .

فقالت بثينة وهى تضع الروج فى شفيتها :

— قادمة حالا .

وتفرست فى المرأة تعاين زينتها ، وأصلحت ثوبها وربت على شعرها ثم انطلقت إلى غرفة الاستقبال يسبقها عطرها النفاذ ، فلما لمحها رفعت قام إليها يصافحها فى رقة ، وعيناه تتدسسان فى شغف فى صدرها . كان يشتبه أن يخلو بها يحادثها ويقص عليها النكات الجنسية التى تأهب لإلقائها على مسامعها ، لعل ذلك يعاون على هتك ذلك الغشاء الرقيق الذى يفصل بينه وبينها ، لذلك قال ليتأكد من أن عبد الخالق فى البيت :

— وأين عبد الخالق بك ؟

فقالت وهى تجلس :

— إنه قادم حالا .

وجلس بالقرب منها وقال وهو ينظر إلى عينيها الخضراوين اللذين لا يعرف لهما قرار :

— سأقص عليك نكتة سمعتها .

واعتدل فى جلسته ، ونظرت إليه وهى تبتسم فأحس خدرا لذيذا يسرى فى جسمه ، وراح يقول وقد تفتحت نفسه :

— ذهب صديق إلى صديقه وقال له : أريد أن أتزوج فتاة طيبة بنت حلال ، فقال له صديقه : أعرف لك فتاة خاما ، على نياتها ، لا تعرف من أمور الخلاعة شيئا . فقال الصديق : هذه أمنيى . وتزوج الصديق الفتاة ، ولما قابل صديقه ، ذهب إليه متهلل الأسارير وقال له فى حرارة : أشكر لك هديتك ، إنها فتاة على نيتها حقا ، لا تعرف كيف تستعمل الوسادة ، تصور إنها تضع الوسادة تحتها عندما تنام بدلا من أن تضعها تحت رأسها . حقا إنها لا تعرف من أمور الدنيا شيئا .

وضحكت بشينة ، ولكنها لم تدفعه فى صدره فى دلال كما كان يرجو ، وظلت الغلالة الرقيقة التى تفصل بينه وبينها مسدلة ، وجعل يسدد النظر إلى رأسها الجميل الذى مال إلى الخلف فى رشاقة وهى تضحك ، وإلى شعرها

الفاحم السواد الذى يتوجها ، فهمس فى صدره هامس يستفسر فى شوق :
متى ستتخلل أصابعى هذا المخمل الأسود ، وتمر أنامل على هذا الجيد ؟
وجاء عبد الخالق وقال وهو يصافح رفعت :

— هل كلمك مرسى ؟

— أبدا

فقالت بثينة :

— إنه كلمنى وكلفنى أن أدعوك لتناول العشاء معه الليلة ، إننا ضيوفه .
فقال رفعت فى دهش :

— مرسى يدعونا للعشاء الليلة ؟ ماذا جرى فى الدنيا ؟

فقال عبد الخالق وهو يبتسم :

— إذا عرف السبب بطل العجب . الدعوة ليست من مرسى مباشرة إنه
يدعونا باسم صديق من أصدقائه للتعرف بنا .
فقال رفعت فى سخرية :

— الآن فهمت ، سيرفع مرسى الستار كما هى عادته ، ثم يدع الممثلين على
خشبة المسرح يؤدون أدوارهم دون تدخل منه .
ونظر إلى بثينة نظرة كلها قلق وغيرة ثم قال :
— آسف . إننى أرفض هذه الدعوة .
فقالت بثينة فى دلال :

— كيف ترفض وقد بلغت مرسى قبولنا لدعوة صديقه ؟
وسره فى أعماقه أنه أصبح مهما حتى إن اعتذاره عن دعوة يقابل
بالاعتراض ، ومن ! منها هى التى إن أمرته أن يخوض البحر معها وهو لا يعرف
السباحة لخاضه ، فقال فى استسلام :
— أمرى الله .

وسمع صوت نداء سيارة متصل ، فقالت بثينة :

— لقد جاءا .

وكره رفعت أن يصعدا ، كانت الغيرة تلسهه كلما وفد إلى دار عبد الخالق صديق جديد ، فهو يرجو أن يصبح الصديق الوحيد لهذه الأسرة لتتوطد بينه وبين بثينة الصلات التي يحلم بها من سنين ، وقد سره اختفاء الأستاذ بعد أن تدهورت حالة عبد الخالق المالية ، وكان يدبر أمر التخلص من مرسى ، وإذا بمرسى يجلب صديقا جديدا . قال وهو يلتفت إلى عبد الخالق :

— من الأفضل أن نهبط إليهما حتى لا نضيع وقتا .

فقالت بثينة وهي تنظر إلى رفعت :

— ألا يحسن أن ننتظر حتى يصعدا ويستريحا قليلا ؟

فقال رفعت وهو يتحرك :

— يستريحان مم ؟ أكانا يشتغلان فعلة ؟ هيا .

وهبطوا وإذا بسيارة فخمة منتظرة أمام الباب ، كانت حمراء اللون يتألق معدنها ويعكس الأضواء الخافتة المنبعثة من مصابيح الطريق التي لا تزال محجبة بطلاء أزرق خفيف ، ووقف إلى جوارها مرسى يتحدث إلى رجل ممتلئ الجسم ، بارز الكرش ، أسمر اللون ، مفلفل الشعر ، يرتدى بذلة من قماش فاخر ولكنها غير منسجمة ، في جيبه منديل أبيض ، وربطة الكرفاتة توحى بجداثة عهده بارتداء الثياب الإفريقية .

ولحهم مرسى وقال بصوت عال كأنما ينبه صديقه :

— أهلا .. يا مساء النور .

وتقدم عبد الخالق ومد يده يصافح الرجل السمين ، وقال مرسى يقدم كلا

منهما إلى الآخر :

— عبد الخالق بك .. شعبان .

فقال عبد الخالق :

— تشرفنا .

وتقدمت بثينة وصافحته ، فرفت على شفثيه بسمة ، والتمعت عيناه ببريق وقال :

— حصل لنا الشرف الكبير .

وصافح رفعت الرجل وهو يتفرس فى وجهه ، فلمح بعض بقع سوداء فى خديه وسحب يده من اليد الخشنة التى تزين أغلب أصابعها المشققة خواتم ذات فصوص كبيرة من الأحجار الكريمة التى أحس رفعت أنها قد هانت فى يد ذلك الجلف ، إنه قد كرهه قبل أن يراه ، وزادت كراهيته له لما فطن إلى نظراته الجائعة التى كاد يأكل بها صدر بثينة العارى ، وإلى ريقه الذى جرى وما كان له من عمل إلا أن ييلعه .

وفتح السائق الباب الخلفى ، كان يرتدى بذلة كحلية لها صفان من الأزرار المعدنية الصفراء ، وعلى رأسه قبعة قصيرة من لون قماش البذلة دائرها من جلد ، وكان شعبان يصصر على ارتداء سائقه هذه الثياب حتى يؤكد للناس أنه هو صاحب السيارة ، وحتى لا يخلطوا بينه وبين سائقه الذى كان أكثر منه وسامة .

والتفت شعبان إلى عبد الخالق بك وقال :

— اتفضل يا باشا .

قالها فى نبرات أولاد البلد إذا ما غازلوا فتاة فى الطريق ، فالتفت رفعت إلى مرسى ورماه بنظرة شزراء فهمها مرسى وترجمها فى ضميره الترجمة الصحيحة ، فأحس كأن صوت رفعت ىرن فى أغواره قائلا : الله يلعنك ودفع عبد الخالق بثينة فى رفق وقال لها :

— تفضلى .

وسرت فى شعبان موجة من الكدر ، كان يريد أن يركب عبد الخالق أولا وأن تتركب بثينة بعده ، وأن يندس هو إلى جوارها وأن يسعد طوال الطريق بعبيرها وبالحديث معها وبالتمتع بالنظر إلى عينيها الخضراوين وبلذة احتكاك

جسمه بجسمها ، ولكن ما فعله عبد الخالق أبعد بينه وبين ما تمناه ..
وصعد عبد الخالق وهو خلفه وأغلق السائق الباب ثم اتجه إلى مكانه دون أن
يفكر في أن يفتح الباب الأمامي لمرسى ورفعت . وفتح مرسى الباب وجلس إلى
جوار السائق وصعد رفعت بعده . .

وقال شعبان يأمر السائق :

— الأوبرج .

والتفت رفعت وقال :

— شبرد أو سميراميس أقرب ..

فقال شعبان في لهجة فيها بعض الحدة :

— صلى على النبي يا إكسلانس .. أنتم ضيو في الليلة ..

ووضعت بثينة ساقا على ساق فوقعت عينا رفعت على جزء من أسفل
فخذها ، فتظاهر بأنه يصغى إلى الحديث الذي بدأ يدور بين الثلاثة الجالسين في
المقعد الخلفي ، وراح يهيم في الرؤى العذبة التي كان يتخيلها خياله ، ويسعد
بالإحساسات اللذيذة التي فجرتها أحلامه وأمانيه .

وانطلقت السيارة في طريق الأهرام تتفادى أن تصطدم بالسيارات التي
وقفت على جانب الطريق بعيدا عن أعمدة النور ، حتى تعمى الأعين المتلصصة
عن رؤية ما يجري بها ، أو أن تضربها من الخلف سيارة من سيارات الجيش
البريطاني المزججة أثناء جريها السريع ، ومرت بهم سيارة حربية انبعث منها
صوت امرأة تضحك ضحكة عالية. كلها غنج ، فالتفت الجميع إلى مبعث
الصوت ، حتى السائق لم يستطع أن يقاوم الإغراء ، فنظر ، ولكن لم ير أحد
منهم شيئا ، وقال مرسى في دهش :

— هذه أول مرة أرى فيها امرأة تذبج الفضيلة في سيارة حربية .

فقال رفعت ساخرا .

— غريبة أن تكون هذه أول مرة على كثرة ما رأيت من هذه الأمور !

وقال عبد الخالق :

— فتاة من بنات الهوى لا يهملها المكان ، كل ما يهملها ما في الجيوب .

وقال شعبان :

— إنها ولا مؤاخذه امرأة إنجليزية تطوعت في الجيش للترفيه ، وقد عرفت

هذا من احتكاكي بالإنجليز ..

وكأنما خشي أن يذهب ذهن أحدهم إلى حقيقة صلته بالإنجليز فقال :

— عرفت الإنجليز عن قرب من كثرة ما وردته لهم .

ونظر إليه رفعت في غيظ ، وصوت يصيح في جوفه قائلا : « يا ابن الكلب

يا كذاب » .

وأراد أن يؤذيه فقال :

— قص على عامل من عمال « الأورنس » طرفا من حياة فتيات الترفيه .

وصمت الجميع برهة ، كان رفعت يفكر في شعبان ، إنه سمع قصته من

بعض موظفي التموين قبل أن يراه ، ويعلم بالسماع تاريخ حياته ونشأته ،

وأحس رغبة في أن يسحبه في الحديث وأن يعيث به عبث القط بالفأر ولكنه

راح يقاوم هذه الرغبة ويكبح جماحها وكان مرسى يفكر في النجاح الذي

أحرزه ، وهو يعتبر رفع الستار عن مسرحية جديدة نجاحا لا يدانيه نجاح ،

وراح عبد الخالق يفكر في الطريقة التي ينفذ منها للحديث عن القرض الذي

سيقدمه له شعبان دون ضمان ، أما بثينة فقد كانت تفكر في شح الباشا وضيق

أفقه وقسوته التي دفعت بها وبزوجها إلى قبول صداقة أمثال شعبان

ودخلت السيارة الأوبرج ووقفت أمام الباب الداخلى ، وأسرع السائق

يفتح الباب وهبط كالثور في أثره عبد الخالق وتحركت بثينة لتهبط وانحسر ثوبها

عن ساقها فخفت نظرات رفعت وشعبان تستبق إليها ، وضبط رفعت عيني

شعبان وهما تسترقان النظر لمفاتيح بثينة فأحس إحساس من يرى غريبا يسرقه

حقه .

وراحوا يصعدون في الدرج ، وحرص كل من رفعت وشعبان أن يصعد خلف بثينة ليسعد بمراقبة ارتجاج الفتنة ، وراح مرسى يصعد خلف الجميع يحلم بالعشاء الفاخر الذى سيتناوله والشراب اللذيذ الذى سيملاؤه به جوفه .. وبلغوا الردهة الواسعة التى صفت فيها الموائد حول حلقة الرقص ، وانتشرت فيها الأضواء الحمراء الخافتة التى تثير كوامن المشاعر وتوقظ الرغبة المشتهاة ، وكانت أغلب الموائد حولها ضباط الحلفاء والباحثات عن الاسترلىنى والدولار .

وقادهم رئيس السقاة إلى مائدتهم المحجوزة ، كانت على حافة حلقة الرقص فى مواجهة الأوركسترا ، وكانت الموسيقى تعزف الدانوب الأزرق فسحب شعبان كرسيه محدثا صوتا وقال بصوت عال وهو يلتفت إلى بثينة :
— تفضلى .

والتفت الجالسون حول المائدة المجاورة إليه وفى عيونهم استنكار : ولم يأبه بهم فقد عزم على أن يجلس إلى جوارها وأن يسعد بها طوال السهرة ، وجلست بثينة بينه وبين زوجها ، وجلس رفعت ومرسى أمامهم .

وقالت بثينة لمرسى :

— لماذا لم تأت الست ؟

وفهم مرسى أنها تقصد الممثلة الكبيرة ، فقال :

— والله إنها لمشغولة جدا هذه الأيام .

وقال رفعت ساخرا :

— بلغنى أنها تستعد لإقامة حفلة خاصة للفتيات .

ورفت على شفتى بثينة بسمة والتمعت عينا عبد الخالق سرورا وأحس مرسى قهرا وتمنى لو أن الأرض تنشق وتبلع رفعت ، ورأى شعبان أن يشترك فى الحديث على الرغم من أنه لم يفهم تعريض رفعت ، وقال :
— جميل أن تحافظ الست على أخلاق الفتيات .

ونظر إليه رفعت في غيظ وصوته يرن في جوفه قائلا : « يا ابن الكلب ! » .

وظهرت راقصة تدل ملاحظها على أنها ليست مصرية ، وأخذت ترقص رقصا شرقيا ، تتأود وتتثنى كأنها في مخدع ، وشعبان يرقبها فاغر الفم حتى إذا ما انتهت من رقصتها قال :

— لحم مشفى .

فقال رفعت :

— لا شك أنه سبق توريده للجيش البريطاني ، ولكن لا بأس فالشيء الواحد يورد للإنجليز أكثر من مرة .

ونظر مرسى إلى رفعت في رعب وهو يتساءل في نفسه ، أقال ما قاله دون قصد أم يقصد ما يقول ؟ وأراد شعبان أن يفلت من تجريح رفعت فالتفت إلى كبير السقاة يطلب الشراب والطعام ويسأل كلا منهم عن الشراب الذى يفضله .

وذهب الرجل ، والتفت شعبان إلى بثينة يحادثها ، وضايق رفعت ذلك فقال :

— هل سمعتم آخر نكتة عن غنى الحرب ؟

ولم ينتظر منهم جوابا ، يكفيه أنهم التفتوا إليه كلهم ، فراح يقول :

— جاء السكرتير إلى غنى الحرب يقرأ عليه البطاقة التى سترسل لدعوة أصدقائه لتناول العشاء فى داره ، قال : « يتشرف الحاج محمد جعلص بدعوة سعادتكم غدا ... » وقاطعه غنى الحرب محتجا : « لا عشا » .

وضحكت بثينة ونظر عبد الخالق إلى رفعت نظرة عتاب ، أما مرسى وشعبان فقد لاحت فى جبهتهما تقطيبات .

وجاء الطعام ، كان أكدا سا من اللحم ، وراح الرجل يخدم القوم ، وضع فى صفحة بثينة قطعتين ، ووضع أمام عبد الخالق قطعة واحدة وشكره

عبد الخالق قبل أن يضع الثانية وأمره شعبان أن يمر على مرسى ورفعت أولا ، ثم أشار له بأن يضع كل ما بقى أمامه .

ولمحتة بثينة وهو يأكل فتقرزت نفسها ، كانت تحسب أن الأستاذ نهم لما يأكل الدجاجة كلها في أربع دفعات إلى فمه ، فإذا بها تجد نفسها إلى جوار وحش يفترس اللحم افتراسا ..

وطفق يأكل ويعب الشراب عبا ، وفطن إلى أن عيونهم صوبت إليه فلم يخجل بل قال في بساطة :

— إننى ضعيف أمام اللحم ، عدت ذات ليلة إلى البيت ووجدت الطباخ قد حمر عشرة أرطال استعدادا لوليمة كنت سأقيمها في اليوم التالى ، ووضعها في الثلاجة وهو مطمئن ، فلما رأيتهما أكلت منها ثم ذهبت إلى فراشى ، وطار النوم من عيني . كنت أذهب إلى الثلاجة أكل من اللحم ثم أعود إلى الفراش ، ولم تهدأ نفسى ولم يعرف النوم طريقه إلى عيني إلا بعد أن أتيت على اللحم جميعه . أصدقائى يقولون إننى أستطيع أن أتوجه إلى دكان الجزار وأنا معصوب العينين .

وضحك مرسى وضحكت بثينة . وشغل عبد الخالق بالشراب ، وبدأ شعبان يتألق ويحدث بثينة ، ورأى رفعت أن يبعده عنها ، فنهض واتجه إلى بثينة يدعوها للرقص ، لم يرقص معها من قبل ولكن غيرته أمدته بشجاعة لم يكن ليعهدها في نفسه .

واتجهها إلى حلقة الرقص وشعبان يتميز غيظا ، وراحا يرقصان في رشاقة ، ومال رفعت يهمس في أذن بثينة ويقول :

— الحمد لله لأن الملك ليس هنا الليلة ..

— وما الذى يضايقك من وجوده ؟

فقال وهو يبتسم :

— لو كان هنا لخطفك .

فقال بثينة وهى تنظر إليه بعينها الخضر اوين اللتين تعرفان طريقهما إلى
سويداء فؤاده :
— اطمئن . الملك لا يخطف إلا الأرستات وبائعات الهوى .

٣٠

فى عصر اليوم التالى لذلك اليوم الذى احتدمت فيه المناقشة بين الباشا وابنه
البكر ، خرج الباشا يطوف بأراضيه قبل أن يغادر العزبة ليقضى فى الإسكندرية
أياما . ركب سيارته التى يطوف بها وركب إلى جواره عثمان ، وهبت نسائم
حارة لسعت الوجوه فأشاح الباشا بوجهه وأخرج من جيب جلابيه الأبيض
منديلا وضعه تحت الطربوش اتقاء للحر اللافح .

وانطلقت السيارة بين الحقول الخضراء والباشا يتلفت يفحص عن
المصارف والقنوات والجسور وأعمال المحاريت الميكانيكية ومضخات المياه ،
وأمر السائق أن يقف ، والتفت إلى عثمان وقال فى حدة :

— من الذى أمر بقفل هذه القناة ؟

وتلجلج عثمان ، وهبط من السيارة وأسرع إلى الفلاح الذى كان يعمل
بالقرب من المكان وراح يحدثه ويسأله وينهره ، وهوول الرجل يفتح الفناة وهو
يقسم بأغلظ الأيمان أنه لم يغلقها ولا يعرف من الذى فعل ذلك .

واستأنفت السيارة سيرها ، ولاحت حقول القطن وأعواد الذرة ، وقامت
أشجار الكافور والسرو والسنط تمد بعض رقع الأرض بالظل ، ليحتمى تحتها
الذين يعملون فى الفضاء من شروق الشمس حتى غروبها ساعة من نهار ،
وارتفعت أشجار النخيل سامقة كأنها حراس ساهرة لا تغفو لها عين ،
وانتشرت أشجار الأتل بأوراقها التى التفت كالإبر وجرت المياه كالشرايين
تبعث فى الأرض الهامدة الحياة .

ووقعت عين الباشا على شيء أنكره ، فأمر السائق أن يقف ، وخفق قلب عثمان وراح يتساءل في نفسه : ترى ما الذى رآه ؟ وهبط الباشا واتجه إلى مجرى الماء وقال وهو يشير بأصبعه ناحية الضفة الثانية :

— كان هناك عود ، من الذى اقتلعه ؟

ولم يجادل عثمان ولم ينبس بكلمة ، بل راح يتلفت بعينين قلقتين ، فالباشا يعرف كل نبتة وكل عود شجرة فى أرضه التى كانت تزحف لتبلغ عشرة آلاف من الأفدنة ، وكان الجميع يرهبونه ويقولون للتدليل على إلمامه بكل ما تخرجه أرضه : إنه يعلم عدد البلحات التى فى كل نخلة ! وعاد الباشا إلى السيارة وهو يزجر غضبا ، وعثمان يتلقى أوامره فى صمت ، وقال الباشا :

— غدا موعد الخوض الشرقى ، أتذكر ؟

فقال عثمان وهو ينظر إليه هذه المرة :

— أعددت كل شيء ، سيبدأ الرى مع الفجر .

ورأى عثمان أن يحجره إلى خوض حديث بعيد عن العزبة ، لعل عينه الصباحية تغفل عن بعض الهنات التى تقع عليها ، فقال :

— الصحف كلها تتحدث عن مدينة الأوقاف ، وتمجد ذلك المشروع العظيم .

فقال الباشا فى حدة :

— كل من مجد فى هذا المشروع مغفل ، لقد عارضت هذا المشروع بشدة ، قلت لرفعت الباشا إن كل مشروع يأكل جزءا من الأرض الصالحة للزراعة هو مشروع ضار بنا ، ضار بمستقبلنا وبمستقبل أبنائنا ، إنه يقلل من الرقعة المنزرعة على الرغم من أنها لا تفى الآن بحاجاتنا ، فكيف بها فى المستقبل . قالوا : القاهرة لا بد أن تتسع ، قلت : مجال اتساعها الطبيعى هو الصحراء وليست الأرض الطيبة التى تزرع خضروات ، ولم يستمعوا لنصيحى ، وكان أكثر

الوزراء معارضة لى أولئك الذين شبوا فى المدن .
وبدأت نفس عثمان تهذا ، وراح يصيح السمع وهو مطمئن القلب ،
حسب أن الباشا غفل عن أرضه بالحديث الذى خاضه فى حماسة ، ولكن
سرعان ما صاح الباشا فى السائق وقال :

— قف .

وطارت من قلب عثمان الطمأنينة التى بدأت تعشش فيه ، وهبط مسرعا
خلف الباشا الذى اتجه إلى شجرة وجعل يتفرس فى روث البهائم الذى انتشر
حولها ، وقال فى حدة :

— كانت بهيمة مربوطة هنا ، أمرت ألا تربط البهائم أبدا ، لا بد أن أعرف
بهيمة من التى كانت مربوطة هنا ؟ لا بد أن أعرف الآن .

وراح يغدو ويروح وهو غاضب ، وهوول عثمان هنا وهناك ، وراح يسأل
هذا وذاك وعاد مبهور الأنفاس وقال :

— إنها جاموسة خفير الليل . ربطها هنا لتكون تحت عينيه حتى لا تسرق .

فقال الباشا فى غضب :

— بلغه أننى سأقطع رقبته إذا عاد لفعل ذلك .

وانطلقت السيارة وعن يمينها ويسارها أعواد القطن وقد برئت من آفاتها
تنتظر جموع الفتيات العاملات على جنى حملها العزيز ، ووصلت إلى شريط من
الأرض يحتره محراث يجره ثور ، فوقف الباشا يرقب العمل وقد مالت الشمس
للغروب ، ولمح الفلاح يلكر الثور فى بطنه لكزة قوية فانتفض من الغضب
وانطلق إلى الرجل والغيط يأكل قلبه ، وانقض عليه يخنقه ويصيح به :

— أترى أن تقتله ؟ أترى خراب بيتى ؟ يا ابن الكلب ستخرب بيتى .

وظل يضغط على رقبة الرجل بقوة ، والرجل يحاول أن يخلص رقبته من
اليدين الحديديتين اللتين تكتمان أنفاسه ، وأسرع عثمان يصيح :

— يموت فى يدك يا باشا .. الرجل سيموت .. سيموت ..

فقال الباشا وهو يهز الرجل هزات عنيفة :
— والله لأن يموت هو وأهله أهون من أن يموت الثور ..
ودفع الرجل دفعة قوية فسقط على الأرض يتدحرج .
واختفى قرص الشمس في الأفق الغربي ، فخرست الآلات ، وأخذ
الرجال والنساء يعودون إلى القرية ، وراح الأولاد يسوقون الثيران والعجول
إلى حظائرهما ، وغفت الحياة ولم يعد يتنفس في ذلك الفضاء المترامي الأطراف
إلا الزرع وحراس الليل ..
وهجعت الأصوات وما كان يهتك غلالة السكوت إلا صوت سيارة
الباشا ، وهي منطلقة في طريق عودتها بالقرب من حقول الذرة ، ودوى فجأة
في المكان صوت رصاصة منطلقة ، فصاح عثمان في السائق :
— أسرع .. الرصاص مصوب إلينا ..
وانطلقت السيارة تسابق الريح والباشا يزجر ويسب ويلعن ، ويهدد
ويتوعد ، ويرغى ويزيد ، وعثمان صامت لا يفتح شفتيه بكلمة ..
ووقفت السيارة أمام السراى ، وهبط الباشا منها وهو حانق ، والتفت إلى
عثمان وقال :
— لا بد أن أعرف الليلة ذلك المجرم الذى أراد قتلى ، لن أبرح العزبة قبل أن
أعرفه وأعرف لماذا يريد قتلى ، وماذا سيستفيد من موتى .. يقتلنى أنا ؟ أنا
الذى أغرقت كل هؤلاء الكلاب بأفضالى ، أنا الذى أشبعتهم بعد جوع
وكسوتهم بعد عرى ، يا للجحود ! يفكرون فى قتلى أنا ؟
وقال عثمان فى ملق :
— تفضل أنت يا باشا ، ولن تغمض لى عين قبل أن أعرف الفاجر ابن
الفاجرة ..
فقال الباشا فى إصرار :
— لا بد أن أعرف من هو قبل أن أسافر الليلة ..

وراح الباشا يصعد في الدرج يحس كأن حملا ثقيلا على ظهره ، وعاد عثمان بالسيارة إلى القرية ..

ومر الوقت وئيدا وئيدا والباشا ثائر يكاد الغضب يمزق صدره ، وسمع صوت سيارة قادمة من بعيد فخف إلى الشرفة ينظر وهو يلهث من الغيظ ، وقفت السيارة عند باب السراى وهبط منها عثمان ، فأسرع الباشا يستقبله عند رأس السلم ، فلما لمح صاعدا ، قال في لهفة :

— هيه ! ماذا وجدت ؟

فصمت عثمان وإن أسرع في الصعود ، فصاح الباشا به :

— انطق ..

فقال عثمان ليثير حب الاستطلاع في الباشا ويؤجج نار لهفته :

— والله لا أدري ماذا أقول ..

وكان عثمان قد وصل إلى حيث وقف الباشا ، فدنا منه الباشا وقال :

— قل ..

— ماذا أقول ؟ كل ما سمعته مهمة .. شائعات ليس لها من سند ، ولا يمكن أن يصدقها عقل !

فقال الباشا وقد ضاق به ذرعا :

— قل ماذا سمعت ؟

— ما سمعته لا يعقل ، ولا يمكن أن ينطق به لسان ..

فقال الباشا في عنف :

— تكلم .. انطق .. قل ..

فقال عثمان في استسلام :

— أقول وأمرى لله ، وأستغفر الله ..

وصمت قليلا ثم قال :

— يقولون إن عبد الخالق هو الذى حرض على الباشا ، مجرد قول ..

وقال الباشا فى ثورة :

— عبد الخالق يريد أن يقتلنى ليرثنى ، لينفق أموالى التى جمعتها بعرق الجبين على الفارغين والرقعاء من الممثلات ؟ لا يا عبد الخالق لن أموت قبل أن أقتلك حسرة وكمدا ، سأعيش يا عبد الخالق لأمرر حياتك ولأسقينك العلقم والصاب ..

والتفت إلى عثمان وقال آمرا :

— اطلب عبد الخالق الآن وقل له الباشا لم يميت ولن يموت قبل أن يواريك التراب ..

ووقف عثمان صامتا ، فصاح الباشا به :

— تحرك ..

واتجه عثمان إلى التليفون وراح يطلب :

— ألو .. أريد القاهرة ..

وقال الباشا وهو يغادر الغرفة :

— بلغه كل ما قلته لك .. فاهم ؟ قل له إن الرجل الذى أجره خائب

مثله .. فاهم ؟ قل له إن الباشا سيعيش حتى يدفنه .. فاهم ؟

وغاب الباشا فى القصر ، وجلس عثمان ينتظر المكالمة وقد تهللت أساريره ، وإرتسمت على شفتيه بسمة انتصار ..

وعاد الباشا بعد أن ارتدى ثيابا فاخرة وتأنق وتعطر ، وقال لعثمان :

— سأسافر الآن إلى الإسكندرية ، ولا تنس أن تقول للكلب عبد الخالق كل

ما قلته لك .

فقال عثمان مظهرا اهتمامه بالباشا :

— أتسافر بالسيارة أم بالقطار ؟

— بالسيارة .

— أليس من الأفضل أن تنتظر حتى الصباح ، الطريق مظلم و ...

فقاطعه الباشا قائلا :

— سأختنق لو بت هنا الليلة .

وهبط وعثمان في أثره ، وركب سيارته الفاخرة وانطلق ، وعاد عثمان إلى التليفون مسرورا ، فقد قطع بما دبره الخيط الواهى الذى كان يربط الباشا بابنه البكر ، ولن تعييه الحيل أن يبعد حلمى عن العزبة إذا فكر يوما في أن يدس أنفه في أعماله كما فعل أخ له من قبل .

وعاد ينمق الحديث الذى سيدور بينه وبين عبد الخالق ، ورن جرس التليفون رنينا متصلا ، فرفع السماعة في نشوة وقال :

— ألو .. عبد الخالق بك من فضلك .. من يريده ؟ قولى له : عثمان ابن عمك .

وقلب سماعة التليفون في يده في غبطة ، ثم وضعها على أذنه واضطجع ينعم بالمشاعر التى تفجرت بين حناياه ، وجاء الصوت من الطرف الآخر :

— ألو .. أنا عبد الخالق .

— مساء الخير يا عبد الخالق بك .. آسف أن أزعجك في هذه الساعة ، ولكن الباشا كلفنى بأن أبلغك رسالة ما كنت أحب أن أحملها إليك ، ولكن ...

وصمت ، وقال عبد الخالق في لهفة :

— قل ، ماذا قال لك ؟

— قال لى ، وأرجوا أن تعذرني فالقول قول الباشا ، قال إن الرجل الذى أجرته لقتل الباشا خائب مثل سعادتك .

فقال عبد الخالق في حدة :

— ولكننى لم أؤجر أحدا لقتل الباشا ، ولم يخطر ذلك على قلبى أبدا ..

فقال عثمان وهو يتنسم :

— أنا واثق كل الثقة أنك لم تفعل ، ولكنك تعرف الباشا ، فأرجو أن
(الحصاد)

تسمح لي حتى أبلغك رسالته .. قال : إنه لم يموت ولن يموت قبل أن يوارى
سعادتك التراب ..

آسف يا عبد الخالق بك ، ولكن هذه هي رسالة الباشا . أرجو أن تغفر لي
وأن تقبل عذري .

— ولكن يا عثمان هذا ظلم . هذا افتراء . لم أفكر أبدا في قتل الباشا
فقال عثمان متظاهرا بالإشفاق :

— أعلم هذا ، ولكن ما باليد حيلة ، انتهت رسالة الباشا ، تسمح سعادتك
تضع السماعة .

وسمع عثمان صوت السماعة ، فألقى بسماعة التليفون وفرك يديه سرورا .

٣١

انسابت السيارة في طريق الكورنيش والباشا غارق في تفكيره ، كان الظلام
ثقيلا ، ورائحة البحر تتسلل إلى الأنوف ، والسيارات الحربية في غدو
ورواح ، وقد جلس إلى سور الكورنيش بعض بائعات الهوى والجنود ،
وانبعثت ضحكات خليعة وصيحات مغمورة في عربات الحنطور .

وانحرفت أمام سيارة الباشا عربة حنطور راح السائق يتفادها في جهد ،
ونظر الباشا فرأى جنديا بريطانيا في مكان الحوذى وقد وضع على رأسه
طربوشه ، وقبض بيديه على أعنة جوادين هزيلين يكادان أن يسقطا إعياء ،
والتقت عينا الباشا بعيني البريطاني ، فقال الجندي في صوت رفيع :

— ما رأيك في أن نتسابق وللغنائز جنيه .

وضحك رفاقه الجالسون في العربة ، ومالوا على الفتيات اللاتي كن إلى
جوارهم يلثمونهن ، وقال قائل منهم :

— ارفع الرهان إلى خمسة جنيهات ليشرّب كل منا بجنيه ، إننا سنكسب

الرهان بلا شك .

وقال جندي رفيع جدا وهو يكور يده ويضرب بها في الهواء :
— سنكسبه بهذا سواء أهُزمنّا أم انتصرنا .

وقال الجالس مكان الخوذي وقد رفع إبهامه وسبابته على هيئة V : Victory :
النصر لنا .

وضاق صدر الباشا ولكنه اضطر إلى الصبر ، رأى السائق يحاول أن يمر أمام الخيل فنهأ عن ذلك خشية أن يدفع السكر القابض على الأعنة بالخيل إلى الأمام فترتطم بالسيارة ، وقال له :

— اصبر حتى يتأهب للسباق ثم انطلق أنت بأمان .
وأطل الباشا برأسه من النافذة القريبة منه وقال للخوذي باللغة العربية :
— لا يمكن أن يبدأ السباق وهو يسد علينا الطريق ، الواجب أن نقف نحن وهو في صف واحد .

وراح الخوذي يقول للجنود بلغة إنجليزية ركيكة :
— قبل الرجل الرهان وهو يطلب أن نقف نحن وهو في صف واحد .
وصاح الرجال المخمورون في نشوة :
— هذا عدل ، وما من رجل عاقل يرفض المعقول .
وراح الخوذي يعاون القابض على الأعنة على أن تعود الخيل إلى سواء السبيل ، وتقدمت السيارة ليقف عن يسار العربة ، ووقعت عينا الباشا على فتاة صغيرة بيضاء البشرة ذهبية الشعر جالسة بين جندين ، فأتأرها النظر برهة ثم قال للسائق :
— انطلق .

وانطلقت السيارة وانطلقت في أثرها الصيحات واللعنات والسباب ، وعاد الباشا واضطجع في جلسته ، وإذا بصورة الفتاة التي رآها تلح على ذهنه ، وإذا به يتذكر الفتاة المساوية التي كان يعاشرها حلمى والتي طردها من البلاد

وهى حامل بحفيده ، وخطر له أنها لو كانت وضعت أنثى ، فقد تصبح بعد عشرين سنة كهذه الفتاة الصغيرة ترفه عن الجنود فى بلد ما إذا ما نشبت الحرب ، وما أيسر الأسباب التى تنشب من أجلها الحروب .

وضايقه ذلك الخاطر الذى لا يدرى سبب وفوده على رأسه فى هذه الساعة ، وأضفى على روحه مسحة من كدر ، وراح يطرد ذلك الوهم السخيف الذى يعكر صفو نفسه بعد أن بدأت تهدأ وتهفو إلى المشاعر الرقيقة التى تدغدغ روحه كلما فكر فيما هو مقبل عليه الليلة .

ووقفت السيارة أمام فيلا من طبقتين تطل على الكورنيش وعلى شارع خلفى ، لها بابان يؤدى كل منهما إلى شارع ، ويقود إلى الفناء الواسع الذى قامت الفيلا فى وسطه . وتقدم الباشا ثابت الخطو ، ولم يصعد فى الدرج الرخامى الكبير المواجه لطريق الكورنيش بل دار حول الفيلا ، وقيل أن يصل إلى الدرج الخلفى المواجه للبواب الخلفى ، صعد بضع درجات فى سلم ضيق جانبي وبلغ بابا صغيرا وأزاح غطاء سحريا فى الحائط فإذا بجرس تحته ، وراح يضغطه ضغطا خاصا كأنما يبعث إشارة لاسلكية .

ومرت لحظات سمع بعدها صوت قادم يهرول ، وفتح الباب فى حرص وظهرت الست أنهار فى ثيابها السوداء الطويلة التى تخفى صدرها وذراعيها وساقها ، ولما وقعت عيناها على الباشا تهللت أساريرها وقالت :
— أهلا وسهلا ، والله لقد فكرت فى سعادتك من لحظات .

فقال الباشا وهو يتسم :

— قلب المؤمن دليله .

ف قالت وهى تفسح له الطريق :

— تفضل . تفضل . كم أنا مسرورة ، والله أكاد أطير من الفرح .

وتقدم الباشا وقد ارتسمت على وجهه سعادة ، وتألفت عيناه ببريق خاطف كله مرح وعريضة ، وقالت :

— والله هذه ليلة مباركة .

وانطلقا إلى الغرفة الشرقية .. كان بابها مطعما بصدف ، وفي أركانها
حوامل مسدسة الشكل مصنوعة صناعة عربية ، عليها أباريق من نحاس أحمر ،
وفرشت أرضها بسجادة عجمية كبيرة وانتثرت فيها مقاعد أسطوانية من الجلد
وأسندت إلى الحائط أرائك منخفضة أمامها مناضد قصيرة مطعمة بالصدف ،
وكانت الأسجاف المصنوعة من الخمل مسدلة على النوافذ والأبواب ، وتدلّت
من السقف ثريا أسطوانية من نحاس أصفر بها مصابيح كهربية تسلط أنوارها إلى
السقف فينعكس منه الضوء هادئا نقيا شاعريا .

وكان في صدر المكان صورة كبيرة لامرأة عارية ، اضطجعت في مخدعها في
وضع يسمح بإبراز كل مفاتها ، وعن يمينها ويسارها تماثلان من برونز لرجلين
عاريين يتطلعان إلى الصورة في نهم ، وقد سلط نور كشاف على الصورة
والتماثلين جميعا .

وعلقت على الحائط الأيمن صورة لآدم وحواء وهما يرتكبان الخطيئة
الأولى ، وعلى الحائط الأيسر صورة امرأة عارية من ظهرها . قد التفتت تنظر
من فوق كتفها وتغمز بعينها .

وجلس الباشا تحت الصورة الكبيرة التي تكاد تغطي صدر المكان ، وروائح
المسك والعنبر تملأ أنفه ، وظلت الست أنهار واقفة ، فرفع الباشا رأسه وقال
لها :

— اجلسي .

وجلست على الأرض عند قدميه ، وقالت :

— مضت مدة طويلة لم تشرفنا فيها .

فقال الباشا وهو يخلع طربوشه ويضعه إلى جواره :

— ألا لعنة الله على الألمان والإنجليز والأمريكان وعلى حلفائهم ..

وصمت قليلا ثم قال :

— وكيف حال فتياتك الصالحات ؟

فقال وقد تهللت أساريها :

— بخير . وقد أحضرت من القاهرة فتاتين رائعتين كأنما صنعنا من قشدة :
إحداهما سبع عشرة سنة ، والثانية تزيد عليها سنة ، خفة دم ، وقوام وجمال ،
كلما سمعت الصغرى وهى تغنى تفور دمائى فى عروقى ، ويعود إلى الشباب .
فقال الباشا مجاملا :

— أنت الخير والبركة يا ست أنهار ، إن ذبلت الوردة رائحتها فيها .

فقال وهى تتنهد :

— من ذا الذى يركب السوارس الآن ؟

وقامت فالتفت إليها الباشا وقال :

— إلى أين ؟

— أحضر لك الوارد الجديد .

وخرجت وقام الباشا يخلع جاكته ويفك رباط عنقه ثم جلس وقد شرد
ببصره وانبسطت أساريه ، وراح يرقب الباب فى لهفة وشغف
وعادت الست أنهار وهى تدفع أمامها فتاتين رائعتين ، أجمل ما فيهما
الشباب المترقق فى وجناتهما والحيوية المتدفقة والكهرباء التى تشعها العيون ،
ورفت على شفتى الباشا بسمة وجرى ريقه وراحت تنبت فى جنباته مشاعر
رقيقة حاملة ، وربت بكفيه على الأريكة يدعوها للجلوس إلى جواره .
وجلست الفتاتان عن يمينه ويساره ، وجلست أنهار عند قدميه وقالت
للصغرى :

— غنى .

وارتفع صوت الفتاة أسرا عذبا حنونا ، وراحت تغنى أغنية مشهورة بعد
أن بدلت كلماتها بكلمات تروى أغنية جنسية صارخة وتهللت أساري الباشا
وأحس كأن الشباب يراق فى روحه ، والحيوية تتدفق فى عروقه ، واللذة

تدغدغ مشاعره ، فراح يهز رأسه طربا وهو يعصر الفتاتين بذراعيه ويضمهما إليه .

وانسلت أنهار من الغرفة وغابت قليلا ثم عادت تحمل الشراب ووضعت على نضد أمام الباشا ، فراح يصب الخمر في كأس واحدة ويقدمها إلى الفتاة التي عن يمينه فترشف منها رشفة ، ثم يقدمها إلى التي عن يساره فترشف رشفة ، ثم يضع الكأس على شفثيه ويرشف ما فيها في سعادة وانسراح .

وراح الباشا يضع شفثيه حيث وضع الكأس من قبل ويعب جمر الشفاه ، ونهضت أنهار وخرجت من الغرفة وقد أحكمت إغلاق الباب خلفها . وفاضت نشوة الباشا فراح يغنى مع الفتاتين الأغنية التي تروى دقائق عملية جنسية كاملة مترعة باللذة .

٣٢

كانت بثينة ورفعت في غرفة الاستقبال وحدهما ، بثينة تقص عليه بعض ما يضايقها وهو يصغى إليها مسرورا ، فقد روى أمله الذي يعيش عليه أنها بدأت تفتح له قلبها وتبثه متاعبها وتشكو إليه ضعف زوجها ، وهى بحديثها هذا تزيد الغشاء الذى يفصل بينه وبينها رقة على رفته .

قالت بثينة وهى تزفر :

— اتهم الباشا عبد الخالق بأنه حاول قتله ، ففزع عبد الخالق وانخلع قلبه ، وراح يعدو وهو يلهث إلى مكتب الباشا وإلى قصره ويتصل بالعزبة ليقسم للباشا بأنه لا صلة له بذلك الذى أطلق عليه الرصاص فى العزبة وليطالبه بإبلاغ النيابة لتحقيق الأمر حتى تظهر براءته ، ولكنه لم يجد الباشا ، قيل له إنه فى الإسكندرية ليتعاقد على صفقة كبيرة ويزور مكتبه فى البورصة .

وراح طول الليل يقسم لى إنه لا يد له فى محاولة قتل الباشا وظل يرى نفسه

حتى حطم أعصابى ، وكان يحسب أن براءته من دم الباشا تسرنى وتثلج صدرى ، ولو أنه قال لى إنه هو الذى حرّض على قتله لارتفع درجات فى عينى ، ولتيقنت أنه لم يسلم بهزيمته أمام جبروت الباشا ، أما ذلك التخاذل الذى اعتراه فيحز فى نفسى حزا ويؤكد لى أن معركته مع الباشا قد انتهت . لم يطق الصبر حتى الغد ليذهب لمقابلة الباشا ، صبور له وهمه إنه قد عاد الليلة ، فذهب إليه ينفى ما اتهم به ويقسم بأغلظ الأيمان أن كل ما قيل ظلم وزور وبهتان ، إننى أستطيع أن أسمع دفاعه من كثرة ما رددته على مسامعى . وتلملت فى مقعدها وخفضت الساق المرتفعة لترفع فوقها الساق الأخرى ، ورفعت يرقب الساقين فى اشتاء ، وقالت فى تصميم :

— لو ألقى عبد الخالق سلاحه فلن ألقى سلاحى أبدا ، سأظل شوكة فى جنب الباشا تقض مضاجعه .

وجاءت الخادم وقالت :

— مرسى بك وشعبان بك .

— فليتفضلا .

ونفضت لاستقبالهما ، ودخل شعبان وكرشه أمامه ومرسى خلفه ، وصافح بثينة وهو يضغط على يدها بيده الخشنة ، ثم صافح رفعت وهو يتسم ابتسامة ملق لعله يتقى بها لسانه ، ثم عاد والتفت إلى بثينة وقال :

— أرجو أن ترسلى الخادم ليحضر بعض حاجات بسيطة من تحت بلاقافية ، وقولى له إنها فى السيارة من وراء ولا مؤاخذه .

وقالت له بثينة وهى تنصرف :

— ولِم كل هذا التعب ؟

فقال وهو يجلس بالقرب من رفعت :

— هذه أشياء بسيطة يا شيرين .

وغابت بثينة عن أعينهم ، ومال رفعت على شعبان وقال له :

— حاذر ، لقد خائنك لسانك وذكرت اسم صديقتك بدل أن تذكر
بثينة .

فقال شعبان في إنكار :

— لم يحدث ذلك أبدا ؟

— ألم تقل يا شيرين !؟

فقال شعبان وهو يضحك :

— يا شيرين يعنى يا عزيزتى بالفرنسية يا إكسلانس .

فقال رفعت في سخرية :

— آسف ، لم يرسلنى أهلى إلى مدارس الجيزويت .

فدنا منه شعبان وقال :

— صل على النبى يا إكسلانس ، من لم يعلمه أبواه علمته الأيام والليالى ..

فقال رفعت وهو يتسم :

— حكم . الله يفتح عليك .

ورن صوته ساخرا في أعماقه : « الله يلعن أبوك » ، وأحس مرسى أن

رفعت يتأهب لبرغ شعبان فى التراب ، فقال لينقذ صديقه :

— لماذا لا تأتى لتسهر معنا الليلة ؟

وفهم رفعت أن مرسى يحاول أن يرشوه سكوته ، فقال ساخرا :

— أين يا إكسلانس ؟ فى شارع سليمان باشا !؟

ووخزت سخريته مرسى ، ولكن الوخزة لم تؤلمه وقال فى هدوء :

— نعم ، فى شارع سليمان باشا ، فى بيتى يا أختى .

فقال رفعت وهو ينظر إلى شعبان :

— يسرنى ذلك يا شيرين ..

وابتسم مرسى راضيا ، ونظر إلى شعبان نظرة خاصة كأنما يقول له :

« اطمئن فقد قبل الرشوة » ! وجاءت بثينة ونهض الجميع يفسحون لها

مكائنا ، وجلست بين رفعت وشعبان ، وهم شعبان بمحادثتها ، وإذا برفعت يقول له :

— ماذا فعلت في قضية الرشوة الأخيرة ؟

فقال مرسى وهو يتنسم :

— حفظت في مكتب الحاكم العسكرى .

فقال رفعت فى دهش :

— كيف تحفظ والتهمة ثابتة ؟

فقال شعبان فى زهو :

— حفظت قضية الرشوة برشوة أكبر منها .

وقال مرسى وهو يهز يده هزات تدل على عظمتة :

— كل موظفى مكتب الحاكم العسكرى أصدقائى .

فقال رفعت فى زراية :

— من رواد شارع سليمان باشا ؟

واعتدل شعبان وقال لرفعت ، وإن كان يأكل بثينة بعينيه :

— صل على النبى يا إكسلانس . كل شىء له ثمن .

وشردت بثينة لحظة تفكر ، ترى ماذا يقصد بكلامه هذا ؟ أيريد أن يوحى

إليها بشىء ؟ إنه وعد بإقراض عبد الخالق ما يريد ، ولكنه لم يتقدم خطوة بعد

ذلك الوعد ، أيريد ثمننا لتنفيذ وعده ؟ وإذا كان يريد ثمننا ، فما هو ذلك

الثن ؟ وقال رفعت :

— أهذا مذهبك ؟

فقال شعبان وهو يضحك :

— هذا دينى .

فقال رفعت فى حدة :

— يحرق ...

فقال شعبان في هدوء :

— إننى أزداد كل يوم إيمانا به ، ما من إنسان قدمت له رشوة إلا قبلها .

فقال رفعت في إنكار :

— كل من وضعت في يده مالا أخذه ؟

فقال شعبان يشرح وجهة نظره وهو مغتبط :

— ليست الرشوة مالا فقط ، الرشوة أنواع . إن أردت أن ألقنك درساً فيها

ففعال ، والمثل يقول : سل مجرباً ولا تسأل طبيباً يا إكسلانس .

وصمت قليلاً ثم قال :

— والله لقد أصبح يحزننى أن يمشى لى موضوع دون أن أدفع فيه ، صرت

أجد فى رشوة الناس لذة .

وقال مرسى وهو يضحك :

— أنا واثق أنه سيدخل الجنة « غمزا » .

وأرادت بثينة أن توجه الحديث وجهة أخرى فقالت لمرسى :

— لماذا لا تأتى الست هذه الأيام ؟ هل قررت هجرنا كما فعل الأستاذ ؟

فقال رفعت ليلتقط طرف الحديث :

— الست معذورة .

فقال مرسى :

— إى والله ، إنها مشغولة هذه الأيام ..

فقال رفعت ساخراً :

— إنها غارقة فى شهر غسل جديد .

فقالت بثينة فى دهش :

— تزوجت ؟! متى ؟ وكيف تزوج دون أن نعلم ؟.

فقال رفعت يختر مرسى :

— تزوجت زواجا لا يعلن عنه ، لا يعلم به إلا الصفوة ..

فقال مرسى فى ضيق :

— يا شيخ حرام عليك !

وقال شعبان :

— أكل لحم الناس حرام يا إكسلانس .

وقال معرضا به ليسكته :

— والرشوة حلال يا شيرين !

وابتسمت بثينة ، وراح رفعت يقول :

— هجرت سيدة غنية زوجها وطلبت منه أن يطلقها لتعيش مع الست ،

إنها تفضلها على زوجها ، وهى معها الآن تسعد بشهر العسل ..

وقال مرسى وهو يلوح بيده :

— اتق الله يا شيخ ..

وقال شعبان :

— يا ما فى السجن مظالم ..

وقالت بثينة وهى راضية :

— لسانك ! ستشنىق يوما بسبب لسانك ..

فقال مرسى وهو يرفع أكف الضراعة :

— يا ليت !

وضحككت بثينة وضحك شعبان ، وقال رفعت :

— لولا أن الله ستار أمر بالستر لقلت اسم السيدة الغنية ..

وقال شعبان :

— حرام ، كلنا لنا ولايا ..

ونظر إليه رفعت وهو يغمغم : « حرام يا ابن الكلب ! » وصمت مرسى

وأطرق ولم تنبس بثينة بكلمة ، وضائق رفعت ذلك الصمت ، كان يرجو أن

يلحوا عليه لمعرفة اسم السيدة الغنية ، ولكنهم لم يفعلوا ، ولم يستطيع أن يصبر

على كتمان ما يعرف ، فقال :
— ربنا أمر بالستر ، لكن لا بد أن تعرفوا من هي حتى لا نظنوا أنني أتهم
بلا بينة ، إنها فتحية امرأة مراد باشا ..

فقالت بثينة :

— لسانك !

فقال مرسى :

— يستحق القطع ..

وقال رفعت :

— القطع أنواع يا شيرين الله يقطعك ..

ودخل عبد الخالق وهو ساهم ، ولحى شعبان فنهض لاستقباله قائلاً :

— يا مساء النور يا عبد .

واغتصب عبد الخالق ابتسامة ، وإراح يصافح الجميع ، ولما اقترب من بثينة

قالت له بصوت خافت :

— قابلته ؟

فقال عبد الخالق في صوت متهدج :

— لم يعد بعد من الإسكندرية ..

والتفت عبد الخالق إليهم وقال :

— عن إذنكم دقيقة ..

وانسحب عبد الخالق وهو مطرق ، وقال شعبان :

— لم يعجبني عبد الخالق وهو داخل ولا مؤاخذه ، رأسه مشغول يا ترى

ما الذى يشغل باله ؟

فقالت بثينة :

— إنه متوعلك قليلا ، لم ينم ليلة أمس ..

ولمعت عينا رفعت ببريق سرور ، أسعده أن بثينة لم تتحدث مع شعبان

ومرسى بما أفضت به إليه ، وأرضى غروره أنه قد أصبح مستودع أسرارها ، ولم يعد بينه وبين ما يشتهى إلا خطوة واحدة ، والأيام كفيلة بأن تقطعها ، إنه صبر سنوات وفكرة أن يضمه وبثينة مخدع واحد تداعب خياله ، وقد أينعت الفكرة وسيحين حتما أوان قطافها ..

وقال شعبان وهو يرنو إلى بثينة :

— كأسان كفيلان بإطارة كل تعب ..

فقال بثينة :

— لقد شرب كثيرا البارحة ..

وقال مرسي وهو يتسم :

— الوحدة غير مستحبة لا في الحب ولا في الشرب ..

ثم قال مرسي في لهجة تمثيلية :

— لو كانت الوحدة رجلا لقتلتها ..

فقال رفعت وهو ينظر إلى مرسي في استخفاف :

— أتريد أن تفعل بها أكثر مما تفعل الآن ؟ إنك تعاون الناس على قتلها كل

ليلة وتيسر لهم السبل ، أنت رجل عظيم ، زعيم أكبر حزب ..

فقال شعبان في بلاهة :

— ماذا تقول يا إكسلانس ؟ لا أفهم مما تقول شيئا ، عن أى حزب

تتكلم ؟ أنا أعرف أن مرسي لا دخل له في السياسة ، لا هو وفدى ولا دستوري

ولا حتى من الإخوان ..

فقال رفعت وهو يتسم ابتسامة خبيثة :

— إنه زعيم حزب : « أعداء العزلة » ..

فقال بثينة وهي تبسم :

— حرام عليك يا رفعت ، البلد زاخر بمن يستحقون هذه الزعامة ..

وقال شعبان في ضيق :

— صل على النبي يا إكسلانس ، إننا لا نفهم اللف والدوران ، كلمنا كلاما مكشوفاً ولا مؤاخذه ..

فقال رفعت وهو يحنى له رأسه :

— حاضر يا شيرين ..

وعاد عبد الخالق وجلس بالقرب من مرسى ، وقال شعبان :

— الشراب يا سادة ..

وتهضت بثينة وسارت وقد سدد شعبان عينيه إلى أبرز ما في ظهرها ، وراح رفعت يسعد بالتطلع إلى ساقها المتناسقتين اللتين طالما حلم بتمرير يده عليهما ..

ومال شعبان على رفعت وقال في توسل :

— خفف عنا الله يسترك ..

فقال له رفعت في سرور :

— وهل فعلت شيئاً ؟

فقال شعبان في عتاب :

— وهل تريد أن تفعل بنا أكثر مما فعلت ؟ إنك ولا مؤاخذه تعرينا .:

فقال رفعت وهو يتنسم في خبث :

— وهل تريد إلا أن تتعري يا شيرين ؟

ورأى شعبان أن يجاريه لعله يستطيع أن يكسبه إلى جانبه ، فلكزه في رفق

وقال :

— عرى عن عرى يفترق ..

وطبقاً يتعاتبان ، وقد مال مرسى على عبد الخالق ، وراح يوسوس له :

— أنت في حاجة إلى راحة ، إلى تغيير حياتك هذه التي تحياها ، لماذا

لا تفكر أن تأتى عندي ليلة ؟

فقال عبد الخالق في بساطة :

— فى المسرح ؟

فابتسم مرسى ابتسامة ترجمتها : « يا عيىط » وقال :

— لا .. عندى فى البيت ، عندى كل وسائل الترفيه ، ممثلات ، فتيات صغيرات ، ويسكى ، بيره ، حشيش ، تعال ليلة لتعيش فى الجنة .. وانقشع القلق المستبد بعبد الخالق ، وصفت نفسه ، فقال لمرسى :
— ربنا يوعدنا ..

وأخرج مرسى من جيبه بطاقة ، وقدمها إلى عبد الخالق قائلا :

— إذا هفت نفسك ليلة إلى دخول الجنة فاطلبنى فى هذا الرقم .

وجاء الشراب ، ودارت الكموس على الرجال الذين كانت كل أفكارهم تدور حول الرذيلة ، كان رفعت وشعبان يشتهيان امرأة واحدة ، وكان عبد الخالق يفكر فى الجنة التى وعده بها مرسى ، أما مرسى فقد كان راضيا عن النصر الذى أحرزه ، سيفلق ذات ليلة قرية الباب على عبد الخالق وإحدى فتياته ، وسيصبح عبد الخالق من زبائنه ، وإنه ليرجو أن يسحب بثينة كما سحب زوجها وأن تصبح من حوريات جنته ..

وقاموا إلى المائدة العامرة بكل ما جاء به شعبان ، وجلس شعبان إلى جوار بثينة ، وقد صور له طول حرمانه الذى قاساه أنه ما أن يدخل الطبقة الأرستقراطية حتى ينال كل نساها ، فراح يمد رجله من تحت المائدة ليداعب بها رجل بثينة ..

وأحست بثينة حركته ، وفهمت لأول مرة معنى قوله : إن لكل شىء ثمنا ، ووضع فى ذهنها الثمن الذى يطلبه لإقراض زوجها ، فسحبت رجلها بعيدا عن رجله وقد ملأها شعور بالتقزز والاشمئزاز

٣٣

كان عثمان عاكفا على ورقة يحسب ما سيربحه من بيع قطنه وما يحتمل أن يأخذه عند وزن قطن الباشا ويبيعه دون أن يثير شكوك عمه ، فما كانت سرقاته كبيرة يسهل اقتضاح أمرها ، كان يؤمن بأن أفضل السرقة أدومها وإن قلت .. وراح يجمع ما معه على ما سيبيع به قطن أرضه على ما قرر أن يسرقه فوجد أن حاصل الجمع أقل من ثمن قطعة الأرض التي قاوض صاحبها على شرائها ، فعزم على أن يرفع سرقاته حتى يغطي ذلك الفرق الذي كشفه ، فقد كان يكره الاقتراض أو أن يكون مدينا لإنسان ..

علم الباشا ذات يوم أنه اشترى أرضا جديدة ضمها إلى أرضه ، فسأله دون لف أو دوران عن مصدر ثمنها ؟ فقال له وهو يضطرب يكاد أن ينخلع قلبه : إنه يعتمد على السترو البركة .. وراح يحصى دخله من أرضه وما ادخره من راتبه ، ويخس الثمن الذي دفعه ، ويقسم بأغلظ الأيمان بأن الله يحبه لأنه يقع دائما على « لقط » قلما تتاح لغيره ، وأن كل ذلك بفضل دعاء الوالدين وتعفنه عن الحرام ، فالحلل يربو ، والحرام يذهب الحلل ..

واقنع الباشا أو تظاهر بالاعتناع ، واطمأن عثمان إلى أن كل ما سرقه قد هضم ، وراح يمهد لسرقاته الجديدة بالتظاهر بالتعفف والتقوى وتعهد إقامة الصلاة في مكتبه في الأوقات التي يعلم أن الباشا سيمر به فيها ، وراح يحفظ عن ظهر قلب الأحاديث النبوية التي تحض على الزهد والقناعة والأمانة ليرددها على مسامع الباشا كلما خلا به ، وما أكثر ما يخلو له وجهه ..

كان الباشا يحفظ القرآن والأحاديث منذ أيام دراسته في الأزهر ولكنه ما كان يعمل بما يحفظ ، وقد سره أن يجد ، على الرغم من فسقه ، في ابن أخيه الرجل الصالح الذي يقيم الشعائر وينتهي بما نهى عنه الدين ، فقد كانت جذور (الحصاد)

الدين في وجدانه ، يتشدد في إخراج زكاة ماله ، وينتصر على شح نفسه ، ولكنه كان يضعف أمام كأس ، ويتهافت لصدر ناهد وضحكة ناعمة ونظرة ساهية فيها نداء ..

وسمع عثمان وقع أقدام ، فرفع رأسه عن الورقة التي أمامه ، ورأى عبد الخالق وهو يتقدم نحوه باسر الوجه ، فراح يخفي الورقة في ارتباك ، كأنما ضبط متلبسا بجريمة ، ثم هب واقفا يجتمع شتات نفسه التي ذهبت شعاعا ، وقال عبد الخالق في صوت متهدج :

— الباشا موجود ؟

وقرأ عثمان الخوف في عيني ابن عمه ، فهدأت نفسه وأفرخ روعه ، وراح يتقدم نحو عبد الخالق ثابت الخطو ، وقال :

— من الأفضل ألا تقابله الآن ..

فقال عبد الخالق في إنكار :

— لماذا ؟

فقال عثمان وهو يضع يده على كتف عبد الخالق :

— تريث حتى يذهب غضبه ..

وقال عبد الخالق وهو يتقدم :

— بل لا بد أن أقابله الساعة ..

واعترض عثمان طريقه ، فقال له عبد الخالق وهو ينظر إليه شزرا :

— أتمننى يا عثمان من مقابلة أبى ؟

فقال عثمان في لين :

— أرجوك ألا تصر على هذه المقابلة .. إني أبغى مصلحتك ، اصبر حتى

تصلح الأيام ما حدث وينسى الباشا ما فعلته ..

فثار عبد الخالق قائلا :

— أأتمننى يا عثمان بفعل ما حدث ؟

— أنا لا أتهمك ، وما خطر ذلك على قلبي أبدا ، ولكن الباشا مقتنع تمام الاقتناع أنك الذى حرضت على قتله ..

فقال عبد الخالق وهو يدفع عثمان عن طريقه :

— لا بد أن يعرف الباشا الحقيقة ..

وخشى عثمان افتضاح أمره إذا ما تقابل الابن والأب ، فقال فى نعومة :

— إننى أحبك يا عبد الخالق ، وأنت واثق من ذلك ، وأتمنى لك كل خير ،

وأستحلفك بحق هذا الحب ألا تصر على مقابلة الباشا وألا تسعى إليه حتى

لا تفسد كل شيء وتزيد الأمور تعقيدا ..

وصمت قليلا وقال له :

— ألا تثق فى ؟

ولم ينبس عبد الخالق بكلمة وإن نفى فى قرارة نفسه هذه الثقة ، وقال

عثمان :

— ما دمت تثق فى وفى حسن نواياى ، دع لى هذا الأمر وأنت مطمئن ،

وأنا كفيل بإصلاح ما فسد ..

واشتد وجيب قلب عبد الخالق ، وربت مخاوفه فقرر أن يفر من نفسه

الواجفة باقتحام الخطر ومواجهة واقعه ، فقال فى عناد :

— بل لا بد أن أقابله الآن ..

وسد عثمان الباب بجسمه وتشبث بالأرض ، فلم يجد عبد الخالق بدا من

اقتلاعه من طريقه ودفعه بعيدا وفتح الباب فى عنف ، ونظر الباشا فألفى أمامه

ابنه مبهور النفس ، زائع البصر ، يتفصد العرق منه ، فأوجس خيفة ، ومشى

فى جوفه رهبة ، وتوترت مشاعره ولكنه رأى أن يدارى خوفه بصياحه ، فهب

واقفا وقال فى ثورة :

— ما الذى جاء بك ؟ أجمت أن تقتلنى بعد أن أخفقت محاولتك لاغتيالى ؟

لا أظن ، فأنت أجبن من أن تقابلنى وجها لوجه ، شيمتك الطعن من الخلف ،

اخرج .. اغرب عن وجهي ، لا أريد أن أراك ..
وتقدم عبد الخالق وهو يصيح في انفعال :
— أقسم بالله العظيم ثلاثاً أنني لا يدلي فيما جرى .. تقطع يدي قبل أن تمتد
إليك ..

فقال الباشا في حدة :
— تريد أن تقتلني ، أن ترثني ، أن تنفق أموالاً في حماقاتك ، ولكن
لا يا عبد الخالق .. لن أموت ، ولن تقتلني ، ولن تسعد بأموالي . لست ابني ،
إنني برىء منك .. اخرج .. اخرج ..
ودخل عثمان وراح يدفع عبد الخالق دفعا ، فنحاه عبد الخالق جانبا وهو
يقول :

— دعني ، دعني .. لن أبرح مكاني حتى تبلغوا النيابة .. بلغوا النيابة
لتتحقق معي . أريد إظهار براءتي ..
فقال الباشا وهو يتقدم من عبد الخالق :

— أقسم بالله العظيم لو أن ملكا هبط من السماء وقال لي إنك برىء
ما برأتك ، أنت قاتل .. زوحت ملطخة بدمائي وإن لم أقتل .. أدار بذهنك
المريض أنني أصفح عن قاتلي ؟! أحسبت أنك لو ذرفت دموعك الخادعة
سيلين لك قلبي ؟! أنت واهم .. إنني أمقتك كمقتك لي ، اخرج ..
اخرج ..

وراح الباشا يدفعه وهو يقول :
— لا أريد أن أراك ..
فقال عبد الخالق وقد خنقته عبراته :
— أبى ، هذا ظلم ، هذه ..
وقاطعه الباشا في حنق :
— لست أباك .. ولست ابني .. ابني مات ، أما أنت فمجرم .. قاتل ..

سفاح ، اذهب لا أريد أن أراك ..
وشحن الجو بمشاعر غليظة من الحقد والغضب والقسوة ، واختلطت
توسلات عبد الخالق ومطالبته بإبلاغ النيابة والتحقيق معه حتى تثبت براءته
بالسبب والصياح وهدير الغضب المتدفق من حنجرة الباشا ، وجعل الباشا
يدفع ابنه دفعا حتى أخرجه من الغرفة وأغلق الباب خلفه وهو يشهق ويزفر في
انفعال ..

وسار عبد الخالق مطرق الرأس ممزق القلب ، ضيق الصدر بالمشاعر
القاسية الفوارة التي كانت تطعن روحه طعنا قاسيا مريرا ، وقد كاد ينقض
ظهره ذلك اليأس الذي طغى وفاض حتى غمر كل ما عداه من مشاعر
وإحساسات ..
وراح عبد الخالق يجر رجله جرا ، وعين عثمان الشامتة تتبع خطاه ..

٣٤

كان الباشا يتحدث في مرارة وحلمى يحاوره وهو أكثر منه هدوءا ، فما
كانت إقالة الوزارة تحز في نفسه وتهدد مصالحه ، وكانت أمينة هانم في غدو
ورواح وهي عابسة ، كان يحزنها ويقبض قلبها أن ترى الباشا غاضبا ..
قال حلمى لأبيه وهو يحاوره :
— ألم أقل لك إن كتاب الإقالة قد كتب يوم كتابة تكليف رفعة الباشا
بتأليف الوزارة ؟
فقال الباشا في غضب :

— أتعرف أن الإنجليز كانوا يريدون خلع الملك يوم ٤ فبراير وأن رفعة الباشا
أنقذ عرشه لما قبل تشكيل الوزارة ؟ كان السير مايلز لمبسون يرسل للملك
خرائط خطط الحلفاء العسكرية وهي مختومة ، وكان الملك بعد أن يطلع عليها

يعيدها إلى المندوب السامي بعد أن يطويها ويختمها ، وقد ضبط الإنجليز جاسوسا تونسيا وهو في طريقه إلى قوات المحور ، ولما فتش وجدت معه آخر صور الخرائط التي أرسلت للملك ، وتيقن الإنجليز أن الملك على صلة بأعدائهم ، فحاصروا قصر عابدين بالدبابات ، لم تكن هذه الحركة مجرد مظاهرة لإرغام الملك على قبول تكليف رفعة الباشا بتأليف الوزارة كما قيل ، بل كانت حركة جادة غايتها خلع الملك الذي كان في قصره جهازان للإرسال على صلة بقوات المحور ..

وقال حلمي وهو يقرب ثورة أبيه :

— ولماذا لم يخلعوه ؟

— لأنه أظهر لهم الخضوع ..

— سمعت من أحد رجال حاشية الملك أن السير مايلز لميسون لما قدم للملك إقرار تنازله عن العرش ، قال له الملك : إن الورقة التي كتب فيها التنازل أقدر من أن تكون وثيقة تاريخية ، وأنه يرى أن يكتب التنازل على ورق فاخر .. وقال الباشا في ضيق :

— هذه دعاية الحاشية والبطانة ، كان الملك يرتجف رعبا ، وكان كل من في القصر يكاد يموت خوفا ، كانوا يتهامسون بأنباء الدبابة التي كسرت باب القصر ودخلت فناءه ، وشغل كل منهم بإنقاذ حياته ..

— ولماذا سمح الإنجليز بإقالة رفعة الباشا ؟

لأن أحمد ماهر الذي ينادى دائما بزج البلاد في أتون الحرب سيعلم الحرب على المحور ، سيشارك في قتال جثة هامدة ..

فقال حلمي في بساطة :

— لأن الإنجليز هم الإنجليز مصالحهم فوق كل فوق اعتبار ، أخذوا من رفعة الباشا كل ما يمكن أن يأخذوه فتركوه للملك يفعل به ما يشاء ، حتى يتخلصوا مما وعدوه به ، وحتى يأخذوا من القادم الجديد مقام جديدة . إنهم

ينون سياستهم على أن يأخذوا دون أن يعطوا ..

وجاءت أمينة هانم وقالت :

— إلهام فى الصالون ..

فقال الباشا وهو ينهض :

— إننى ذاهب إلى المكتب ..

ولم تعترض الهانم ، والتفتت إلى ابنها وقالت :

— تعال يا حلمى اقعد معنا .. البنت لا تزال تودنا ..

كانت إلهام تزور بيت الباشا بين الفينة والفينة ، لم تكن تجد مبررا واحدا لقطع صلتها بهؤلاء الناس الذين عرفتهم بعد زواج أختها من ابنهم ، إنهم يرحبون بها دوما ، وهى لا تستطيع أن تقتنع بمنطق أختها ، ولا تجد للعداوات مكانا فى قلبها ..

ودخل حلمى على إلهام فوضعت ابنها على مقعد بجوارها ، ونهضت تصافحه وقد أشرق وجهها بابتسامة عذبة ، وقال حلمى وهو يجلس :

— وكيف حال بدر الدين ؟

فقالت فى غبطة :

— بخير ، سافر بالأمس إلى السعودية ..

فقالت أمينة هانم فى استغراب :

— لا وقت حج ولا وقت زيارة !

وضحكت إلهام قائلة :

— سينشئ هناك شركة للمباني ..

ومد حلمى يديه إلى الصغير وحمله ، وراح يقبله فى حنان ويضمه إلى صدره فى وجد ، ولاحظت أمينة هانم ما يفعله حلمى فخفقت قلبها أسى ، وكادت دموعها تترقرق فى مقلتيها ، ولكنها جاهدت حتى كبحت جماح عواطفها وقالت فى صوت خافت :

— ولماذا ينشئ شركة هناك ؟ ألا يجد مجالا لنشاطه هنا ؟

فقالت إلهام في زهو :

— العمل هنا كثير ، وقد شيد في القاهرة أكثر من عمارة فخمة ، إننى كلما مررت بواحدة منها أحسست أنها قطعة منى أحبها كما أحب ابنى ..
والتفتت إلى ابنها فوجدت حلمى يناغيه ويمرر ذقنه على خده ، فابتسمت سرورا ثم قالت :

— ولكن على الرغم من نجاحه هذا فإن آماله عريضة ، يريد أن يكون له نشاط خارج البلاد ..

وقامت أمينة هائم وأخذت الصغير من ابنها وقبلته وقالت :

— لا يا إلهام ، أنت أحلى منه وأبوه أحلى منه ..

فقالت إلهام في حماسة :

— لا يا ماما ، إنه جميل ..

وكان جميلا حقا ، ليت حلمى أنجب طفلا مثله ، أو ليت أنجب طفلا أقل منه جمالا ، وقالت الهائم وهى تضمه وإن كانت فى قرارة نفسها تتمنى لو أنه كان ابن حلمى :

— سيأتى حلمى له بعروس جميلة ..

فقالت إلهام فى سرور :

— ندفع مهرها من الآن ..

وأحس حلمى كأن الكلمات تخز روحه ، أين هذه التى يتحدثون عنها ؟ سميرة لم تحمل ، وإيفا التى حملت منه طردها بما فى بطنها ، ترى أوضعت إيفا ذكرا أم أنثى ، وما شكل ذلك الذى وضعتة ؟ إنه أكبر من ابن إلهام ، إنه يستطيع أن يتحدث الآن ، أن ينادى : ماما ، وأن يتلفت حوله ويجد لكل الصغار آباء ، ترى ماذا ستقول له إيفا إذا ما سأها يوما عن أبيه ؟ أتقول له أن أباه قد ذهب إلى الحرب ولم يعد كآلاف الآباء الذين ذهبوا ولم يعودوا ؟ أتقول

له الحقيقة وتطلب منه أن ينسى أباه النذل الذى لفظه هو وأمه وألقى بهما بين
برائن المجهول الذى لا قلب له ، ليتها لا تفعل .. ليتها تصور له أباه فى صورة
مشرقة تنير له مستقبله .. إن إيفا عاقلة ولن تقدم أبدا على تحطيم قلب ابنه البائس
الذى ما حرمه إلا جبنه ..

ترى ما اسمه أو ما اسمها ؟! وأين هو أو هى الآن ؟ وماذا تفعل أو يفعل ؟
وما أدراه أن إيفا لا تزال على قيد الحياة وأن ما كان فى بطنها قد كتب له أن يرى
النور ؟ لو كانت إيفا حية لكتبت إليه تنبئه بمكانها وبأخبار ابنه ، ولكن كيف
ينتظر أن تكتب إليه بعد أن تخلى عنها ورفض حتى مجرد مقابلتها قبل أن ترحل ؟
كانت أمنيته أن تودعه ، أرسلت إليه ترحوه أن تراه للمرة الأخيرة قبل أن
تذهب ، ولكنه أعرض عن ذلك الرجاء ، وفر بعيدا حتى لا يضعف وينطلق
إلى المطار يلقي عليها نظرة أخيرة ، نظرة وداع ..

ليت إيفا تصفح عن ضعفه وعن قسوته وتبعث إليه برسالة .. إن قلبه
ليخفق بالحب لذلك الشيء الذى كان فى بطنها وكتب عليه ألا يراه ، إن
وجدانه قد غمس فى المرارة بعد أن انقشعت مخاوفه عن الحقيقة البشعة التى
تنغص عليه حياته .. حقيقة أنه كان أقسى قلبا على فلذة كبده من الوحوش
الضارية التى تغمر صغارها بالحنان ..

لو أن سميرة قد أنجبت له غلاما لوجد فيه منفسا لمشاعره المذخورة ، ولكن
عقم سميرة جعل نفسه تذهب حشرات على إيفا وعلى وليدها .. ليت سميرة
تحترم ماضيه الحزين ، ولا تحاول أن تؤجج نيران تعاسته ، وأن تطفىء بصيص
النور المتسلل فى ظلام نفسه اليائسة ..

التمس منها ذات يوم أن تعرض نفسها على الطبيب لتعالج عقمها ، فثارت
وأصرت على عدم الذهاب إلى الطبيب قبل أن يذهب هو ، فما أدراها أن العيب
ليس منه ؟ وراح يرمقها فى دهش ، فهى تعلم أمر إيفا وابنها الذى كانت تحمله
فى بطنها ، فكيف يبلغ بها عنادها حد اللجاجة والمكابرة ؟! وقرأت ما كان

يدور في رأسه فقالت في قسوة : أأنت واثق أن إيفا حملت منك ؟ وما أدراك أنها لم تحمل من آخر وأرادت أن تلمحق ما في بطنها بك ؟ كنت غنيا وإفنه لمن المستحب أن يكون أبو ابن السفاح غنيا ليظل كنزا يغترف منه ..

عرضت به في قسوة ، وسففت أحلامه دون أن ترحمه ، وزلزلت صرح ذلك اليقين الذى امتدت جذوره في أعماق ضميره ، ولم يخالجه الشك لحظة في نسب ابنه إليه قبل أن تلقى سميرة في وجهه أدخنة الريبة وتزرع في جوفه سحب الحيرة ، أيعقل أن إيفا التى وهبته كل شيء وهى راضية النفس كانت تخونه ..؟ .. وتحركت عقارب غيرته وأخذت تلسعه لسعا أهون منه لسع النار ..

وهذأت نفسه بعد أن برأ الجرح الذى أصاب رجولته ، وعادت إليه ثقته في أن ما حملته إيفا كان من صلبه ، فسميرة أصبحت لا تطيق أن ترى بالقرب منها أحدا له ولد ، إنها تتشاجر دائما مع الخادم وتقسو عليها لأن لها ولدا ، وقسوتها عليها تربو يوم يأتى ابنها معها ، إنها تصبح قذى في عينيها ومرارة في حلقها ، أفيعقل أنها تطيق أن يكون له هو من غيرها ولد ؟

وأفاق من شروده على حركة بالقرب منه فالتفت فرأى إلهام تستأذن في الانصراف ، وأمه تقسم أنها لا تزال في شوق إليها وأن المدة القصيرة التى أمضتها معها لم تطفى ذلك الشوق ..

ونفضت إلهام وحملت ابنها وصافحت أمينة هانم ، ومدت يدها إلى حلمى فصافحها ومال يطيع قبله على خد الصغير ..

ودارت إلهام وقد تعلق عيون حلمى وأمه بالصغير الذى تحمله على ذراعها ، ولما غابت عنهما قالت الأم في حسرة :

— ما أكثر أولاد الفقراء .. سنة أخرى وتختلف إلهام ولدا آخر ..

فقال حلمى وهو يتحامى نظرات أمه :

— لم يعد بدر الدين فقيرا ، والمستقبل له ..

فقالت أمينة هانم وهى تمصمص بشفتيها :

— حكمتك يا رب ، تعطى الفقراء الأولاد بالكوم ..
ثم التفتت إلى ابنها وقالت :
— شد حيلك يا حلمى وهات لنا نونو ..
فقال حلمى وهو يطأطأ رأسه :
— كل شىء بأمر الله ..

٣٥

كانت الأضواء الحمراء والخضراء تتلألأ فى شارع سليمان باشا ، فقد خففت قيود الإضاءة بعد أن طردت قوات المحور من شمال أفريقية وبدأ ظلها ينحسر من أوربا ، وتترنخ فى عقر دارها تحت ضربات القوات الجوية الساحقة ..

وكان الجنود البريطانيون يملئون الشوارع ويلفون أذرعهم حول أرئيسات الحرب ويترنحون وهم يطلقون ضحكاتهم المخمورة ، وما كان الناس ينظرون إليهم شزرا ، فما هى إلا أيام ثلاثة ثم يجلبون عن القاهرة والإسكندرية ، إنهم يمضون فى مرح آخر أيامهم فى المدينة التى شهدت أسعد أوقاتهم التى قضوها بعيدا عن أوطانهم ..

وكان عبد الخالق ومرسى ينطلقان فى الشارع فى طريقهما إلى شقة مرسى ، فقد صارت المكان الذى يقضى فيه عبد الخالق أغلب لياليه بعد أن استكان لاضطهاد أبيه وضاق بتحريض بثينة إياه على الثورة فى وجه الباشا ، ذلك التحريض الذى لم ينقطع ليلة ، والذى بات يؤلم روحه اليائسة ..

وراح عبد الخالق يتفرس فى الفتيات السمرات اللاتي سينقطع مورد رزقهن بعد أيام ثلاثة فأحس المأساة فى أعماقه ، ستستيقظ القاهرة يوما وإذا بشوارعها غاصة بفتيات لا هن أرئيسات ولا هن خادومات ، خاليات

الوقاض ، يعرض الجوع أجوافهن ، لا يصلحن إلا لتقديم أجسامهن ،
والشباب المتعطش للدهن لا يملك ما يدفعه هن ، إنها مشكلة ليس لها علاج ،
مشكلة وافدة من مشاكل الحروب تبهّر أبصار آلاف الفتيات ببريقها الخداع ،
ثم تطحنهن وتلقى بهن في تيار الحياة منبذات ..
وكان عبد الخالق لا يطبق التفكير طويلا في مشكلة من المشاكل ، فالتفت
إلى مرسى وقال :

— ستصبح كل هؤلاء الفتيات وقودا جديدا لأفرانكم ..
وضحك عبد الخالق ، وابتسم مرسى وقال :
— وما قيمة الوقود إذا لم يوجد الراغبون في الدفع ، أو كان الراغبون فيه
لا يستطيعون دفع ثمنه ، أو كان القادرون على الدفع يفضلون الكهرباء على
الفحم ..
وصمت قليلا ثم قال :

— No Johnny, no money.

وسرعان ما نسي عبد الخالق كل ما حوله وراح يفكر في نفسه ، إنه يأمل أن
تتحسن أسعار القطن بعد أن أصبحت الملاحاة بين أوروبا ومصر ميسرة ، وهو
يرجو أن يعود إلى التجارة لعله يعوض خسائره ، إنه في حاجة إلى مال يبدأ به من
جديد بعد أن كادت أموال بثينة تنفذ ، أبوه لا أمل له فيه ، وشعبان يعد
ويسوف ويطلق التسويق ، وقد انتهى أكثر من عام ولا شيء غير الهدايا
والورود ، ولم يبق أمامه إلا أن يلجأ إلى تاجر من تجار الإسكندرية سبق له أن
أقرضه قرضا حسنا ، لعل الرجل يمهده بالعون الذي يفتح له الطريق ، والتفت
إلى مرسى وقال :

— سأسافر غدا إلى الإسكندرية ..

وقال مرسى في حماسة :

— وحدك ؟

وأحس عبد الخالق رنة غريبة في السؤال ، فقال :
— نعم ، وحدى ، ولكن لماذا هذا السؤال ؟
فقال مرسى وهو يبتسم :
— كم ليلة ستمضيها هناك ؟
— ثلاث ليال أو أربعا ..
وأخرج مرسى ورقة من جيبه ووقف يكتب فيها ، ثم دفع بها إلى عبد الخالق
وقال :
— خذ هذا العنوان ..
وقرأ عبد الخالق العنوان وقال وهو يبتسم :
— أشكر لك ، إننى لا أنزل فى بنسيونات ، لا يزال لنا بيت هناك ..
— هذا عنوان جنة الإسكندرية ، ستعيش فيها مع أجمل الحوريات أمتع
الليالى ..
فأشرق وجه عبد الخالق بالابتسام وقال :
— وماذا أعددت لنا الليلة ؟
وقبل مرسى أطراف أصابعه وقال :
— تحفة ..
وغمز بعينه وقال :
— عذراء السينما ..
فقال عبد الخالق وهو ينظر إلى مرسى من طرف عينه :
— يا فاجر !
فقال مرسى وهو يهز كتفيه :
— والله لا دخل لى فى هذا ، إنها هى التى أطلقت على نفسها هذا اللقب ،
والأغرب من اللقب تبريرها له ، إنها تقول وهى تضحك أنها سميت نفسها
عذراء السينما لأنها لا تكاد تذكر متى كانت عذراء ..

- فقال عبد الخالق وهو ينظر إلى مرسى بكل وجهه :
- لا بد أنها عجوز طال بينها وبين البكارة الأمد .
- فقال مرسى بعد أن قبل أطراف أصابعه :
- إنها رائعة ، لم تتجاوز بعد الحادية والعشرين ..
- وصمت قليلا ثم قال :
- تصور أنها تعمل في السيئنا منذ سنتين اثنتين وتبنى الآن عمارة ضخمة ..
- فقال عبد الخالق وهو يهز رأسه :
- حقا السيئنا كثر ..
- فقال مرسى وهو يبتسم في خبث :
- إخواننا العرب هم الكثر .
- ألم تنفعها السيئنا ؟
- أتاحت لها فرص الإعلان عن نفسها في الصحف والمجلات ، وقد رفع ذلك أجرها .
- في السيئنا ؟
- لا ، عند إخواننا العرب .
- وساد الصمت بينهما لحظات ، ثم لكز مرسى عبد الخالق لكزة خفيفة بمرفقه وقال :
- ستساهم الليلة في العمارة بنافذة .
- وابتسم عبد الخالق وقال :
- أحب أن أساهم فيها بباب غرفة نوم .
- ودخلا من باب العمارة وهما يضحكان ، واتجها إلى الأسانسير ففتح لهما العامل الأسود الباب وهو ينحنى ، ثم دخل وأغلق الباب خلفه ، وراح الأسانسير يصعد والعامل الأسود ينظر إليهما وقد انفرجت شفتاه عن أسنانه البيضاء ، والتمعت عيناه ببريق فصيح يعلن أنه يعرف إلى أين هما ذاهبان وماذا

سيفعلان .

ووضع مرسى المفتاح فى قفل الباب الذى تعددت المفاتيح التى توجل فيه ،
ودلفا إلى غرفة الاستقبال ، وسرعان ما خفت « رحمة » زوجة مرسى إليهما ،
إنها امرأة إسرائيلية ممتلئة الجسم ، بيضاء البشرة ، صفراء الشعر ، مكتنزة
الصدر ، كانت تدير البيت ، وتشرف على راحة الرواد ، وما كانت تتردد فى
تلبية رغبة من يطلبها .

صافحت عبد الخالق فى شوق وبالغت فى الترحيب به ، ومال مرسى نحوها
وقال هامسا :

— من هنا الليلة ؟

— الست فى الغرفة الرابعة .

— مع من ؟

— مع ليزا .

— ومن فى الغرفة الثالثة ؟

— موظف من وزارة التموين أرسله شعبان بك .

— وعبد الخالق بك ؟

— له الغرفة الثانية .. أعددت فيها كل شئ .

واتجه مرسى إلى عبد الخالق وقال له وهو ينحنى ويشير بيده نحو الباب :

— تفضل .

وقام عبد الخالق ودخل الغرفة التى أعدت له ، كان السرير فى الركن الأيمن
وإلى جواره كومودينو فوقه وعاء كبير من الصينى الأبيض المزين بورود
زرقاء ، فيه إبريق من الصينى زخرفته هى نفس زخرفة الوعاء ، وقد ملئ ماء ،
وأمام السرير صوان له مرآة كبيرة وثبتت مرآة أخرى على الحائط المواجه
للصوان ، فكان السرير ينعكس فى المرأتين أسرة كثيرة على مدى البصر ،
وكان ضوء الثريا المتدلية من السقف مسلطا على السرير كما تسلط الأنوار على

المسرح ، وقد امتزجت الأضواء الحمراء والصفراء والزرقاء امتزاجاً فنياً يحرك
المشاعر الهاجعة .

ووضعت في الغرفة مائدة مستديرة عليها مفرش أبيض ناصع وحولها
كراسي من الخيزران وضعت على قواعدها حشايا صغيرة مكسوة بكريتون
مشجر ، وقد أسدل على النافذة الوحيدة بالغرفة ستار من نفس قماش كسوة
الحشايا . وتوسطت المائدة زجاجة خمر وكأسان فارغتان وبعض صحاف
صغيرة بها فستق وزيتون وأنشوجة وبعض أنواع من السلطات .
واضطجع عبد الخالق في مقعد وقد مال به حتى لمس ظهره حافة السرير ،
وظل مرسى واقفاً ، فالتفت عبد الخالق إليه وقال له :
— اقعد .

فقال له مرسى وهو يمرر يده على ذقنه :

— يا لضبيعة الوقت الذي تنفقه معي !

ودخلت فتاة ممشوقة القد ، بديعة القوام ، خصر نحيل وصدر ممتلئ
وأرداف متنفخة ، وشعر أسود طويل مسترسل ، ووجه كأنه القمر ألقى على
محمل أسود ، تزينه عنان سوداوان تنفشان سحرا ، وفم مستدير وأنف صغير ،
كانت رائعة الحسن ، ولكن كان أجمل ما فيها خفة ظلها .

ومدت يدها تصافح عبد الخالق في رشاقة ، وقال مرسى :

— عبد الخالق بك ، ابن سليم باشا شلبي .

فقالت في رقة :

— تشرقنا .

وكادت سحب من الكدر تنتشر في صدر عبد الخالق لذكر اسم أبيه ،
ولكن الموقف لم يكن ليحتمل الكدر فسرعان أن تبددت تلك السحب قبل أن
تتجمع ، وقال مرسى :
— عذراء المسرح .

فابتسم عبد الخالق وقال :

— أنسة طبعاً ؟!

فضحكت قائلة :

— طبعاً . ما دام لم يتوج زيجاتي مأذون .

وسحب عبد الخالق كرسيًا فجلست فيه ، واتجه إلى كرسي قريب منها

وجلس ، وقال مرسى وهو ينسحب :

— أمنيها أن يسمح لها بالرقص في أحد الأفلام عارية .

فقال له وهي تضحك :

— ستحقق أمنيته يوم تصبح أنت للسنيما رقيباً ..

فقال عبد الخالق وهو يصب من الزجاج في الكأس :

— الجمهور يطالب بمشاهدة هذه الرقصة ..

فقال وهي تغمز بعينها :

— طلبات الجمهور أوامر .

وأغلق مرسى الباب خلفه في حرص ، ثم عاد وفتح ووضع المفتاح من

الداخل ، وعاود إغلاقه في رفق شديد ، وأسرع إلى التليفون وراح يدير قرصه

في نشوة وفي عينيه المضعضتين بريق سرور ، وقال :

— ألو .. شعبان بك ؟ .. يا مساء السرور .. سيسافر عبد الخالق إلى

الإسكندرية غداً وحده ، وسيغيب ثلاث ليالٍ أو أكثر . هذه فرصة طيبة ،

ستكون بثينة وحدها ، شد حيلك .. ماذا ؟ .. لا أظن أن رحمة تستطيع أن

تفعل شيئاً .. كيف تدعو سيدة لا تعرفها إلى زيارتها ، ولا أظن بثينة تلبى مثل

هذه الدعوة .. رفعت ؟ يا حفيظ ! الله يخفيه .. مساء التور يا إكسلانس .

ووضع سماعة التليفون وذهب إلى غرفة الاستقبال فلم يجد أحداً ، وأسرع

إلى المطبخ فلم يجد رحمة ، وبحث عنها هنا وهناك دون جدوى ، وراح يمر على

الغرف فألفاها مغلقة كلها ، وهز رأسه هزات دلالة على أنه قد فهم ، وعاود إلى

(الحصاد)

غرفة الاستقبال وألقى بنفسه في مقعد كبير غاص فيه وقد شرد ببصره ، ورفقت على شفتيه بسمة انتصار .

٣٦

راحت بثينة تشارك ابنها في لعبه ، كانت تقذف إليه بالكرة فإذا أمسكها بيديه صاحت مهللة لتدخل على نفسه السرور ، وإذا أفلتت منه أخذت تشجعه على أن يعدو خلفها ليحضرها ويعيد قذفها إليها ..

وكان الغلام مغتبطا فقلما كانت أمه تلاعبه ، كانت تتركه في غرفة لعبه مع مربيته ، وكانت تمر به في غدوها ورواحها وتمنحه بسمة عابرة ، إنه يحس في تلك الليلة أن أمه له وحده ، وأنه صاحبها ..

وجرت الكرة ودخلت تحت صوان ملابسه ، وحاول أن يمد يده ويخرجها ولكنه أخفق ، فالتفت إلى أمه يلتمس عونها ، فذهبت بثينة إليه وسجدت ومدت يدها تحت الصوان تبحث عن الكرة ، ونظر الغلام إلى أمه الساجدة ، فداعبت خياله فكرة أن يمتطيها ، فوضع يديه على كتفيها ثم اعتلى ظهرها وراح يجذبها من شعرها الأسود جذبا خفيفا وهو يحثها على السير به ..

ودارت به في الغرفة دورات وهي منتشية بمشاعر الحنان والحب التي تعربد في جوفها ، وكانت ضحكاته البريئة تندس كالبلسم إلى وجدانها فتستشعر راحة تنتشر في أرجائها ، وفاضت عواطف الوجد حتى غمرت كل مشاعرها ، فمدت يدها وجذبت من فوق ظهرها وطفقت تضمه في وله وتقبله في هيام ثم تدغدغ صدره بذقنها فتعلو ضحكاته ويرفس برجليه وذراعيه ، وتنتقل إليها عدوى الضحك فتنتطلق ضحكاتها من قلبها حتى تغرورق عيناها بالدموع .

وجاءت الخادم وقالت :

— شعبان بك في الصالون ..

فتركت ابنها ونهضت واتجهت إلى مرآته الصغيرة وتناولت مشطه وراحت تصلح به شعرها ، ثم أخذت تمرر يدها على ثوبها وتبسط ثنياته .. وانطلقت إلى غرفة الاستقبال هادئة وإن كانت تحس في أعماقها ضيقا ، كانت تفضل أن تمضي الليلة مع ابنها تداعبه وتغذية بفيض حنانها ، وتنعم بالمشاعر النقية الصافية التي ما كانت تحسها إلا إذا خلت بابنها وعاشت في دنياء الساحرة العبة بأريج المحبة الخالصة ونفحات النشوة الطاهرة .. وقبل أن تدلف إلى الغرفة ملأ أنفها عبير عطر فواح .. فرفت على شفتيها بسمه هازئة ، فما كان يستعمل ذلك العطر النفاذ إلا الغواني الكاعبات ، ولكن ها هو ذا شعبان ، ثرى الحرب النفاخ ، يحدث النعمة ، قد تضمخ بزجاجة كاملة !

ودخلت عليه فهب واقفا ، كان يرتدى بذلة كحلية أنيقة وكرفاتة حمراء ، وفي صدره وردة حمراء ، وأطل من جيبيه منديل أحمر ، وبرز كرشه أمامه فأضاع كل الجهود التي بذلت ليبدو وسيما ، كان شعره مقصوصا وحلقت ذقنه ونعمت حتى كادت الدماء تنبثق منها ، واختفت البقع السوداء المنتشرة في وجهه تحت طبقة رقيقة من الكريم ، ولكن الكرش البارز كان كمغناطيس يجذب الأنظار إليه ، فلا ترى شيئا سواه ..

وقالت بثينة في رقة :

— بونسوار ..

فقال وهو يحني رأسه :

— بونسوار شيرى ..

تعلم من طول معاشرته للطبقة الجديدة التي دس فيها أن ينطق بعض الكلمات الفرنسية نطقا صحيحا ، ولكن لهجته كانت تقضح أصله ، وإذا ما تجاوز الكلمات التي وقرت في ذهنه تعثر وخلق كلمات تبعث على

الضحك .. وما كان يخجل من ضحكات السخرية التي كان يقابل بها ، بل كان يشترك مع الساخرين ويضحك ببرود !
وجلست بثينة وجلس بالقرب منها ، لا يفصل بينه وبينها إلا ذلك الفراغ الذى يفصل بين المقعدين .. إنه لو مال قليلا للمس رأسه رأسها ، ولوضع جبهته على جبهتها ، ولحك أنفه بأنفها ، ولأطبق شفثيه على شفثيها ..
وقال وهو يلحق صدرها بعينيها :

— وأين عبد الخالق بك ١٩

فقالت وقد بدأت تضيق بنظراته الوقحة :

— مسافر إلى الإسكندرية ..

ونبتت في جوفه مشاعر لذيذة يفسد استمتاعه بها ذلك القلق النابع من مخاوفه ، كان يخشى أن يسىء التصرف فتفر منه الفرصة الذهبية التي ترقبها طويلا ، ومد يده في جيبيه وأخرج علبة من الخمل الأحمر وفتحها في عناية ، وتناول منها سوارا من الماس وقال :

— هات يدك ..

ومدت يدها في قلق ، وراحت ترقبه وهى حائرة ، فلف السوار حول معصمها وقال :

— هدية بسيطة ، عربون صداقتنا ..

وقالت وهى تغتصب ابتسامة :

— متشكرة ..

ورفع يدها إلى فمه وقبلها ، وأحست وقع شفثيه الملهبتي على بطن يدها فهمت بأن تجذب يدها من يده ، ولكنها أثرت أن تتحمل حتى تمر هذه اللحظات الحرجة دون أن تنفعل أو تبدى امتعاضا ..
ومرر يدها على ذراعها البضة ، فأحست كأن أصابعه وقدة نار ، وانتشرت سحابة من الكدر في وجهها .. وتحركت الثورة في ضميرها ،

وهمت بأن تهب غاضبة ، ولكنها أبعدت ذراعها عنه وهى ترميه بنظرة غاضبة ..

وحسب أنها تبعد يدها عنه دلالة ، فمد يده إلى عنقها ومررها على جيدها وهو يقول :

— ما خلق الماس إلا لهذا ..

وهبت واقفة والشرر يتطاير من عينيها ، وظل هادئا يتسم فى بلاهة ، فقد أعمته شهوته الطاغية عن أن يحس الثورة المتأججة فى جوفها ، وكادت شفتاها تنفرجان عن اللحم المحتشدة على طرف لسانها ، ولكنها كبحت جماح نفسها وخرجت من الغرفة وتركته وحده ..

وشرد ببصره وراح يفكر فيما يفعله بعد أن استنفد كل الدروس التى تلقاها فى فن المغازلة على يد مرسى .. كان يسير خلف الفتاة التى يغازلها ويلقى على مسامعها كلمة غزل نابية فتزد عليه بكلمة زجر كللها تحريض على متابعة معاكستها فيسبها سبارقيقا وهو يتغزل فى محاسنها ، فتسبه بكلمات مشجعة ، فيتقدم إليها ويدفعها بيده ، فتضرب صدره بيدها ثم يضحك وتينطلقان معا يتناجيان .. كان هذا حاله قبل أن يعرف بنات الهوى ، وقبل أن يندمج فى الطبقة الراقية التى كان يصور له وهم أنه ما أن يندس فيها حتى ينال كل نساها ، فلما عاش بينها وجد أن الأمر أصعب مما كان يتخيل ..

ستعود بثينة عما قليل فماذا يصنع ؟ إنها لا تزيد على أى أنثى أخرى عرفها ، فلو أنه طوقها بذراعيه وقبلها قبلة حارة فستقاومه دلالة ثم تستسلم له ، إنها لا تستطيع أن تصده لأنها لو فعلت لذاب القرض الذى تبنى عليه كل آمال مستقبلها ..

وطن النفس على أن يغتصب منها قبلة ، ويدك حصون مقاومتها بمفاجأته لها ، وراح يجمع شتات أمره ليستجيب للشهوة العمياء التى تحركت كالأفعى تنفث سمومها ، وانتشرت أبخرة الرغبة تحجب كل تفكيره ، فنامت أشباح

الفضيلة التي كانت منزوية في ضميره ، وتحفز الوحش الكامن في نفسه ليطفىء
ظمأه من الرى المبدول الذي لا يفصل بينه وبينه إلا وثبة واحدة ..
إنه يطمع فيها وهي تطمع في ماله ، وقد قال أمامها أكثر من مرة إن لكل
عطاء ثمنا ، ولا بد أنها أحست أنه قد جاء يتقاضى ثمن ما سيبدله لزوجها ،
فذهبت تتأهب لإرضائه حتى ييسط يده المغلولة إلى عنقه ..
ورفت على شفثيه بسمة رضا ، وراحت تطوف به آمال عريضة تدغدغ
حواسه وترضى غروره .. ولمح بثينة قادمة وفي يدها ابنها فغاضت البسمة ،
وعكر صفو نفسه كدر ، ولكن لم يدب اليأس في قلبه ، ولم تتقوض قصور
أمانيه ..

وجلست بثينة وأجلست ابنها معها في نفس الكرسي بحيث يقوم حائلا بينها
وبين شعبان ، وابتسم شعبان للغلام ومرر يده على خده مداعبا ، وقال وهو
يرنو إلى بثينة في وله وقال :
— هات بوسة ..

وأشاح الغلام بوجهه ، ومد شعبان يده يجذب الغلام من ذقنه ليلتفت إليه
وقد تعمد أن يلمس ظهر يده صدرها ، فرمته بثينة بنظرة تصيح به .. يا وقع !
ولكنه لم يأبه لنظرتها وقال :

— حرام أن يستيقظ هذا الصغير حتى الساعة ..

والتفت إلى الصبي وقال :

— اذهب ونم ، وسننام نحن أيضا ..

وانفرجت أسنانه عن بسمة خبيثة ، وعجز عن أن يسيطر على المشاعر
العارمة المواردة في جوفه ، فنهض ووضع يده حول ظهر بثينة ووضع شفثيه على
خذ ابنها وضم الاثنين معا إلى صدره ثم رفع شفثيه ليتحسس بهما وجنة بثينة ،
فهبت غاضبة والشرر يتطاير من عينيها وصاحت فيه والحنق يتفجر في جوفها
تفجيرا :

— سافل .. سافل ..
وخلعت السوار من يدها وألقت به في وجهه وهي تصيح في انفعال :
— اخرج .. اخرج وإياك أن تعود إلى هنا مرة ثانية ..
فقال في ارتباك :
— صلى على النبي .. صلى على النبي ..
وابتعدت عنه وهي تزأر :
— اخرج وإلا ناديت الخدم ليلقوا بك خارجا ..
ورأى الغلام ثورة أمه وأحس بغريزته أنها في خطر دون أن يدري مبعثه ،
فبكى وجرى إليها يلف ذراعيه حول ساقها ويخفي وجهه في ملابسها ، وانحنى
شعبان والتقط السوار ، ثم دار على عقبيه وقال وهو ينصرف :
— فقر وعنطرة ..
وخرج وبثينة ترقبه وهي تشهق وتزفر في صوت مسموع ، وتضم ابنها إليها
في قوة ، وتتخلل شعره بأصابعها المتشنجة ، وبدأ غضبها ينقشع رويدا رويدا
فركعت على ركبتها وقبلت ابنها وراحت تجفف دموعه التي جرت على
خديه ، وتربت على ظهره في حب وحنان ..

٣٧

الليل ساج ، والقمر يسكب أضواءه الساحرة على الكون فيكسو أديم
الأرض ومياه البحر بغلالة من فضة ، والهواء يهب منعشا من البحر يداعب
الأفئدة ، والسيارات الحربية الصفراء ، التي موهت بألوان خضراء حتى تخدع
طائرات الأعداء ، محملة بالجنود والمهمات ، منطلقة إلى الميناء ، فقد كانت
القوات البريطانية تجلو عن الإسكندرية لتستقر في ثكناتها على طول القناة ..
وكان عبد الخالق يسير على الكورنيش يتفرس في وجوه الأهالي التي علاها

البشر ، ويرقب قطار السيارات الحربية الممتد على طول الطريق ، ويمد بصره إلى البحر الذى تكسرت أمواجه تكسر صفحة معرجة من لجين ، ومس أذنيه حوار بين شاين ، قال أحدهما لصاحبه وهو يحاوره :

— لماذا كل هذه الفرحة ؟ إذا كان الإنجليز قد غادروا القاهرة والإسكندرية فهم فى بورسعيد والإسماعيلية ، فى أراضٍ مصرية .. فقال الآخر فى حماسة :

— الجلاء لا يمكن أن يتم دفعة واحدة ، هذه خطوة طيبة ..
— هذه سخريه بعقولنا ، إن رأوا فى أى وقت أن يعودوا لاحتلال القاهرة أو الإسكندرية ، من ذا الذى يمنعهم ؟
— المعاهدة التى بيننا وبينهم ..
— آنست ..

وراح عبد الخالق يتأهب لعبور الطريق ليصل إلى الجانب الآخر منه ، ويستقل سيارة تحمله إلى العنوان الذى أعطاه مرسى له ، حتى إذا ما وجد فرجة بين السيارات الحربية اندفع منها مسرعا يجتاز الطريق ..
ووقف على الطوار الآخر يفكر ، لقد وضعت الحرب أوزارها ، وهاهى ذى القوات البريطانية تجلو عن القاهرة والإسكندرية ، ولم تشترك مصر فى الحرب على الرغم من إعلانها على قوات المحور ، لقد قتل أحمد ماهر ظلما ، فلو أن قاتله قد تريت قبل أن يصدر حكمه الجائر لما سفك دما بريئا ..
كان عبد الخالق يؤيد كل حكومة تناوى الوفد . لا كرها فى الوفد وسياسته ، ولا لأنه يجبذ سياسة منافسيه ، بل شماته فى أبيه الذى يزداد جبروته كلما ترهب حزبه فى كرسى الحكم ، كان فى قرارة نفسه يتمنى أن يزول كل نفوذ للبasha ، بل أن يزول البasha نفسه الذى يجعل أحلامه كلها كابوسا ..
وأشار لسيارة قادمة واندس فيها وأمر السائق أن ينطلق فى طريق الكورنيش ، وراح يقرأ أرقام المنازل فوجد أن الرقم الذى يقصده لا يزال

بعيدا ، فاتكأ في جلسته وشرد بذهنه يفكر فيما هو مقبل عليه ، فالتمعت عيناه سرورا ..

وأمر السائق أن يقف أمام فيلا من طبقتين ، وجعل يتفرس في رقمها ، فلما اطمأن إلى أنها مقصده هبط من السيارة وراح يتقدم في خطى وثيدة ، ودلف إلى فناء الفيلا ثم راح يصعد في الدرج الرخامي المواجه للباب المطل على الكورنيش ، حتى إذا بلغ الباب الكبير وقف للحظة يتلفت ، ثم وضع يده على الجرس ..

وفتح الباب عن خادم ترتدى ثوبا أسود فوقه مريلة بيضاء وعلى رأسها قلنسوة بيضاء منشأة ، قالت :

— أفندم ؟ ..

قال في هدوء :

— الست أنهار موجودة ؟

ففتحت الباب وفسحت له الطريق وقالت :

— تفضل ..

ودخل فوجد ردهة واسعة ، فرشت أرضها بسجاجيد عجمية فاخرة .. وصفت فيها مقاعد وثيرة مكسوة بمخمل أحمر ، وفي جانب منها حوض زجاجي كبير به ماء وأعشاب وأسماك حمراء صغيرة ، وفي الجانب المواجه لأسماك الزينة سلم يقود إلى الطبقة الثانية من الفيلا ..

وجلس في مقعد يكشف القادم من الداخل ، وراح يقلب وجهه في اللوحات الزيتية التي تزين الجدران ، والتماثيل القائمة في الأركان ، والأسجاف المنسدلة على النوافذ والأبواب ، والبرافانات المزينة بنقوش يابانية رائعة تنم عن ذوق رفيع ، فأحس راحة ، كان المكان لا يقل روعة عن أماكن اللهو التي زارها في باريس ..

وجاءت سيدة وقور تمشى هونا ، حتى إذا دنت منه ابتسمت في ترحيب ،

وقام يستقبلها ، وقالت فى هدوء .
— أنا أنهار ، أية خدمة أستطيع أن أؤديها لك ؟
فقال عبد الخالق يقدم نفسه :
— أنا صديق حميم لمرسى ..
فتهللت أسارير أنهار وقالت :
— أهلا وسهلا .. صديق مرسى صديقنا ، إننا لن ننسى أبدا ما فعله مرسى
لنا أيام كنا فى القاهرة ..
وتصافحا ، وسرعان ما ذاب التحفظ الذى كان بينهما ، قال عبد الخالق :
— حدثنى مرسى طويلا عن جنتكم حتى اشتقت لدخولها ..
فقال أنهار وهى تبتسم فى رضا :
— تحفظ فى كل ما يقوله مرسى عنا ، إنه يبالغ فى مدحنا لأنه مغرض ، ليس
من سمع كمن رأى ..
فقال عبد الخالق مداعبا :
— إننى لا أكتفى بالنظر ..
فقال له أنهار متملقة :
— وهل يكتفى بالنظر من كان فى مثل شبابك ؟
وأشارت بيدها ناحية السلم الذى يقود إلى الطبقة الثانية ، وقالت :
— تفضل ..
وراحا يصعدان فى الدرج الخشبي المغطى ببساط طويل أحمر . حتى بلغا
الردهة الواسعة المؤثثة بأثاث فاخر ينطق بالبذخ ، ونظر عبد الخالق عن يساره
فألفى عمرا طويلا على جانبه غرف مغلقة ، وسارت أنهار حتى بلغت بابا فى
صدر المكان ففتحت وقالت :
— تفضل ..
ودخل ، إذا بغرفة استقبال من طراز لويس الرابع عشر ، وفى ركن من

أركان الغرفة أباجورة ضخمة غاية الضخامة ، رائعة غاية الروعة ، وضعت على نضد صغير مرتفع ، قوائمه رفيعة بها حفر دقيق آية في الجمال ، وتدلت من السقف ثريا على شكل كمرى هائلة صيغت من كرسنال يهر الأبصار ، وزينت الحوائط بلوحات حوريات عرايا في أوضاع تبرز الفتنة والإغراء ..

وجلس وأنهار واقفة أمامه تقول :

— إننى أحب أن أحيى الأصدقاء بكأس ، فهل لك فى كأس نشرها معا ؟

— هذا شرف عظيم لى ..

فقالت وهى تبتسم :

— هذا كرم منك أن تضيع وقتك معى ..

وخرجت ، وراح عبد الخالق يتطلع إلى اللوحات وإلى التحف المنثورة على النضد ، ومد يده وتناول صندوقا مذهبا وفتحه وأخرج منه سيجارا ، ثم تناول المقص الصغير وقص به طرفه ثم راح يشعله ، وينفث الدخان فى نشوة ..

وعادت أنهار تحمل صينية فضية عليها كأسان صغيرتان وإناء على شكل زجاجة من معدن أبيض ، ووضعت الصينية أمام عبد الخالق ثم جلست

وتناولت الإناء وأخذت ترجه رجا وهى تقول :

— هذا كوكتيل أنهار ، لا يقدم إلا لأعز الأصدقاء ..

وملأت الكأسين ثم قالت :

— تفضل ..

وتناول كأسا وتناولت كأسا وقالت :

— فى صحتك ..

وغابت ما فى الكأس فى جوفها ونظرت إليه .. فقال لها :

— ما ألد خمر جنتك ..

فقالت وهى تغمز بعينها :

— كل ما عندنا لديد ..

فقال وهو يتسمم :

— أذوق ..

ونفضت قائلة وهى تضحك :

— الظاهر أن مرسى لم يملأ عينك ..

— وستظل عيني فارغة لأننى لا أشبع من الجمال ..

وانحنى قائلة :

— اسمح لى أن أعرض ما عندى من أصناف ..

فقال فى لهفة :

— أرجوك ..

وخرجت وبقي وحده يحس أن روحه بدأت تفتح ، وملأته النشوة فراح يغدو ويروح فى الغرفة وهو يدندن بأغنية مرحة ويدور حول نفسه دورات ، ومضى بعض الوقت ثم عادت أنهار ومعها أربع فتيات صغيرات يرتدين ثيابا شفافة لا تكاد تخفى شيئا وإن أضفت على الأجسام جمال الغموض المفضوح ، كن ممشوقات القدر تتراوح أسنانهن بين التاسعة عشرة والرابعة والعشرين ، وكن نماذج من الجمال والخفة حتى إن عبد الخالق راح ينقل بصره بينهن وهو فى حيرة ..

وقالت أنهار وهى تقدم ذات الشعر الذهبى والعينين الزرقاوين :

— إن كنت من هواة الأدب ، فطروب تحدثك عنه حديث الخبير ، إنها

متخصصة فى الأدب الفرنسى ..

فقال عبد الخالق وهو يضحك :

— أنا من هواة قلة الأدب ..

فقالت طروب وهى تبسم :

— أنت واقعى ..

فقالت فتاة تشع الخفة من عينيها :

— قال المعرى رأيه فيك ، فإن كنت واقعيا حقا ففعال واقعنا ..
وضحك الجميع وقالت أنهار :
— هواة الأدب يطلقون على طروب اسم المعرى ..
فقال عبد الخالق وهو يتفرس في محاسنها :
— كل ما فيها فصيح ..
وقالت أنهار وهى تقدم أصغر الأربع وأخفهن :
— وإن كنت من هواة الطرب فزين العابدين تشنف آذانك بكل طريف ..
فقال عبد الخالق فى دهش :
— زين العابدين ١٩
فقلت أنهار وهى تضحك وتميل عليه :
— هذا ليس اسمها ، هذا اسم الأغنية التى تتفنن فى غنائها وتلبسها كل يوم
معنى جديدا ..
فقلت طروب وهى تبتسم :
— وإن كان يروى الحقيقة الأزلية ..
وراحت زين العابدين تغنى فى دلال وغنج :
— حاسب يا جميل وانت ..
فصاح عبد الخالق فى نشوة وهو يجذبها من يدها :
— تعال يا جميل ..
والتفت إلى الأخريات وقال :
— ولن يفوتنى كل هذا الجمال أبدا ، فأنا متعطش دائما إلى الحسن ..
ونظر إلى سقف الغرفة وقال :
— اللهم لا تحرمنا من نعمة الظمأ ..
ولف ذراعه حول خصر الفتاة التى تشع الخفة من عينيها ، وانسلا من
الغرفة ..

٣٨

دخل عبد الخالق عابسا مجهدا ، وكانت بثينة تداعب ابنها فلما رأت الأسى والوهن والذبول في وجه زوجها ، طلبت من ابنها أن يذهب إلى غرفته ، ومر الغلام بأبيه واقترب منه لعله يقبله بعد خمسة أيام مرت دون أن يراه ويمنحه الهدية التي جلبها معه ، ولكن الأب سار مطرقا دون أن يداعب ابنه أو يعبث في شعره أو يربت على ظهره في حنان كما اعتاد أن يفعل كلما قابله .. وقالت بثينة وهي تنظر إليه تحاول أن تغوص بها في أعماقه لتكشف أغواره :

— خيرا ، ماذا فعلت ؟

فقال عبد الخالق وهو يرتجى في مقعد قريب منها :

— لا شيء ، اعتذر الرجل عن أن يقرضني ما طلبته ، قال إنه يقاسى أزمة طاحنة ..

— وماذا نويت أن تفعل ؟

فقال وهو يمرر يديه على وجهه الشاحب :

— عزمت على أن أذهب إلى مرسى ليطلب من شعبان أن يفى بوعده من الوعود الكثيرة التي وعدنا بها ..

فقالت في حدة :

— إننا لا نريد من شعبان شيئا ، وقد طلبت منه ألا يعود إلى هذا البيت أبدا ..

فقال وهو ينظر إليها في دهش :

— لماذا ؟

فقالت منفعة :

— لأنه جاء إلّى في غيبتك وراح يغازلنى في قحّة ، حسب أنه سيشترينى

بالسوار الذى أهدها إليّ ..

وتحرك غضبه وقال :

— سوار ؟ ومتى أهذاك ذلك السوار ؟

— جاء ليلة أن سافرت وحده ، وقدم إليّ سوارا يكون عربون صداقة بيني

وبينه ، ثم مد يده يعبث بذراعى ، فألقيت بالسوار فى وجهه ..

وقال عبد الخالق وهو يصرف أنيابه غيظا :

— الكلب ..

وصمت دون أن يرغبى ويزبد ويهدد ويتوعد ويفعل انفعالا يتناسب مع

النبا الخطير الذى آذى مسامعه ، وضايق بشينة ذلك الصمت وزاد فى ضيقها

تلك الاستكانة التى تلف زوجها وتتسم بها كل تصرفاته ، لقد خمدت روح

الكفاح فيه ، وصار يمد يده إلى أموالها فى يسر دون أن تثور نخوته مرة ويتأفف

مما يفعل .. إن معين أموالها يكاد أن ينضب ، فماذا سيفعل إذا ما تبخر ذلك

النذر اليسير المتبقى مما ادخرته ؟ والتفتت إليه وقالت فى عزم :

— لا بد أن تقابل الباشا وأن تطالبه بحقوقك ، إنك لا تطلب منه إحسانا ،

فالعادل يقضى أن يعطيك كما يعطى حلمى ، أنت أبنه ، فلماذا يغدق على حلمى

ويحرمنى ؟ لماذا ؟ ..

وقاطعها قائلا :

— قال لى أكثر من مرة إنه حر فى أمواله ، وما من مرة قابلته فيها إلا وثار فى

وجهى واتهمنى بأننى أتمنى موته ، وقد قسا علىّ دون رحمة بعد أن اتهمنى

بمحاولة قتله ..

فقالت بشينة فى حقد :

— ليتك قتلته ..

فقال فى فرع :

— لم أحاول أبدا أن أقتله ..

فقالت فى مرارة :

— أنا واثقة أنك لم تفعل وأنك لا تستطيع أن تقوم بعمل حاسم ..
واستشف أنها تعرض به ، فقال فى ضيق :
— هذا رجل حطمنى ، قضى علىّ ..
فقال بشينة فى حدة :

— لا تظلم الرجل ، إنه قاس ظالم يستحق الحرق ، ولكن العيب فىك ..
فىك أنت .. إنك تسالم لأنك لا تستطيع أن تقاتل ، تستكين لظلمه لأنك
أضعف من أن تقف فى وجهه ، لا تستطيع أن تفعل شيئا إلا أن تتمنى موته ،
شأن كل عاجز ، يرضيك أن تلقى بكل لوم عليه وأنت الضحية المفترى
عليه ..

فهب واقفا وقال فى حدة :

— لقد ثرت فى وجهه أكثر من مرة ..
فقالت وقد زوت ما بين حاجبيها غضبا :
— إنك لم تثر عليه أبدا ، كنت تصيح أمامه لتفر من الخوف المنتشر بين
جنباتك ، لتهرب من نفسك الواجفة المدعورة التى ترتجف فرقا ..
وعجز بطبعه عن أن يستمر فى ثورته فقال :
— ماذا كنت تريدنى أن أفعل ؟

فقالت وقد شردت ببصرها ، والشرر يتطاير من عينيها :

— لا شيء ، ولكننى أنا التى سأمرغ الباشا فى الوحل ..
وأحس راحة لما رأى أن المشادة التى شبت بينه وبين بشينة قد خمدت ،
ولم يشتغل ذهنه بالتفكير فيما ستفعله زوجته لتمرغ الباشا فى الوحل ، وراح يجر
رجليه ليرتمى فى فراشه يستريح من التعب الذى يدب فى أوصاله ، ومن الصداع
الذى يدق رأسه ..

وخرج من الغرفة دون أن يخطر على باله أن يقبل زوجته ، فقد كان كلما

عاد بعد ارتكاب خطيئة يبالغ في تدليلها ويمطرها بقبلاته ، كان يحس في أعماقه أنه أساء إليها وأن مناغاتها وإغداق الحنان عليها كفارة عما فعل ، أما اليوم فإنه منهوك قد همد فيه كل إحساس وكاد يتعطل منه كل تفكير .. ووقفت بثينة ترقبه وهو ينسحب والرغبة الأكيدة في إذلال الباشا تملأ نفسها ، وإن لم تكن تتبين الوسيلة التي ستحطم بها أنفه وتذل كبريائه ..

وراح عبد الخالق يغط في نومه .. وتقضت ساعات وأتى المساء ، فنهض من رقاذه ، وكان أول ما فعله أن ذهب إلى البار ، ومرت بثينة به وهو يشرب فألقت عليه نظرة غاضبة ولكنها لم تنبس بكلمة .. وارتدى ثيابه وعاد إليه رونقه بعد ذلك النوم العميق الذي سعد به ، والشراب الذي عبه ، وقالت له بثينة :

— إلى أين ؟

فقال دون أن يلتفت إليها :

— ذاهب لأقابل حلمي ..

فقالت في نبرات هازئة :

— وماذا سيفعل لك حلمي ؟

فقال وقد بدأ البرم يسرى في نفسه :

— يكلم الباشا ..

فسخرت قائلة :

— ليكون واسطة بينك وبين أبيك . ما شاء الله !

واستشعر ضيقا ، ولم يكن مبعث ذلك الضيق سخرتها منه ، بل كان مبعثه أنه وجد نفسه يكذب في يسر دون أن تختلج فيه خلجة ، إنه لن يقابل حلمي ولن يذهب إليه ولكنه منطلق إلى مرسى ليعيش عنده الحياة التي أصبح يستريح إليها ، وينسى في غمرتها متاعبه وتبكيث بثينة الذي أخذ يشتد على مر الأيام حدة ..

(الحصاد)

وانسل هاربا من البيت ، وانطلق مسلوب الإرادة إلى شارع سليمان
باشا ، وبقيت بثينة وحدها تفكر في زوجها الذي كانت تحبه بكل جوارحها ،
فألفت حبها له بدأ يفتر ، ويردا كريها أخذ يتدسس في مشاعرها ، وضافت
بوحدتها ، ففكرت في أن تنطلق لزيارة إلهام ..

وراحت ترتدى ثيابها لتفر من وحدتها ، وأتمت زينتها واتجهت إلى الباب
وإذا بها تجد رفعت أمامها ، فقالت :

— أهلا وسهلا ..

وفرحت ببلقائه كما لم تفرح ببلقائه أبدا من قبل ، وقالت وهي تعود
أدراجها :

— تعال .. تفضل ..

فقال دون أن يتقدم :

— آسف .. لا أريد أن أؤخرك ..

فقالت في بساطة :

— كنت خارجة لأننى ضقت بوحدتى .. أما وقد جئت فلم يعد هناك ما

يبرر الخروج ..

وسره قولها ، وقال وهو يدخل :

— ألم يعد عبد الخالق بك من الإسكندرية بعد ؟

— عاد في الصباح وخرج الآن ليقضى بعض مصالحه ..

وجلسا في غرفة الاستقبال وحدهما ، ورفعت يستشعر لذة هذه الخلوة ،
وكأنما أراد أن يطمئن إلى أن أحدا لن يأق لينافسه في التمتع بمحادثتها ، فقال :

— هل سيأتى مرسى وشعبان الليلة ؟

فقالت بثينة في هدوء :

— لن يدخل بيتى أبدا ..

فقال وقد أحس راحة :

— لماذا ؟

— لأنهما وضيعان ..

وجاءت الفرصة التى كان يتحينها والتى كان سيعمل على خلقها إن لم تسنح له ، فقال :

— إنى أعجب كيف سمحتم لهما أن يندسا بينكم طوال المدة التى انقضت ؟!

وضيعان ؟! هذه كلمة أرق من أن تصورها ، تصورى لقد ضنبت زوجة مرسى اليهودية ذات ليلة مع شاب فى سيارة ، وقد اقتادها البوليس إلى القسم ، ولما ظهر أنها متزوجة أرسل لزوجها ليتسلمها ، فلما نجى بها أمامه لطمها لكمة قوية وقال لها :

— ألم أقل لك حاذرى ، البوليس يتعقبك !..

فقالت بثينة وهى تبتسم :

— لسانك !

فقال فى حماسة :

— أقسم بالله العظيم أن هذا حدث ، وأن ضابط البوليس الذى وقعت الحادثة أمامه هو الذى قصها على ..

وصمت قليلا ثم قال :

— أتعرفين ماذا كان يعمل شعبان قبل أن يصبح من أكبر تجار السوق السوداء ؟

— قلت لى مرة إنه كان نجارا فى الجيش الإنجليزى ..

— واتفق هو وأمباشى المخازن الإنجليزى على سرقة المخازن وبيع ما بها واقتسام ما يبيعه شعبان مناصفة بينهما ، ولما جمع بعض المال الحرام راح يتاجر فى أقوات الناس ويهرب الشاى والسكر والزيت من القاهرة إلى الأرياف ، لقد وضع الشاى مرة فى نعش ميت وحمل النعش فى سيارة ذهب بها إلى

بنى سويف ، وباع هناك الشاى فى السوق السوداء ، ووضع ذات مرة فى أرضية سيارة رحلات جوالات السكر ، ثم تطوع بأن يتحمل مصاريف رحلة تلاميذ مدرسة أهلية قرية منه ، واندس التلاميذ فى السيارة ، واختفت الأجولة تحت أقدامهم ، وكانوا كلما اقتربوا من نقطة حراسة فى الطريق ، حرض التلاميذ على أن يهتفوا بحياة الملك ، فتمر السيارة فى سر ، واستمر هذا الحال حتى بلغت السيارة مقصدها فى سلام ..

وقالت بثينة وهى تبسم :

— وما الذى جمع مرسى بشعبان ؟

— لما اتسعت أعمال شعبان وجد أن بعض الموظفين يتعففون عن قبض الرشاوى ، فلم يئأس منهم ، كان يضايقه أن يجد موظفا متمردا على نفوذه ، فأعد جرسونييرة فى مصر الجديدة وأخرى فى شبرا وثالثة فى الجيزة يغرى بها الموظفين الذين يترفعون عن أخذ المال ، وقد نجحت فكرته حتى أن أغلب الموظفين الذين كانوا روادا لبيت مرسى يمموا وجههم شطر شعبان .. وضايق ذلك مرسى ، فذهب إلى شعبان يحتج على منافسته غير المشروعة ويهدد ويتوعد ، ولما كان شعبان من طبعه أن يرشو كل من يتصل به فقد اتفق مع مرسى على أن يكون مدير جرسونييراته لقاء مبلغ من المال ، ووعد به بأن يستعمل بيته فى بعض الحالات ..

فقالت بثينة فى استنكار مفتعل :

— حرام عليك ، لكأن كل موظفى الدولة كانوا من رواد بيت مرسى !

— موظفو كل وزارة يلهون عادة فى أماكن واحدة ، وقد حدث أن

موظفى الوزارة التى تهم شعبان كانوا يسهرون عند مرسى ..

فقامت وقالت :

— لعنة الله على شعبان وعلى مرسى .. هيا نخرج ..

وقام مسرورا وهو لا يكاد يصدق أذنيه ، فقد كانت أول مرة يخرج فيها هو

وبثينة وحدهما ..

راح حلمى يطوف حول أرض أبيه فى سيارة جيب ، وكان يقوم بذلك الطواف كلما كان فى العزبة ، وكان يمتلئ زهوا إذا مد بصره إلى الأفق البعيد الأخضر قبل أن يتزوج سميرة ، كان يجد فى الأرض الواسعة التى لا تحد آمال مستقبله ، ومسرح أحلامه ، ويا طالما رأى نفسه بعين خياله فى سيارة وإلى جواره أبنائه يحدثهم عن الثلاثمائة فدان التى حولها الباشا إلى عشرة آلاف من الأفدنة بالجهد والعرق والصبر الطويل ، وكثيرا ما كان يروى لأطفاله الأعزاء الذين يراهم بوهمة قصة الكفاح التى أثمرت أعظم نجاح يخطر على قلب إنسان مغرق فى التفاؤل ، مؤمن بالحظوظ ..

كان هذا حاله قبل أن يتزوج سميرة ، أما بعد أن تزوج وتقضت سنون طويلة دون أن ينجب أطفالا فقد وئدت الآمال وتبددت الأوهام ، وصارت الأرض الواسعة الفسيحة مصدر آلامه ، ومنبعا للألم والحزن والمرارة التى تسرى فى روحه سريان الصديد ، وكان يؤجج نيران أحزانه حث أمه له على أن ينجب أطفالا كأنما كان بيده أن يفعل وقصر دون تحقيق أمانيه ..

وكان يفر من واقعه الأليم ليهيم فى ذكريات لياليه المترعة بالحلم فى صدر شبابه ، كانت إيفا الواحة الظليلة فى صحراء حياته الجرداء ، يتردد بمائها إذا جفف الحرمان حلقه ، ويتفيا ظلها إذا كتم أنفاسه هجير أيامه القاسية ، فهى أم ولده الذى بات يتمنى أن يضمه إلى صدره لقاء هذه الأرض كلها التى كانت تبعث فى نفسه دفئا كاذبا عجز عن أن يبدد برودة وحدته السارية فى وجدانه كريح الشتاء فى الجسم المقرور ..

ولمح تحت شجرة فتاة صغيرة نائمة ، كانت ممزقة الثياب ، حافية القدمين ، وضعت خدها على الأرض وراحت فى سبات ، فهبط من سيارته وذهب إليها

خافق القلب ، ووقف عند رأسها ينظر إليها وقد تحركت عواطفه وراحت
مشاعر الحنان تتدفق في رفق إلى جوفه .. وظل يرنو إليها وأحاسيس نبيلة تراق
في جنباته حتى تغمر روحه ، وانبثقت في عينيه لؤلؤتان صيغتا من الرحمة ،
ولفه عالم مسحور كله رقة ، فركع إلى جوارها ومال عليها يطبع على خدها قبله
أهوية ظلت حائرة على شفثيه سنين طوالا ..

وفتحت الفتاة عينها ، فلما رأت هبت مذعورة ، خشيت أن ينالها
بالأذى ، وقرأ الرعب في عينها ، فابتسم ابتسامة لطيفة ليسكن قلبها الواجف
الطمأنينة ، ومد يده إليها وجذبها في رفق ثم وضع في يدها قطعة من النقود ،
وجعلت الفتاة تنقل بصرها بينه وبين ما في يدها في إنكار ، كانت لا تصدق
عينها ، فمرر يده على شعرها وقال :

— إنها لك ..

وتركها ، فراحت تعدو في فرح وهو يرقبها وكنوز فؤاده تمده بمشاعر غنية
بأرق العواطف ، وشرد يفكر .. لو أن إيفا قد وضعت أثني لكنت الآن في
مثل سن هذه الفتاة ، ترى أين هي الآن ، أتهم على وجهها في الطرقات أم أن إيفا
الحققتها بمدرسة ؟ وإذا كانت تتعلم ، فأى لغة تتحدث ؟ وأية مبادئ تدرس في
نفسها ؟ وبماذا تؤمن ؟ وأية عقائد تعتنق ؟ إنها ابنته من لحمه ودمه ولكنها
صارت غريبة عنه ، حتى لو قدر لهما أن يلتقيا يوما ، فما أعمق الهوة التي
تفصل الآن بينه وبينها ..

وتبددت المشاعر النبيلة التي أحسها لحظات وسرعان ما عاد إلى واقعه المرير
الذاخر بالألم ، المقعم باليأس ، فانطلق إلى سيارته وراح يعدو بها ليفر من
وحدته التي تمزج روحه وخزا قاسيا وتعصف بكيانه عصف الريح بأوراق
الخريف ..

وبلغ السراى فراح يصعد في الدرج الرخامي كأنما يهرب من أشباح
تطارده ، وخف إلى حيث كان الباشا ليحاوره ويجاذبه أطراف الحديث الذي

ينسى فيه آلام نفسه ، وعذاب ضميره ، ووقدة النار المشتعلة دواما في جوفه ،
والحسرة التى تعصره عصرا ..

قال الباشا وهو يلقي بالصحيفة التى كانت فى يده يقرأ فيها :
— كيف قبل النقراشى باشا أن يعلن الملك الحرب وتدخل الجيوش فلسطين
قبل أن يوافق البرلمان على ذلك ؟ أعلم أن النقراشى باشا كان فى رأيه ألا يزج
بمصر فى هذه الحرب والقوات البريطانية فى القناة خلف ظهره ..
فقال حلمى ليفر من ذاته القلقة ويندج فى الجو الجديد الذى خلقه أبوه :
— جميع السلطات الآن فى يد الملك ، تخطى رؤساء الوزارات فى أكثر من
مناسبة فلم يثر أحد منهم أو يفكر فى الاستقالة ، فاستمرأ الملك سلب السلطات
وجمعها فى يده ، دعا ملوك الدول العربية ورؤساءها إلى اجتماع أنشاص دون
علم الوزارة ، ولم يحتج صدق باشا أو يقدم استقالته ، وأمر النقراشى باشا بحل
أزمة البوليس حالا لا يتفق ورأى النقراشى باشا ، فنفذ الرجل الأمر السامى
الكريم ، واليوم يشن حرب فلسطين ليتسابق هو والمملك عبد الله على أيهما
يكون له شرف الصلاة أولا فى بيت المقدس .. إننى لأعجب كيف قبلت
الدول العربية أن يكون الملك عبد الله القائد الأعلى للجيوش ، إن معنى ذلك
وضع الأمر فى يد جلوب باشا الذى سينفذ ما يراه الإنجليز ..
فقال الباشا وهو يلوى شفته :

— أمر هذا الملك يحيرنى ، يقول للذين ينصحونه ليتستر فى نزواته فى
استخفاف : لن يبق من الملوك الحاليين إلا ملك إنجلترا وملوك الكوتشينة ،
ومع ذلك يجمع ملوك الدول العربية ورؤساءها ليعث القومية العربية ويتطلع
إلى أن يكون على رأسها ..

فقال حلمى وهو يتسم :

— لا تناقض بين أفعاله ، إنها تتسم كلها بالرعونة ..
— لو صبر قليلا لحصل على موافقة البرلمان على دخول الحرب ، قبل أن

تنساب الجيوش على أرض فلسطين ، ولحافظ على الكيان الدستورى ،
فما أحسب أن هناك من يعترض على خوض غمار الحرب ضد الصهيونيين
الذين جاعوا ليغتصبوا قطعة من الوطن العربى ..

فقال حلمى وهو ينظر إلى أبيه :

— الشيوعيون لا يوافقون على قتال إسرائيل ..

فقال الباشا فى غضب :

— لأنهم يتلقون الأوامر من موسكو ، وموسكو اعترفت بإسرائيل ..

قال حلمى وهو يقطب جبينه :

— إننى فى حيرة حتى الآن من أمر القنابل التى كانت تلقى على المحال وفى

دور السينما ، أكان الإخوان هم الذين يلقونها أم الشيوعيون ؟

فقال الباشا فى حماسة :

— الشيوعيون وراء كل تدمير ..

— والقنبلة التى ألقىت فى حارة اليهود ؟

— إذا كان الإخوان قد ألقوا قنبلة ، فقد ألقى الشيوعيون عشرة ، سياستهم

هى أن يضعوا أصبعهم فى أى ثقب يجدونه ليوسعوه ، وأن يسكبوا الزيوت على

نارية أية فتنة مشتعلة ، لا تتحقق أهدافهم إلا إذا عمت الفوضى .. إننى كنت

أعارض صدق باشا وسياسته ، ولكننى كنت أؤيده بكل جوارحى فى الشدة

التي كان يجمع بها الشيوعيين ..

ودخلت أمينة هانم وجلست وهى تقول لحلمى :

— والله لا أدري لماذا لم تأت معك سميرة ؟

فأحس حلمى كأنما انتزع من مأمنه الذى يهرب إليه ليواجه واقعه البشع

الذى يحز فى نفسه ويحجم على صدره كالكاپوس ، وقال فى صوت فيه أسى :

— ذهبت إلى الإسكندرية تمضى الصيف مع أهلها ..

فنظرت إليه أمه نظرة فاحصة وقالت :

— ولماذا لم تأت معك تمضى معنا أياماً ثم تسافران معا إلى الإسكندرية ؟ هل تشاجرتما ؟

وقطن الباشا إلى أن زوجه ستفتح أبواب الموضوع الذى طالما حادثته فيه وألحت فى تنفيذه على الرغم من معارضته لها ، إنه أول موضوع تعارض فيه رغباته وتتحده بسببه تحديا يتنافى مع طبعها الذى لا يعرف إلا الاستكانة والتصديق على كل ما يراه ، فقال :

— ذهبت كما تذهب كل الزوجات تمضية بضعة أيام عند الأهل والأحباب ..

ولم تلتفت إلى ما قال وقالت لابنها :

— حرام أن تضيع عمرك معها ..

وقال الباشا فى فزع :

— ما هذا الكلام ؟

فقالت الأم فى إصرار :

— كيف يعيش مع امرأة عقيم ؟ كيف ترضى له أن يحرم أعز ما فى

الوجود ؟

وشرد بصر حلمى وعلاه وجوم ، ولزم الصمت وإن راحت مشاعره تصرخ بين جنباته وتئن أنين المشخن بالجراح ، المحروق بنار الحرمان الطويل ، وعجب الباشا من تأكيد زوجته أن سميرة امرأة عقيم ، كيف لم يخطر على بالها أن العيب قد يكون فى حلمى ؟ إن الأم لا تستطيع أن تتصور أى عيب فى ابنها ، أما هو فلولا يقينه من أن الفتاة المساوية قد حملت من ابنه لراودته فكرة أن العيب قد يكون فيه ، قال الباشا ليكسر تيار حماسها المتدفق :

— أعرف أزواجاً أنجبوا أطفالاً بعد أكثر من عشر سنوات من زواجهم ،

فلماذا هذا اليأس ؟

ومالت عواطف حلمى مع أمه ، كان يرى رأيها ، ولكنه لم ينبس بكلمة

حتى لا يغضب أباه ، وقالت أمينة هاتم :
— إننى لا أطلب من حلمى أن يطلقها ، إنه يستطيع أن يمسكها بمعروف
ويتزوج من أخرى تنجب له ذرية .. كل من تزوجوا معه أنجبوا أولادا ، إلهام
خلفت ولدا وبنتا ، بثينة ابنها فى المدرسة ، كل من تزوجوا قرت عيونهم
بأولادهم ، فلماذا يحرم حلمى الولد ؟!

وهاجت أشجان حلمى حتى تفرقت الدموع فى عينيه ، وأشاح بوجهه
عن أمه وأبيه ، وفكر فى أن ينهض وينصرف يخفى ضعفه الذى تبدى ،
ويكفكف عبراته بعيدا عن العيون ، ولكنه أحس حرجا فظل جالسا يتلظى
بالنار التى كانت ترعى فى أحشائه ..

لم يكن الباشا يشفق على سميرة ، إنه كان يتحامى غضب محفوظ باشا ، فهو
يرجو أن يتعاوننا معا على رفع حلمى إلى كرسى الوزارة ، الأمل الذى يعيش
لتحقيقه ، لذلك وطن النفس على أن يئذل كل ما فى طاقته ليبقى على الخيط
الرفيع الذى يربط ابنه بسميرة ، حتى لا يوغر صدر أبيها على ابنه فيعرقل
مسايعه بنفوذه الذى يزداد كل يوم قوة فى الحزب فقال :

— أصبح السفر إلى الخارج الآن ميسورا ، فلماذا لا يسافران ليعرضا
نفسهما على الأخصائيين ؟

وضايق حلمى قول أبيه « ليعرضا نفسيهما » فهو يعلم علم اليقين أنه أب
لابن لفظه فى قسوة قبل أن يرى النور ، ترى هل خالجه هو أيضا ذلك الشك
الذى أرادت سميرة أن تبثه فى صدره ؟!

وقالت الأم فى استسلام :

— افعل ما تراه وإن كنت أدري أن سفرهما ليس له لزوم ..
وساد الصمت بينهما وقد عزم حلمى على عدم السفر ، بدأ يخشى أن يتضح
أن العيب منه فتتأخر الذكريات الجميلة التى تلقى بصيصا من النور على ظلام
حياته ..

كان الناس يتدافعون بالمناكب في شارع فؤاد الأول بعد الغروب ، وأضواء المحال تتألق والأنوار الحمراء والخضراء تفتحهم العيون ، والوجوه هادئة ناعمة سعيدة كأنما البلاد لا تحس الحرب المريرة التي يخوض غمارها أبناء أعزاء دفع بهم إلى أتونها ملك متهوس دون تسليح ، وخرج حلمى من محل لعب أطفال وخلفه عامل يحمل الهدية التي اشتراها ، ينطلق في أثره وهو يشق الجموع المتدفقة على الطوار كالسيل في طريقه إلى سيارته التي وقفت على جانب الطريق ..

وتحمل حلمى حتى مر الترام والأتوبيس الذى كان يتلمس طريقه بين الترام والسيارات المناسبة على مهل عند تقاطع شارعى فؤاد الأول وعماد الدين ، ثم فتح باب سيارته في حرص وجلس خلف عجلة القيادة ، ومد يده وفتح الباب الآخر وتناول من عامل المحل الصندوق الذى كان يحمله ووضعته إلى جواره وانطلق ..

كان حلمى وهو في طريقه إلى بيت أخيه يفكر في الجفرة القائمة بين أسرته الصغيرة الغارقة في دنياها حتى آذانها ، وراح يسأل نفسه عن سبب العداوة الناشبة بين الباشا وبين أخيه ، فلم يجد سببا واحدا معقولا ، فكره الباشا لعبد الخالق ليس له أساس ، ولكن هل الباشا يكره ابنه حقا ؟ هل يمكن لأب أن يمقت فلذة كبده ؟ ولماذا لا يكون مصدر ذلك العنف الذى يواجه به الباشا عبد الخالق شدة حبه إياه ، وأنه لا يعنفه إلا ليقومه ليراه في حال أفضل من حاله الذى لا يرضيه ؟

إنه لا يدري حقيقة شعور الباشا نحو عبد الخالق وزوجته وابنه ، ولكن هو لماذا انقطع عن زيارة أخيه ؟ إنه كان كذلك الشاب الذى ورث عن أهله قضايا

فاستمر فيها ولج في الخصومة دون تفكير ، اندفع في تيار الجفوة أسوة بأمه وأبيه ، ولو أنه تدبر الأمر قبل أن يستفحل وكان رسول سلام لكان البلسم للجروح ولبرئت النفوس بدل أن تتعفن ..

وهمس في نفسه هامس أنه كان يجد راحة للعداوة المشتعلة بين الباشا وأخيه ، كان يسعده أن يخلو له وحده وجه أبيه ، إنه أناني لا يحب إلا نفسه ، وأنانيته هذه هي التي جعلته يضحي بإيضا وابنه لينجو من عار توهمه ، وإنه ليقاسي الآن من عواقب أنانيته ، ويجني مرارة الحرمان التي غرست بذورها بيده يوم اقتلع في قسوة شجرة سعادته ..

وألقي على الصندوق الموضوع إلى جواره نظرة عابرة فحقق قلبه خفقات ناعمة وانتشرت في روحه سحابة خفيفة من الأسى ، فهو يحمل إلى ابن أخيه هدية كان يتمنى في أعماقه لو أنه حملها إلى ابنه ، وأراد أن يفر من أحزانه التي تحركت لتعصف به فراح يقرع نفسه ويتهمها بالحسد ..

وأخذ يقارن بين النعم التي أنعم الله بها عليه وبين شقوة أخيه ليطفئ أوار النار التي اندلعت ألسنتها في جوفه ، إنه قرأ عين أبيه بينا عبد الخالق قذى في عينه ، إنه يحس حنان الأم وأخوه لا أم له ، إنه غارق في العز وأخوه محروم ، إنه .. وإنه ..

واستمر يعد النعم الذي هو فيه حتى كادت نفسه تهدأ ، وإذا بصوت كفحيج الأفعى يوسوس في صدره : عبد الخالق قد جمع أطراف كل سعادة في ابنه وأنت أبتر ، فتقوضت كل حججه ، وثارت براكين غضبه ، وزحفت عقارب غيرته تنهش قلبه ، وضاق بهذه المشاعر البغيضة فراح يقاومها جاهدا ليكتم أنفاسها ..

كان صادق الرغبة في أن يتطهر من هواجس نفسه الشريرة ، وإنه لينذل غاية الجهد في القضاء على وسوساته الخبيثة التي تمرض قلبه ، ويا طالما حسب أنه انتصر على ضعفه وسحق عواطفه المتعفنة ، ولكن ما يلبث أن يكتشف أنه

واهم وأن عواطفه البغيضة لم تلفظ أنفاسها ، بل هي هاجعة تحت الرماد سرعان ما تستيقظ كالغول إذا ما نفخ فيها نافخ ..

ووقفت السيارة أمام بيت أخيه ، وحمل الصندوق في يده وسار وقد اختفى الرجل الشرير الذى يحسه فى نفسه ، وبدأت مشاعر رقيقة تنبثق فى وجدانه ، وهدأت نفسه وانبسطت أساريه .

ودق الجرس وكانت بثينة قريباً من الباب ففتحته ، ولما وقعت عيناها عليه لم تحف عجبها وقالت فى دهش :

— حلمى !؟ أهلاً وسهلاً .. تفضل ..

ودخل حلمى وهو يتلفت ، ولما رأى ابن أخيه ذهب إليه وصافحه وقبله ثم ضمه إلى صدره فى حنان وتناول يده فى يده وسار يسعد بالمشاعر العذبة التى كانت تنسكب فى روحه ..

وجلس حلمى وعاود ضم ابن أخيه إلى صدره وتقبيله ثم دفع بالصندوق إليه ، فتناوله الصبى مسروراً وقالت له أمه :

— ألا تشكر عمك ؟

فقال الصبى وهو يسرع بفك الصندوق :

— متشكر يا عمو ..

وراح حلمى وبثينة يرقبان وهما يمزق بيديه الصغيرتين الورق الذى يلف الصندوق وقد أشرقت عيونهما بالسرور ، وملئت نفوسهما رضا ، وأخرج الصبى من الصندوق قطار سكة حديد كبيراً ، فصاح فى فرح :

— جميل ! متشكر يا عمو .. متشكر يا عمو ..

ورقت بسمات على الشفاه ، وقالت بثينة لابنها :

— اذهب به إلى غرفتك ..

فقال حلمى وهو يرنو إليه فى حنان :

— دعيه ..

ثم التفت إلى بثينة وقال :

— وأين عبد الخالق ؟

— خرج ، صار يقضى كل أوقاته خارج البيت ، لا أدرى أين يذهب ..

— ولماذا لا يفكر في زيارتنا ؟

فقالت وهي ترنر إليه في إنكار :

— كيف يفكر في زيارتك بعد أن طرده الباشا واتهمه بأنه المحرض على قتله ؟ لقد قضى عليه الباشا ، وأصبح لا عمل له إلا أن يشرب ويهم على وجهه ليفر من البيت الذى يذكره بالظلم الذى يقاسيه ، صار عاجزا عن أن ينفق على بيته ، وأن يظهر بالمظهر الذى يليق بأمثاله ، إنه ضحية قسوة ليس لها ما يبررها ..

وأطرق حلمى قليلا ثم قال :

— إننى لا أبرئ نفسى من اللوم ، فلو أننى تدخلت بين أبى وأخى وحاولت إصلاح ما بينهما قبل أن تتغلغل العداوة فى النفوس لما تدهورت العلاقة بينهما وبلغت هذا الحد من السوء ، أعدك أننى سأكفر عن تقاعسى ، وسأبذل كل جهدى لأقضى على هذه الجفوة ..

— أظن أن قلب الباشا يمكن أن يصفو لعبد الخالق بعد أن أقنع نفسه أن

ابنه يكرهه ويتمنى له الموت !؟

فقال حلمى وهو يبتسم :

— لا أستطيع أن أصدق أن الباشا يحمل غلا لعبد الخالق ، إنه قد ثار عليه فى ظرف من الظروف وقد صفت نفسه بعد تلك الثورة ، ولكن كبرياءه تمنعه من أن يظهر الصفح ، حتى لا يعد ذلك منه ضعفا ، إننى على يقين من أن الباشا يفضل الموت على أن يبدو ضعيفا أمام إنسان ..

وراحت بثينة تصنى إليه وهي لا تصدق كلمة واحدة من حديثه ، وإن كانت فى قرارة نفسها تتمنى أن يكون صادقا فى سفارته بين زوجها وأبيه ، وأن

تكمل جهوده بالنجاح ، فقد تدهورت حالتها وحالة زوجها حتى أشرفا على الإفلاس ..

وقال حلمى فى هدوء ، وإن لونت المرارة نبراته :

— أنت أدري بشعور الوالدين نحو أبنائهم ..

وأحسست المرارة التى فى صوته فملأت الشماتة صدرها ، وجاءت الخادم وقالت :

— إلهام هانم هنا ..

ونفضت بثينة وهى تقول :

— مرحبا ..

وتقدمت إلهام بين ابنها وابنتها ، ولحمت حلمى واقفا ، فوسعت من خطوها وذهبت إليه تصافحه وتقول فى بساطة :

— أين أنت ؟ ولماذا لا نراك ؟ بلغ تيزة أننى غاضبة ، زرمتها أكثر من مرة وزارتنى مرة واحدة ثم انقطعت زيارتها ..

فقال حلمى وهو يتنسم :

— كنت على حق فى غضبك لو كانت تخرج ولا تزورك ، ولكنك تعلمين أن خروجها أندر من الكبريت الأحمر ..

فقالت بثينة وهى تضحك :

— ما أكثر الأشياء النادرة فى هذه الأيام ..

وقالت إلهام وهى تجلس :

— وأنت ؟

— أنا مقصر ، أعترف بذلك ..

ومال على ابنها وابنتها يقبلهما ، وبثينة ترقبه وفى صدرها تشف ، وبقيت

إلهام تنظر إليه ولم يتحرك فى جوفها إحساس واحد مريض ..

وذهب الطفلان إلى ابن خالتهما يشاركانه فى لعبته ، فقالت لهم بثينة :

- اذهبوا إلى غرفة ميمي ..
- فقال حلمى وهو ينظر إليهم وقد انعكست في عينيه مشاعره الرقيقة :
- دعهم ..
- يستطيعون أن يلعبوا في حرية في غرفة ميمي ..
- وانصرف الأولاد والعيون الواهة تتعقبهم ، ثم التفت حلمى إلى إلهام وقال :
- وكيف حال بدر الدين ؟
- بخير ..
- ولماذا لا نراه ؟
- غارق في عمله ..
- وقالت بثينة لتسمع حلمى :
- وهل انتهى من بناء فيلتكم الجديدة ؟
- وأشرق وجه إلهام وراح السرور يمرح فيه وقالت :
- على وشك أن تنتهى ..
- وشردت ببصرها قليلا ثم قالت وقد توجت شفتيها بسمة عذبة ..
- كنت أقول : الذى لا يملك شيئا يملك كل شيء ، الأنهار والحقول والنجوم والشمس والقمر والنسيم والرياح والأرض المنبسطة التى لا تحدد كلها له ، ملك يمينه ، وكنت مؤمنة بهذا القول ، وقد ازدادت به إيمانا بعد أن أصبحنا نملك فيلا ، صرت أحس أن هذه الفيلا هى التى ملكتنى ، جعلت كل تفكيرى ينحصر فيها ، كيف أفرشها ؟ وماذا أضع فى هذه الغرفة وفى تلك ؟ والستائر التى سأضعها على النوافذ والأبواب ما نوعها ؟ ما لونها ؟ والحديقة كيف أنسقها ؟ وأين أضع المرجوحة ؟ .. كان عالمى الدنيا الواسعة الفسيحة فإذا بهذه الفيلا تحصر كل آمالى فى بضعة أمتار من الأرض فوقها طبقتان من البناء ..
- وضحكت مسرورة ، وقال حلمى :
- ولكن ما نملك يربطنا بالأرض التى نملك فيها ، ويزيدنا حبا لها ، إن

للملكية لسحرا ..

قالت إلهام فى غبطة :

— والله لقد قلت لبدر الدين قبل أن يشتري أرض الفيلا : إننى أفضل أن أكون مالكة لكل ما فى الكون من جمال على أن تستعبدنى بضعة أمتار من الأرض ..

وقالت بثينة وهى تضحك :

— لا أمل فىك ، أفسدتك الروايات التى تقرأينها ..

وقالت إلهام وهى تضع ساقا على ساق :

— الصلاح والفساد شئ نسبى ..

وأحسست بثينة رغبة ملحة فى أن تخز حلمى وتثير شجونه ، فقالت لتجر إلهام إلى الحديث الذى تود أن تنفذ إليه :

— دائما تجادلين ، وما أكثر ما تظهر الأيام خطأ رأيك ..

فقالت إلهام وهى تلقى برأسها إلى الخلف :

— اذكرى وقائع ..

فابتسمت بثينة .. لقد وصلت إلى هدفها أسرع مما كانت تقدر قالت :

— كنت أقول لك إن الخلافات التى بين الملك والملكة ستنتهى بالطلاق ،

و كنت تعارضينى فى ذلك ، وها هو ذا فاروق يطلق فريدة .

فقالت إلهام فى هدوء :

— كنت أقدر حكمى على أساس أن الملك شخص طبيعى ، ولكن جميع

أعماله أثبتت أنه شاذ ، يطلق دون أن يستشير رئيس وزاراته أو أباه بحكومته ،

ودون أن يفكر فى أنه يعيث فى الوقت الذى ينهزم فيه الجيش الذى زج به فى

الحرب دون تدبير ..

قالت بثينة وهى تضحك ضحكة انتصار :

— كان لا بد أن تقدرى أنه بشر ، يريد ورثا للملكه ولم تنجب له فريدة هذا

(الحصاد)

الوريث ، لو كنت مكانه لفعلت ما فعله ، بل لو كنت رجلا موسرا ،
لاملكا ، وزوجتي عاقر لطلقتها ..

وأريد وجه حلمي ولم يقر على قمع الثورة التي نشبت في جوفه وراحت
تزلزل كيانه ، فقام مستأذنا وإلهام ترقبه في إشفاق وقد فطنت إلى أن أختها
تعمدت طعنه ..

وصافح إلهام دون أن تلتقى عيناه بعينها ، وصافح بثينة وهو منفعل ،
وانصرف لا يلوى على شيء حتى إذا غاب عن الأنظار التفتت إلهام إلى أختها
وقالت في عتاب :

— لماذا هذه القسوة ؟

فقالت بثينة وهي تضحك في شماتة :

— لأنه يستحقها ، إنه ما جاء اليوم إلا ليسخر مني ويوهمني أنه نادم على ما
بين عبد الخالق والباشا من جفوة ، وأنه سيكون حمامة سلام بينهما ..
فقالت إلهام في حماسة :

— قد يكون صادقا فيما قال ..

فقالت بثينة ساخرة :

— من ربي خير من اشترى .. إنه مثل أمه ناعم كالثعبان وفي جوفه سموم ..
لدغني مرة ولن يلدغني مرة أخرى ..
— لم يكن بينه وبينك إلا كل خير ..

— لن أنسى أبدا أنني كنت مخلب القط الذي استعمله في الخلاص من
عشيقتة النمساوية ثم سخر من أحلامي ، لن أنسى ذلك ما حييت ..

كانت الرياح تصفر ، والبرد يخترم الأجسام ، والسماء مليدة بالغيوم ،
والعتمة منتشرة على الرغم من أن الوقت كان العاشرة صباحا ، وكان الباشا
خلف مكتبه يرتدى بالطو سميكا وحلو عنقه كوفية من الحرير الأبيض ،
وجلس أمامه حلمى عارى الرأس يعبث بصحيفة أخبار اليوم ويرقب أباه وهو
يرشف القهوة فى لذة ..

وسرح حلمى بخياله ينمق الحديث الذى سيفضى به إلى الباشا ويتقى
الألفاظ التى لا تثير غضبه ، فهو يعلم أن الموضوع الذى سيخوضه ليس حبيبا
إلى قلبه .. ووضع الباشا فنجان القهوة على المكتب ، وقبل أن ينغمس فى
عمله ، قال حلمى دون أن يرفع بصره عن الصحيفة التى كان يعبث بها :
— وعدتنى أن تبعث إلى عبد الخالق براتبه الشهرى من أول العام الجديد ،
ولم يبق على مولده إلا يومان ..

فقال الباشا فى ضيق :

— خذ ثلاثين جنيها غدا وأعطه إياها ..

فقال حلمى وقد رفع رأسه عن الصحيفة :

— وماذا يفعل بثلاثين جنيها فى الشهر ؟

فقال الباشا فى غضب :

— والله إنه لا يستحق منها مليما واحدا ، لولا أنك ألححت علىّ ما أعطيت

الذى يتمنى موتى أموالى بغير حساب ..

فجمع حلمى أطراف شجاعته وقال :

— إنك يا باشا تظلمه ..

فقال الباشا فى حدة :

— إننى أظلم نفسى بترتيب هذا المبلغ له فى كل شهر ، إنه ما من مرة يرى فيها عثمان إلا ويقول له : متى نقرأ نعى عمك فى الصحف ؟ إنه يكرهنى حتى إنه يجبد غضاضة على نفسه أن يقول أبى حتى فى تمنيه الموت ، لماذا تبلغ به البغضاء هذه القسوة ؟ ..

وراح يقول فى مرارة :

— متى نقرأ نعى عمك فى الصحف ؟ عمك ؟ كإنما يبرأ من أبوقى له ..

فقال حلمى وهو يضيق عينيه ويزوى ما بين حاجبيه :

— من أبلغك هذا ؟

— عثمان .. عثمان نفسه .. وهذا القول ليس غريبا على عبد الخالق الذى

حرض على قتلى ..

— أنا واثق أن عبد الخالق لم يفعل شيئا من ذلك ..

— وهل يفترى الناس على عبد الخالق ظلما وعدوانا ؟ لا دخان بغير نار ..

— وإذا كان الناس يعرفون الذى حرضه عبد الخالق على إطلاق النار ،

فلماذا لم يرشدوا إليه ؟

— لأنهم يعتقدون أن الإرشاد عن المجرمين خيانة للأخلاق ..

— وكيف عرفوا أن هناك اتفاقا بين عبد الخالق ومن حرضه على إطلاق النار

عليك ، بعد إطلاق النار بساعات قلائل ، كإنما كان اتفاقهما فى سوق عام ؟

— ما أسرع انتشار الأخبار فى الريف ..

— هذه إشاعة أطلقها من له غرض فى إطلاقها فتلقفها الناس وراحوا

يتناقلونها .. وما أكثر ما ترتفع الشائعات إلى مرتبة الحقائق ، بل ما أكثر

ما تكون الشائعة أرسخ قدما من الحقيقة ..

فقال الباشا وهو ينظر إلى ابنه بعينين واسعتين :

— لماذا كل هذا الدفاع الحار عن عبد الخالق ؟

— لأننا ظلمناه .. قضينا عليه ..

— وماذا تريد منى أن أفعل ؟ أن أذهب إليه وأركع على ركبتى أمامه وأتمس منه الصفح ؟

فقال حلمى وقد حسب أن الباشا قد لان ، وأن تحقيق ما يهدف إليه صار قريبا :

— ترتب يا باشا لعبد الخالق راتبا شهريا يمكنه من أن يحيا حياة كريمة .. فقال الباشا فى ثورة :

— والله لن أدفع إلا الثلاثين جنيها ، وإن ألحفت فوالله لن أدفع إليه شيئا ، فإنى أدفعها إليه وأنا كاره ..

وفُتح الباب ودخل عثمان يهرول ويقول :

— قتل النقراشى باشا ، قُتل فى وزارة الداخلية ، قتله شاب يرتدى ثياب ضابط بوليس ، ويقال إنه من الإخوان المسلمين .. قال حلمى وهو يسرح بخياله :

— هذه نهاية الحرب بين النقراشى والإخوان المسلمين ..

فقال الباشا وهو يرنو إلى ابنه فى إنكار :

— بل هذه هى بداية الحرب بين السعديين والإخوان المسلمين ..

وقال عثمان وقد وقف عند رأس الباشا كعادته ومال يلتقم أذنه :

— سمعت أن الشيخ حسن البنا قال بعد أن حل النقراشى جمعية الإخوان :

« سأحل وسطه » وها هو ذا قد نفذ وعيده ..

قال حلمى :

— ألم يتسرع النقراشى فى حل الإخوان ؟

قال الباشا :

— لو صبر عليهم قليلا لقاموا بانقلاب مسلح ، كانوا يقولون فى حرب

فلسطين بعد أن ظهر الفساد فى الجيش ، وعلموا أن الملك كان يرتدى ثياب

القائد ويذهب بها إلى نادى السيارات يلعب القمار للصباح ، بينما كانوا

يجودون بدمائهم في الحرب المقدسة : « لقد تركنا خلفنا الجهاد حقا » ..
وتذرعوا بحرب فلسطين وراحوا يجمعون الأسلحة ويكدسونها في مخازن داخل
البلاد لليوم الذى يقومون فيه بالانقلاب ..

قال حلمى :

— سمعت أن النقراشى باشا كان مقتنعا بأن حوادث إلقاء القنابل والمتفجرات
يرتكبها الإخوان المسلمون ..

قال عثمان :

— لا يمكن أن أبرئ الشيوعيين من هذه الحوادث إن كان الإخوان قد ألقوا
قنبلة ، فقد ألقى الشيوعيون عشرا ..

ونظر عثمان إلى الباشا ليقراً فيه آى الإعجاب ، فقد سمع من الباشا هذا الرأى
أكثر من مرة ، فراح يكرره حتى اعتنقه ، قال الباشا :

— لم يقصر النقراشى باشا رحمه الله في محاربة الإخوان ومحاربة الشيوعية ..
فقال عثمان :

— رحمة الله ! دنيا ..

ووضع حلمى الصحيفة التى كانت كل عناوينها الضخمة تروى أفعال
النقراشى باشا ، وقال :

— لم يقصر الرجل في محاربة الدنيا كلها ، إنه لما لجأ إلى مجلس الأمن يعرض
عليه خلاف مصر مع إنجلترا ، لم يكن يؤيده في المجلس إلا مندوب الصين ، فقام
مندوب إنجلترا وطلب منه أن ينهض ويلطم مندوب الصين لطمة حتى يضمن
عداوة دول المجلس جميعها ..

قال عثمان ليرضى الباشا :

— لقد عادى العالم كله وأرضى الملك ..

فقال الباشا :

— الحق كان رحمه الله رجلاً ..

وضايق عثمان أنه قال ما لم يصادف هوى في نفس الباشا ، كان بحسب أن الباشا حائق على النقراشي منذ انشق على الوفد ، وأن كل قدح فيه سيرضيه ، ولم يدر بخلده أن الباشا يرضى عن كل من يحارب الشيوعية ولو كان من الإنجليز ..

ورن جرس التليفون ، ورفع الباشا السماعة وقال :
— ألو ..

وارتسمت على محياه آى الاهتمام ، وفطن حلمى إلى أهمية الحديث فتعلقت عيناه بوجه أبيه ، وقال الباشا وقد تهللت أساريره ، ورفت على شفثيه بسمة عذبة :

— صباح الخير يا رفعة الباشا .. حاضر .. حالا .
ووضع سماعة التليفون ونهض وهو يقول :
— رفعة الباشا يطلبنى حالا لاجتماع الحزب ..
فقال عثمان فى لهفة :
— خيرا ؟

قال الباشا وهو يسير نحو الباب :
— لا أدرى بعد سبب هذا الاجتماع :
فقال حلمى :

— سيتدارس الوفد الموقف بعد مقتل النقراشى باشا ..
وخرج الباشا وثمان وحلمى فى أثره ، وهبطوا جميعا ، وأسرع عثمان إلى باب السيارة يفتحه ، واندس الباشا فيها وأمر السائق أن يسرع إلى الحزب ..
ووقف عثمان يرقب السيارة خافق القلب ، ثم التفت إلى حلمى وقال :

— أتظن أن من المحتمل عودة الوفد إلى الحكم ؟
فقال حلمى :

— من المستحيل أن يعود الآن ..

قال عثمان في ابتهاج :

— ليت يعود ..

ونظر حلمى إليه في دهش وقال :

— ما الذى يهيك من عودة الوفد ؟

فابتسم عثمان قائلا :

— وعدنى الباشا بالبكوية لو عاد الوفد ..

فابتسم حلمى فى سخرية ورمقه فى زراية ، فقد بدأت ثقته فيه تتزعزع ، ولولا يقينه من أن محاربته ستغضب الباشا لشن عليه حربا لا هوادة فيها ، إنه عرف كيف يتسلل إلى نفس الباشا ، ولن يكون نزع جذوره من أعماقه بالأمر السهل ..

وانصرف حلمى وعاد عثمان إلى المكتب وهو يمينى نفسه بعودة الوفد ، والإنعام عليه بالبكوية ..

وسرح بخياله وراح يغمغم فى نشوة : عثمان بك .. سعادة عثمان بك .. حضرة صاحب العزة عثمان بك ، إننى لست أقل من الذين نالوا هذه الرتبة .. وسيدفع الباشا للملك ما دفعه غيرى للحصول عليها .. سأناها بثمانها .. وانتشرت فيه سعادة ما كان يشوبها إلا قلقه من ألا يعود الوفد إلى الحكم ، وتقضى وقت وهو ينعم بأوهامه ، وعاد الباشا إلى المكتب فخف إليه فى قلق : — خيرا ؟

قال الباشا وهو يجمع بعض أوراقه :

— كلف الملك عبد الهادى باشا بتأليف الوزارة ..

وسرى فى صدر عثمان حزن ثقيل ، وأطرق فى ضيق ، ولكن الآمال التى كانت تداعبه لم تلفظ أنفاسها ، فسيعود الوفد إلى الحكم يوما وينال الرتبة التى صار يحلم بها ..

كانت الشمس تميل للغروب ، وكان النسيم يهب من البحر يلطف الحر
اللافح ، فقد كان الوقت الأيام الأخيرة من يوليو ، ولم يكن على شاطئ البحر
إلا بعض الصغار وقلّة من الرجال والنساء انتثروا أمام الكبائن ، فاليوم آخر أيام
رمضان ..

وفي كابينة منعزلة تمدد في الكراسي الطويلة الموضوعة أمامها عبد الخالق
وكان يرتدى قميصا أبيض وبنطلونا أبيض وحذاء أبيض من المطاط ، وإلى
جواره بثينة في ثوب أبيض قصير يكشف عن صدرها وذراعيها وساقها ، وقد
وضعت وهي مضطجعة ذراعيها تحت رأسها وعلت ساقا على ساق ، فبرز
صدرها في إغراء ، وفي الكرسي المجاور لها نام رفعت على جانبه بحيث يمسح
بعينيّه كل مفاتها ويطلق لخياله العنان ..

وكان ميمى في ثياب البحر ، بينى قصورا على الرمال سرعان ما يغمرها
الموج ثم ينحسر عنها وقد سواها بالأرض ، فيعود ميمى لتجميع الرمل وتشيد
قصوره في جد ونشاط ..

وكان عبد الخالق يشرد يفكر في حاله ، وفي أبيه الذى يجود عليه بثلاثين
جنيها في الشهر ، بينما الأيام كلها رخاء والقطن ارتفعت أثمانه حتى بلغت مائة
وأربعة من الريالات للقنطار ، فلو أن أباه قبل أن يقرضه المال الذى طلبه
لأنقلب عسره يسرا ، ولسعد بحياته بدل شظف العيش الذى يقاسيه ،
والحرمان الذى يذل كبريائه ..

إنه وهو جالس في ظل كابينة بدر الدين لا يحس الراحة التى يستشعرها غيره
من المصطافين ، فما كان يدور بخلده أن ينزل هو ضيفا على إلهام وزوجها أياما
ثم لا يجرؤ أن يدعوها لتمضية بضعة أيام عنده ، فشتان بين الحياة التى يعيشها

والحياة التى أصبح يكابدها ، إنه كلما جلس إلى مائدتهما هو وزوجته وصديقه تقاصرت نفسه ، واستشعر هو انا وغمرته حسرة ، فقد أصبح من رواد موائد غيره بعد أن كان صاحب مائدة عامرة يؤمها كل يوم ألوان من البشر ..
وراح يتساءل فى مرارة : أين الأستاذ وأين عوده ؟ وأين الممثلة الكبيرة ؟
وأين الرجال والنساء الذين كانوا يحفون به ويلبون أية إشارة من أصبعه ؟
انفضوا جميعا من حوله بعد أن ذابت أمواله ، لم يبق له صديق إلا رفعت الأصيل وكأسه التى يفرق فيها همومه ، وبیت مرسى فى شارع سليمان باشا الذى يفر إليه من دنياه البغيضة ، وفيلا أنهار التى يزورها كلما وجد أن رصيده من الذكريات الجميلة الذى يعيش عليه فى لياليه الباردة الحالكة الظلام التى تسرى الحرارة فى جنباتها الموحشة بدأ ينفذ ..

وكانت بثينة تفكر فى أختها إلهام التى استأذنت هى وزوجها من بضع دقائق ليعدا مائدة الإفطار لضيوفهما ، كانت تسخر منها كلما تحمست لبدر الدين قبل أن تتزوج منه ، وكانت تسفه أحلامها وترميها بالسداجة ، وها هو ذا بدر الدين يسعدها ويشق طريقه ويحث الخطا نحو قمة النجاح ، ولكن هل سيمتلك ذات يوم خمسة آلاف من الأفدنة ؟ إن حلمى لا يفصل بينه وبين أن يصبح مالكا لخمسة آلاف من الأفدنة إلا موت الباشا ..

وأخذ رفعت يفكر فيما حدث له وهو فى طريقه إلى الكايبنة ، راحت فتاة تنظر إليه بعينين جائعتين فرماها بنظرة خاطفة ، وإذا بالفتاة تقول له وهى تبتسم : « عينك ! اليوم آخر يوم فى رمضان ! » ترى أكانت الفتاة تنهأ أم تغريه ؟ إنها كانت تغريه بالنظر وبما بعد النظر ، إنها ككل حواء تتظاهر بالتبجح وهى راغبة ..

وراح ينظر إلى مفاتن بثينة ، إنه فى قرارة نفسه واثق أنها كتملك الفتاة التى قالت له فى إغراء : عينك .. ويا طالما قالت له بثينة : لسانك ! وعيناها تشتعلان رغبة ، ولكنه لا يجد فى نفسه الشجاعة التى تهتك الحجاب الرقيق

الذى يفصل بينه وبينها ، ذلك الحجاب الذى صار أوهى من خيوط العنكبوت ..

وأراد رفعت أن يقطع الصمت السائد بينهما فقال :

— حيرت استقالة إبراهيم باشا عبد الهادى الناس ، استقال قبل العيد بثلاثة أيام ، ولم يكن هناك سبب وجيه للاستقالة أو لعدم تأجيلها إلى ما بعد العيد ، فإبراهيم باشا نفذ سياسة النقراشى فملاً بالإخوان وبالشيوعيين السجون والمعتقلات ، وقتل الشيخ حسن البنا فى مستهل حكمه ، ومما زاد فى غراه الأمر أن الملك أعلن أن الوزارة القومية التى شكلها سرى باشا من الأحزاب جميعاً هى هدية الملك إلى شعبه فى العيد ، كأنما يعلن بطريقة مستترة أن وزارة إبراهيم باشا هى الضحية التى ضحى بها ، إنه يجب دائماً أن يخرق الناموس والتقاليد ، ضحى بالوزارة فى عيد الفطر بدلا من عيد الأضحى ..

فقالت بثينة وهى تضحك :

— لأنه زنديق ..

واعتمد عبد الخالق فى مقعده وقال :

— سمعت سبياً معقولا لحقد الملك على عبد الهادى باشا ..

قالت بثينة :

— ممن سمعته ؟

إنه سمعه فى بيت مرسى ، وما أكثر الأسرار التى فى بيوت اللهو والمواخير وحول موائد الشرب واللعب .. فقال :

— سمعته من موظف من موظفى السراى كان يشرب كأساً معى .

واعتمد رفعت وسدد نظره إلى صدر بثينة العارى ومرر لسانه على شفثيه الجافتين يبللهما وقال :

— قل .. الله يفتح عليك ..

وقال عبد الخالق وهو ينظر إلى رفعت من فوق جسم بثينة الممدود فى

الكرسى الطويل الذى يصرخ بالإغراء :

— وجد أن سبب هزيمة الجيش فى فلسطين هو عدم وجود فرقة مدرعة ،
فتقرر رصد مبلغ فى ميزانية الدولة لتكوين هذه الفرقة ، وأدرج مبلغ أربعين
مليوناً من الجنيهات لهذا الغرض ، وأدرك الملك ألا تفر هذه الفرصة دون أن
يستفيد منها ، فطلب إدراج مبلغ مليون من الجنيهات لإصلاح يخته المحروسة ،
وحرص ياوره البحرى على طلب شراء يخته فخر البحار لتدريب البحارة
عليه ، وقد طلب الملك ثمناً له أربعة وسبعين ألفاً من الجنيهات وكان قد اشتراه
بستة وثلاثين ألفاً ..

فقالت بثينة فى دهشة :

— يريد أن يبيعه بضعف ثمنه بعد أن استعمله ؟

قال رفعت فى بساطة :

— سيقبض ستة وثلاثين ألفاً من الجنيهات ثمن شرف استعماله لليخت ،
والله لقد باع الشرف بثمن بخس ، دراهم معدودة ..

فقالت بثينة وهى تضحك :

— اللهم ارزقنا بهذه الدراهم المعدودة ..

واستمر عبد الخالق :

— وعرضت الأوراق على إبراهيم باشا ، وكان عنده وزيران من وزارته ،
فلما رأى ما يطلبه الملك ثار وقال : « أهو ابن اللبوة فى حاجة إلى مال ؟ » وبلغ
ما قاله رئيس الوزراء إلى الملك ..

ولم تستطع بثينة أن تصبر حتى يتم زوجها حديثه ، قالت :

— ومن الذى بلغ الملك ما قاله رئيس وزارته ؟

قال رفعت :

— وزير من الوزيرين اللذين سمعا السب ، إنها فرصة يتقرب بها إلى

الملك ..

قال عبد الخالق :

— وعرف إبراهيم باشا أن ما قاله وصل إلى الملك ، واتهم كل وزير منهما الآخر بأنه هو الذى خان الأمانة .. وتيقن إبراهيم باشا قبل أن يرغم على الاستقالة أن الوزيرين بلغا الملك ما قاله تقربا إليه وزلفى ..

قال رفعت :

— أمر هذا الملك غريب ، يملك كل شيء ويهوى السرقة ، يسرق الأدوية من المستشفيات فى أثناء الحرب ، ويسرق على موائد القمار ، ويسرق التحف من المتاحف ..

قال عبد الخالق :

— ويسرق السلطة من وزرائه ، ويسرق الأراضى من الأوقاف ..

وقالت بثينة :

— ويسرق الزوجات من أزواجهن ..

وقال رفعت :

— إنه لا يعطى إلا الألقاب ..

وقال عبد الخالق معترضا :

— حتى الألقاب يقبض ثمنها ، أصبحت أروج تجارة فى مملكته .. قطعة من

الورق يقبض ثمنها لها خمسة آلاف أو عشرة آلاف من الجنيهات ..

قال رفعت :

— تصرفاته كلها استهتار ، فى غرفة نومه بركن فاروق يحلوان صورة امرأة

عارية ، وعلى الحائط القريب منها بعض آيات قرآنية ..

قالت بثينة وهى ترنو إليه رنوة ذات مغزى :

— وما الذى أدراك بما فى غرفة نومه ؟

قال رفعت وهو يضحك :

— لم أحظ بعد بشرف أن يغلق على وعليه باب ..

قال عبد الخالق :

— فما أدراك بهذه الدقائق ؟

قال رفعت :

— جاء بعض رجال الحاشية لامرأة من بائعات الهوى ، وإن كانت زوجة
موظف كبير ، وقالوا لها : الملك يريدك ليلة ، فراحت تتأهب للحدث
الجليل ، وفصلت ثوبها دفعت فيه سبعين جنيها ، وحملت إلى ركن حلوان
وأمضت مع الملك ليلة ، وفي الصباح دفعوا لها خمسين جنيها ، فراحت تولول
وتصيح : أدفع من جيبي عشرين جنيها بعد ليلة خاسرة !؟ إنها هي التي تقص
ما في الركن من متناقضات ..

قالت له بثينة :

— أهذا كلام يقال في رمضان ؟

فقال رفعت وهو ينظر إليها في اشتها :
— نسلى صيامنا ..

وصمت قليلا ، ثم قال لعبد الخالق :

— أتعرف كيف تسلي امرأة مرسى اليهودية صيامها ؟

قال عبد الخالق :

— لا ..

ونظر رفعت إلى بثينة نظرة خاطفة وقال وهو يبتسم :

— الصيام عند اليهود قاس ، إنهم يمسكون عن الطعام والشراب من غروب
الشمس حتى غروب شمس اليوم التالي ، ورحمة زوجة مرسى يهودية متدينة
لا يفوتها شيء من شعائر الدين ، إنها تصوم وتسلي صيامها بأن تغلق الباب عليها
وعلى صديق من أصدقائها حتى تغيب الشمس ..

فقال عبد الخالق وهو ينهض :

— قم ، لقد أفطرت قبل أن ينطلق المدفع ..

فقال رفعت وهو ينهض :

— لماذا ؟

فقالت بثينة وهي ترفع صدرها لتنهض :

— لأنك خضت في عرض رحمة ..

فقال رفعت وهو ينظر إلى بثينة في اشتاء .:

— أصوم أصوم وأفطر على رحمة !

ونادت بثينة على ابنها ، وراح عبد الخالق ورفعت يدخلان الكراسي في الكاينة ، وعبد الخالق يدندن : « رمضان ولي هاتها يا ساقى » وأغلق باب الكاينة وانصرفوا وقرص الشمس يكاد يمس قرص الشمس المنعكس في الماء ..

٤٣

سار حلمى مطرق الرأس ، باسر الوجه ، منقبض الصدر ، تمور في جنباته مشاعر من الأسى والحزن ، فقد صارت حياته مع سميرة جحيما لا تطاق ، إذا مكث معها في البيت خلقت أسباب النكد لتتغيص عيشه ، وإذا خرج وحده سلقته بلسانها وراحت تتهمة بأشياء لا وجود لها إلا في خيالها المريض ، وإذا خرجت معه أتت من صنوف الحماقات ما يخرجه ويخجله ويجعله ينكمش ليتحامي نظرات الرثاء التي تصوب إليه .. وراحت مآسى حياته معها تتثال على رأسه ، تذكر أنها كانت جالسة ذات يوم إلى مائدة الطعام معه ومع أمه وأبيه ، وكانت أمه تتحدث حديثا عابرا ، فصور لها وهما أن أمه تعرض بها وتريد أن تنال منها ، فتحركت حماقتها ، ولم تحاول أن تكبح جماحها بل أطلقت لغضبها العنان ، وراحت تبكت أمه في قهقهة وبذاءة ، وتكهرب الجو ، وثارت نائرتة وكاد ينفجر فيها ليمزق كيائها تمزيقا لولا أن تدخل الباشا بلباقة وأطفأ النار التي

أجبتها والتي كادت تأتى على العلاقة المتوترة التى تربطه بها ..
وذهبت معه ذات ليلة لزيارة صديق ، ورحب الرجل وزوجته بها أطيّب
ترحيب ، ودار الحديث بينهم رقيقا ، كله مجاملة ، وراحت تبث فى حديثها
ألغاما وتتعمد الاصطدام بصديقه ، وأحس الرجل تحفزها للوثوب فراح
يتحاشى الفخاخ التى تلقىها فى طريقه ، ونجحت أخيرا فى أن تثير الرجل وتجرح
كبريائه فندت منه كلمة جافة ، فاهتبلت الفرصة التى كانت تتحينها وألقت فى
وجه الرجل بسباب أقسى على النفس من طعنات الخناجر ، كانت تغار من
صداقته له فراحت تحطم فى قسوة هيكلك تلك الصداقة الذى ثبتت للأعاصير
سنين طويلة ..

وزارته إلهام وابنها ذات يوم ، فلما رأتهما أريد وجهها وعلته صفرة تحاكي
صفرة الموتى ، وراحت تبدى عدم ترحيبها بتلك الزيارة ، وكانت تصوب
للغلام نظرات ذاخرة بالملق والحق ، وأحست إلهام بالجو المتوتر الذى ساد
زيارتها فانسحبت سريعا ، وما إن غادرت هى وابنها البيت حتى هبت سميرة
تنتقد كل حركة أتاها الصغير وتتهمه بسوء التربية ، ثم راحت تسأله فى قسوة
عن العلاقة التى كانت بينه وبين إلهام قبل أن يتزوجها ، ورفضت أن تذهب معه
لرد الزيارة بحجة أن إلهام لا تأتى إلا لتراه هو ، لتعيش معه لحظات تبعث فيها
ماضيها ..

وجاء إلى بيته فى مستهل حياته الزوجية ، قبل أن يكتشف أن زوجته عاقر ،
بعض أصدقائهم وزوجاتهم ، وأمضوا معهم ليلة عامرة بالبهجة والسرور ،
وما أن انصرفوا حتى قالت له إنها لا تحب أن يكون بيتها ملتقى الفارغين ،
وما كان يعرف حقيقة نفسها بعد ، فاستجاب لرغبتها السخيفة ولم يدع
أصدقاءه لزيارته ، ولو عرف من مبدأ الأمر أنها تخشى أن يدب التلف إلى أثاث
بيتها وأنها تغار من معارفه وأنها تريد أن تفصله عن كل ماضيها ، لحطم كل أثاث
البيت وأصر على دعوة أصدقائه ليمضوا ليلتهم معه ، وليته فعل .

إنها تصارحه في قحة أنها تكره أمه لأن أمه تكرهها ، وهي ترفض أن تذهب معه إلى العزبة ما دامت أمه فيها ، ويا طالما أحس بالخرج كلما ذهب إلى العزبة وحده وسألته أمه عنها ، كان يعتذر في كل مرة بسبب واه ، وكان يستشعر في أعماقه أن أمه لا تصدق معاذيره ، وإن كانت لا تنبس بكلمة حتى لا تزيد آلامه اشتعالا ..

كان لا يخطر له على قلب أن سيأتي يوم مهما حدث يرفع فيه يده ليضرب زوجته ، ولكن ذلك اليوم جاء وتكرر مجيئه ، فقد اضطرت أكثر من مرة إلى أن يضربها حتى يسكت القذائف القاتلة لرجولته المتدفقة من لسانها السليط الذي يلتذ بتمزيق كل مقدس ، إنه كلما ضربها أحس أنه فقد إنسانيته ، وطفقت تعذبه نظرة الاحتقار التي يسدها لنفسه ..

وصرخت في وجهه أكثر من مرة تطلب منه أن يطلقها ، وقد هم في كل مرة أن ينفذ الرغبة التي تزهو بإعلانها والتي يتمنى من أعماقه أن تتحقق ، ولكنه كان يقمع تلك الرغبة المدمرة التي يشتهيها ، فعزیز على النفس تقويض الحياة حتى ولو كانت حياة شقية تعيسة ..

وفاضت كأس مرارته ، فوطن العزم على أن يفصم عرى ذلك الزواج الذي أذله سنوات حتى كاد يلف نفسه ، وأن يتحرر من الهوان الذي تردى فيه ، ومن الحرمان الذي يقاسيه ، ومن الروح الخبيثة التي غمرت دنياه بالملت والكرامية والحقد والحسد والغيرة ..

ودخل على أبيه وهو مثقل بالأفكار التي أرهقته ، فألقى عثمان قد بسط أمامه مجلة وراح يقول له :

— الصحف والمجلات كلها تتحدث عن الإقطاع وعن ضرورة تحديد الملكية ، لماذا تسمح الحكومة بيث هذه الآراء الهدامة في نفوس المحرومين ؟ كان منفعلًا يخشى على أراضيه التي هدر في سبيل جمعها كل كرامة ، ونظر إليه الباشا وقال له :

(الحصاد)

— اطمئن ، إنها مقالات لا جدوى منها ، تكتب لإرضاء جمهرة القراء المحرومين ..

وجلس حلمي يصغى إلى الحديث الدائر بين أبيه وعثمان دون أن يشترك فيه ، كان يرجو أن ينتهى حتى يفتح أباه بما عزم عليه وجاء إلى العزبة من أجله ، وقال عثمان :

— ليس من الحكمة إثارة طبقة على طبقة ، هذه المقالات تزيد حقد المحرومين على ملاك الأراضي وتغذى حسدهم ، ومن يدري ماذا يكون غدا ؟ قال الباشا في هدوء :

— لن يحدث شيء ما دام الملك على رأس البلاد ، إنه يملك مديريات بأكملها ، أيعقل أنه يصدق على مشروع يهدف إلى تحديد الملكية ؟ نادى خطاب العرش سنة ١٩٤٥ بتحديد الملكية بخمسين فداناً ، وأعد مشروع قانون في عهد إبراهيم باشا عبد الهادى بنزع ثلث الزمام من كل من يملك أكثر من مائتى فدان ، ولم يقدم المشروع إلى البرلمان لأن الملك رفضه .. تحديد الملكية يا عثمان وهم من الأوهام ..

قال عثمان وهو يهز كتفيه :

— خوض الصحف والمجلات في هذا الموضوع يقتلنى ، البذرة يا باشا إذا بذرت فى الأرض وتعهدت بالرعاية لا بد أن تنمو وتنبث ، هذه المقالات التى تكتب هى المياه التى تروى البذرة ..

وطوى الباشا المجلة وهو يقول :

— ما أوسع أحلام الكتاب ..

وحمل عثمان المجلة وراح يغغم :

— ويل للذين يصلون من الذين لا يصلون ..

وخرج عثمان إلى مكتبه ، وظل حلمي مطرقاً يجمع أطراف نفسه ، وقرأ الباشا الأسى المرتسم على وجه ابنه ، فقال له :

— ما الذى يشغل بالك يا حلمى ؟
وقال حلمى وهو يفرك يديه فى عصبية ، دون أن يرفع رأسه :
— أصبحت الحياة مع سميرة لا تطاق ..
فقال الباشا وهو ينظر إليه فى إشفاق :
— اصبر يا حلمى ..
— نفذ صبرى ولم أعد أحتمل الحياة معها ، سأطلقها ..
فقال الباشا فى فزع :

— أتطلقها الآن ؟ بعد أن اقترب تحقيق الأمل الذى عشت له سنوات ؟
أمنيتى فى الحياة أن أراك وزيرا وقد عملت لها طويلا ، فلما لاحت تباشير
النجاح تأتى لتقوض كل ما بنيته فى لحظة ١٢ الانتخابات على الأبواب ،
وسيعود الوفد إلى الحكم قريبا ، وقد ذهبت أنا ومحفوظ باشا إلى فؤاد باشا
سراج الدين وفاتحناه فى أمر تعيينك وزيرا ، فوعد الرجل بتعيينك فى أول تعديل
وزارى يجرى بعد تشكيل الوزارة ، أتظن أنك لو طلقت سميرة سيقف محفوظ
باشا مكتوف اليدين ؟ إنه سينقض الغزل الذى غزلناه معا . وسيكتم أنفاس
الأمل الذى أشتهيه بكل جوارحى ، لا يا حلمى لن تطلق سميرة ..

فقال حلمى فى ضيق :
— إننى أتلظى فى الجحيم ..
فقال الباشا وهو يدنو منه :

— احتمل يا حلمى وتجلد حتى تصبح وزيرا ثم طلقها بعد ذلك ، سميرة
لا تهمنى ، ولولا أننا فى حاجة إلى محفوظ باشا لوقع الطلاق من سنين ..
وصمت حلمى ، وسرح الباشا ببصره وراح يقول ليدخل الطمأنينة إلى
قلبه :

— إننا إذا عدنا هذه المرة إلى الحكم ، وسنعود قريبا ، فلن نقف للملك فى
التفاهات ، قال لى سراج الدين باشا إن رأيه ورأى رفعة الهائم أن يعمل الوفد

على أن يبقى في الحكم طويلا ، ولن يستطيع أن يحقق ذلك إلا بمهادنة الملك ، هذه سياسة حكيمة وقد أيدتها وباركتها وهنأت سراج الدين باشا على سداد رأيه ، وقد قال لي إنه لن يسمح بأى صدام بين الوفد والسراى ، ستطول مدة حكمنا ، وستصبح وزيرا ، أفلا يستحق ذلك منك بعض الصبر ؟! كل ما أبغيه هو مصلحتك أنت ..

كانت أعز أمانيه أن يصبح هو وزيرا ، ولكن ثقافته وقفت حجر عثرة في سبيل أطماعه التي لا تعرف حدودا ولا قيودا ، فراح يبذل كل جهد ليحقق في ابنه ما عجز أن يحققه في نفسه ، وقد أخذ من رفعة باشا ومن رفعة الهانم ومن سكرتير الوفد وعودا قاطعة بتعيين ابنه وزيرا ، ولن يدع هذه الفرصة تتسرب من بين يديه حتى لو قاسى ابنه في حياته الزوجية ما قاسى وتقلب على الجمر .. وتيقن حلمى أن أباه لن يلين قلبه لشكواه مهما جأر بالشكوى ، حتى يحقق أهدافه ، فما كان الباشا ممن يجزعون للضحايا الذين يسقطون تحت أقدامهم وهم منطلقون نحو غاياتهم ، فأثر أن يطوى نفسه على النار التي تسرى في أحشائه ..

وقام حلمى في تناقل وسار وهو ساهم حتى غادر المكتب ، وانطلق إلى السيارة الجيب الواقفة في الفناء الذى تطل عليه سراى الباشا وفيلات الضيافة ، وجلس خلف عجلة قيادتها وراح يدور بها حول الأرض الخضراء التي كانت تزهر بنضارتها ..

ودلف إلى القرية وترك السيارة وسار على قدميه وهو يحمل صندوقا من الورق لف بورف السلفان ، وبلغ بعض أطفال صغار ، حفاة الأقدام ، ممزق الثياب ، لوثت وجوههم بالتراب ، وعلا القشف أيديهم حتى كون طبقة خشنة كصدف الأسماك ، كانوا يلعبون ، فلما رأوه يدنو منهم وقفوا ينظرون إليه في ريبة ويتأهبون لإطلاق سيقانهم للريح إذا ما بدر منه بادرة عداء .. ومزق ورق السلفان خافق القلب وفتح الصندوق ، وراحت مشاعر رقيقة

تراق في جوفه ، وتحرك حنانه وهو يمد يده إلى الصندوق ويخرج منه المارون جلاسيه وقطع الشيكولاتة الصغيرة الفاخرة الملفوفة في ورق مفضض أحمر وأخضر وأزرق ، ويقدمها إلى الأولاد الذين كانوا يتناولون ما يقدمه إليهم في خوف وشك ..

وسكنت الطمأنينة أخيرا قلوب الأطفال فالتفوا حوله فرحين ، وهو سعيد بالعواطف النبيلة التي تحركت في أعماقه ومشاعر الأبوة التي وجدت نفسها لها ، وتذكر في هذه اللحظات الداخلة بأنبل ما في البشرية من إحساسات إيفا ووليد المجهول الذي يرجو بما يفعله أن يقيض الله له صاحب قلب رحيم يعوضه الحنان الذي فقده قبل أن يخرج إلى النور ..

ونفذ ما في الصندوق ، وحف الأولاد إلى أهلهم فرحين بما يحملون وهو يرقب سرورهم مغتبطا ، وقد هامت روحه في فوف من النشوة والراحة والرضا ، فقد أثلج صدره أن أدخل البهجة على قلوب المحرومين .. وأسرع الأولاد بالشيكولاتة إلى دورهم ، وقدموا ذلك الذي أعطاهم إياه حلمي إلى ذويهم وهم يتصايحون ، وفتحت الأوراق المفضضة في حرص ، وذاتت طفلة المارون جلاسيه فعافته نفسها وبصقته اشتمرازا ، وتناول فلاح قطعة الشيكولاتة من ابنه وراح يقلبها في يده في مرارة ويفكر في حيرة فيما يفعله ليقسم هذه القطعة الصغيرة على كل من في الدار ، وأحس ضيقا ، كان في غنى عن الورطة التي وجد نفسه فيها لو لم يعط حلمي ابنه قطعة الشيكولاتة التي لم يحلموا بها يوما ، وقاض ضيقه فقال :

— ليت أعطانا ثمن هذه القطعة لنكمل ثمن كيلة الذرة ..

واجتمع الرجال في الليل يسخرون من ابن الباشا الذي لا يحس ما هم فيه من ضيق ، فراح يوزع على الأطفال الذين يتش بطونهم الجوع أفخر أنواع الشيكولاتة !

كانت بشينة جالسة في غرفة الاستقبال ترتدى روبا من الصوف الأزرق ، فوق ثيابها المنزلية ، وقد وضعت ساقا على ساق وضمت الروب إليها من البرد فبدت استدارة فخذها وامتلاؤه ، وكان في رجلها شبشب من قماش الروب زين بوردة كبيرة ، وظهر من ساقها جزء صغير ناصع البياض كان إغراؤه أشد فتنة من الصدور العارية ، وكانت عيناها الخضراوان تنفثان دفئا لذيذا ..

وجلس رفعت بالقرب منها ، كان الوقت النصف الثاني من شهر يناير ، وكانت الرياح الباردة تصفر في الخارج ، وكان يستشعر البرد القارص قبل أن يجلس إلى بشينة ، فلما جلس إليها وراح يحادثها راح الدفء يسرى في روحه ..

صارت أسعد ساعات حياته تلك التي يمضيها إلى جوارها ، يحادثها أو يصفى إلى حديثها ، وكان تطلعه إلى عينيها أو شعرها الأسود الفاحم أو لحمها الذي كان في لون الخوخ يصفى على نفسه سعادة غامرة ، كان في أول أمره يشتهيها كما يشتهي أية أنثى أخرى ، ولكن طول معاشرته لها جعلت روحه تألف روحها وتحبها وإن لم يفتر اشتهاؤه لها ..

إنه يحس أن فقدته إياها ، لو قدر له أن يفقدها سيحز في نفسه ، وسيترك روحه فارغة ، ويجعل حياته تافهة ، فحرص على ألا تبدر منه بادرة تغضبها ..

وسوست له نفسه أكثر من مرة أن يلف ذراعه حول خصرها ، وأن يضم صدرها الناهد إلى صدره المتلهف إليها ، وأن يضع شفتيه الظمآنيتين الملتهبتين على شفتيها ، ولم يصغ إلى الوسوسات المشتهاة ، لا تعففا منه ، بل خشية أن تغضب عليه غضبها على شعبان ، وتطرده من جنتها التي يحبها على الرغم من أنه لا يروى غلته منها ..

قص عليها معات النكات المكشوفة وهو يرجو أن تقرب صدره من

صدرها ، وقد هتكت تلك النكات كل حجاب بينه وبينها إلا غلالة رقيقة هفهافة لا تمزقها إلا يد تمتد إليها ، ويده ترتجف فرقا إذا دنت منها ، وبات أمله الوحيد أن تمتد إليها يدها هي أو تهب عاصفة هوجاء تعصف بالغلالة الواهنة التي صمدت للزمن ، وتحدث كل إغراء ..

ولم ييأس من غده ، فكان يحضر النكات التي سيلقيها على مسامعها قبل أن يذهب للقاءها ، كان كالحضر الذي يعد نقاط محاضراته في عناية قبل أن يواجه جمهوره ، وقد نمق قبل أن يأتي الليلة حديثه الذي سيخوضه ، واختار الشخصوس التي سيخوض في أعراضها .. قال ليفتح أبواب الحديث :

— أين ميمى ؟

— نام من البرد .

— وعبد الخالق بك ؟

— لم يعد بعد .

واعتدل في جلسته يتأهب للولوج في الموضوع الذي يريد أن يدور الحديث حوله ، قال :

— أظن أن عودة الوفد إلى الحكم ضايقته عبد الخالق بك .

فقالت وهي تبتسم استخفافا :

— والله لا أدري ما الذى يضايقه فى هذا ؟ الباشا يبطش به سواء أكان الوفد

فى الحكم أم كان فى خارجه .

— إنه يعتقد أن طغيان الباشا يزيد كلما كان حزبه فى الحكم .

— أكثر اعتقاداته أوهام .

ولم يكن همه فى كثير أو قليل ما يعتقد عبد الخالق ، إنه يريد أن يصل إلى

حديث السياسة ، قال :

— هل سمعت بما قاله رفعة الباشا للملك فى أول مقابلة بينهما بعد نجاح الوفد

فى الانتخابات ؟

فقلت وهى تبسم ، إذ فطنت إلى أنه يريد أن يسليها ، فما كانت السياسة
تهمه أصلا :
— أبدا

قال وهو يقلد رفعة الباشا :

— لى طلب واحد يا مولاي . فالتفت الملك مذعورا إلى سرى باشا الذى
أفهمه أن رفعة الباشا لا مطلب له هذه المرة إلا أن يرضى مولاه ثم عاد ينظر إلى
رئيس وزرائه وقد أوجس منه خيفة ، وإذا برفعة الباشا يقول : لا مطمع لى
إلا أن أقبل يد مولاي .

قالت بثينة فى إنكار :

— لا أصدق أن هذا حدث .

— وهل كان أحد يصدق أن يعود الوفد إلى الحكم بعدما كان بينه وبين
الملك بسبب ٤ فبراير ، وبعدما أطلق الرصاص على رفعة الباشا وأطلقت
المفرقات على بيته لنفسه ، وبعد أن اتهمت رفعة الهانم الملك بأنه هو المدبر لهذه
المحاولات ١٩

وصمت قليلا ثم قال :

— من عجيب المصادفات أن رفعة الباشا دائما على موعد مع فضائح الأسرة
المالكة ، فعندما كان فى الحكم سنة ١٩٤٣ ذاعت فضائح الملكة نازلى فى
فلسطين وراح الناس يتحدثون عن علاقاتها بضباط الحلفاء ومغامراتها فى فندق
الملك داود وسافر رفعة الباشا وعاد بالملكة نازلى وبالأشرطة السينائية التى
التقطت لها وهى تسكر وتعربد وترقص واليوم يعود رفعة الباشا للحكم ،
وفضائح الملكة فى أمريكا تزكم الأنوف .

فقلت بثينة وهى تضم الروب إليها وتغطى ساقها التى تعرت :

— ولكن الملكة فى أمريكا منذ أربع سنوات .

— ولم يتحدث الناس عن طيشها ونزواتها من قبل بمثل الصراحة والمرارة

التي يتحدثون بهما الآن ..

— وماذا كان الدافع لسفرها إلى أمريكا ؟

— إجراء عملية جراحية ، يقال إنها أخرجت حصوة من الكلى

قالت بشينة في دهش :

— ومن أين جاءت لها الحصوة ؟

فاستغل النكته التي كان الناس يتندرون بها في هذه المناسبة . قال :

— أصلها نامت مع طوب الأرض .

فضحكت وقالت :

— لسانك !

فقال وهو يضحك :

— هذا ليس لسانى ، هذا لسان الشعب .

وتفتحت نفسه ، كان خوضه في الأعراض هوايته ، وراح يقول :

— ويهمس الناس أن الملكة ستزوج الأميرتين فايقة وفتحية فؤاد صادق

ورياض غالى .

فقالت في إنكار .

— هذه إشاعات ، من غير المعقول أن تزوج فتحية رياض غالى .

— ما أيسر أن يعلن إسلامه .

— هل أفقرت البلاد من الرجال ولم يعد بها إلا رياض غالى هذا ؟

فقال وهو يتسم ابتسامة خبيثة :

— المسألة مسألة ظروف ، كان رياض غالى في حاشية الملكة والأميرتين ،

وكان شابا والملكة تعطف على الشبان ، وتطور عطفها على رياض غالى فأصبح

عشيقها ، وعزمت على أن تربطه بها فقررت أن تزوجه ابتها القاصر .

فقالت بشينة وهي تهز رأسها نفيا :

— هذا لا يمكن أن يصدق عقل .

- فقال وهو ينظر إليها نظرة جائعة :
- وما دخل العقل في هذا ؟ هذا شيء يطير العقل .
- لا يمكن أن أصدق أن أما تفعل هذا ..
- نازلى جديرة بأن تفعل أكثر من هذا ، إنها تتشبث بالحياة ، منذ نشأتها تحب .. تحب الحياة .
- وهل الملك يعرف هذا ؟
- وأكثر من هذا ، وقد طلب من حكومة الولايات المتحدة لإخراجها وإخراج أخيه من بلادها ، ولكنها رفضت أن تتدخل في حرية الناس .
- فقالت بثينة وهي تنظر إليه نظرة كلها إغراء :
- آه من لسانك !
- فإذا بصوت يهمس في أغواره : آه من عينيك ! وقال :
- لسانى فى هذه المسألة أرحم لسان .
- فقالت بثينة وهي تبسم :
- لماذا ؟
- فقال وهو يضيق عينيه :
- لأننى أشتى أن أثلى بما ابتليت به الملكة .
- فقالت فى دهش :
- أشتى أن تزوج بناتك القاصرات من ...
- ولم يدعها تتم حديثها وقال فى فزع :
- لا .. لا .. أشتى أن تناح لى الظروف التى تجعلنى أتشبث بالحياة تشبثها بها ، فأنا أحب ما تحبه . أحب الحياة .
- كان هذا آخر سهم فى جعبته أطلقه ليهتك الغلالة الرقيقة التى تحول بينه وبينها ، ولكن الغلالة ظلت مسدلة لم يثلمها حديثه ، فرفت على شفثيه ابتسامة باهتة ، وأسبل عينيه حتى لا ترى القلق الحائر فى مقلتيه .

ودخل عبد الخالق متجههم الوجه ، مقطب الجبين ، وألقى عليهما تحية فاترة ، ثم رمى الصحيفة التي كانت ملفوفة في يده على النضد الذي كان أمام رفعت وبثينة في ضيق ، واستأذن في أن يذهب إلى غرفته دقائق معدودة ثم انصرف .

وتناول رفعت الصحيفة وبسطها وراح يقلب صفحاتها ، ثم صاح :
— ألم أقل لك ، ها هو ذا المستشار الصحفي لديوان الملك يقص قصة اعتزام الملكة تزويج ابنتها من فؤاد صادق ورياض غالى ، كريم ثابت نفسه يكتب المأساة .

فقلت بثينة :

— هذه نكبة تزلزل العرش .

وأدنت رأسها من رأسه وراحا يقرآن النبأ في لهفة ، وملا عبيرها أنف رفعت فتعطلت كل قدرة على متابعة القراءة ، وتحركت عواطفه ، وفكر أكثر من مرة في أن يدير وجهه وأن يضع شفثيه على خدها ، ولكنه كان أجبن من أن يأتي مثل هذا العمل الذى قد تكون عاقبته وبالا عليه .

وعاد عبد الخالق وهو حزين وارتمى في مقعد قريب منهما وهو يزفر في صوت مسموع ، وفطنت بثينة إلى كربه ، فقالت له :

— ما بك ؟

فقال عبد الخالق في حنق :

— أكاد أنفجر .

فقامت بثينة إليه وقالت له في حنان :

— قل لى ماذا جرى ؟ ما الذى حدث ؟

فقال فى صوت محموم :

— أنعم على حلمى وعلى عثمان برتبة البكوية ، هان على الباشا أن يدفع لهما عشرة آلاف من الجنهات ، حلمى ابنه وعثمان ابن أخيه ، أما أنا فعدوه ، عدوه

الذى يتمنى موته والذى يحرض على قتله ! طلبت منه ألفين من الجنيات لأعاهد التجارة فى هذه الأيام التى كسب كل من فى السوق ، وكل الدخلاء على التجارة ، فثار وأرغى وأزبد وقال لى إننى أريد أن أخرب بيته . أن يدفع لى أنا ألفين من الجنيات خراب بيوت ، أما أن يدفع لحلمى وعثمان عشرة آلاف من الجنيات فى سبيل لقب فشئ بسيط لا يخرب البيوت .

إنه يكرهنى ، فلماذا يريد منى أن أحبه ؟ إنه يتلذذ بتعذيبى .. يسعده أن أتلقى من الحرمان ، ينشرح صدره لعذابى ، فلماذا يثور فى وجهى كلما رآنى ويقول : لى أتمنى موته ؟ إنه هو الذى جعلنى أتمنى زواله . ليت يموت وأستريح ، ليت يموت .

وساد المكان أسى ، وراى الحزن على قلب بثينة ، وفاضت شجونها حتى تفرقت لؤلؤتان فى عينها ، وضاق رفعت بالقلق المتأرجح فوق الرءوس وتمنى أن ينصرف وأن يفر بنفسه من هذا الجو البغيض ، ولكنه أرغم روحه على البقاء إرغاما حتى يبرهن على أصالته وأنه يشارك أصدقاءه فى الضراء كما شاركهم فى السراء ، وراح عبد الخالق يتمتم فى حلق :

— متى سيموت ١٩ متى سأقرأ نعيه فى الصحف ١٩

٤٥

وقف الباشا أمام المرأة يربط كرفاته فى عناية ، وجلست أمينة هانم ترقبه قائلة :

— لى أين الليلة ؟

فقال وهو حريص على إبراز أناقته دون أن يلتفت إليها :

— عندنا اجتماع فى الحزب .

فقالت دون أن تقصد شيئا :

— ما أكثر اجتماعات الحزب هذه الأيام ! الدنيا صيف وجئنا إلى الإسكندرية للراحة .

فقال الباشا في زهو :

— كيف نعرف الراحة ونحن نفاوض الإنجليز على الجلاء . ونحقق قضايا الأسلحة الفاسدة ، ونراقب الصحف الأجنبية التي لا هم لها إلا التشهير بالملك ..

فقالت له في سداجة :

— والله لا أفهم لماذا تنكر الملك باسم فؤاد باشا المصرى لما سافر إلى أوروبا ؟ العالم كله يعرف أنه الملك فاروق ، وقد نشرت كل الصحف ذلك ، وإذا تحدث عن الملايين التي يخسرها في القمار لا تقول خسر فؤاد باشا المصرى ، بل تقول الملك فاروق ، وإذا رقصت سامية جمال في دوفيل ، وإذا أحاطت به غانيات باريس وبائعات الهوى ، فالصحف العالمية تتحدث عن استهتار الملك فاروق لا عن استهتار فؤاد باشا المصرى ، فقيم كان تنكره ؟

فقال الباشا وهو يتسم :

— ما الذى حدثك عن كل هذه الأشياء ؟

فقالت أمينة هانم في زهو :

— حلمى بك .

فقال الباشا وفي عينيه بريق غبطة :

— أمنحه الملك رتبة البكوية لينضم إلى أبراق الدعاية التي تعمل ضده

وليشارك في حملة التشهير به ؟

فقالت أمينة هانم وهي تنهض :

— لا يمن علينا الرتبة ، فقد دفعنا ثمنها .

ودنت منه وقالت :

— هل سيتزوج الملك حقا من ناريمان صادق ؟

- وما الذى يمنع زواجه إياها ؟
- سمعت أنه قيل للملك إنها لا تصلح ملكة لمصر .
- الصحف كلها تقول إنه بهذا الزواج يتقرب من شعبه .
- فقالت وهى تتحاشى أن تنظر إليه :
- سمعت رأيا لا أحب أن أقوله حتى لا تغضب .
- فابتسم قائلا :
- قولى ولن أغضب .
- فقالت فى تردد :
- إنك لا تحب أن تسمع فى هذه الأيام قدحا فى الملك .
- قال وهو يرتدى الجاكيت :
- وماذا سمعت ؟ قولى .. فناقل الكفر ليس بكافر .
- ولن تغضب ؟
- ولن أغضب .
- لم يكن يهمها الملك ولا شأن لها بالسياسة ، فكل أمانيتها أن ترضى الباشا وألا تثير غضبه ، فلما وعدما بأنه لن يغضب ، اطمأنت وقالت :
- قيل أن الملك قد سرق من شعبه كل شىء إلا أزواجه ، وقد أراد بانتزاع ناريمان من زكى هاشم أن يتم له سلب كل شىء ، فقد سرق فيها كل أزواج الناس ..
- ونظر إليها فى دهش ، إنه يعرفها جيدا ، لا تستطيع أن تفكر هذا التفكير الذكى .
- وحسبت أنه غضب منها فارتجفت وقالت :
- كنت لا أحب أن أقول لك هذا ، ولكنك أكدت لى أنك لن تغضب .
- لماذا تظن أن هذا القول يغضبه ؟ إنه هو وزملاؤه يتندرون بتفاهات الملك ويسخرون من تصرفاته وتصرفات رجال حاشيته الذين أصبحت

واجباتهم إشباع شهواته ، فإذا كان لا يسمح بالشهير بالملك في بيته فإنه ينفذ سياسة حزبه التي بنيت على التغاضي عن كل ما يأتيه الملك من منكرات ، وحتى لا يتقل عنه أو عن أهل بيته ما قد يسيء إلى العلاقات الطيبة التي يرجى أن تسود بين الوفد والسراى ، واقترب منها وهو في طريقه نحو الباب وقال :

— من قال هذا ؟ حلمى ؟

وارتبكت ، ليتها لم تقل شيئا ، إنها لا تحب أن تسيء إلى ابنها ولكن لسانها خائنها ، وصمتت وأطرقت قليلا ثم قالت :

— ألم تقل لى إنك لن تغضب ؟

قال الباشا وهو يخرج :

— قولى لحلمى يمسك لسانه .

وغاب الباشا عن عينها ، وذهبت إلى المرأة ونظرت إلى صورتها في غيظ وقالت في ثورة :

— حمارة .. حمارة .. طول عمرك حمارة !

وانطلقت سيارة الباشا في طريق الكورنيش ، وراحت نسائم البحر تداعب وجهه فتعش روحه ، ووقفت السيارة أمام فيلا أنهار ، وهبط الباشا بعد أن أمر السائق أن يعود في الساعة الواحدة .

ودخل من الباب الذى يواجه الكورنيش ودار حول الفيلا ، وصعد في السلم الجانبى ودق الجرس المسحور ، ومر بعض الوقت وهرعت أنهار إليه وفتحت الباب في حرص وراحت ترحب بالباشا وتقوده إلى الغرفة الشرقية . ووقفت أمام الفيلا سيارة أجرة ، هبط منها عبد الخالق واتجه إلى الدرج الرخامى الكبير وصعد فيه ثم دق الجرس . وفتحت الباب الخادم التى ترتدى ثوبا أسود فوقه مريلة بيضاء ، وتغطي جزءا من رأسها قلنسوة بيضاء منسأة ، فلما رأته ابتسمت له في ترحيب وسارت أمامه تقوده إلى الطبقة الثانية وهو يتفرس في جمال تكوينها ، إنه رآها كثيرا ، ولكنه لا يعرف اسمها ، فقال لها :

— ما اسمك ؟

فقالَت وهي في طريقها دون أن تلتفت إليه :

— وفيقة .

ودخل غرفة الاستقبال ، وسرعان ما خفت إليه أنهار وقالت دون أن

تجلس :

— كوكتيل أنهار ؟

فقال وهو يتسم :

— ويسكى وزين العابدين .

فقالَت وهي تلوى شفتها :

— آسفة زين العابدين الليلة مع ضيف عزيز .

وأحست أنها جرحته فقالَت :

— إنه ليس أعز منك ، ولكنه جاء قبلك .

فقال وهو يهم بالانصراف :

— لا بأس . أعود ليلة أخرى ، غدا أو بعد غد .

فقالَت أنهار وهي تضع يدها على كتفه تمنعه من النهوض :

— والله لن تغادر بيتي وأنت غاضب أبدا . كل فتياتي تحت أمرك .

فقال في إصرار :

— أريد زين العابدين .

فقالَت في توسل :

— ألا تقبل عذري ! آتيك بكل الأخريات واختر منهن من تشاء ..

فقال وهو يرنو إليها في خبث :

— إذا كان ولا بد فهات وفيقة .

— وفيقة !؟

فهز رأسه أن نعم ، وقرأت الإصرار في عينيه فقالَت في استسلام :

— أمرك ..

ووضع الشراب أمامه ، ومر بعض الوقت ثم عادت أنهار ومعها وفيقة ، كانت ترتدى ثوبا من الحرير المشجر ، التصق بجسمها وأبرز مفاتها ، ونظر عبد الخالق إليها في إنكار وقال :

— لا . لا . أريدها كما كانت بثوبها الأسود ومريلتها البيضاء .

قال أنهار في استسلام :

— أمرك .

ولم تعترض ، علمتها السنون الطويلة التي قضتها في أقدم مهنة عرفها البشر أن تحترم نزوات الرواد وأن ترضى شذوذهم .

وغرقت الفيلا في الظلام ، كانت الشبايلك مغلقة ، والأسجاف مسدلة ، وقد اختفت النجوم من رقعة السماء ، وراحت أشباح تدخل من باب الفيلا في حذر متسترة بالليل ، وضرب حولها نطاق ، وصعد رجل في الدرج الرخامي ، وصعد آخر في الدرج الخلفي ، وتسلسل ثالث إلى الباب الجانبي ، ودقت الأجراس الثلاثة في وقت واحد ، وفتحت الأبواب وإذا برجال البوليس يتدفقون منها إلى الداخل .

وندت من قم فتاة صرخة ، ودب في المكان ذعر ، واقتحمت الأبواب فساد المهرج وارتسمت على الوجوه آيات الهلع والرعب ، وتجمست للرجال معالم الفضيحة فأطرقوا في خزي ، أما النسوة فكن يصرخن ويولولن وهن متهاككات ، فقد تمثلت لهن قسوة ما ينتظرهن من إجراءات ، وراحت أنهار تهدد الضابط الذي كان على رأس القوة التي داهمت الفيلا وتقسم له بأغلظ الأيمان أنها ستخرب بيته ، وتنقله إلى أقاصي البلاد .

وحشر الرجال والنساء في البوكس حشرا ، وصعد الباشا صامتا دون أن ينبس بكلمة ، كان مطرقا كاد يتعطل تفكيره ، وصعد عبد الخالق وجلس أمام الباشا وقد كان ما هو فيه يشغله عن كل ما حوله .

(الحصاد)

واعتادت العيون على الظلام ، وتحركت السيارات وراح كل من في البوكس يدير عينيه في المكان ، والتقت عينا الباشا بعيني ابنه ، فانخلع قلبه وغاض لونه وامتقع حتى صار وجهه يحاكي وجوه الموتى ، واستشعر خزيا وغمرته أحاسيس قاتلة كلها ذل وهوان ، وأطرق وهو يشتهي أن تشق الأرض وتبتلعه ليفر من العار الذي يقاسيه .

كانت نظرات ابنه ذائخة بالهزة والسخرية والشماتة ، وكانت تلهب روحه بسياط حامية ، وتطعن كبرياءه طعنات مسمومة تزلزل كيانه ، وتغثال إنسانيته ، وتمرغه في أوحال الخسة والدناءة والفجور .
إنه يحس الساعة أنه يلغ في الدنس ولوغا وابنه ينظر إليه في زراية ، فتتقاصر إليه نفسه ويدب في وجدانه ذلك الضعف الذي يزيد في إحساسه بالضعفة والحقارة والهوان .

ونظر عبد الخالق إليه وأدام النظر ، فإذا بمشاعر الضيق التي كان يستشعرها تتبخر ، وإذا بلذة تنبت في أغواره سرعان ما تنمو حتى تملأ كل جنباته ، فهذه أول مرة يرى الباشا فيها وهو متخاذل لا يقوى على أن يرفع أمامه رأسه .
أين كبرياؤه ؟ أين غطرسته ؟ أين جبروته وقسوته ؟ أين اعتداده بنفسه وزهوه ؟ أين ذابت كل مقومات رجولته ! إنه تناثر .. ذهبت نفسه شعاعا .. استلت منه كرامته فصار أهون من أن يخيفه .

ونظر إلى زين العابدين الجالسة إلى جوار أبيه فامتعض ، لم تكن فتاته المفضلة وحده ، بل كانت فتاة أبيه ، كان وأبوه يشتركان في فتاة واحدة ، وبدأت السعادة التي يحسها تفيض ، وتحركت آدميته فراح يمسح بيده المشاهد البشعة التي راحت تتتابع في ذهنه ويقشع بدنه ويتلوى من الألم .

ووقفت السيارة أمام القسم وهبط من كانوا فيها وساروا مطأطئي الرؤوس يجرون أرجلهم جرا ، ووقفوا أمام الضابط المختص ، وزاحت أنهار ترغى وتزبد ، وتهدد وتتوعد ، وصاح الضابط في وجهها صيحة غاضبة

فانكمشت ، وأخذت تنظر إلى الباشا تلمس عونه ، فأرخى الباشا جفنيه وظل ساكنا .

وفتح الضابط دفتر الأحوال ، وراح يكتب فيه ، ثم رفع رأسه وأشار لعبد الخالق أن يقترب ، ودنا عبد الخالق من الحاجز الخشبي الذى يفصل بين الضابط وبين القاعة التى غصت بالرجال والنسوة وعساكر البوليس .
وقال الضابط :

— اسمك ؟

فقال عبد الخالق فى صوت خافت :
— عبد الخالق .

— واسم أبيك ؟

— سليم باشا شلبى .

والتفت إلى الباشا وقال فى قسوة :

— أقدم لك سعادة سليم باشا شلبى . أبنى .

ووقف القلم فى يد الضابط ، وتعلقت عيناه بوجه الباشا ، وراحت أنهار تنقل عينيها بين الباشا وابنه وهى فى حيرة ، ونظرت الفتيات إلى الرجلين فى ذهول وقد فغرت أفواههن من الدهشة .

وراح الباشا يجمع أطراف شجاعته التى تفرقت أباديد ، وقال للضابط وهو يشير إلى التليفون :

— تسمح ؟

ولم تتحرك شفتا الضابط ، ومد الباشا يده وتناول التليفون ووضع على الحاجز الخشبي وراح يدير قرصه ، وقال :

— ألو .. منزل معالى وزير الداخلية ؟!.. قل لمعالى الوزير سليم باشا شلبى يريد أن يتحدث الآن فى أمر هام .

عثمان جالس في مكتبة بالإسكندرية ، إنه دائم الاتصال بالمحليج والبورصة ، فالمضاربات على شراء القطن تشتد بعد أن قدر أن السوق في حاجة إلى أربعة ملايين ونصف مليون من القناطير من القطن الأشموني بينا إنتاج الأشموني في تلك السنة كان أربعة ملايين وحسب .

كان يستفسر عما يبيعه على يحيى وفرغلى وربير خورى ليوغسلافيا ويبلغ الأنباء للباشا ، وكان يصفى إلى محدثيه سرورا ، ولم يكن مصدر سروره ارتفاع أسعار القطن ، بل تلك النشوة التي يحسها كلما سمع محدثه يقول له : سعادتك ، فقد أصبح بعد أن أنعم عليه برتبة البكوية يستشعر زهوا لذيذا لدغدغة تفخيم الناس له كلما حادثوه ..

وصار يكثر من دق الجرس للفراش ، ليدخل عليه ويقول له : أى خدمة أؤديها لسعادتك .. أمر سعادتك .. ماذا تريد سعادتك ؟ إنه يستشعر أنه أصبح شيئا له خطره بعد تلك البراءة التي تشهد أنه من حملة الألقاب ومن الصفوة ..

قال له مرة أحد شائتيه : إن الألقاب قد وزعت بغير حساب حتى لم يعد في مصر من الأفندية إلا عمر أفندى ويوسف أفندى ، ولم تغضبه هذه السخرية بل زادته زهوا ، فقد سره أنه أصبح من المحسودين .. ودخل الفراش عليه وقال له :

— بعض الصحفيين يطلبون مقابلة سعادتك ..

وانبسطت أساريه وغمرته نشوة ، أصبح قبلة الصحافة بعد أن أنعم عليه باللقب ، جاءوا إليه يسألونه في مشاكل اليوم ، ستظهر صورته في الصحف ويسجل رأيه ، أصبح من المفكرين وأصحاب رأى فى البلد ، وفرك يديه

سرورا وقال :

— قل لهم : تفضلوا ..

وخرج الفراش ، ومد عثمان بك يده إلى كرافاته يصلحها ، ورفع طربوشه
ومرر يده على شعره ، ثم أعاد وضع طربوشه على رأسه في عناية ، ودخل ثلاثة
شبان ، على شفاههم بسمة وفي عيونهم خبت ، وخف عثمان بك إليهم وراح
يصافحهم في حرارة ويقول لهم في ترحيب :

— أهلا وسهلا .. تفضلوا ..

وجلسوا في المقاعد القريبة من مكتبه ، وذهب إلى مقعده ، وقبل أن يجلس
فيه قال :

— قهوة ؟ كوكاكولا ؟ ليمون ؟

والتفت الشبان بعضهم إلى بعض ، وقال الذى على عينيه نظارة وفي وجهه
حب الشباب :

— ليمون ..

ووافق الآخرين على طلبه ، وجلس عثمان ومال إلى الخلد ، قليلا ثم قال :

— خيرا ؟

وعاد الشبان يتبادلون النظر ، ثم قال الذى على عينيه نظارة وفي وجهه حب
الشباب :

— نريد أن نقابل الباشا ..

وغاضت البسمة التى كانت على شفتى عثمان ، لم يكن هو قبلتهم كما صور له
وهمه ، ولكنه ما يزال القنطرة التى يملكون عليها فى طريقهم إلى الباشا ، قال :

— أستطيع أن أعرف ماذا تريدون من الباشا ؟

فقال أحدهم :

— نريد أن نحدثه فى أمر خاص ..

وقال عثمان وهو يرقب البسمات الساخرة التى تتراقص على الشفاه :

— سر ؟

قال الثلاثة في نفس واحد :

— نعم سر ..

وبدا الاهتمام في وجه عثمان ، وقال :

— الباشا لا يخفى عني أسرارہ فأنا كاتم سرہ . قولوا ماذا تريدون من

الباشا ؟

وعاد التلفت ، وقال الذي على عينيه نظارة :

— نريد أن نتحدث معه عن حادث الأمس ..

والتفت عيناه بريق خبيث ، وانفجرت شفاته عن أسنانه الصفراء ، وراح
الآخراں يسلمطان على عثمان أنظارهما التي كانت تروى خبيثة نفسيهما ، وفطن
إلى النظرات الشريرة فحزر أن في الأمر فضيحة ، فقال في اهتمام :

— حادث الأمس ؟ لم يقع بالأمس أى حادث غير عادى ..

فقال الذي على عينيه نظارة في سخرية :

— قد يكون هذا الحادث مألوفاً في حياة الباشا ، ولكنه من الحوادث المثيرة

التي تهم الصحافة ..

وشرد بصره ، وقال وهو يرسم بسبابته وإبهامه خطين متوازيين في الهواء :

— تصور أثر هذا العنوان في الصحف : « شيخ من الشيوخ يضبط في بيت

للدعارة » ..

وقال آخر :

— العنوان الذي أفضله : « باشا وابنه في بيت سرى » ..

وقال الثالث وهو يحرك يده في الهواء نفيا :

— لا .. لا .. الباشا لا يستحق هذه الفضائح ..

وقال الذي على عينيه نظارة :

— هذا موضوع تدفع لنا الصحف فيه ثمتا طيبا .. وآه لو أعطيتاه صحف

المعارضة ..

ولم يكن كل ذلك التهديد والتلميح بهم عثمان ، إنه في شوق عظيم لمعرفة أسرار فضيحة الباشا ، فقال في دهاء :

— وما الذى تعرفونه عن فضيحة الأمس ؟

فقال قائل منهم :

— نعرفها بكل دقائقها ، نعرف أن الباشا كان في فيلا أنهار ..

قال عثمان في إنكار :

— وما وجه العجب أن يكون في فيلا أنهار ؟

— وجه العجب أنه كان مع فتاة في غرفة ، وأن ابنه كان مع فتاة أخرى في

الغرفة التى فوقها ..

فقال عثمان :

— هذا افتراء ، لأن حلمى بك في العزبة ، ولم يكن في الإسكندرية

أمس ..

فقال الذى على عينيه نظارة :

— الذى ضبط مع الباشا ابنه عبد الخالق ..

وأراد عثمان أن يترسلوا في حديثهم ليكشف كل جوانب الفضيحة

فقال :

— الباشا لم يضبط ، هذا كذب ، من ذا الذى ضبطه ؟

فقال الذى على عينيه نظارة في سخرية :

— لست أنا !

وقال آخر :

— ضبطه البوليس ، وحمله هو وابنه إلى القسم ، وقد اتصل الباشا بوزير

الداخلية ..

وانتشرت في نفس عثمان غبطة ، هتكت الغلالة التى كانت تستر سر علاقة

الباشا بأنهار ، وعرف حقيقة تلك الصلة القوية التي كانت تربط الباشا بجمعية الفتيات الصالحات ، ودوى اسم « جمعية الفتيات الصالحات » في أغواره دويا ساخرا ، وطافت بوجهه موجة من السرور على الرغم من التقطية المرتسمة على جبهته ، وقال :

— وماذا تريدون الآن ؟

— نريد أن نقابل الباشا ..

— لماذا ؟

فقال الذى على عينيه نظارة فى استخفاف :

— ليروى لنا تفاصيل مغامرته ، ليقص علينا مشاعره لما كان هو وابنه فى

البوكس معا !

وأراد عثمان أن يوغر صدور الشباب على الباشا بالتظاهر بالدفاع عنه ، حتى ينشروا الفضيحة ، إنه يريد أن يذل كبريائه ليستمر نفوذه الذى بدأ يحس أن حلمى يعمل على زعزعته ، فقال :

— هذه قحة ..

وتكهرب الجو ، وأنذر بهبوب العاصفة ، وإذا بقائل يقول فى لين :

— إنه يمزح .. أنت أعرف الناس بما تريد ..

وخطرت على باله فكرة أن يدخل على الباشا الآن يخبره خبر الشبان الثلاثة ، ويقول له ضمنا إنه عرف السر الذى حيره سنين طويلة ، سر الست أنهار التى أرسل إليها قبل نهاية رمضان زكاة الصيام ، ونهض وقال للشبان :

— سأرى رأى الباشا فى هذا الأمر ..

ودخل على الباشا ووقف عند رأسه والتقم أذنه وقال همسا :

— ثلاثة شبان فى مكتبى يقولون إنهم صحفيون وأنهم يريدون مقابلتكم

الآن ..

فقال الباشا وهو ينظر إليه بعينين مفتوحتين :

— لماذا ؟

وتظاهر عثمان بالارتباك وقال :

— يريدون أن يتحدثوا ..

وصمت قليلا ، وراحت السعادة تتشر في جوفه ، سر أن يجد الباشا في مأزق ، وكان يسعده أن تنكشف لعينه عيوب الناس ، وقال الباشا في حدة فقد فطن إلى ما جاءوا من أجله :

— ماذا يريدون ؟

— يريدون أن يأخذوا قرشين ثمن سكوتهم عن حادثة الأمس ..

أطرق الباشا قليلا ، وأسرع عثمان يسرد ما عرفه على مسامع الباشا حتى ينال منه ويعلمه أنه مطلع على نقط ضعفه ، قال :

— هددوا بالكتابة عن الست أنهار وجمعية الفتيات الصالحات وضبط أب وابنه في ماخور واحد ..

واريد وجه الباشا وانشرح صدر عثمان ، فهو ليس وحده الشرير ، بل الشر في كل البشر ، واستشعر لذة لما وجد الباشا ينكمش ويتلفت في حيرة كفار وقع في المصيدة ..

وقال الباشا في تحاذل :

— أعطهم شيئا واصرفهم ، إننى لا أحب أن أقابلهم ..

وخرج عثمان مرفوع الرأس ، وإن كان في قرارة نفسه يحسد الباشا على لياليه الجميلة التى يمضيها في أحضان الغواني الكاعبات ، وتمنى لو أن الفرصة تتاح له ليسعد بما سعد به الباشا ..

وعاد عثمان إلى مكتبه ، وتعلقت العيون به ، وظل صامتا برهة ليثير اهتمام الشبان ، وضاق الذى على عينيه نظارة بصمته ، فقال له :

— خيرا !

فقال عثمان وقد أسبل عينيه :

— الباشا لا يأبه بتهديداتكم بعد أن تدخل معالى وزير الداخلية وحفظ الموضوع ..

وتقلصت جباه الشبان ، ولاح الغضب فى عيونهم ، وسر عثمان عبثه بهم ، فالباشا لم يقل شيئا ، ولكنه ما كان ليدفع فى يسر ، وقال الذى على عينيه نظارة :

— إذا كان الباشا لا يريد أن .. أن يقابلنا فلا يلومن إلا نفسه ..

فقال عثمان وهو ينهض :

— لا داعى لهذا التهديد ، فإذا كان الباشا لا يريد أن يقابلكم ، فأنا على استعداد للتفاهم معكم ..

وأشار لذلك الذى على عينيه نظارة وقال :

— تعال ..

وقام الشاب وتبعه ، حتى إذا بلغا بابا جانبيا مد عثمان يده وفتح الباب وقال :

— تفضل ..

ودخل الشاب ودخل عثمان خلفه ، ثم اتجه عثمان إلى خزانة فتحها وأخرج منها ثلاثين جنيها وقدمها إلى الشاب وهو يقول :

— هذا لكم ..

فقال الشاب فى إنكار :

— ثلاثون جنيها فقط ثمن سكوتنا ١٢

فقال عثمان فى عزم :

— لن أدفع مليما واحدة فوق هذا المبلغ ..

فقال الشاب فى تحاذل :

— هات خمسة جنيهات أخرى ..

فقال عثمان فى عناد :

— لا ..

وقال الشاب في إصرار :

— والله لن أغادر هذا المكان قبل أن آخذ خمسة جنيهاً أخرى ..
وأطرق عثمان قليلاً ثم قال :

— سأدفع لك هذه الجنيهاً الخمسة من جيبي ، ولكن لا بأس ..
ومد يده إلى الخزانة وأخرج منها خمسة جنيهاً قدمها إلى الشاب .. ووقف
الشاب قليلاً ثم قال :

— أرجو أن تقول لزملائي إنك أعطيتني ثلاثين جنيهاً فقط ..
وابتسم عثمان مسروراً ، فكل الناس مثله لا أمانة عندهم ، وخرج الشاب
وعثمان خلفه ، وتعلقت عيون الشابين الآخرين بهما ، وقال عثمان :
— أعطيته ثلاثين جنيهاً ولو أن الباشا كان يصر على عدم دفع مليم واحد ..
ومد الشاب الذي على عينيه نظارة يده ، وصافح عثمان في حرارة وهو يقول
له :

— شكراً ..

وخف الشابان الآخران إليه يصافحانه ويتمتان بعبارات الشكر ، ثم
انصرفوا ..

ودخل عثمان على الباشا متلهللاً الأسارير ، وقال الباشا في لهفة :
— ماذا فعلت ؟

فقال عثمان وهو يتسم :

— أعطيتهم خمسين جنيهاً على ألا ينسوا بكلمة ..

وزفر الباشا في راحة ، وهمس في أغوار عثمان هامساً ضعيف يقول في
تأنيب : « يا لص » ، وسرعان ما تلاشى ذلك الصوت وغمرته السعادة التي
فاضت بين جوانبه ..

عادت بشينة إلى دارها قبل أن ينتهى موسم الصيف في الإسكندرية ، ضاقت
 بوحدها التي كانت تحسها في الغرفة المتواضعة التي كانت تمضى ليلاتها فيها هي
 وابنها بينا زوجها يقضى أغلب ليلاته في الخارج لا تدرى أين يذهب .. دعته
 إلهام مرات إلى فيلتها الأنيقة بسيدى بشر ، وسعدت بسهرات ممتعة ، ولعب
 ابنها مع ابنى خالته وملىء سرورا ، وكان بدر الدين كعادته لطيفا يبالغ في
 إكرامها كلما جاءا لزيارته ، وقد عرض عليهما أن يمكثا معهم حتى نهاية
 الصيف ، ولكنها ضاقت بذلك الكرم وفرت من الهوان الذى تستشعره كلما
 دخلت بيت أختها ..

التمست من عبد الخالق مرارا أن تقطع موسم الصيف المدلل وأن تعود إلى
 دارها ، ولكنه كان يرجوها أن تترىث لأنه يقوم ببعض اتصالات يرجو من
 ورائها أن تناح له فرصة العودة إلى تجارته وتعويض ما خسره في هذه الأيام التي
 انتعشت فيها تجارة القطن وارتفعت أرباحه .. كانت تحس في نبراته أنه
 يكذب ، فكانت تصبر على مضض ظنا منها أنه لا يلجأ إلى الكذب إلا ليوهم
 نفسه أن الفرص لا تزال أمامه ، وأنه سيعود سيرته الأولى لو واثاه بعض الحظ
 الذى جافاه سنين طوالا ، فكانت تمد له في حبل الأمل حتى لا يصطدم
 ويقوضه يأسه ..

وجاءها ذات صباح وقال لها : إنه قرر العودة إلى القاهرة ، وراج يجمع
 حوائجه ، فجعلت تتأهب للرحيل دون أن تسأله علة هذا التحول المفجأى ،
 فلعله أفاق من وهمه وثاب إلى رشده ، ولاحت له حقيقة أمره وتيقن أنه يجد في
 أثر سراب ، فما كان لمن أخفق وفي يده ماله ومال زوجه أن يشق طريقه نحو
 النجاح وهو بلا سند ولا مال ..

وتمددت في فراشها وأضاءت نور الأباجورة ، وتناولت مجلة تقرأ فيها ، فابنها في غرفته يلعب وعبد الخالق يغرق همومه في كأسه ، إنه يشرب وحده ، وأمسى لا عمل له في البيت إلا أن يشرب وأن يشرذ بذهنه الساعات دون أن يفتح فمه بكلمة ، فصارت تنفر من مجالسته وتهرب إلى كتاب أو مجلة ..

واندمجت في القراءة ، وأخذت تقلب صفحات المجلة ، وبلغت أخبار المجتمع فأخذت تقرأ الأخبار في شغف ، وبلغت خبرا ما إن قرأت بعض أسطر منه حتى خفق قلبها في شدة ، وكاد بصرها يزوغ ، فاعتدلت في فراشها وعكفت على قراءته مرهفة الحس ، وقد انتشرت في حناياها رهبة ، وراحت دماؤها تتدفق حارة إلى وجهها ، وتحرك حنقها واستشعرت جفافا في حلقها ، كان الخبر يروى قصة باشا من أعضاء الشيوخ ضبط هو وابنه البكر في بيت بدار للدعارة ، وكان الخبر مكتوبا بطريقة تكشف عن الباشا وابنه ، حتى إنها تيقنت بعد أن أتت على الخبر أنهما سليم باشا وعبد الخالق زوجها ..

وطعنت كبرياؤها ، واضطربت نيران غضبها ، واشتعلت غيرتها ، وتدفقت في جوفها المرارة حتى غمرت كل وجدانها ، فقفزت من الفراش حانقة ، وانطلقت إلى حيث كان عبد الخالق وهي قابضة على المجلة في غضب ، وكل خلجة فيها ترتجف ثائرة ..

ولحها عبد الخالق وهي مقبلة عليه ، فوضع كأسه أمامه وأفتر ثغره عن بسمه ترحيب ، ونظر إليها وقرأ في عينيها الثورة المتأججة في صدرها ، وسرعان ما غاضت بسمته ، وجعل يتطلع إليها في قلق :
وقذفت إليه بالصحيفة وقالت في انفعال :

— اقرأ ..

وتناول الصحيفة وهو يرنو إليها في حيرة ، ومالت وأشارت بأصبعها إلى الخبر وقالت في حدة :

— اقرأ ..

وراح يقرأ ، وما لبث أن غاض لونه واضطرب نفسه وزاغت نظراته ،
وقبل أن يأتي على الخبر نحي المجلة جانباً وأطرق وقد لفه خزي وانكسار ، لم يجد
في نفسه قدرة على الإنكار فاستسلم ..
وصاحت بشينة فيه :

— هذا جزائي ؟ أهذه مكافأتي على تضحياتي ووقوفي إلى جانبك ؟
فقال عبد الخالق في ذل :

— هذا الرجل حطمني ، قضى على ..
فصاحت بشينة فيه :

— اسكت .. كفى أعذاراً ، كنت أخدع نفسي وأرغمها على أن تصدق
أوهامك ، وإن كنت في قرارة نفسي واثقة من أنك لا تصلح لشيء ، وأنت
تتلمس الأسباب لتنسب إلى غيرك إخفاك .. الباشا حطمني .. الباشا قضى
علي .. وأنت أهون من أن يحطمك أحد أو يقضى عليك أحد .. أنت فارغ ..
تافه .. خامل لا تحسن إلا أن تعيش لنفسك ولطيشك ولنزواتك ..
وقام وقد اكفهر وجهه وقال :

— كفى .. كفى أرجوك ..

وقالت في حدة وقد اتسعت عيناها من الغضب :

— أنت تخونني ؟ أنت الذي احتملت الهوان من أجله تمرغني في
الوحل ؟ والله لن تخمد لي نار حتى أمرغك أنت والباشا في الطين ، صدقت
كذبك ، شددت أزرع لما تخلى عنك أهلك ، أعطيتك أموالاً لما حجب الباشا
عنك أمواله ، فتحت قلبي فطعنته ، قابلت وفائي بالخيانة ، وباليثك خنتني مع
امرأة تستحق أن يضحى في سبيلها بالكرامة ، ولكنك خنتني مع امرأة تباع
نفسها لكل من يدفع لها الثمن .. أنت وأبوك في بيت واحد ! أنت وأبوك مع
امرأة واحدة ! يا للحقارة !

وراح يخفي وجهه بيديه ، ويزور عنها ، فقالت في قسوة :

— أتتألم ! أيجرح شعورك كلامي ؟! لو كنت تحس لما أقدمت على ما فعلته ، ولما تركتني وحدى الليالى لتعب من لذاتك ، ولما أنفقت مالى على بائعات الجسد ..

ونظر إليها فى توسل وقال :

— إننى أخطأت ، وأعدك أننى لن أعود إلى ذلك أبدا ..

فقال فى زراية :

— أظن أننى أصدق أنك نادم ! هيهات أن تعود الثقة بعد أن تتزعزع ، لقد تلقيت درسا مريرا على يديك ویدی الباشا ولن يمر ذلك الدرس بسلام ، الباشا يقول من يزرع يحصد ، وقد زرعتما الحنظل فى نفسى ، ولا أحسب أن من يزرع الحنظل ينتظر جنى الورد ..

وحسب أن ثورتها بدأت تخبو ، فاقترب منها ، وهم بأن يضع ذراعه على كتفها ، فدفعت ذراعيه بعيدا عنها كأنما تدفع أفعى تريد أن تلتف حول عنقها ، وقالت فى غضب :

— إياك أن تمسنى أو يدور بخلدك أنك قادر على أن تمسح من صدرى إساءتك بريائك ، انتهى كل خير بيننا ، لقد سقطت من عينى وبت أكره نفسى لأننى وثقت فيك يوما ، كنت أحسبك طرازا آخر تختلف عن أهلك ، فإذا به قد غرس فيك الخسة التى تزخر بها نفسه .. أنت ابنه لم يورثك إلا أسوأ ما فيه ، كرهته لأنه اضطهدك ، ولأنه قسا عليك ، وإذا بك قاس مثله لا تحب إلا نفسك ..

وقال فى استخذاء :

— بشينة !

— كفى نفاقا ، خدعتنى طويلا ولكننى لن أخدعك ، حبي اقتلعت من جذوره ، أغلقت قلبى دونك ، لم تعد شيئا ..

فقال فى توسل :

— بثينة ، إلى آسف وإني أعذر ثورتك ، أعلم أنني جرحتك ، فاغفري لي
وساعديني على أن أضمد جرحك ..
فقلت في إصرار :

— جرحي قد تقبح وهيات أن يبرأ ، نفسي قد فسدت بعد أن كفرت بكل
القيم ، أنت الذي زعزعت إيماني ، أنت الذي استللت من بين جنبي كل نبيل ،
أنت الذي قضيت على ، إنني انتهيت .. انتهيت ..
فقال في ذلة :

— بثينة ! إنني تائب فاقبلي توبتي ..
واشتدت نيران ثورتها التي كادت تتمد اشتعالا ، فقلت وهي تشيح
بوجهها عنه كأنما تتحاشى أن تقع عيناها على شيء بغيض :
— اذهب بعيدا عنى لا أريد أن أراك .. لا أريد أن أراك .
فقال في استسلام وإن كانت مشاعر الأسمى تنعكس على وجهه :
— ذاهب .. إنني ذاهب حتى تهدأ نفسك .
فقلت في نحيب :

— لن تهدأ نفسي أبدا ، ولن أغفر لك ما حييت .
وانسل من الغرفة وهو مطرق ، وغادر البيت وهو حزين ، وارتمت بثينة في
مقعد قريب والحنق يأكل صدرها ، والغضب يستبد بها ، وأفكار سود تنثال
على رأسها ، ورغبة في البكاء تخنقها ، ولكن عينيها عصيتا أن تجودا بالدموع .
ومر الوقت وحزنها يتضخم ، وغضبها يربو ، وحنقها يزيد ، فقد كانت
الرؤى البشعة التي تتخايل لعينيها تغذى الثورة المتأججة بين الضلوع .
ودخلت الخادم عليها وقالت :

— رفعت بك في الصالون .
وقامت وهي ساهمة ، وانطلقت إلى الصالون بأسرة الوجه ، في صدرها
حزن ثقيل ، ومدت يدها إلى رفعت تصافحه وشفتها مزمومتان ، وعيناها

ذابلتان ، وروحها غارقة في الظلام ، ونظر إليها رفعت في إنكار وقال :

— ما بك الليلة ؟ مريضة ؟

قالت في صوت تخنقه العبرات :

— تصور ! عبد الخالق يخوننى .

وأجهشت بالبكاء ، وأخفت وجهها في صدره وتشبثت به ، فراح يمرر يده على شعرها في حنان ، أحس في تلك اللحظة أن الغشاء الرقيق الذى كان يفصل بينه وبينها قد تهتك ، وضمها إلى صدره وهو غارق في السرور ، ثم راح يمسح دموعها ، بشفتيه ، وطفق يعصرها عصرا وقلبه يخفق بالنشوة بين جنبيه .

٤٨

كان الباشا جالسا في مقعد وثير وقد التف بعباءة من الصوف ، ولف رأسه بمنشفة بيضاء فالبرد قارس ، وهو خارج من الحمام ، وتناول المصحف وراح يرتل بعض آيات القرآن في صوت مسموع ، ويهتز اهتزازا خفيفا. وهو يقرأ ، وأقبلت أمينة هانم تحمل صينية عليها إبريق الشاي وفنجانان ، وضعت الصينية على نضد قريب وراحت تصب الشاي وهي تصيخ سمعها إلى ترتيل الباشا وقد لاح في وجهها الرضاء والانشراح .

وقدمت إلى الباشا فنجاناه ، فأخذ يرشف منه رشفة ويستمر في القراءة ، وجعلت أمينة هانم تشرب الشاي وهي صامئة تخشى أن تحدث بشفتيها صوتا يعكر ذلك الصفاء الذى ينساب فيه صوت الباشا الزاخر بالورع والتقوى .

ووضع الباشا المصحف في حرص ، والتفت إلى زوجته وقال :

— سنحج هذه السنة ، أمرت عثمان أن يدفع الرسوم وأن يشتري لنا

حقيتين وخرجا وبشاكير الإحرام . (الحصاد)

فقالت الزوجة في انفعال :

— أبقاك الله لى . هذه الحجة هى التى سنكسبها من دنيانا ، اللهم أمتنا على الإسلام .

وصمت قليلا ثم قالت فى انشراح :

— سأحتاج إلى بعض ثياب بيضاء وإلى طرحة بيضاء .

— أعدى كل حاجاتك ولا تنسى الصور .

وقامت تحمل صينية الشاى وهى مغتبطة ، وتذكرت ابنها حلمى فقالت :

— سأقف بباب الكعبة وأدعو الله أن ينصف حلمى ويرزقه الذرية .

ونظرت إلى السماء وهى خارجة وقالت فى حرارة :

— اللهم بحق هذه الأيام المفترجة ارزق حلمى ابن أمينة المكسورة الخاطر

بزوجة صالحة تعطيه الولد .

ومس دعاؤها أذنى الباشا فشرذ يفكر فى ابنه الذى حرم الذرية ، كان يفكر فى الزواج بأخرى غير سميرة العاقر ، ولكنه هو الذى أشار عليه بإرجاء ذلك إلى ما بعد تعديل الوزارة وتعيينه وزيرا حتى لا يوغر صدر محفوظ باشا فيقف فى طريقه ، ويعارض تعيينه ، إنها أمنية حياته أن يصبح ابنه وزيرا ، ولكن ظروف الوزارة القاسية حالت دون التعديل الذى وعد به سكرتير الوفد ، شغلت بمفاوضة إنجلترا على جلاء قواتها من منطقة القناة ، ولم تثمر المفاوضات وأعلن رفعة الرئيس إلغاء معاهدة سنة ١٩٣٦ وأن الحكومة أعدت للأمر كل عدة . وقدمت إنجلترا وفرنسا والولايات المتحدة الأمريكية وتركيا مذكرة إلى الحكومة المصرية بإنشاء قيادة الشرق الأوسط ، ورفضت الوزارة هذه المذكرة ، وأقر البرلمان إلغاء المعاهدة والتشريعات المتصلة بها ، وصدق الملك على الإلغاء فوراً ، وما كان يدور بخلد الحكومة أن يصدق على الإلغاء بمثل هذه السرعة ، ولكنه فعل ليخرج الحكومة ، ويزيد العلاقات المتدهورة بينها وبين إنجلترا سوءا على سوء .

وأمرت الحكومة العمال الذين يعملون في المعسكرات البريطانية بعدم التعاون مع الأعداء ، فتركوا أعمالهم وهاجروا إلى القاهرة لتعينهم الحكومة في الوزارات والمصالح ، وقطع التموين عن القوات البريطانية ، وألفت فرق من الفدائيين من الشبان الجامعيين ، ومن الإخوان المسلمين .

ودمر البريطانيون « كفر عبده » وأمروا بالأمس قوة بلوك النظام المصرية بالانسحاب من دار المحافظة بالإسماعيلية لأن وجودها يهددهم ، وأمر وزير الداخلية هذه القوة بأن تقاوم حتى آخر رجل وألا تستسلم أبدا ، وأطلق الإنجليز مدافعهم عليها وقتلوا ثمانين جنديا منهم .

إن الحوادث يأخذ بعضها برقاب بعض ، ولم تلتقط الحكومة أنفاسها يوما ، وإنه ليخشى أن تطيح هذه الحوادث بالوزارة قبل أن يعين ابنه وزيرا ، فيكون قد عذب ابنه وجعله يتقلب على نيران الحرمان دون أن يكون لذلك العذاب ثمرة تبرر احتماله .

لقد بلغه في هذا الصباح أن قوات بلوك النظام الموجودة بالقاهرة تجمهرت وسارت إلى جامعة فؤاد الأول ، وأن الطلاب خطبوا في جموع الشائرين منددين بمذبحة أمس ، ذاكرين أن وظيفة البوليس حفظ الأمن لا مقاومة الجيوش المسلحة ، وأن الطلبة وقوات بلوك النظام في طريقها إلى مجلس الوزراء للاحتجاج على تصرف وزير الداخلية .

إنه يعلم أن وزير الداخلية في شغل هذا الصباح بأمر خاص ، إنه يشتري لنفسه عمارة من عريضة ، ويحسب أنه لم يسمع بهذا الذي حدث في الجامعة ، وفكر في أن يقوم ليتصل به ويخبره بهذه الفعال التي يخشى مغبتها ، ولكنه سخر من ذلك الخاطر الذي راوده . فلا بد أن موظفي وزارته قد اتصلوا به وأنه يعمل الآن على إطفاء هذه الفتنة .

وعاد الباشا إلى تناول المصحف ، وراح يقرأ فيه والوقت يمر والأحداث تتلاحق سزاعا ، ودخل عليه حلمي مكفهر الوجه في عينيه هلع وقال :
— القاهرة تحترق .

فوضع الباشا المصحف وقال في فزع :

— كيف هذا ؟

قال حلمى وهو يلتقط أنفاسه :

— حرق الغوغاء كازينو أوبرا وشيكوريل وشبرد وكل دور السينما ، النيران مندلعة فى كل مكان .

قال الباشا فى حدة :

— وأين البوليس :

قال حلمى فى يأس :

— البوليس لا يحرك ساكنا ، رأيت عسكرى البوليس يغدو ويروح فى اطمئنان وكازينو أوبرا يحترق ، كأنما الأمر لا يعنيه .

فقال الباشا فى حلق :

— انتهز الشيوعيون الأوغاد فرصة اضطراب النظام وراحوا يخربون ، إنهم يريدون إذاعة الفساد حتى ينقضوا .

فقال حلمى فى مرارة :

— ما أكثر طوائف المخربين الذين يشتركون فى حريق القاهرة ، الإخوان المسلمون يحطمون الحانات ويريقون الخمر ويشعلون فى البارات النيران ، وشبان مصر الفتاة يشتركون معهم فى إحراق الملامى ودور اللهو ، والشيوعيون يؤججون نيران الفوضى ، والذين لا خلاق لهم ينتهزون هذه الفرصة ليسرقوا وينهبوا .

قال الباشا وهو يغدو ويروح فى قلق :

— هذه فوضى . هذا إجرام .

قال حلمى وهو يجلس :

— والغريب أنها فوضى منظمة ، سيارات تأتى محملة بالبنزين وتترك للمخربين حملتها ثم تعود أدراجها لتجلب وقودا جديدا .

قال الباشا وهو يزفر في ضيق :

— هذه كارثة ، أين فؤاد باشا ؟ لماذا يسكت على هذه الفوضى ؟ لماذا

لا يأمر البوليس بالقبض على العابثين ؟!

قال حلمى وهو يرقب أباه الذى يغدو ويروح ثائرا :

— رجال البوليس حاقدون عليه لأوامره التى أصدرها بالأمس ، ولن

يطيعوا له أمرا ، لقد أفلت زمام الأمر من يده .

وصمت قليلا ثم قال :

— أمر خطير . المحرضون على هذه الفوضى ينفثون المرارة في نفوس

الدهماء . ويحرضونهم على كل راكب سيارة ، إنهم يعترضون طريق السيارات

ويحطمونها ، ولا يترددون في اشعال النيران فيها ، لقد ألقوا على الحجارة .

فقال الباشا في غضب :

— هذه أعمال الشيوعيين . لا يمكن السكوت على هذا ، إذا كان البوليس

قد تمرد فأين الجيش ؟

قال حلمى وهو يطرق برأسه ويعبث في يديه :

— كبار ضباط الجيش في القصر الآن يحتفلون بمولد ولى العهد .

قال الباشا وهو يصيح في ابنه كأنما هو المألوم على الذى يقع :

— أولم يسمع الملك بهذه الأحداث ؟!

— لا شك أنه قد سمع بها وأثلج لها صدره .

قال الباشا في دهش :

— أثلج لها صدره ؟! هل يرضى عن إحراق القاهرة ؟!

— ما دام في هذه النكبة التدليل على ضعف الحكومة ، إنها فرصته التى

يتحينها .

قال الباشا في غضب :

— هذا إجرام .. هذا إجرام ، أين فؤاد باشا ؟ أين فؤاد باشا ؟

واتجه إلى التليفون وأدار القرص دورات ووجد الرقم الذى يطلبه مشغولا ،
فألقي بالسماعة فى ضيق ، وظل فى غدو ورواح وهو قلق .

وعاد إلى التليفون يدير قرصه ، وقال فى لهفة :

— ألو .. فؤاد باشا موجود ؟ .. ذهب إلى السراى ؟ .. متشكر .

وألقى بسماعة التليفون وقال لابنه :

— ذهب فؤاد باشا إلى السراى يطلب الاستعانة بالجيش لإعادة النظام .
قال حلمى فى يأس :

— انتهينا .

وضاقت نبرات صوته الباشا ، فقال فى غضب :

— ماذا تقول ؟!

فرفع حلمى رأسه وقال فى مرارة :

— أقول انتهينا ، لقد أقررنا بعجزنا عن حفظ النظام لما طلبنا الاستعانة

بالجيش ، ولا أحسب أن الملك سيدع هذه الفرصة تمر بسلام .

فقال الباشا فى حدة :

— وماذا سيفعل ؟

قال حلمى وهو يهز رأسه أسفا :

— ما فعله مع كل وزارة وفدية .

— أتظن أنه سيقبل الوزارة ؟

— إننى لا أظن ، أنا واثق أنه سيقبلها .

وتدفقت الدماء الحارة إلى رأس الباشا ، حتى إنه لم يعد يطبق المنشفة الملفوفة

حول رأسه ، فجذبها فى غيظ وهو حائق ، كان يضايقه أنه ضحى بابنه على
مذبح مطامعه دون جدوى .

الساعة السادسة مساءً ، والظلام يلف كل شيء ، والسحب تحجب نجوم السماء ، والبرد قارس ، وبثينة واقفة خلف زجاج النافذة ترقب الطريق ، فقد تأخر ابنها عن العودة من المدرسة ، طلب منها في الصباح القسط الثاني من المصاريف وقد وعدته بأن تدفع له غداً ، فقبل على مضض ، وقال لها إنه سيتأخر اليوم في العودة لأنه سيشاهد مباراة الكرة التي ستجربى بين مدرسته ومدرسة أخرى ، وإن مباراة الكرة في مثل هذا الفصل من الشتاء تنتهى قبل الخامسة ، فما الذى أخره حتى الساعة ؟

كان يقلقها غيابه عن البيت وكان يضايقها أن يترك دروسه وينهمك في اللعب ، وكانت تشفق عليه إذا سهر ليؤدى واجباته ، ويا طالما معاونته على إنجاز ما يكلف به ليطمئن قلبها إلى أنه قد دخل فراشه وهو قرير العين .
إنها تحبه بكل جارحة من جوارحها ، وترجو أن يصبح شيئاً . وقد رآته أكثر من مرة كبدن الدين زوج أختها يشق طريقه بعرق جبينه ، إنها كانت تعارض في زواج أختها ببدن الدين وكانت غاية أمانها أن تزف للحلمى ، فما بالها إذا ما فكرت في مستقبل ابنها لم تتمن له أن يشب كعمه أو أبيه ؟ لأنها تحب ابنها حباً آخر يختلف عن حبها لأختها ، لأنها تريد لابنها حياة كريمة ، بينما كانت تريد لأختها حياة ناعمة كلها ترف وسعادة .

وأطرقت تفكر في حقيقة شعورها لما كانت تجاهد لتزويج إلهام بحلمى ، أكانت حقاً تستهدف مصلحة أختها أم كانت تعمل لمصلحة نفسها ؟ إنها تحس الساعة أنها كانت أنانية وأنها كانت تريد أن تصبح ثروة الباشا كلها في قبضة يدها هي لأنها الأخت الكبرى ، ولأن إلهام ستطيعها وتنفذ كل ما تشير به عليها .

وضايقتها لحظة القوة التي عاشتها فاعترفت فيها لنفسها بأنانيتها ، فسرعان ما هاجمت هذه الحقيقة وأخذت تقنع نفسها أن زواج إلهام بحلمى كان أفضل لها من زواجها ببدر الدين ، فحلمى سيرث يوما خمسين ألف فدان ولن يستطيع بدر الدين أن يجمع مثل هذه الثروة مهما كافح في الحياة ..

وقبل أن تطمئن إلى دفاعها عن نفسها وسوس في جوفها صوت عقلها :
أتحب أن يكون ابنها كعمه ينتظر موت أبيه ليرث ثروته ، أم كبدر الدين يعتمد على نفسه في بناء مستقبله ؟ ولم تتردد لحظة ، فضلت أن يكون ابنها من طراز زوج أختها ، وبررت لنفسها ذلك بأن ما يسعد الرجل يختلف عما يسعد الأنثى ، فالرجل يزداد رضا كلما عظمت أهميته وشعر بنفعه ، والمرأة تزداد سعادتها كلما كثر المال الذى تنفقه ، إنها تفضل أن تكون زوجة عبد الخالق بعد أن يموت أبوه ويرث ثروته على أن تكون زوجة بدر الدين يهجرها من أجل عمله أشهراً طويلة ..

وقفزت إلى ذهنها مشكلة مصاريف ابنها ، وتذكرت أنها ذهبت يوماً لأمينة هانم على مضض ، وأخبرتها أنها في حاجة إلى مصاريف ميمى ، وأن ما يغله البيت الذى ورثته عن أهلها والثلاثين جنيها التى يبعث بها الباشا إليهم فى أول كل شهر لا تكاد تكفى معيشتهم ، كانت تطمع فى أن تقول لها إن الباشا سيتكفل بمصاريف حفيده ، ولكنها اعتذرت بضيق ذات يدها وبأنها لا تستطيع أن تفتح الباشا فى هذا الأمر ، وانصرفت من عندها غاضبة وقد وُطنت النفس على ألا تعود إليها أبداً ولو ماتت جوعاً ، وزاد فى حنقها أنها علمت أن أمينة هانم بعثت فى نفس اليوم إلى فقراء الحسين أضعاف المبلغ الذى طلبته لسداد مصاريف ابنها ..

ودفع حلمى القسط الأول ، إنها لم تفتح له فى هذا الأمر ولم يذكر له عبد الخالق عنه شيئاً ، جاء بعد يومين من ذهابها إلى أمه ، ووضع فى يدها المبلغ ، وقال تلميحاً أن يظل ذلك سرا ، إن أمر أمينة هانم يحيرها ، فهى واثقة من أنها

تمقتها كل المقت ولا تحب لها الخير ، فإذا لم تكن هي التي دفعت ابنها لسداد مصاريق ميمى فمن ذا الذى أخبره ، ولماذا لمح حلمى بضرورة أن يظل الأمر سرا ؟ أئخشى أن يغضب هذا الدفع أمه أم الباشا ، أم يغضبا معا ؟ لا بد أنه فهم من حديث عارض لأمه حاجة أخيه إلى مصاريق المدرسة فجاء من تلقاء نفسه يقدم عونه ، واستراحت إلى هذا التعليل ، فقد كانت تستريح لكل تعليل يسلب أمينة هانم كل فضل أو معروف ..

وغادرت النافذة وانطلقت إلى حيث عبد الخالق فألفته ارتدى ثيابه وتأهب للخروج ، وقد مال يشرب كأسا يطفئ بها ظمأه الدائم ، فما كان يحتمل أن تمر ساعات دون أن يشرب ، وكان يفزع أن يفيق من الخمر التي تغفو تحت تأثيرها أحاسيسه وتحمد آلام نفسه التي يجبن عن مواجهتها ..

ونظرت إلى وجهه المحتقن بالدم وقالت :

— ألا تكف عن الشراب قليلا ؟ ألا ترحم نفسك ؟

فقال وهو يلقي بما فى الكأس فى جوفه :

— لولا أنتى أرحمها ما شربت كل هذا الذى أشربه ..

فقلت فى ضيق :

— إنك تنتحر ..

فقال فى فزع :

— بعد الشر ، إننى أشرب عصير الحياة ..

ودارت على عقبيها لتغادر المكان ، وتعود إلى النافذة ترقب أوبة ابنها الذى غاب ، والذى لم يحس أبوه غيابه ، وإذا بصوت عبد الخالق يمس أذنيها :

— بوسى .. بوسى ..

والتفتت وهى تظن أنه يناديها وهو يدللها ، وإذا به قد زم شفثيه ومدما ليتلقى قبلاها ، فابتسمت ابتسامة خفيفة وانطلقت إلى النافذة ترقب الطريق .. وغادر عبد الخالق الدار .. وانساب فى الشارع ، ولحنته زوجته

فجعلت تلاحقه بعينها وهي شاردة تفكر ، إنها تعلم أنه ذاهب إلى مرسى يقضى ليلته مع كأسه وفتاة من الفتيات اللاتي يغص بهن البيت ، فلم تغضب ولم تتحرك غيرتها ، فقد انزلت إلى نفس الهاوية وتردت فيها ..

كانت في حاجة إلى عطف وحنان ، وكانت ثائرة لا تجد من تفضي إليه بمناعبها ، فما إن دخل عليها رفعت حتى راحت تمرغ وجهها في صدره وتقص عليه أشجانها ، وغمرها بحنانه حتى نسيت نفسها واستسلمت لرقته ، فلما أفاقت لنفسها وجدت أنها قد زلت ..

وثار على ضعفها واحتقرت الهوان الذي لطخها ، ووطنت النفس على ألا تعود إلى الدناءة التي قارفتها ، ولكنها ما أن ترى رفعت وما أن يدعوها إلى ما تخشاه حتى تنقاد مسلوكة الإرادة ، إنها أضعف من أن تصده ، في داخلها امرأة أخرى تشتبه ولا تعصى له رغبة ، وإنها لتمقت تلك المرأة وتتمنى مخلص أن تتخلص من سيطرتها عليها ..

إنها اجتازت ذلك الحاجز الذي يفصل بينها وبين السقوط ، وهي الآن تهوى ، وما كان لمن تهوى أن تتحكم في سقوطها ، ستصل إلى الحضيض ، إلى الوحل الذي تمرغت فيه كل من سمحت لرجلها أن تزل ..

وتملكها رعب ، وهمس في أعماقها هامس يوسوس لها أنها ستصبح ذات يوم كرحمة زوجة مرسى التي طالما سخر منها رفعت ، ستنتقل من رجل إلى رجل بنفس السهولة التي تنتقل بها العملة من يد ليد ، وأفزعها ذلك الخاطر وراحت تنفيه في قوة ، إنها سقطت حقا ، وهذا مما تأسف له ، ولكنها لم تبذل في سقوطها ، إنه هو عبد الخالق الذي دفعها إلى أحضان رفعت ، فلولا أنه خانها وجرح كبرياءها ما هان عليها أن تفرط في نفسها .. إنها استسلمت في لحظة ضعف للحنان الذي كانت متعطشة إليه ، وما دار بخلدائها أبدا أن رفعت سيستغل ضعفها ..

ثار شرفها ، وهي تعلم أن العلاقة التي بينها وبين رفعت سيذيع خبرها

يوما ، إنها لا تخشى أن يصل ما كان بينها وبين رفعت إلى مسامع الباشا أو إلى عبد الخالق فلم يعد لهما وزن في حياتها ، كل ما تحشاه أن تؤثر هذه العلاقة في مستقبل ابنها ، أن تلوث شرفه ، أن تعكر صفو حياته ، وهي تفضل أن تموت على أن تكون سببا في الإساءة إلى من تفضله على روحها ..

وعزمت على أن تقطع كل علاقة بينها وبين رفعت ، أن تصده إذا جاءها ، أن تصم أذنيها عن وسوسات المرأة الشريرة الأخرى الكائنة في سريرتها ، إنها ما كانت تدري أن في أعماقها امرأة فاجرة ، تستجيب لنداء الشهوة دون أن تخجل أو تموت كمدا ..

ورأت سيارة فخمة تقف أمام الباب ، إنها سيارة إلهام ، وراحت تنظر في اهتمام وقد انقضت الأفكار التي كانت تراودها ، ورأت سائق السيارة يهبط مسرعا ويفتح الباب ، وهبط ابن إلهام ثم ابنتها ثم إلهام نفسها وقد تذررت في بالطوا من الفراء الفاخر ، فانتشرت بين جوانحها موجة خفيفة من الأسى ، وغادرت النافذة ، وراحت تتأهب لاستقبال أختها ..

وتعانقت الأختان ، ومالت بثينة على الصغيرين تقبلهما ، وقالت إلهام :
— أين محمد ؟

فقالت بثينة وهي تجلس :

— لم يعد بعد من المدرسة .. قال لي في الصباح إنه سيتأخر ، ولكنني ما كنت أظن أنه يتأخر إلى هذه الساعة ..

فقالت إلهام وهي تبتسم :

— لعله تعلم الشقاوة ..

فقالت بثينة وقد شردت ببصرها :

— أوه ، لا يزال صغيرا ، لم يبلغ العاشرة ..

فقالت إلهام في بساطة :

— ابن الوز عوام .. طالع لعمه ولأبيه ..

قالت بثينة لتجارى أختها :

— ولجده ..

فقالت إلهام وهى ترفع يدها لتبرأ مما تقول أختها :

— لا أعرف شيئا عن جده ..

وهمس فى جوف بثينة هامس يقول فى سخرية : « وأمه » ، فاربذ وجهها
ولاحظت إلهام التغير الذى طرأ على أختها ، فقالت لها :

— ماذا بك ؟

— يقلقنى غياب ميمى ..

— لماذا لا تتصلين بالمدرسة ؟

— وهل سنجد أحدا هناك ؟ ننتظر قليلا ..

وراحت الأختان تتجاذبان أطراف الحديث ، وابن إلهام وابنتها جالسان
صامتين ، فالذى يلعبان معه غائب عن البيت ، وسمع وقع أقدام صغيرة ،
والتفتت العيون إلى مصدر الصوت ، وصاح ابن إلهام فى فرح :

— ميمى جاء ..

وخف الصغيران إليه ، وذهب إلى أمه دون أن يحفل بهما ، وقالت له :

— لماذا تأخرت ؟

ولم يجب عن سؤالها ، بل قال فى ضيق :

— كنت سأطرد من المدرسة اليوم ، لأننى لم أدفع المصروفات ..

وتضاءلت بثينة وقالت :

— غدا صباحا أسلمها لك ..

فقال فى عناد :

— أريد أن أسلمها الآن ..

فقالت له أمه فى حدة :

— قلت لك غدا ..

فقال فى ثورة :

— قلت لى أمس ذلك ، لن أنام قبل أن أتسلم المصروفات ..

فقال لتسكته :

— حلمى بك سيعضرها الليلة ..

كانت تكذب ، وضايقها ذلك الكذب ، وفطن ابنها إلى أنها تكذب ،

فقال وهو يصرخ ويلوح بيديه :

— لا بد أن أتسلم المصروفات الآن ..

وضمته إلهام إلى صدرها وقالت :

— ستأتى معنا وتبيت عندنا وغدا صباحا أذهب معك إلى المدرسة ..

وسكت وهدأت نفسه ، فقد كان واثقا من أنها ستفى بما وعدت ، فما

وعدته بشيء إلا نفذته ، وانقبض صدر بثينة وقالت لابنها فى حدة :

— قلت لك عمك سيعض المصاريف الليلة ..

وقالت له إلهام :

— اذهب واستعد لتأتى معنا ..

وجرى محمد مسرورا ، وجرى خلفه ابن خالته وهما يتصايحان مسرورا ..

وفكرت بثينة فى أن تثنيه عن الذهاب مع خالته ، ولكنها تذكرت أنه

سيبكي وسيستمر فى البكاء حتى يتسلم المصروفات وما كان معها ما تدفعه

له ، فأثرت الصمت على مضض ..

وانصرفت إلهام وابناها ومحمد ، وقد راح الأولاد يستبقون إلى السيارة ،

وذهبت بثينة إلى النافذة تنظر فرأت أختها وهى تدخل السيارة الفخمة والسائق

يغلق الباب خلفها ، فتحركت فى صدرها غيرة أنكرتها ولكنها عجزت عن

وأدها ..

وعادت إلى غرفتها وتمددت فى فراشها وسرح خيالها ، إن رفعت عما قليل

سيحضر ليستصحبها إلى بيته الذى شهد دنسها ، وإنها لتنفّر من أن تستمر فى هذه

الحياة الشائنة التى ولجت أبوابها دون أن تفكر أو تتدبر ، فقد وجدت نفسها مدفوعة إليها تسير فيها وقد سلبت إرادتها قوة لا تستطيع لها دفعا ، وهى الآن مسيطرة على كل حواسها ، إنها فى كامل وعيها وهى تقرر راضية أنها ستقطع كل علاقة بينها وبين رفعت ، وستطلب منه أن ينسى ما كان بينه وبينها ، وألا يعود لزيارتها ..

واطمأنت إلى قرارها ، وراحت تغذيه بعزميتها ، ولكن ما أن جاءت الخادمة تقول لها أن رفعت فى غرفة الاستقبال حتى استيقظت المرأة الفاجرة الكامنة فى أغوارها ، وسلبتها كل إرادة واستبدت بها ، فقامت فى نشاط وراحت تصلح زيتنها منتشية ، ثم ذهبت إلى رفعت لتنطلق معه إلى بيته لتسكت صراخ الوحش الساكن فى جسدها ..

٥٠

كان حلمى فى سيارته فى طريقه إلى جاردن سيتى ، وكان يرقب السيارات والترام والغادين والرائحين بعينه ، أما فكره فقد كان يهيم بعيدا ، قرأ فى صحف الصباح أن الفرقة المساوية التى كانت تعمل بها أيضا عادت إلى القاهرة ، وأنها ابتداء من الليلة ستمارس عملها بالحلمية بالاس ، إنه مذقرأ ذلك النبأ وهو يعيش فى ذكرياته ، تداعبه آماله فينشرح صدره وتنشق فيه مشاعر زاخرة بالحنان والنشوة ، وما يلبث أن يتدسس اليأس إلى قلبه فيغيض تفاؤله ويغمر وجدانه الأسى ، وظل يترجح بين الرجاء واليأس والأمل والقنوط والفرح والحزن طوال يومه ، ينتظر المساء فى لهفة ، وها هو ذا الليل قد أقبل ولم يبق بينه وبين الذهاب إلى الحلمية بالاس غير ساعة ..

لم تبرح أيضا خياله لحظة مذقرأ نبأ وصول فرقته إلى القاهرة ، رآها بعين خياله وهو يراقصها أول ليلة وقعت عليها عيناه ، ورآها وهى فى بيتها الذى

أجره لها ، ويا طالما رآها وهو يضمها إلى صدره في وله وحنان ، وسرى في ضميره صوته الذي لم ييارح أذنيه طول السنين التي تقضت مذ آخر ليلة رآها فيها حتى يومه هذا ، ورن صوتها واضحا في أذنيه تقول له إنها حامل وأنه سيصبح أبا ، كل خلجة فيه ترتجف حنانا لذلك النبأ ، نفسه تتفتح له ، الدموع تنشق من عينيه ، جنبات روحه تضاء بالأمل ..

وأنكر شعور الضيق الذي أحسه تلك الليلة لما أفضت إليه بالنبأ ، لو كان يدري لتشبث بها وما ترك سعادته التي يفقدها تنساب بين يديه ، ولما فر منها ، أين هي إيفا ، أين ابنها الذي تنصل منه ؟ أين فردوسه الذي هجره ليتلظى في جحيم الحرمان ؟

وراح يجرى وراء آماله .. فرأى نفسه ينساب في الحلمية بالاس ، ورأى إيفا أمامه ، إنها ترتدى نفس الثوب الذي كانت ترتديه أول ليلة رآها فيها ، إنها مشرقة الوجه كما كانت ، لم تزل منها السنوات ، إنها لا تزال صغيرة لم تتجاوز بعد العشرين ، وستظل في خياله صغيرة مهما شاب الزمن ، وناداه بصوت زاهر بالحنان واللهفة :

— إيفا !

والفتفت في نشوة ، والتمعت عيناها سرورا ، وجرت إليه كالطيف ترتقى في أحضانه وتغمره بالقبل وهي تهمس في وجد :

— حلمي .. حبيبي ..

وقال في صوت متهدج تخنقه عبراته :

— أين ابننا ؟ أين الحبيب ؟ أين ؟ أين ؟

فقالت وهي تجذبه في رفق وفي عينها هيام :

— تعال .. إنه هنا ..

وانطلقا وهو يكاد ينوء من الشوق ، وانسابا في عالم من الضباب ، وفتحت بابا وإذا بغلام لم يتبين ملامحه قائم في وسطها ، فنظر إليه خافق القلب ، تكاد

روحه تفر إليه ، وجرى نحوه ملهوا ، وضمه إلى صدره ليطفئ نار الشوق
التأججة فيه ، وراح يهتف في حب :
— ابني ! .. ابني ! ..

وسالت دموعه غزيرة على خديه ..
وأفاق من أحلامه ، وأخرج منديلا راح يكفكف به عبراته ، ووقفت
السيارة أمام قصر أبيه ، فهبط منها وراح يصعد الدرج متمهلا حتى تنقشع
انفعالاته ، ودخل على الباشا وهو يجاهد ليلبدو هادئا ، وقال :
— مساء الخير ..

قال الباشا في انشراح :

— مساء النور ..

وذهب إلى أمه وقبل يدها ، فراحت تربت عليه في حنان ، وجلس إلى
جوارها ، وقبل أن يستقر في مجلسه قال الباشا :
— ماذا فعلتم عند رفعة الباشا ؟ والله كنت أريد أن أذهب معكم ولكن ..
وقال حلمي قبل أن يتم أبوه حديثه :

— كانت روح الرجل المعنوية عظيمة ، وكان مزاجه رائقا ، لما قدمنا إليه
الكأس التذكارية قلبها بين يديه وقال : عظيم ! ماذا كتبتم عليها ؟ فقال قائل :
كلمتكم الماثورة : من أجل مصر وقعت المعاهدة ، ومن أجل مصر ألغيتها ،
فابتسم رفعة الباشا وقال : لهذا الكلام أقلنا ..
وابتسم الباشا وقال :

— وما رأى رفعة الباشا في الحالة الحاضرة ؟

— إنه مسرور لأن على باشا ماهر أعلن أنه سيسير على سياسة سلفه
العظيم ..

فقال أمينة هانم في استغراب :

— إذا كان على ماهر سيسير على سياسة سلفه ، فلماذا أقيل رفعة الباشا ؟

قال الباشا وقد شرد ببصره :

— يخيل إليّ أن الملك ضالع في حريق القاهرة ، لماذا لم يرسل بعض رجال حرسه لإخماد الفتنة قبل أن يستفحل أمرها ؟! وكيف طاوعه قلبه على أن يخطب في ضباط جيشه ويقول لهم : إنه ابن إبراهيم باشا وإنه يضع ابنه وديعة في أيديهم ، ثم يدعوهم إلى تناول الغداء والنيران مندلعة على بعد أمتار من قصره ؟! لقد رفض أن يقابل فؤاد باشا لما طلب مقابلتة ، كان يبيت الغدر بالوزارة ..

قال حلمي :

— بلغني أن حيدر باشا كان يتردد في إنزال الجيش إلى الشوارع لإعادة الطمأنينة ، قال للملك إنه يخشى أن ينضم الجيش إلى الشعب فتكون الكارثة ..

وأرادت أمينة هانم أن تدير دفة الحديث لتغير اتجاهه ، فما كانت تحب حديث السياسة ، فقالت :

— لماذا لا تأتي يا حلمي لتحج معنا ؟

قال حلمي وهو يتسم :

— سيئاتي حتى الآن قليلة ، سأنتظر حتى يتضخم رصيدها ثم أنظهر منها وأكفر عنها مرة واحدة ..

قال الباشا مداعبا :

— يثاب المرء رغم أنفه ..

وابتسم حلمي وضحكت أمينة هانم ، وصمت الباشا ، أحس بعد أن قال قوله أنه كان يعبر عن حاله ويسخر من نفسه ، فهو لم يتب إلا بعد أن ولى شبابه وتسربت فتوته من بين يديه ، إنه تائب على الرغم منه ، حقيقة أنه تاب إلى رشده بعد أن ضبط هو وابنه في منزل أنهار ، وقرر بعد ذلك الخزي الذي كاد يعصف به ألا يعود إلى اللهو أبدا ، ولكنه كان يحس قبل ذلك أنه قد بلغ الحرج (الحصاد)

وأن حياته الخاصة قد انتهت .. فقد كل لذة حسية ولم يبق أمامه إلا حلالة الإيمان ..

وقالت أمينة هانم وهي تنظر إلى ابنها في إشفاق :
— أريد بعد عودتي من الحج إن شاء الله أن أفرح ..
قال حلمي مداعبا :

— سأقيم عند عودتك حفلا أعظم من الحفل الذى أقيم ليلة زفافك ..
فقالت وهي تنظر إليه في وجد :
— أريد أن أفرح بك أنت ..

وصمت الباشا وإن كان في قرارة نفسه يؤيد رأى زوجته ، لم يعد هناك ما يبرر إمساك ابنه لسميرة بعد أن أقيمت الوزارة قبل أن يصبح ابنه وزيرا ، وهو يشك في احتمال عودة الوفد إلى الحكم قبل انقضاء عشر سنين أخرى .. وحرام أن يظل ابنه يقاسى الحرمان على أمل واه قد يتعذر تحقيقه ..

وشجعها صمت الباشا وعدم معارضته لها ، فقالت :
— سأدعو الله وأنا واقفة عند باب بيته أن يرزقك بزوجة ولود تمنحك الذرية الصالحة ..

ونظر حلمي إلى ساعته ، إن موعد ذهابه إلى الحلمية بالاس يقترب ، وتبخرت الطمأنينة التي غمرته لما اندمج في الحديث مع والديه وعاد إلى جوفه ذلك القلق الداخر بالأمل واللهفة والمشاعر المشتتة ، وقام مستأذنا وقد عاد طيف إيفا يحتل خياله ..

واندس في سيارته ، وانطلق في طريقه إلى الحلمية خافق القلب ، في جوفه رهبة وأحاسيس غامضة استغلقت عليه ، فما كان يدرى : أهى مزيج من الأمل واليأس ، من الفرح والحزن ، من اللهفة والشوق ؟ لم يكن في نفسه شيء واضح إلا صورة إيفا التي حفرت في قلبه وعمقتها يد السنين ، وهو يراها بعينيه أكثر وضوحا من صورة سميرة التي غادرها من ساعات قليلة ..

سميرة تشاركه في فراش واحد ولكن إيفا أقرب إليه منها ، إنه لا يسمع حديثها بينما يصغى إلى همسات إيفا وبينه وبينها المجهول الذى لا يعرف له حدودا ، وما أكثر ما ضم سميرة إليه في الظلام وفي خياله إيفا ، يصغى بوجهه إلى عذب مناجاتها ويبتها ، وهو يهمس ، الشوق الرقراق المعربد في الخنايا ، وكانت أقسى لحظات حياته تلك التى تخرجه فيها سميرة من أحلامه بأن تسأله فجأة عما يشغل ذهنه وهو معها ، فيهوى من سماء رؤاه المجنحة ..

إن السنين التى تقضت منذ هجرته إيفا لم تمح حبها من سويداء قلبه ، بل راحت ترضعه الحنان الدافق في نفسه الذى لم يجد له منفسا يتسرب إليه فترعرع وازدهر ، وأمدت صورتها بهالة من نور لم ترها عيناه في واقع حياتها ولكنها كانت تزداد في خياله تألقا وفي ضميره قدسية ، فتجسمت إيفا في وجدانه أملا يرتجى ..

وفكر فيما يفعله لو أن مدير الفرقة أعطاه عنوانها ، إنه لن يتردد في أن ينطلق إليها يلتمس منها الصفح عن نذالته التى كفر عنها بالعذاب الطويل الذى كابده منذ أن تخلى عنها ، ويطلب منها أن تعود معه هى وابنه ليعوضها عن الحرمان الذى احتملا وطأته القاسية ويمسح من نفسيهما المرارة التى عكرت طعم حياتهما ، ويذيقهما حلاوة الحب الفياض الذى يستطيع أن يضيفه الرجل المحب على شريكة حياته وعلى ابنه الذى يخفق له القلب رحمة ومحبة ..

وانبثقت في نفسه مشاعر فتية عذبة كادت تطمرها حياته الراكدة ، وروحه التى كادت تصدأ ، وأيامه المكرورة التى لا إرهاصات فيها ولا إحساسات كبيرة توقظ عواطفه الهاجعة ، فالشعور الذى لازمه هو إحساسه بالضيق من حياته الفاترة التى يحياها مع سميرة مرغما ..

فكر في أن يهجر سميرة أكثر من مرة وأن يتزوج بأخرى ، ولكنه لم يقدم على تنفيذ الفكرة التى تراوده في يقظته ومنامه لأسباب كثيرة كان يتعلل بها ، والحقيقة أنه كان يخشى في قرارة نفسه السحيفة ألا تمنحه من سيتزوجها الولد

الذى يشتهي ، فآثر أن يصبر لعل إيفا تعود إليه هى وابنه الذى أصبح واقعا
لا رغبة تشتت ..

ووقفت السيارة أمام الحلمية بالاس وغادرها وقد اشتد وجيب قلبه
وتحركت مخاوفه ، وأرهفت حواسه ، وراح يتقدم وهو مفتوح العين متوتر
الأعصاب ، وأدار عينيه فى المكان كأنما يبحث عنها .. ووقف نظره طويلا عند
النضد الذى التقى بها عنده أول مرة ، وخفق فؤاده حنانا ، وغام وجهه
بنسجاية من الأسى ، وغمرته إحساسات زائخة بالحوية ..

ومست أذنيه الموسيقى الحاملة ، لم تكن الفرقة تعزف القطعة التى كانت
تعزفها يوم راح يرقص مع إيفا ، وعلى الرغم من ذلك انسلت إلى وجدانه
وأثارت أشجانه وهيجت أرق الذكريات التى تتكون منها حياته ، وسار
كالمسحور السارى فى عالم صيغ من المشاعر الرقيقة والعواطف النابضة بالحب
والهيام ..

وانطلق إلى مكتب المدير واستأذن فى مقابلته وأذن له ، فدخل على الرجل
وصافحه وقال له :

— آسف لإزعاجك ، ولكن الأمر له أهمية خاصة عندى ..

فقال الرجل وهو يشير فى أدب إلى مقعد قريب منه :

— أنا فى خدمتك ..

وجلس حلمى وجلس الرجل وهو مقبل عليه بكليته ، وقال حلمى :

— كانت فرقتكم هذه تعمل هنا فى أيام الحرب ..

— نعم ..

— وكانت إيفا تعمل معكم ..

وقطب الرجل جبينه وراح يفكر وهو يردد فى إنكار :

— إيفا ؟ .. إيفا ؟

قال حلمى ليعاونه فى تفكيره :

— كانت شابة صغيرة وكانت تغنى وحدها .

وعاد الرجل يفكر ويردد اسمها :

— إيفا ١٢ .. إيفا ١٢

قال حلمى فى حماسة :

— لئننى أذكر بعض أغانيها .

وراح يغنى بعض أغاني إيفا ، فهو يحفظها عن ظهر قلب ، وما أكثر ما ترغم بها فى وحدته وهو داعم العين كسير الفؤاد ..

وراح الرجل يصغى إليه وهو مطرق ، وانبسبت أساريره فجأة وقال :

— أه ! إيفا ! تذكرتها — إنها سافرت فجأة .. غادرتنا دون أن تودعنا ..

كانت حزينة .

قال حلمى فى لهفة :

— إنها هى ، ألم تقابلها بعد أن هجرتكم ؟ ألم تحاول أن تتصل بكم ؟

قال الرجل وهو يهز رأسه نفيا :

— أبدا .

— ألم تتصل بأحد من فرقته ؟ ألا يعلم أحد منكم أين هى ؟

وأحس الرجل الלהفة التى فى صوته ، فقال فى رقة :

— آسف لئننى لا أستطيع أن أعاونك ، فما أكثر الذين يعملون معنا ثم

ينفصلون عنا ولا نسمع عنهم شيئا بعدها أبدا ، العالم واسع يا سيدى ، وكل

إنسان مشغول بنفسه الآن عن غيره وعن الدنيا التى حوله .

— هل لى أن أطلب منك خدمة ؟

— تفضل .

وأخرج حلمى من جيبيه بطاقة وقدمها إلى الرجل وهو يقول :

— هذا عنوانى ، فإذا قدر لكم أو لأحد من فرقته أن يعرف أين هى

فأرجوك أن تبلغنى .

قال الرجل في حماسة :

— أعدك أنني سأفعل .

وقام حلمي وصافح الرجل وانصرف وهو مطرق يسير في الظلام . وإن كانت الأنوار في كل مكان تأتلق ، فقد انطفأ بصيص النور الذي كان يجاهد ليشق طريقه في دياجير نفسه التي تراكمت في وجدانه على مر السنين .

٥١

قام عبد الخالق من فراشه زائغ البصر ، يحس دوارا في رأسه وفتورا يسرى في روحه ، ومد بصره إلى النافذة القريبة منه فألقى نور النهار قد انطفأ ، كانت الشمس في غروب ولكن خيل إليه أن الكون غارق في ظلام ثقیل .

ونظر إلى المرأة القريبة منه فرأى وجهه ذابلا ، وبريق عينيه قد خبا ، وارتنى جلد وجهه فخلف تجعدات تحت جفون عينيه وانتفاخا على شكل هلالين ، فتدسس إلى ضميره الأسى ، وتملكه شعور مرير بأن الشيخوخة قد دبّت فيه ولما يبلغ الخامسة والأربعين .

وانتصب على قدميه وسار خطوات ليتناول الروب فانبهرت أنفاسه وضاق نفسه وأحس أنه يختنق ، فأخذ يمرر يده على رقبته ويجذب جلدها كأنما يحاول أن يفسح طريقا للهواء الذي يلتقطه في جهد ، ثم راح يرتدى الروب في خمول .

وشعر بوخزات في قلبه ، وبارتفاع في دقاته ، وبألم في عضلات ذراعيه ، وبإعياء شديد ، وطافت بذهنه فكرة أنه قد يموت ففرع وانتشرت في وجهه رهبة ، واتسعت عيناه رعبا ، وراحت أفكار متخاذلة تتوافد إلى رأسه ، إنه لو مات لكان وجوده في هذه الحياة عبثا ، كانت حياته التي عاشها حرمانا كلها ، قسوة كلها ، وهو يرجو أن تسعد حياته وأن يعوض ما فاتته بعد موت

أبيه .

وراح يوههم نفسه أن ما يحسه إن هو إلا تعب طارئ ما أسرع أن يزول ، وأن الشيخوخة المبكرة التي تدب في أوصاله ما هي إلا شيخوخة كاذبة سرعان ما تنقشع إذا ما أشرقت عليها شمس سعادته ، فما يضحكها إلا استسلامه لذلك القنوط الذي عشنش في وجدانه ومد جذوره فيه .

ولم يطمئن إلى أوهامه ، ولم ينجح في اقتلاع القلق الذي بدر في أعماقه ، فإذا بأفكار سود تعاود هجومها : أنه مريض وأن الفناء يدب فيه وأن ثروة أبيه كلها عاجزة عن أن تجلب له سعادته المفقودة إن كان قد كتب عليه أن يموت . وارتفعت حرارته ، وأحس أن رأسه يكاد ينفجر ، وأن نفسه مكروب ، وأن أفكاره القاسية تزيد في عذابه ، فوسع من خطوه ليتناول من الخمر ما يقضى على وعيه الذي لا هم له إلا تنغيص حياته وإشعال نار قلقة لتحرق روحه وتعذبه عذاب الهون .

وتناول زجاجة الخمر بيد مرتعشة وراح يصب منها في الكأس فإذا بالسائل يرتجف ويسقط خارج الكأس بعضه ، ورفع الكأس بيده الأخرى وقربها من الزجاجة ولم يعد يرى ما في يديه بوضوح ، انسدت على عينيه غشاوة ، وران على ذهنه ضباب ، وأخذت تزحف إلى نفسه غيبوبة لتسدل ستاراً ثقيلاً يحول بينه وبين وعيه .

وجاهد لير ما حوله ، وركز كل مشاعره في عينيه ، ومد بصره وراح يدور به في أرجاء الغرفة ، وإذا به يرى الصور تتراقص ، والأسجاف تهتز ، وقطع الأنث لا تستقر في مكانها ، إن كل شيء يدور ويدور ويدور ويعلو ويعلو والكأس من يديه دون أن يحس ، وتقضت لحظات لم يشعر فيها بشيء ، وفتح عينيه فإذا بهما نصف مغمضتين ، ورأى الثريا البلورية ولا شيء غيرها ، ثم راحت تمحى من أمامه رويدا رويدا حتى غاب عن الوجود .

وخفت إليه بثينة وابنه بعد أن صك آذانهما صوت سقوط الزجاجاة والكأس ثم ارتطام جسم ثقيل بالأرض ، ومالت عليه بثينة ورفعت رأسه في رفق ، ثم وضعت ذراعها تحته وجعلت تربت على وجهه بكفها ، وارتمى ابنه فوقه وراح ينادى في فزع :

— بابا .. بابا !

ثم أجهش بالبكاء ، وأحست بثينة أن يدا قوية تهصر قلبها ، وترقرق الدمع في مقلتيها .. حرك مشاعرها حزن ابنها ولوعته ، وأرادت أن تدخل الطمأنينة على قلب ابنها الذى نم وجهه عن عمق الأسى الذى يكابده ، فقالت له :

— بابا بخير .. بابا بخير .

ورأت أن تشغله عن التفكير في أبيه الممدود أمام عينييه فاقد الوعي ، فقالت له :

— هات زجاجة الكولونيا .

وأسرع محمد وهو يتلفت في قلق ، وقلبه يدوى بين جنبيه رهبة ، وأوجس خيفة ، وعاد وهو يحمل زجاجة الكولونيا وإن لم يكن يعنى تماما الحركة الحسية التى يأتيا ، كان غارقا في الانفعالات المتباينة التى كانت تتدفق في غزارة في جوفه .

وقربت الزجاجاة من أنف عبد الخالق الذى علا وجهه شحوب واصفرار ، وبدأ يلتقط أنفاسه في جهد وقد تعلق بصدره عينا ابنه الذى تقلصت قسمات وجهه من الألم ، وفتح عبد الخالق عينين واهنتين دون أن يرى شيئا ، ثم راح النور يتسرب إلى شعوره شيئا فشيئا ، وأخذت السحب التى تحجب المرئيات تنقشع رويدا رويدا ، ورأى وجه بثينة ودار ببصره حتى وقع على وجه ابنه وقرأ الألم في محياه فانقبض ، وأراد أن يمسح ذلك الأسى الذى جثم على صدر حبيب الفؤاد ، فاغتصب ابتسامة باهتة كانت أقسى من وقع الخنجر في قلب محمد . ومال محمد وهو يحاول أن يكبت الفزع الذى استولى عليه ، وقال في

صوت متهدج :

— بابا ! كيف أنت الآن ؟

فقال عبد الخالق في صوت خافت :

— بخير ، الحمد لله .

وأراد أن ينهض ولكنه عجز عن أن يهم واقفا ، وجعلت بثينة تعاونه ، وخف محمد يمد إليه يد المساعدة وهو كسير القلب ، وجاهد عبد الخالق حتى انتصب على قدميه وقد لف ذراعا حول عنق زوجته والذراع الثانية على كتف ابنه ، وسار وهو بينهما يجر نفسه جرا .

وبلغا غرفة النوم ، واتجها به إلى السرير ، وراحا يتعاونان على وضعه فيه ، وتمدد مبهور النفس ثم أطبق جفنيه ، فقال محمد في فزع :

— سيغنى عليه ثانية .

قالت بثينة في لهفة وهى تتلفت :

— الدكتور ! . الدكتور ! .

وخرج محمد يعدو في الطريق ، وقد راح وهمه يصور له أن كل ثانية يتأخرها قد تكون القاضية على أبيه الحبيب ، فيزيد في سرعته ويتضخم إحساسه بالزمن فتطول اللحظات والدقائق ويربو الاضطراب والقلق والخوف من المجهول ..

إنه يحب أباه حبا عميقا تغلغل في أعماق نفسه ، فقد غمره بحبه وحنانه ، وهو كل من له في دنياه ، إنه لا يدري ماذا تساوى حياته لو خلت منه ، إنه لشيء بشع بغيض أن يموت .

وراح صوته يتساءل في حيرة في أعماقه وهو يعدو ويلهث : لماذا يموت ؟ لماذا يموت ؟ لماذا يموت ؟ وماذا يضير العالم لو بقى حيا ؟ بل ماذا تستفيد الدنيا من موته ؟ إنه يريد . إنه في حاجة إليه . إنه لا يستطيع أن يعيش بدونه ، سيبقى من أجله . سيعيش من أجله .. سيعيش .. سيعيش .

ودخل على الطبيب وطلب منه فى لهفة أن يسرع لإنقاذ أبيه ، وانطلق الرجل معه ، وركبا السيارة ، وانسابتا فى الطريق ومحمد يبتهل فى أعماقه ألا يعوقها عائق ، يتعجل الزمن ويتمنى أن تطوى الأرض طيا .

وسار أمام الطبيب ، وكلما وجد أنه سبقه يعود إليه ويسير أمامه وما يلبث أن يسبقه ، ويستأنف العودة إليه وهو يرنو إليه فى توسل كأنما يستحثه على الإسراع ، ودخل غرفة النوم ، واتجه الطبيب إلى المريض المسجى وراح يفحص عنه فى عناية ، وقد تعلقت به عيون بثينة ومحمد .

وراح الوقت يمر فى ببطء شديد ، ووضع الطبيب السماعة على القلب وقطب جبينه ولاح فى وجهه الاهتمام ، وأحس محمد الانفعال الخفيف الذى عبر عنه الرجل بانقباض سريع فى عضلات وجهه سرعان ما انبسط ، فاشتد وجيب قلبه ، وراح عليه الحزن والقلق .

وجلس الطبيب يكتب الروشيتة فى صمت ، ومحمد يرقبه فى اهتمام ، ورفع الطبيب رأسه وقال :

— يجب أن يبدأ تناول الدواء من الآن .

وخطف محمد الروشيتة ، وخرج يعدو فى الطريق ليحضر الدواء ، وسارت بثينة خلف الطبيب ، حتى إذا ما غادرا الغرفة التفتت إليه وقالت :

— ماذا وجدت ؟

فقال الدكتور فى أسى :

— الحالة خطيرة .

وصمت قليلا ثم قال :

— إنه فى حاجة إلى عناية وعلاج طويل . ينبغى ألا يغادر الفراش أبدا .

فقالت بثينة وهى تنظر إليه بعينين مفتوحتين :

— ماذا عنده يا دكتور ؟

— قلبه ضعيف . حذار من الكحول أو أى نوع من الخمور .

وقبل أن ينصرف قال :

— ينبغى ألا يغادر فراشه ، فالهبوط من السرير أو الصعود إليه يجهده ،
وسأمر غدا لأراه ..

ودار على عقبيه وسار وقد أطرقت بثينة ونزل بقلبها هم ثقيل ، وعادت إلى
زوجها وجلست إلى جواره وقد سرح خيالها وجعلت الأفكار السود تنثال على
رأسها ، وظلت فريسة لأوهامها حتى عاد ابنها يحمل الدواء .

وراحت تناول زوجها الدواء في حنان ، ثم جلست تعبت في شعره وابنها
ينظر إليهما خافق القلب ، يرجو ألا يجرمه الله منهما . فهما قررة عينه وكل
دنياه . وجعل الوقت يمر والسكون يخيم على المكان ، وعبد الخالق هاجع
لا يكاد يحس ما حوله ، ومحمد مطرق قد استسلم لعواطفه وبثينة تجمع شتات
نفسها لتحزم أمرها وتستقر على رأى .

وجاءت الخادم وقالت :

— رفعت بك في الصالون .

ورفعت بثينة رأسها وقالت لها :

— قولى له تفضل ..

ودخل رفعت ووقعت عيناه على عبد الخالق الممدود في فراشه فوقف صامتا
برهة ، وقال :

— ماذا جرى ؟ كان بالأمس بخير .

ونظرت بثينة إلى ابنها نظرة سريعة ، ثم التفتت إلى رفعت وقالت :

— لا شيء . إنه بخير . تعب بسيط .

وجلس رفعت ولم ينبس بكلمة ، وظل مطرقا وهو ضيق بذلك الجو الذى
وجد نفسه فيه ، إنه قادم ليضم بثينة إلى صدره ويمطرها بقبلاته ، ثم يجذبها
وهى مسلوكة الإرادة إلى بيته ليعب كأس اللذة وهو نشوان بنصره ، مزهو
بنفسه ، فقد نال ما عز على شعبان وعلى ماله الوفير .

وأراد أن يقر من ذلك الجو البغيض فقال :
— أظن أن من الأفضل أن يترك وحده في هدوء ليستريح .
ونفض ، ونهضت بثينة ، وبقي محمد إلى جوار أبيه وهو حائر لا يدري
أيسافر مع خالته إلى الإسكندرية أم يبقى إلى جوار أبيه المريض ! ، وخرج
رفعت وهي في أثره ، حتى إذا ما ابتعدا عن الغرفة التفت إليها وقال :
— ماذا قال الطبيب ؟

فقالت في أسى :
— الأمر جد خطير . قلبه ضعيف .
وصمتت قليلا ثم قالت في عزم :
— لن أدعه يموت ، لن يموت أبدا قبل أبيه ، فلو مات قبله لضاع كل شيء ،
لن أتركه يموت .. سيعيش حتى يموت الباشا .. يجب أن يعيش حتى يموت
الباشا . أتفهمني ؟ يجب أن يعيش .

٥٢

جلس حلمي في مكتب أبيه يقرأ صحف الصباح والرسائل ويراجع
الحسابات ، وكان يضيق بعثمان بك وبتصرفاته ، إنه لا يستطيع أن يمنحه الثقة
العمياء التي منحها إياه الباشا ، فهو يشك في ذمته ، وقد فاتح أباه مرة في أمره
وقال له إنه لا يستطيع أن يصدق أن عثمان لا يسرقه ، فابتسم الباشا في هدوء
وقال له : ما هي النسبة التي تقدرها لسرقاته ؟ ٥ في المائة من الإيراد ؟ لنفرض
أن هذا واقع ، فإذا ما طردناه وجئنا بآخر أقل كفاية منه فبأي نسبة سيهبط
الإيراد ؟ سيهبط بنسبة ٢٠ في المائة على الأقل ، أي أننا سنخسر إذا ما غيرناه
بآخر أكثر منه أمانة وأقل منه كفاية ، ١٥ في المائة من الإيراد ، لا يا حلمي إنني
لست مستعدا لتحمل هذه الخسارة ، إنني لن أتردد في طرد عثمان إذا ما جئتني

بآخر في نفس كفايته ولا يسرق ما يسرقه .

وسكت حلمي على مضض ، إنه واثق أن أباه لن يغفر لعثمان إذا ما ضبط متلبسا بجريمته ، وإنه يقول ما يقول ليدلل على براعته ولأنه يأمن جانب عثمان ، لذلك عزم ألا يحدث أباه مرة أخرى في هذا الموضوع قبل أن يضع يده على جسم الجريمة الذي يزلزل أركان تلك الثقة العمياء . وراح حلمي يراجع الحسابات ويرصد تصرفات ابن عمه بعين مفتوحة .

وأقبل الباشا وعثمان في أثره يحدثه ويقول له إنه استطاع أن يحجز له مكانا في الباخرة التي ستنقل آخر فوج من الحجاج ، ووضع الترتيبات التي تكفل له العودة في الباخرة التي ستعود بالفوج الأول ، ثم قال في تملق إنه فعل ذلك لأن مصلحة العمل لا تحتمل غيابه طويلا .

ونهض حلمي ليترك مكانه لأبيه ، وصك أذنيه ملق عثمان فأحس أنه يستهدف أن يطعنه بهذا القول ، فرماه بنظرة شرراء وهو يرد على تحية الباشا ، وجلس الباشا خلف مكتبه ، والتقم عثمان أذنيه يروى له في صوت خافت كل صغيرة وكبيرة حدثت في المكتب ، حتى المواضيع التي تصرف فيها حلمي راح يأخذ رأى الباشا فيها ، وتلمل حلمي في مقعده وأحس ضيقا ، ولكنه صبر على مضض وإن كان يصرف أنيابه غيظا .

ونظر عثمان إلى حلمي في ضيق نظرة خاطفة ، وسرعان ما أسبل جفنيه حتى لا تفضحه عيناه ، كان يريد أن يفضي إلى الباشا بكلام لا يستطيع أن يقوله أمام حلمي . وكان يرجو أن يستأذن حلمي وينصرف ، ولكنه استرخى في مقعده ووضع ساقا على ساق ، إنه سيمكث طويلا .

وانسحب عثمان مضطرا ، لم يكن أمامه إلا أن يصبر حتى يذهب حلمي ، وإن كان الصبر على الإفضاء بفضائح الناس يضايقه وينقض ظهره ، إنه لم يجد من يفضي إليه بفضيحة الباشا والست أنهار وجمعية الفتيات الصالحات دون أن يخشى أن يصل ما يقول إلى مسامع الباشا ، فراح يروى الفضيحة في لباقة على

بعض صغار العمال الذين لن يصلوا أبدا إلى الباشا وهو يظهر لهم أنه يؤثرهم بحبه وأنه يأتمنهم على الأسرار لمكانتهم عنده ، فالنوم لا يعرف إلى عينيه سبيلا ، إذا ما كانت في صدره فضيحة مكتومة .

وأغلق عثمان الباب خلفه ، والتفت الباشا إلى حلمى وقال له :
— ما الأخبار ؟

قال حلمى فى اهتمام :

— ألغى الملك انتخابات نادى الضباط .

قال الباشا دون اكتراث :

— تصرف طائش من تصرفاته الطائشة .

— عدم إطاعة أوامر الملك وانتخاب رئيس للنادى غير الرئيس الذى أشار به دليل على وجود حركة تدمير فى الجيش .

قال الباشا وهو يلوى شفته السفلى زراية :

— الجيش يا بنى هو حصن الملك الحصين ، وهو يغلق عليه بغير حساب ، إنه سنده فى طغيانه ، ويعتمد عليه فى تركيز كل السُّلطة فى يده ، فمن له غير الجيش ، الأحزاب كلها تكرهه ، الشعب انفض من حوله ، ساء الناس استهتاره وطيشه .

— ألم تقرأ منشورات الضباط الأحرار ؟ إنها لا تمسم بالولاء للملك أبدا ، إنها تتحدث عن حزب فلسطين وعن الأسلحة الفاسدة التى كان يتجر فيها بطانة الملك :

— هذه فورة حماسة ما أسرع أن تخبث .

قال حلمى وهو يعلق إلى أبيه بجسمه كله :

— قابلت صديقا أمريكيا يعمل فى السفارة الأمريكية ، وقد حدثنى عن منشورات الضباط الأحرار وانتخابات نادى الضباط حديثا يختلف عن حديث المصريين جميعا ، إنه يرى فى ذلك حدثا خطيرا ، انقساما فى الجيش ، حركة

تذمر لها ما بعدها .

قال الباشا ساخرًا :

— إنه لا يفهم المصريين كما نفهمهم ، إننا نشور ونشور ثم نهذاً فجأة ، هذه المنشورات ستوزع ويستمر توزيعها حتى يدب اليأس في قلوب موزعيها فتختفى ذات يوم ثم ينساها الناس ، فما أكثر المنشورات السرية التي وزعت ثم أسدل عليها ستار النسيان .

وصمت الباشا قليلاً ثم قال :

— هل يذكر أحد الآن الكتاب الذى أبلغه زعماء المعارضة إلى الديوان الملكى عشية وصول الملك إلى الإسكندرية من رحلته فى أوربا ؟
— إننى أذكره ، وأحفظ فقرات منه ، لقد وصفه رفعة الرئيس بأنه إجرام سافر ، الحق إنها لشجاعة أن يوجه مثل هذا الكتاب للملك .

وشرد حلمى ببصره ، وراح يلقي ببعض فقرات منه فى تؤدة :

— « يا صاحب الجلالة .. إن احتمال الشعب مهما يطل لا بد منه إلى حد ، وإننا لنخشى أن تقوم فى البلاد فتنة لا تصيين الذين ظلموا وحدهم ، بل تتعرض فيها البلاد إلى إفلاس مالى وسياسى وخلقى ، فتنشر فيها المذاهب الهدامة ، بعد أن مهدت لها آفة الحكم أسوأ تمهيد » .

قال الباشا وهو يهز رأسه استخفافاً :

— إنك تذكره لأنك تشتغل بالسياسة ، أما الناس كلهم فقد نسوه .

قال حلمى فى هدوء وهو يبتسم فى ثقة :

— إن كانوا قد نسوه فأثره لا يزال سارياً فيهم ، فالمنشورات والخطب الوطنية والمقالات الثورية كحقن التقوية ، ينسى المرء وخزها وإن استفاد بمفعولها دون وعى منه ، تقاوم الضعف وتعيد بناء الخلايا الميتة .

قال الباشا وهو يبتسم فى زهو :

— فيك تفاؤل الشباب .

— ما من وزارة تستمر في الحكم أكثر من شهر ثم تقال أو ترغم على تقديم الاستقالة . فحتى متى يستمر هذا الحال ؟

قال الباشا وهو يضحك :

— حتى يصبح الملك رئيس الوزراء .

قال حلمي في تأكيد :

— إنه الآن رئيس الوزراء .

قال الباشا وهو يتسم :

— لو كان رئيس الوزراء ما عمل على إخراج نجيب باشا الهلالي الذي يأتمر بأمره ليستقيل ..

— يقال أنه سيقبض ثمن إقالة نجيب باشا ، إنه لا يهمه أن يكون زيدا أو عمرا انذى يرتدى ثوب رئيس الوزارة ما دام هو الرئيس الفعلي ، وما أكثر الذين يفرحون لارتداء ثوب رئاسة الوزارة ..

قال الباشا في دهش :

— هل بلغك إشاعة المؤامرة التي دبرت في باريس ؟

— ما أسرع انتشار الإشاعات ، بلغني أن عبود باشا وكريم ثابت باشا وأنطون بولي اجتمعوا في باريس ، وقد دفع عبود باشا لعملاء الملك مليوناً من الجنيهات الاسترلينية للتخلص من وزارة نجيب باشا ..

قال الباشا في اهتمام :

— مليوناً من الجنيهات الاسترلينية أم مليوناً من الفرنكات السويسرية ؟ سمعت أن الذي عرض مليون من الفرنكات السويسرية .

قال حلمي وهو يهز كتفيه دلالة على عدم الاكتراث :

— الإشاعات تقول إن الذي عرض مليون ، ولست واثقاً أكان مليوناً من الجنيهات الاسترلينية أم من الفرنكات السويسرية .. الهدف من الإشاعة أنه استعداد لقبض ثمن أى شيء حتى إقالة الوزارة ..

قال الباشا مازحا :

— إننى لا أستطيع أن أنكر حقيقة استعداده لقبض ثمن ما يعطى فقد أعطيته

بيدى ..

ودخل عثمان وقال :

— هل سنسافر إلى العزبة قبل السفر إلى الحجاز ؟

أخبره الباشا أكثر من مرة أنه سيزور العزبة قبل سفره ، وقد حدد موعد تلك الزيارة ، ولكنه دخل ليقطع حبل الحديث الدائر بين الباشا وحلمى لعل حلمى يستأذن فى الانصراف ويجد الفرصة للإفضاء إلى الباشا بالفضيحة التى يضايقه كتمانها فى صدره ولو لساعة أو بعض ساعة ، قال الباشا :

— سنسافر إلى العزبة يوم الجمعة ونعود منها يوم السبت إن شاء الله ..

وقام حلمى واستأذن فى الانصراف ، فانشرح صدر عثمان ، وتهللت أساريره ، وراح يفكر فيما سيقوله للباشا ..

خرج حلمى ومال عثمان على أذن الباشا وقال وهو يتصنع الثورة :

— ما كنت أظن يا باشا أن سياأتى يوم يتمرغ فيه شرفنا فى الوحل ..

فالتفت إليه الباشا فى فزع وقال فى حدة :

— ماذا تقول ؟

قال عثمان وهو يهز رأسه أسى :

— أصبحنا مضغة فى أفواه الناس ..

فهب الباشا منتصباً وقال نافذ الصبر :

— انطق .. ماذا جرى ؟

قال عثمان وهو مطأطئ الرأس :

— الناس كلهم يتحدثون عن العلاقة الشائنة بين بثينة زوجة ابن عمى

وصديق زوجها ..

فدنا الباشا منه وقال فى ثورة :

(الحصاد)

— من قال لك ذلك ؟

— علاقة بثينة برفعت حديث المجتمعات كلها ..

— وأين زوجها الأعمى ؟

— إنه لا يشك في شيء .. يعتقد أن رفعت أوفى صديق ، إنه الصديق

الوحيد الذى لم ينفض من حوله كما فعل الآخرون ..

وراح الباشا يذهب ويحجىء في الغرفة وهو يئن كوحش جريح :

— الكلبة ، إننى لن أسكت أبدا على هذا الهوان ، لن أسكت على تلويث

شرفى ، سأدق عنقها ، سأقتلها إن لن تكف عن هذا العبث .. سأذهب إليها

وأضع حدا لهذه المهزلة ..

وصمت قليلا وهو يشهق ويزفر في صوت مسموع ، ثم قال :

— لا .. لا .. ما كان لشريف مثلى أن يذهب إلى عاهرة ، إنها لا تستحق أن

ألوث قدمى بدخول بيتها النجس .. الكلبة ! إننى سأدعو زوجها الغافل ليأتى

إلى هنا ، وسأترك له أمر تأديب من خاتته ، إنه حامل ، ولكن ما أظن أن يقبل

أن يكون مغفلا وأن تحدعه امرأة ..

ورأى عثمان أن ينفخ في النار التى أشعلها فقال :

— لن يصدق عبد الخالق كلمة في حق زوجته ..

قال الباشا في غضب :

— لو كان الذى يجرى في عروقه ماء لثارت نخوته ، أيقف مكتوف اليدين

وهو يسمع أن زوجته تخونه وأن الناس كلها تهمس بحديث هذه الخيانة !؟

قال عثمان ليحقر من ابن عمه ويثير الباشا :

— عبد الخالق لن يفعل شيئا ..

قال الباشا وهو يزأر :

— إن لم يفعل شيئا فسأقتلها ، ثمها طلقة !

وصمت قليلا ثم قال في حدة :

— ابعث إلى عبد الخالق أن يأتيني غدا ..
وراح يقطع الغرفة جيئة وذهوبا وهو يزجر :
— الكلبة ! الفاجرة ! لوثت شرفي ، لا بد أن أغسل هذا العار بدمها ..

٥٣

قام الباشا في الفجر ، وبعد أن صلى وقرأ القرآن راح يتأهب للسفر إلى
العزبة قبل أن تشرق الشمس ، وفيما هو عاكف على تنسيق حقييته رن جرس
التليفون ، فذهب إليه وهو يعجب لذلك الذي يطلبه في عماية الصبح ، ورفع
السماعة وقال في نبرات تنم عن الضيق .

— آلو !

وسمع صوت حلمي يقول :

— صباح الخير يا بابا .. هل قرأت الصحف ؟

قال الباشا في اهتمام :

— لم تصل الصحف إلّى بعد .. ماذا فيها من أنباء ؟

— استقال حسين سرى باشا ، استقال بعد أن مكث في الحكم ثلاثة أسابيع

فقط ..

— ولماذا استقال ؟

— لم تذكر أسباب الاستقالة الحقيقية ، ولكن يقال إن المعركة الخفية بين
الضباط الأحرار والقصر قد اشتدت ، ويقال إن الملك غير سرى باشا وقال له
إن استقالته فرار من الميدان وجبن لا يليق برئيس وزارة ، ولكن سرى باشا أصر
على الاستقالة .

— والوزارة الجديدة ؟

— عهد الملك إلى الهلالي باشا بتأليفها ؟

- وهل تم تأليفها ؟
- يقال إنه مشغول بتأليفها ..
- قال الباشا فى حدة :
- لا وفقه الله .. إننى مسافر الآن إلى العزبة ..
- من رأى أن تسافر إلى الإسكندرية لتكون بالقرب من أقطاب الحزب ، فاجو مشحون بالاحتمالات ..
- لا أظن أن شيئاً هاماً سيحدث ..
- بل أعتقد أن شيئاً ما سيقع ، فلا أظن أن المظاهرات التى هتفت بسقوط فيفى وحافظ عفيفى ، والشتائم القاذعة المكتوبة على الحوائط فى كل الأحياء التى تنعت الملك وأمه بأقبح الصفات ، وهذه التطورات السريعة التى نعيشها الآن ليس لها دلالتها ، أحس أن شيئاً هاماً لا أدرى ما هو ستمخض عنه الأيام القادمة ، من رأى أن تذهب إلى الإسكندرية ..
- وانطلقت السيارة فى الطريق الزراعى قاصدة الإسكندرية ، كان حلمى قابضاً على عجلة القيادة يصغى إلى حديث الباشا ، وكان جالساً إلى جواره يتحدث عن وزارة حسين سرى التى استقالت وعن وزارة الهلالى التى ألفت بالأمس ، ثم قال :
- عجيب أن ما من وزارة مكثت فى الحكم فى الأيام الأخيرة أكثر من شهر ..
- قال حلمى وهو يرقب الطريق :
- الجو مشحون بالاحتمالات ، سيحدث شئ ما ، شئ لا أدرى به ..
- قال الباشا وهو ينظر فى ساعته :
- لن يكون هناك استقرار إلا إذا عاد الباشا للحكم ..
- عودة رفعة الباشا الآن إلى الحكم غير محتملة ..
- إذا انتهت هذه الأزمات بعودة رفعة ماهر باشا فلن ينقضى شهر حتى

نكون في الحكم .. افتتح الراديو نسمع نشرة الأخبار .
ومد حلمى يده وأدار الراديو ، وانبعثت الموسيقى التى تسبق الأخبار ،
وأطرق الباشا وقد أرهف سمعه ، وبدأ المذيع يقرأ النشرة ، كان ما يقرؤه مثيرا
حتى إن حلمى خفف من سرعة السيارة حتى يعى كل كلمة مما يذاع ..
راح المذيع يعلن أن الجيش وضع يده على أداة الحكم ، وأنه ما ثار إلا للفساد
الذى استشرى فى الجيش ، وأن المقصود من الحركة هو تطهير صفوف
الجيش ، وانتهت قراءة النشرة وكانت تطمئن الأجانب على أرواحهم
وأموالهم ، وظل الباشا صامتا برهة إلى أن قال حلمى :
— هذه بداية ثورة ..

وأفاق الباشا من شروده وقال :
— بل هذه حركة لا يقصد بها إلا تطهير الجيش ..
— انتقلت بهذه الثورة السلطنة من يد الملك إلى يد الجيش ، أصبحت يد
الجيش هي العليا ..
فقال الباشا وهو يمرر يده على جبهته :
— يخيّل إليّ أن للجيش بعض مطالب سيستجيب لها الملك ثم يعود الحال إلى
ما كان ..

قال حلمى وهو يزيد فى سرعة سيارته :
— بل أعتقد أن الأمر أخطر من هذا ، لا بد أن يستدعى رفعة الباشا من
الخارج ليكون قريبا من مسرح الحوادث ..
— أتظن أن الجيش يطالب بعودة رفعة الباشا إلى الحكم ؟
— كل شيء محتمل الآن ، ولا بد أن نكون على أهبة ..
وأثلجت فكرة احتمال عودة الوفد إلى الحكم صدر الباشا ، إن أمله فى أن
يصبح ابنه وزيرا قد تجدد ، لم يعد هناك مكان للجفوة التى بدأت بينه وبين
محفوظ باشا ، فقال لحلمى :

— اذهب بى إلى محفوظ باشا ، لنقرر ما ينبغى علينا فعله ..
وشرد حلمى يفكر ، كانت تتنازعه عواطف متباينة ، لا يدري أيسر لقرب
عودة الوفد إلى الحكم أم يبتئس ؟ إن معنى عودة الوفد إلى السُّلطة أن يدنو
تحقيق الأمل الذى زرعه أبوه فى صدره وجعل يتعهد على مر السنين ويعمل
له .. قد يصبح وزيرا ، وهذا ليس خيرا كله .. سيدفع الثمن باهظا ، سيضطّر
إلى البقاء مع سميرة وهو كاره ، وقد يضطر إلى ملايتها وإظهار بعض العطف
نحوها ، وهذا ثقل على نفسه ، فما أقسى أن يمالئ فى عواطفه ، إنه يكرهها ،
وأعز أمانيه أن يأتى اليوم الذى ينفصل فيه عنها ، وقد حسب أن ذلك اليوم قد
دنا ، وإذا بحركة الجيش تحيى موات الأمل فى نفس أبيه ..

إنه لو خير بين الوزارة وبين ترك سميرة الساعة لما تردد لحظة ، إنه يفضل أن
يتحرر من سجنه ، أن يعتق من رقه ، أن تفصم العرى التى تشده إلى زوجته ،
ولولا الأمل الذى يداعب أباه ، ولولا أن الباشا جعل غاية أمانيه أن يراه وزيرا ، ما
بقيت سميرة موصولة به ليلة واحدة ..

وقفت السيارة أمام فيلا على الكورنيش ، كانت تبعد بضعة أمتار عن فيلا
أنهار ، وهبط الباشا من السيارة ومد بصره إلى فيلا أنهار دون إرادة ، وإذا به
يعوذ بالله من الشيطان الرجيم فى سره ، ويلتفت إلى ابنه ويقول :
— ألا تأتى معى ؟

قال حلمى ويده على عجلة القيادة :
— سأذهب الآن إلى كايينة بدر الدين لأرى محمدا وأبلغه تحيات أبيه ،
وسأعود للغداء ، أنا واثق أن سميرة لم تستيقظ بعد .
— ومتى سأراك ؟

— سأأتى إلى البيت بعد الغروب ، بعد أن تكون قد استيقظت من نومك ..
قال الباشا وهو يتسم :
— لا أحسب أنه ستغضى لنا عين هذه الأيام ..

وسار الباشا إلى الباب الداخلى لفيلا محفوظ باشا، وذكرىات زين العابدين تلح على ذهنه ، وراح يدندن دون تفكير: «يا زين .. يا زين .. يا زين العابدين» وانتبه فجأة إلى ما هو فيه فأخذ يطرد الذكرىات التى طافت به ، وطفق يتمتم ببعض السور القصار .

وانطلق حلمى بسيارته على الكورنيش ، وأسرع إلى كايينة بدر الدين ، فألقى إلهام جالسة أمام باب الكايينة فى كرسي طويل وقد ارتدت ثوبا بسيطا وغطت عينيها بنظارة سوداء ، وجعلت ترقب ولديها ومحمدا وهم يجرون ويخوضون فى الماء ، وما إن يتعدوا قليلا حتى يعودوا إلى الرمال وهم يركبون الأمواج المجهدة التى تزحف إلى الشاطئ لتلفظ أنفاسها .

ووقف برهة يرقب الأولاد وهم يصيحون فى مرح ، فتحركت مشاعر رقيقة فى جوفه ، وخفق قلبه حنانا ، واستشعر رغبة فى أن يعدو إلى الاولاد يضمهم إلى صدره ويمطرهم بقبلاته ، وكبح جماح نفسه وتقدم خطوة من إلهام وقال :

— صباح الخير .

ورفعت إلهام رأسها ونظرت ، فلما رآته قامت تصافحه فى ترحيب :

— أهلا .. أهلا ..

وجذبت كرسيها من الكايينة ووضعتة إلى جوارها وقالت :

— تفضل .

وقال وهو يجلس :

— كيف حال بدر الدين ؟

قالت وهى تبتسم راضية :

— بخير ، ما إن سمع إذاعة الصباح حتى هام على وجهه يتنسم الأخبار ، هل بلغك آخر الأنباء ؟

— لم أسمع إلا نشرة الأخبار ..

— يقال إن الجيش طلب من الملك أن يعزل رجال حاشيته ، وأنه استجاب لذلك الطلب .

— إنهم سيتساقطون من حوله كما يتساقط ورق الخريف ، ولكن كيف انتشرت هذه الأخبار هكذا سريعا ؟

قالت إلهام وهي تصلح من ثوبها وتغطي ركبتيها التي تعرت :
— أخبار تنتشر أسرع من الريح ، إننى دون أن أنتقل من مكانى تصل إلى كل أنباء القاهرة .

وصمتت قليلا ثم قالت :

— أظن أن مطالب الجيش ستقف عند هذا الحد ؟

— لا أظن ، كلما استجاب الملك لطلب من مطالبهم سيتقدمون بطلب آخر .

— وأين ستقف المطالب ؟

— لا أدري .

وجاءت فتاة تهرول حتى وصلت إلى حيث تجلس إلهام وقالت وهي تلهث :

— قدمت الوزارة استقالتها ، وطلب الجيش من الملك أن يكلف على باشا ماهر بتأليف الوزارة .

قال إلهام للفتاة :

— هل أذاع الراديو هذا النبأ ؟

قالت الفتاة فى ثقة :

— لم يذعه بعد ، ولكنه سيذاع فى نشرة الساعة الثانية والنصف بعد الظهر .

وعادت الفتاة تهرول من حيث جاءت ، وقال حلمى :

— لو أذعن الملك لهذا الطلب فستصبح السلطة العسكرية والسلطة المدنية

في يد الجيش .

وقالت إلهام في حذر :

— ألا يخشى أن تتحرك القوات البريطانية العسكرية في القناة إذا تطورت

الأمور ؟

— يخيل إليّ أن الأحداث ستلاحق وأن الإنجليز لن يجدوا أمامهم فسحة من الوقت ليفكروا فيما يفعلون ، فهم أهل مكر ، والمكر يحتاج إلى روية وصبر وتدبير ، ولكنهم يقفون مذهولين إذا ما فاجأتهم الأحداث ، ثم يعنون الفكر في الاستفادة مما تتمخض عنه الأيام وتحويله إلى ما فيه مصلحتهم .

ونظر محمد وهو يلعب إلى ناحية إلهام فوقعت عيناه على عمه ، فراح يعدو نحوه ، ورآه حلمى ، فجعل يرقبه منشرح الصدر وقام يستقبله باسقاط ذراعيه ، ولما دنا محمد منه توقف ولم يرم في أحضانه ، خشى أن يلوث له ثيابه ، فلف حلمى ذراعيه حوله وقبله قبلة أودعها الحنان الزاخر به قلبه .

وقال محمد في لهفة :

— كيف حال أبى ؟

— بخير ، وقد كلفنى أن أعطيك منه هذه .

وضمه ثانية إليه وقبله في حب . وأخذت إلهام تنظر إلى محمد وعمه وقد أحست المشاعر الرقيقة المتفجرة في جوف حلمى ، ولحت مسحة خفيفة من الحزن تكسو وجهه ، فاستشعرت دموعها تتحرك .

وقال محمد وهو ينظر إلى عمه نظرة فاحصة :

— ما دام أبى بخير فلماذا لم تأت أُمى لتمضية بقية الصيف معنا هنا كما

وعدتنى ؟

قال حلمى وهو يعاود ضم ابن أخيه إليه :

— لأن قلبها لا يطاوعها على أن تترك أباك وحده في القاهرة .

وأطرقت إلهام ، كانت ذكية الفؤاد ، فطنت من نبرات صوته إنه يكذب

ليرضى ابن أخيه ، وأنه يكتب ما يمور في جوفه من الألم ، فتضاءلت وجعلت تتلفت في اضطراب ، فقد شمت رائحة الشائعات الدائرة حول أختها وعلاقتها برفعت ، ورأت بعقلها خيوط الخيانة ، وهمت أكثر من مرة أن تفتح أختها في الأمر الذى أقلقها ، ولكنها خشيت أن تنفخ في النار السارية تحت الرماد فتعاون على اندلاع لهيبها ، فأثرت الصمت على مضض .

وراح محمد يدعو عمه إلى مشاركتهم في مرحهم ، وجعل حلمى يتسم ، كان يؤثر أن يبقى مع إلهام يحادثها ، فهو يشعر بارتياح لحديثها الذكى . واستمر محمد فى إلحاحه ، فخلع حلمى جاكته ، وذهب مع ابن أخيه ، وطفق يعاين ابن إلهام وابنتها ويدغدغ قدمى محمد بإصبعه وقد قبض عليهما بيده ، ومحمد يضحك حتى تغرورق عيناه بالدموع ، وإلهام تنظر وتبتسم وإن تحركت الشفقة فى نفسها على الشاب الثرى الذى يهفو إلى الذرية وقد حرم الولد .

ومر الوقت وانصرف الناس ، والأحداث تتابع ، ومالت الشمس نحو الغروب ، والأخبار يحملها الأثير ، وتحملها النسائم ، وذهب حلمى إلى دار الباشا وما إن رآه أبوه حتى قال له فى لهفة :
— تعال . لماذا تأخرت ؟

ولم ينتظر الباشا رد حلمى وراح يتحدث فى حماسة ، قال :
— كلف رفعة على باشا ماهر بتأليف الوزارة . وقد أرسلنا إلى رفعة الباشا برقية نطلب منه فيها أن يعود .

— وماذا قررت فى اجتماع الصباح ؟
— أن تؤيد حركة الجيش ، وعندما تستتب الأمور نقدم للقائمين على الحركة الشكر ونطلب عودة الجيش إلى ثكناته وتسليم الحكم للسياسيين .
وصمت الباشا قليلا ثم قال :

— ما دام على باشا صار رئيسا للوزارة فقد أصبحت عودة الوفد إلى الحكم

قرية .

قال حلمي في حذر :

— الموقف مشحون بالاحتمالات .

— سيستجيب فاروق لكل طلبات الجيش .

— وإذا طلبوا منه أن يتنازل عن العرش ؟

نظر الباشا إلى ابنه في دهش ، كأنما لم يدر ذلك بخلده من قبل ، وقال

حلمي :

— من المنتظر أن تتطور الأمور .

— وهل تبلغ هذا الحد ؟

— لولا هذا الهدف ما قامت حركة الجيش .

ومر يوم ومر آخر ولا حديث للناس إلا أنباء حركة الجيش واستيقظت الإسكندرية في صباح يوم ٢٦ يوليو على أزيز الطائرات التي ملأت الجو ، وتواترت الأنباء عن زحف الجيش إلى الإسكندرية لحصار قصر الملك .

وراح الراديو يذيع الرسالة التي وجهت إلى الملك :

« إنه نظرا لما لاقته البلاد في العهد الأخير من فوضى شاملة عمت جميع المرافق نتيجة سوء تصرفكم وعبثكم بالدستور وامتهانكم لإرادة الشعب حتى أصبح كل فرد من أفرادها لا يطمئن على حياته أو ماله أو كرامته ..

ولقد ساءت سمعة مصر بين شعوب العالم من تماديكم في هذا المسلك حتى أصبح الخونة والمرتشون يجدون في ظلكم الحماية والأمن والثراء الفاحش والإسراف الماجن على حساب الشعب الجائع الفقير .

ولقد تجلت آية ذلك في حرب فلسطين ، وما تبعها من فضائع الأسلحة وما ترتب عليها من محاكمات تعرضت لتدخلكم السافر مما أفسد الحقائق وزعزع الثقة في العدالة وساعد الخونة على ترسم هذه الخطى فأثرى من أثرى . وفجر من فجر . وكيف لا والناس على دين ملوكهم .

« لذلك فقد فوضنى الجيش الممثل لقوة الشعب أن أطلب من جلالته التنازل عن العرش لسموولى عهدكم الأمير أحمد فؤاد على أن يتم ذلك فى موعد غايته الساعة الثانية عشرة من ظهر اليوم (السبت الموافق ٢٦ من يوليو سنة ١٩٥٢) . ومغادرة البلاد قبل الساعة السادسة من مساء اليوم نفسه ، والجيش يحمل جلالته كل ما يترتب على عدم النزول على رغبة الشعب من نتائج » .

وبدأ يذيع الأمر الملكى بالتنازل عن العرش :
« نحن فاروق الأول ملك مصر والسودان ..
لما كنا نتطلب الخير دائما لأمتنا ، ونبغى سعادتها ورقيا ، ولما كنا نرغب رغبة أكيدة فى تجنب البلاد المصاعب التى تواجهها فى هذه الظروف الدقيقة ، ونزولا على إرادة الشعب :
قررنا النزول عن العرش لولى عهدنا الأمير أحمد فؤاد ، وأصدرنا أمرا بهذا إلى حضرة صاحب المقام الرفيع على ماهر باشا رئيس مجلس الوزراء للعمل بمقتضاه » .

وقام الباشا وعانق حلمى وقال له وهو يربت على كتفه فى حنان :
— مبارك ، لقد اتفقنا على أن تكون وزيرا فى أول وزارة يؤلفها الوفد .
وابتسم حلمى ولم ينبس بكلمة ، لم يشأ أن يعكر سعادة الباشا الغامرة التى تدغدغ كل خلجة من خلجات نفسه ، بعد أن لاح له أن أمله الذى عاش فيه سنين طويلة سيتحقق فى يوم قريب ، وإن كان حلمى يحس فى أعماقه أن هذا الأمل قد وئد إلى الأبد .

مضت أيام وليالي وأسابيع وهو طرح الفراش ، وقد عادته أخوه أكثر من مرة ، ولم يفكر الباشا في أن يبعث إليه بتحية أو أمنية طيبة بالشقاء ، فما باله يرسل إليه يطلب منه أن يوافيه اليوم في مكتبه ؟!

إنه ضاق بمرضه ، بتلك العداوة الناشبة بينه وبين الباشا التي لا يجد لها سببا ، وهو يرجو من أعماقه أن يكون أبوه قد تاب إلى رشده وفطن إلى أن الجفوة التي بينه وبينه لا مبرر لها ، وأن الضراوة التي كان يعامله بها ظالمة ما كان يؤججها في جوفه إلا عواطف قاسية يحركها وهم مريض أو مشاء بنميمة . إنه يتمنى بكل جوارحه أن يسود الصفاء بينه وبين أبيه ، فحقده عليه الذي كان يجري في دمائه كالصديد قد تبخر ، والبغض المقيت الذي كان يسكن فؤاده قد تلاشى ، طهره مرضه من خبائث نفسه ، وهو يأمل أن يبرأ الباشا من إحساساته الغليظة التي تقسى قلبه على ابنه الذي لا ذنب له إلا أن أمه ماتت وتركته بلا سند ولا معين .

علمه مرضه أن العمر أقصر من أن ينفق في مشاحنات وإحن وبغضاء وأحقاد ، إنه لو قدر له أن يعيش فلن يسمح لقلبه أن يخفق خفقة كره واحدة ، سيصفح عن الإساءة ، ويلتمس للناس المعاذير .

وقام ذابل العود ، شاحب الوجه ، غائر العينين ، رقيق النفس كأنه طيف ، ووقف أمام المرأة يرتدى ثيابه ، وكان بين لحظة وأخرى يديم النظر إلى الصفرة المنتشرة في صفحة وجهه فيغيم وجدانه بسحائب من الأسى والحسرة ، وربط كرافاته فأحس كأن حبلا لف حول عنقه وراح يضيق أنفاسه .

وجاءت بثينة ولحها في المرأة فراح يجاهد ليبدو قويا ، واعتصب ابتسامة رفت على شفثيه الذابلتين ، وجعل يرقبها بعينه اللتين كاد بريقهما أن ينطفئ .

ودنت منه وقالت فى توسل :

— لا تذهب ، أرجوك .

فقال فى هدوء :

— تغير الهواء يفيدنى ، وأعدك أننى لن أتأخر .

وأسندت رأسها على ظهره وضمت به ذراعها وقالت :

— إننى لا أطمئن لأية مقابلة بينك وبين هذا الرجل . لماذا يدعوك للذهاب

إليه وأنت مريض ؟ لماذا لا يأتى هو لزيارتك ويقول لك ما يريد أن يقول ؟!

إننى أوجس خيفة من هذه المقابلة ، أرجوك أن تستمع إلى نصحتى مرة واحدة ولا تذهب .

فقال وهو يربت على كفها الموضوع على قلبه فى حنان :

— أعدك أننى سألتزم الهدوء .

حتى إذا أصبح وجهه إلى وجهها ضمها إلى صدره فى رفق ، وقبلها قبلة

هادئة ثم قال :

— هل سيسافر محمد ثانية إلى الإسكندرية مع خالته ؟

— إنها تصر على أن يقضى باقى الصيف معها . .

ومدت يدها تعاونه على ارتداء جاكته ، وسرح بخياله يفكر فى ابنه ،

فخفق قلبه المريض حنانا ، وانبثقت دموع الشفقة فى ضميره ، وانتشرت فى

حنايه قبل أن تصل إلى مقلتيه ، وراح يفكر فى أمر ابنه الحبيب ، فإذا كان هو

قد أخطأ وأثار حفيظة الباشا عليه ، فابنه لم يقترب ذنبا ، وليس من شريعة

الإنصاف أن يؤاخذ البريء بالمسئ .

وسار الهوينى وبثينة إلى جواره ترجوه أن ييقى ، وتحاول أن تثنيه عن عزمه

دون جدوى ، وراح يهبط فى الدرج متمهلا ، ووجهه يمد بالآمال العريضة

المشرقة .. فيتخيل أن العداوة التى بينه وبين الباشا قد طويت ، وأن المحبة

رفرفت على الجميع ، وأن الود الصافى ساد الأسرة التى كادت تودى بها

الأحقاد ، فانبثقت في جوفه رقة حبيبة ، وما كان كيانه الواهى يحتمل إلا رفيق الأحاسيس ..

وركب السيارة التى كانت تنظره ، إنها سيارة أبيه ، وهو يركبها لأول مرة منذ سنين ، وحركت تحية إرسال السيارة إليه وجده فانبثقت في جوفه أطيب ما في كنوز نفسه من مشاعر ، وفي لحظة نسي كل إساءات أبيه ، وتدفقت عواطف الحب التى يستشعرها الابن المحب لأبيه الرحيم ..

ووقفت السيارة ، وأسرع السائق يفتح الباب ، وهبط عبد الخالق منها في ببطء شديد ، وراح يتقدم الهوينى ، ويلتقط أنفاسه في جهد ، ودخل على عثمان وقال في صوت خافت :

— صباح الخير يا عثمان بك ..

وأسرع عثمان إليه يعانقه وهو يصيح في ابتهاج :

— أهلا .. أهلا ..

كان مبتهجا لرؤيته حقا ، فقد كان يخشى أن يتخلف عن الحضور فتأجل المعركة التى يشتهبها إلى حين .. وراح يربت على ظهره ويدفعه في رفق إلى غرفة الباشا ، حتى إذا ما بلغا الباب مد يده وفتحها وقال وهو ينحنى انحناء خفيفة :

— تفضل ..

ودخل عبد الخالق يدب في ضعف ، وأغلق عثمان الباب خلفه ، ووقف وقد أرهف سمعه ولاح في وجهه الاهتمام الشديد ..

وقال عبد الخالق في صوت ضعيف :

— السلام عليكم ..

ونظر إليه الباشا فألفاه محطما ، وكاد قلبه يرق له ، وهم بأن ينهض إليه يسأله عما به ، ولكن كبرياءه أبت أن تحنى رأسها للابن الذى كاد ينطفئ ، فظل يرمقه في عبوس وهو يتقدم نحوه ..

ومد عبد الخالق يده إلى أبيه ليصافحه ، فوضع الباشا يده في يده وهو يتأفف

وما أسرع أن سحبها ، ولم يغضب عبد الخالق فقد آلى على نفسه أن يلتمس لأبيه كل عذر ، وأن يخفض له جناح الذل حتى يرضى وتصفو نفسه ..

وجلس عبد الخالق في المقعد القريب من المكتب ، وظل صامتا وإن راح صدره يرتفع وينخفض ويزفر ويشهق في صوت مسموع ، وطفق الباشا يرمقه برهة وقد تحرك حنانة ، وخشى أن يضعف فهب واقفا وقال في حدة :
— أتعرف لماذا أرسلت إليك ؟

وفطن من حدة الباشا أنه ما أرسل إليه إلا ليعنفه على شيء لا يدري ما هو بعد ، فعزم على أن يظل هادئا مهما فعل الباشا ، فقال :
— لا ..

قال الباشا في قسوة :

— لأن امرأتك قد عبثت بشرفنا ، لوثت سمعتنا ..

وثارت ثائرة عبد الخالق على الرغم منه ، واحتقن وجهه بالدم ، وتطاير الشرر من عينيه ، والتفت إلى أبيه في حنق وقال :
— اسكت ..

واستمر الباشا في قسوة وراح يقول :

— الناس كلهم يتحدثون عن العلاقة الشائنة التي بينها وبين رفعت ..
وأحس عبد الخالق كأن سيطا من نار تلهب روحه ، فقام منفعلا وقال في غضب :

— اسكت يا ظالم .. يا ظالم ..

ودنا وجه أبيه من وجهه وقال :

— لن تخرج من هنا حتى تطلقها ..

قال عبد الخالق في ثورة :

— أنت ظالم .. أنت ظالم .. اهتمتني بأننى أريد قتلك ، واليوم تطعننى في

عرضى .. تريد موتى .. لماذا هذه القسوة ؟ أنت قاس .. ظالم .. جبار ..

وراح الباشا يصيح به :

— زوجتك تخونك وأنت غافل ، طلقها ، لن تخرج من هنا قبل أن تطلقها ، لن تكون ابني أبدا إذا بقيت معك هذه الفاجرة ، لن أقبل أبدا أن تكون زوجة ابني عاهرا .. طلقها ، وإن لم تفعل فسأقتلها وأغسل بدمها عارها ..

وأحس عبد الخالق يدا قوية تضغط على عنقه وتكتم أنفاسه ، وجحظت عيناه ، وقال في جهد وهو مبهور النفس :

— أنت تقتلني .. تقتلني ..

قال الباشا وقد اشتدت ضراوته :

— أن تموت أنت والفاجرة خير من أن أسير منكس الرأس بين الناس والهمسات ترتفع حولى ، والأصبع تشير إلى قائلة إن زوجة ابني بغى ..

وتدفقت الدماء حارة في شرايين عبد الخالق ، وأحس وخزا في قلبه ، فوضع يده عليه كأنما يمنعه من أن يفر من مكانه ، ودارت به الغرفة فأه أهة خافتة ثم انهار ، ورأى الباشا ابنه ممدودا على الأرض أمامه فاقد الوعي ، فخف إليه مفزوعا ، وهو يهتف في رعب :

— عبد الخالق ! عبد الخالق !

ورفع رأسه بين يديه وضمه إلى صدره وهو ينادى في لهفة :

— عبد الخالق ! عبد الخالق !

وفتح الباب ودخل عثمان مهرولا ، وخشى الباشا أن يضبط وهو يضم ابنه في حنان ، وأن يتهم بالضعف ، فراح يعيد رأس ابنه إلى الأرض في رفق ويتعاون هو وعثمان على فك كرافاته والترييت على وجهه في حنان ..

ومرت لحظات قلق وخوف وارتباك وصمت ، ثم فتح عبد الخالق عينين واهنتين ورأى وجه أبيه ، وفي مثل لمح البصر أدرك كل شيء ، فأشاح بوجهه استياء ، وفطن الباشا إلى الغضب المتطاير من عيني ابنه فنهض وألقى عليه نظرة

(الحصاد)

حائرة ، ثم جمع شتات نفسه وابتعد بعيدا وهو باسر الوجه مقطب الجبين ..
وعاون عثمان عبد الخالق على النهوض ، فلما انتصب على قدميه استنشق
نفسا طويلا ثم دار على عقبيه وهو يزفر ، وسار لينصرف وهو محطم دون أن
يلقى على أبيه نظرة ، وخف إليه عثمان يسنده بذراعه ، فدفع الذراع التي
وضعت خلف ظهره ، وخرج يحجر رجله جرا ، وفي جوفه أتون نار ..
وجعل يترنح ، فبدور الشك التي غرسها أبوه في جوفه كانت تطعن روحه
طعنات قاتلة ، والضيق الذي يحسه يفوق ذلك الضيق الذي ينتابه في ضعف
قلبه ، وبلغ الطريق وهو يكاد ينوء لإعياء ، ولحه سائق سيارة الباشا فأسرع يفتح
بابها لاستقباله ، ولكنه أعرض عنه وأشار لسيارة أجرة وارتمى فيها ..
وانبهرت أنفاسه وزاغت عيناه وبلغ قلبه حنجرتة ، والأسى ينهش جوفه ،
وأخذ يسأل نفسه في مرارة : أحقا خانة رفعت وأصبحت بثينة كالنساء اللاتي
قابلهن في بيت مرسى وفي فيلا أنهار ؟ وهبت مشاعره تهوى بسوط عذاب
فيئن ويتوجع ، وتعوى روحه عواء كلب جريح ..
وراح يسخر من نفسه ، لماذا كان يجاهد مرضه ويتشبث بالحياة ؟ إنها
بغيضة مقينة بشعة قد قلبها من صوان ، ليته مات واستراح من النار التي تسرى
في أحشائه ، ومن قبضة الهوان التي تكتم أنفاسه ، ومن لسعات الشك التي
تحرق كيانه بنار أفسى من كل نار .
ووقفت السيارة أمام داره ، وغادرها وهو يوسع من خطاه ، لم يعد يحفل
بقلبه المريض ، ولا بجسمه الذي شفه الهزال ، ولا بذلك الدوار الزاحف إلى
رأسه ، لم يكن يخشى أن ينهار ، وانطلق لا يلوى على شيء ، وذهب إلى البار
وملأ كأسه وألقى بما فيها في جوفه ، ثم عاد وملأها مرة أخرى وعبها عبا ، كان
يريد أن يكتم أنفاس وعيه الذي يعذبه عذابا لا يقدر على احتماله ..
وأحست بثينة دخوله ، وخفت إليه ، ولما رأتة يشرب خمره في شراهة ،
اتسعت عينها رعبا ، وهجمت عليه تنتزع الزجاجاة من يده وهي تقول :

— هذا انتحار .. إنك تنتحر .. تقتل نفسك .. قلت لك لا تذهب ..
هذا ما كنت أقدره ، أبوك لا يعرف الرحمة ، إنه ..

ودارت به الغرفة ومادت الأرض تحت قدميه ، وسقط مغشيا عليه ، وبثينة
تصيح بالخادم أن تأتى إليها ، وحملتهما بينهما ونقلته في جهد إلى فراشه ، وبلغت
مسامع ابنه الجليلة المنتشرة في المكان فأسرع إلى غرفة النوم مفزوعا ، ورأى أمه
والخادم تسجيان أباه في الفراش فحقق قلبه رعبا ، وجعل ينظر في قلق يكاد من
اضطرابه ألا يحس شيئا مما يجري حوله ..

وبدأت الغشاوة التي رانت على ذهنه تهتك ، فطن إلى أن أباه قد يموت
الساعة ، فانبثقت الدموع من عينيه وارتعى على صدر أبيه وهو ينشج :
— بابا .. بابا ..

وأسرعت أمه إليه تطمئننه وفي قلبها أسى ، كان اهتمامها به أكثر من اهتمامها
بزوجها الغائب عن الوجود ..

وجاء الطبيب ، وأمر أن يخرجوا جميعا حتى بثينة وأن يتركوه مع المريض
وحده ، وانسلوا مطرقين ، وأغلق الطبيب خلفه باب الغرفة ، فجعلوا يذهبون
ويجيئون أمام الباب المغلق وفي صدورهم قلق ..

وجاءت إلهام تستفسر عن صحة عبد الخالق ثم تعود مع ابن أختها إلى
الإسكندرية ، ولما رأت الغرفة المغلقة والسهوم المرتسم على الوجوه ، خفق
قلبها رهبة ، وذهبت إلى أختها وقالت في صوت خافت مضطرب :
— ماذا جرى ؟

— استدعاه الباشا اليوم فذهب إليه ، ولما عاد من عنده ذهب إلى البار دون
أن ينطق حرفا ، وأخذ يشرب ويشرب وهو يعلم أنه بذلك يقتل نفسه ..
وصمتت إلهام لم تنبس بكلمة ، وأطرقت في أسى ، وراح الوقت يمر
والعيون تتطلع إلى الباب المغلق ، وسمع وقع أقدام خلفهم ، فالتفتوا جميعا ،
فإذا بحلمى يتقدم ، وبمنظرة سريعة فطن إلى ما يجري فتمهل ، وانطلقت بثينة

إليه وقالت فى ثورة :

— هذا ما يأتينا من الباشا ، طلب عبد الخالق وهو يعلم أنه مريض ليقتله ..
فقال حلمى فى أسى :

— بلغنى ما كان من الباشا فجعت أطيب خاطر عبد الخالق وأعتذر إليه ..
فقال فى حدة :

— يقتلون القتل ويمشون فى جنازته ..

وفزع محمد لقول أمه ، وراح ينقل عينيه فى وجوه الواقفين لعله يستشف
منها أحقا قتل أبوه ؟ وقال حلمى وهو منكس الرأس :

— أعدك أننى سأصلح كل شىء ..

ونظرت إليه فى ريبة ، وقبل أن تنطق حرفا قال حلمى :

— هذا وعد منى ..

وفتح باب الغرفة وخرج الطبيب متجههم الوجه ، وأسرع الجميع إليه ،
وقالت بثينة :

— ماذا وجدت يا دكتور ؟

قال الطبيب وهو يعبث بقلم فى يده :

— الحالة خطيرة .. لا بد أن ينقل إلى المستشفى الآن ..

وساد الصمت القلق مدة ، ولم يمزقه إلا بكاء محمد ونشيجه فذهب إليه
حلمى وضمه إلى صدره فى حنان وقال :

— لماذا تبكى ؟ أبوك بخير ..

وراح يعبث فى شعره وهو يضمه ثم قال :

— ستأتى معى حتى يبرأ أبوك ويعود إلى البيت ..

وذهبت إلهام إليهما وجذبت محمد من يده فى رفق وهى تقول :

— بل سيأتى معى ليكون مع الأولاد ، إنهما ينتظرانه فى الإسكندرية ..

لم تكن تقصد جرح حلمى ، ولكنها حركت مواجهه دون أن تدرى ،
فأطرق فى أسى وقد تدفقت فى حناياه مذلة وانكسار ..

تمدد عبد الخالق في سريره في المستشفى ، كان شاحب اللون ، ذهبت
نضارته ، ولاح في وجهه إرهاق شديد ، وفتح عينيه وراح يديرهما في المكان
فألفى على « الكونصول » سلة أنيقة بها ورود نادرة ، إنه لا يذكر من ذا الذي
أرسلها ، ولا يكاد يرى من شدة الوهن البطاقة المثبتة بطرف السلة ..
وأرخصى جفنيه على عينيه في خمول ، وراحت مشاهد حياته تتتابع في ذهنه
وهو بين النائم واليقظان ، رأى طفولته التي يحن إليها كلما أحس حاجة للعطف
والحنان ، فصورة أمه وهي تضمه إلى صدرها في رفق تحتل صفحة خياله
لحظات طوالا ، وما إن تخلى مكانها لصور أخرى حفرت في نفسه ، حتى تعود
وتطفو على سطح ذهنه الذي احتفظ بنشاطه على الرغم من الفتور الذي يغمر
وجدانه وجسمه ..

ورأى رفاق شبابه الذين كانوا يلزامونه كظله لما كانت اليا مقبلة عليه ،
الأستاذ بعوده يمضي أمسياته معه في البيت وفي العزبة وفي الطريق ، والممثلة
الكبيرة التي كانت تصر على أن تأخذ رأيها في مسرحياتها قبل أن تعرضها على
الجمهور ، وكادت صورة رفعت تبرز على شاشة خياله ، ولكنه نحاها بعيدا ،
وهو يشيح بوجهه عنها ، إنه لا يريد أن يعكر صفو ذكرياته التي ينشرح لها
صدره أو ينقبض منها انقباضا مشوبا بحنان له لذته ، أما الذكريات الغامضة
بالأعاصير فهو يخشى أن يواجهها حتى لا تكسر عوده الضعيف ..

وطافت به ذكريات بيت مرسى ، ورأى بعين خياله رحمة زوجة صديقه
التي كانت ترحب به أجمل ترحيب ، إنه يذكر تلك الليلة التي لعبت برأسه
الخمر فيها ، ولم يكن في الغرفة غيره وغيرها ، وراح يداعبها دعابات فاضحة
وهي تضحك في مرح ، وضمها إليه وأخذ يقبلها وهي تبادل له قبلاته ، وطار

الخمير فجأة من رأسه ، ودبت في جسمه قشعريرة ، وسكن الخوف قلبه ،
أفرعه أنه مقبل على زوجة صديقه التي تبيع نفسها لكل من يدفع الثمن ، إنه
بطبعه لا يحتمل أن يخون رجلاً يعرفه ، حتى إذا كانت مهنة ذلك الرجل أن يغلق
الأبواب على الرجال والنساء ولا يحفل أن تكون بينهن زوجته ..

وراح يتساءل : كيف يخون الصديق صديقه ، وأطلت صورة رفعت
لتحتل ذهنه وتثير عواطفه وتوقظ ذلك الشك القاتل الذي يهد روحه هذا ،
وإذا به يفر منها ويفكر في أنهار وفتيات أنهار ، وزحفت إلى رأسه صورة زين
العابدين وهي تبسم ابتسامة تكشف عن روحها المرححة الخفيفة ، وأصاخ
سمعه ، خيل إليه أنها تغنى له إحدى أغانيها الجنسية التي يشتهيها ، وأحس راحة
ذهنية عجيبة ، وترك نفسه تهيم في دنيا زين العابدين ، إن جسده هامد
لا حركة فيه ، ولكن ذكريات فتيات بيت شارع سليمان باشا ، والفيلا التي
تطل على الكورنيش تمده بشهوة فكرية تنساب في روحه كالنسيم ..

ولم تطل لحظات صفوه ، قفزت إلى مسرح خياله صورة الباشا وهو أمامه
في البوكس وإلى جواره زين العابدين ، إنه وأباه كانا يشتركان في فتاة واحدة ،
ومن يدرى لعل الباشا شاركه كل فتيات حياته ، وراح يحرك رأسه على الوسادة
البيضاء وفي وجهه ألم ، كأنما يحاول أن يحو الصور البغيضة التي ينبض بها
فكره ، ودوى في أذنيه صوت الباشا يصيح في ثورة : « طلقها .. طلقها ..
لن نخرج من هنا قبل أن تطلقها .. زوجتك تخونك وأنت غافل .. طلقها ..
الناس كلهم يتحدثون عن العلاقة الشائنة التي بينها وبين رفعت .. طلقها ..
طلقها » وانجهرت أنفاسه وتقلصت عضلات وجهه ورفع يديه يصم بها أذنيه
عن الصياح الذي يمزق روحه ويلهبها بنار قاسية غليظة ..

وأخذ يبحث في نفسه عن ملجأ يحتمي فيه من العذاب الذي يقاسيه ، فراح
يدور في كهوف ذاته وهو في حيرة ، وطفق يقلب ذكرياته كلها في عجل ،
لعله يجد من بينها ذكرى عطرة يتفياً ظلالتها بعد الضنى الذي قاساه في جحيم

أبيه ، ولم يجد في ماضيه حادثة إلا وقد ارتبطت برفعت ، إنه سرى في حياته كالسهم الزاحف في عروقه وشرائنه ، أفسد كل ذكرى نبيلة ..

وتدسست إلى رأسه صورة شعبان ، وتذكر الحديث الذي دار بينه وبين بثينة عقب أن عاد من الإسكندرية ، قالت له : إن شعبان غازلها مرات ، وأنه انتهر فرصة غيابه وجاء يرادوها عن نفسها ، وأنها طردته وقررت ألا تطأ قدمه بيتها ، فلو كانت زوجة بغيا فلماذا طردت شعبان ؟ ولماذا لم تهبه نفسها وفي يده ما يغريها به ؟ وراح يتلمس براءتها ، وإذا بهامس يهمس في أغواره : إنها لم تشتته لأنه ثقیل الظل ، بينما كانت نفسها تفتتح لحديث رفعت ونكاته التي كانت تعتمد على الجنس ..

وخفق قلبه الضعيف في شدة ، وزحفت أحاسيس نائرة إلى صدره زادت الضيق الآخذ بتلايينه ، واحتقن وجهه الذابل بالدم ، وراح يقلب رأسه على الوسادة ذات اليمين وذات الشمال في حركة عصبية ، كأنما يحاول أن يفر من الرؤى الأليمة التي تلح عليه ..

ومس أذنيه وقع أقدام فأحس راحة ، سيهرب من نفسه التي لا ترحمه كلما انفردت به ، والتفت صوب الباب فوقعت عيناه على إلهام وولديها وابنه ، وخضت روحه إلى ابنه تستقبله ، ووسع محمد من خطاه وارتمى على صدر أبيه المنهوك وراح يقبله ..

وضم عبد الخالق ابنه إليه في حنان ، وراح البشر يرقص على وجهه لأول مرة مذ دخل المستشفى ، وانتشر بصيص من الأمل في جوفه كالشعاع فاستشعر راحة ، ووقفت إلهام تنظر وعلى شفيتها ابتسامة حزينة ، فقد مس شغاف قلبها ذلك اللقاء القلق بين الوالد المهزوم والابن الحائر الذي لا يقدر حقيقة ما ينتظره ..

وصافحت إلهام زوج أختها وسألته عن صحته ثم جلست بالقرب منه ، وعاد محمد إلى أبيه وقال :

— بابا ! نجحت .. تسلمت الشهادة ..

وقال الأب فى صوت خافت وإن رقت بسمه لطيفه على شففيه :

— مبارك ..

وقال محمد وهو يقلب بصره فى أبيه وخالته فى فرح :

— وقد ذهبت مع أونكل بدر الدين إلى عمارته الجديدة التى يينها ، إنها عشرون طبقة ، وبها ثلاثة مصاعد ، إنها عماره فخمة ، أونكل بدر الدين هو صاحبها ، إنه لا يينها لأحد ..

وأحس عبد الخالق فى حديث ابنه البلم الشافى لجرح نفسه ، فنظر إليه فى حب ، وطاف بذهنه خاطر يتساءل : لماذا يعيش هذا البرىء يتيما ؟ وحسب محمد أن أباه ينظر إليه تلك النظرة إنكارا لحديثه ، فقال فى حماس :

— هو الذى قال لى إنها ملكه ..

والتفتت إليه إلهام وقالت وهى تنظر إليه نظره خاصة كأنما تقول له تذكر :
— وماذا قال لك أيضا ؟

قال محمد وهو يضرب رأسه الصغير بكفه :

— آه ! قال لى إنه مضطر للسفر وطلب منى أن أبلغ بابا سلامه .

وسمع وقع أقدام تقترب ، والتفتوا إلى الباب وصاح محمد فى فرح :
— عمى حلمى ..

ودخل حلمى وصافح إلهام وأخاه ، ثم مال يطبع قبلاته على حدود الأولاد ، وجلس وهو يضم محمد إلى صدره ، وقال لأخيه :

— لولا الباشا فى الحجاز لجا لزيارتك ..

وأسبل عبد الخالق عينيه خشية أن تكشف عن الإحساس الزاخر بالعداوة الذى انساب فى أحشائه ، وقالت إلهام لحلمى :

— العقبى لك يا حلمى بك ..

فقال وهو يعبث فى شعر ابن أخيه فى حنان :

— جمعا إن شاء الله ..

والتفت إلى أخيه وقال :

— وعبد الخالق معنا ..

وابتسم عبد الخالق ابتسامة يائسة ولم ينبس بكلمة ، وقالت إلهام لزوج أختها :

— ألم يقل الطبيب لك متى ستخرج ؟

قال عبد الخالق وهو ينظر إلى ابنه في قلبي :

— قال إن الأمر قد يطول شهورا ..

وراحت إلهام تتحدث إلى عبد الخالق ، وحلمى ينظر إلى ابن إلهام وإلى ابنتها نظرات حب ، ويسرح بخياله ويتذكر المحاولات التي كانت تبذلها بشينة لتزوجه من أختها ، إنه لو استجاب لمحاولاتها لكان هذا الفتى وهذه الفتاة ابنيه ، وخفق قلبه بمشاعر الأبوة المكبوتة ..

وراحت الأفكار تندفق إلى رأسه ، إن ابنه من إيفا أكبر من ابن أخيه ومن ابني إلهام ، ترى أهو ذكر أو أنثى ؟ أهو في خفة محمد أم في رقة ابنة إلهام ؟ إنه يحس إحساسا خفيا أنه ذكي وأنه صبي ، ولكنه ما كان بقادر أن يطمئن إلى صدق أوهامه ، فكل ما يحسه آمنيات .. ليته كان طفلا عاديا ، لا يميزه عن سائر الأطفال إلا أنه ابنه ، وأنه يستطيع أن يحسه وأن يراه ..

وأفاق إلى أنه استسلم لنفسه في مكان لا يجوز له أن يترسل فيه لشحطات خياله ، وأن يغيب عن الموجودين ، فأدار وجه محمد بيده حتى أصبحت عيناه في عينيه وقال :

— ستأتى معى لنستقبل جدك عند عودته من الحج ..

ونظر إليه محمد مشدوها ، لم يكن يدرى ما يقول ، وأسرعت إلهام تقول :

— إنه سيعود معنا إلى الإسكندرية بعد أن يطمئن إلى أن أباه بخير ..

وقال حلمى وهو يمد يده إلى أخيه يتحسس بها جبهته :

— إنه بخير ..

وابتسم عبد الخالق بسمة باهتة تنطق باليأس ، وأحس المرارة المتراقصة على شفثيه ، فجعل يجاهد حتى يبدو هادئا ليسكن الطمأنينة قلب ابنه ، ومد يده الواهنة يجذب محمد في حنان من بين أحضان أخيه ، وضمه إليه وقلبه الضعيف يجود برقيق المشاعر ، وقال في حب :

— سافر يا بنى وتمتع بالصيف ، إلى بخير ، وسألحق بك قريباً .

— قالت لى أمى لما سافرت أول الصيف إنها ستلحق بى ولكنها لم تفعل ، أما أنت فأنا واثق أنك ستأتى ..

وسمعت حركة وجلبة خفية ، وتقدم صبى يحمل ورودا وفى أثره بثينة ورفعت ، وتطلعت العيون إليهم ، وتقدمت بثينة إلى أختها تصافحها ثم التفتت إلى حلمى وقالت كأنما تعتذر عن تأخيرها :

— المواصلات أصبحت صعبة ، ساعة أنقب عن سيارة خالية .. وأحست العيون تنتقل بينها وبين رفعت ، وقد نبئت فيها شكوك ، فقالت وهى فى طريقها إلى زوجها :

— قابلت رفعت على باب المستشفى ، كان صدفة ..

وقبل أن تتم حديثها مالت على زوجها وقالت :

— كيف أنت الآن ؟

وأسبل عبد الخالق جفنيه ولم ينبس بكلمة ..

وتقدم رفعت إليه ولم يجرؤ على أن يمد له يده ، قرأ فى وجه عبد الخالق إعراضا عنه ، فقال وهو واقف خلف بثينة :

— شد حيلك ..

وجلسوا جميعا وراحوا يتسامرون وعبد الخالق صامت لا يشترك فى أحاديثهم ، كان مشغولا عنهم بالمشاعر القاسية التى فجرها فى أعماقه إقبال بثينة ورفعت فى لحظة واحدة .. كانت بثينة فى زينتها العادية ، ولكن وهمه

جعل بصور له أنها تبالغ في زينتها لترضى رفعت ، أما هو فهو رجل محطم مريض ليس في حاجة إلى أن تتزين له امرأته ، أو تبرز له فتنها ..
وجعل يرمق بثينة ورفعت من بين أهدايه ، ونار الغيرة نلتهم جوفه ، وتزلزل كيانه ، وتذيب ما بقى فيه من قوة ، وتقطع خيوط الرغبة الراهنة التي تربطه بالحياة ..

واختلس حلمى النظر إلى أخيه فألفاه يدير عينيه في قلق غاضب في وجهى رفعت وبثينة ، وقد ازداد وجهه شحوبا ، وضائق أنفاسه ، فطن إلى العذاب الذى يقاسيه ، وتمنى أن تختفى بثينة ورفعت سريعا من أمام عيني أخيه ، وتملكه حزن وضيق ، ولولا بقية من حياء لأمرهما أن يخرججا سريعا وأن يغربا عن وجه المريض الذى يتلظى بنار الغيرة ..

٥٦

ركب حلمى السيارة الجيب ووضع على رأسه القبعة الكبيرة يتقى بها حرارة شمس أغسطس ، وراح يطوف بأرض أبيه ، ويمر بخريجي الزراعة الذين عينهم بعد سفر الباشا ، والذين اعترض عثمان بك على تعيينهم ، وقرر سلفا أن الباشا سيطردهم يوم يعود .

ولم يلتفت إلى اعتراضات عثمان ، بل كانت سببا في إصراره على تعيينهم ، ولم يأبه لتحذيراته .. ولم يخش ثورة أبيه ، فهو يعرفه جيدا ، لا يهمه أن تعين هذا أو ذاك أو أن تستعين بمن تشاء ، فالعبرة عنده بالمال الذى يوضع في يده ، وكل البشائر تدل على أن الغلة ستزيد ، والمال الذى سيدخل خزائن الباشا سيربو بفضل عناية هؤلاء الشبان الذين استعان بهم ، ويقطع دابر سرقات عثمان ..

إنه كان يشك فيه ولا يطمئن إلى تصرفاته ، وقد أفضى إلى أبيه أكثر من مرة

بما يساوره من ريب ، ولكن الباشا كان يصم أذنيه عن كل اتهام يوجه إلى عثمان ، على الرغم من أنه يشتهي الإصغاء إلى الوشائيات ، فقد وقر في ضميره من طول معاشرته له أنه لا يخونه ، وصار يعتقد في أمانته ، ولن يززع عقيدته إلا برهان ساطع ، وقد جمع طوال مدة انفراده بإدارة العزبة أكثر من وثيقة تدمغ عثمان ، وتخلع عنه ثوب الأمانة الزائف الذى ارتداه دون وجه حق سنين طوالا ..

اختلف هو وعثمان بعد سفر الباشا بثلاثة أيام ، واشتد الخلاف بينهما يوم جاء بالشبان الذين يعاونونه الآن على حسن استغلال العزبة ، وقد اهتبل عثمان هذه الفرصة ليتظاهر بالغضب ، ويذهب إلى أرضه يشرف عليها ويرعاها وهو فى مأمن من غضب الباشا ..

وشرد حلمى ببصره ينظر إلى رقعة الأرض الخضراء المنبسطة ، وإلى المحاريث التى ارتفع صوت محرقاتها وهى تشق الأرض ، وإلى أشجار النخيل السامقة ، وإلى الفسائل التى تشب فى الفضاء فى حماية أمهاتها ، كالوليد الملتصق بصدر أمه ، وإلى الحركة الدائبة على الرغم من لفح الهواء الساخن ، فرقت على شفتيه بسمة رضا .

وانطلق فى طريقه وقد عاد يفكر فى عثمان ومزرعته ، ويتساءل من أين اشترى أرضه التى بلغت خمسمائة فدان ! إنه بدأ موظفا صغيرا عند أبيه براتب ضئيل ، فكيف تحول ذلك الراتب إلى جنات وعيون ؟ إنه دأب على سرقة الباشا .. وقد أطلت الجنيات التى سرقها بأعناقها ، فلماذا أغمض الباشا عينيه عن كل هذه السرقات ؟!

وهمس فى أغواره هامس يقول : إن أرض عثمان كلها حرام ، ويقال إن الحرام لا يدوم ، فلماذا تزدهر أرضه وتجد بأطيب الثمار ؟ هل حقا الحرام لا يدوم ؟ وطافت به موجة من الشك ، وسرح بخياله يفكر فألقى أن كل ما هو دائم فى البلاد حرام ، وكاد يطير ذلك الوهم الذى غرس فى نفسه وهو

صغير ، ويطمئن إلى رأى الذى طالما راوده ووسوس له أن ليس هناك حلال ولا حرام .. ولكن رن فى أغواره المثل القائل : « الحرام يفور ويفور ثم يغور » واستراح لذلك المثل وراح يقنع نفسه أن أرض عثمان تزدهر الآن حتى إذا ضاعت منه كانت حسرتة عليها شديدة . إنه يحس إحساسا غامضا أنه سيفقدها ، ولكنه لا يدري كيف ..

وفكر فى أرض أبيه ، لقد بدأت بفدان واحد روى بالعرق وربما بالحرمان حتى صارت بضعة فدادين ، وزحفت هذه الفدادين على الصحراء حتى صارت ثلاثمائة فدان ، وهى أحب أرض الباشا إلى قلبه ، ويث فيها من روحه ، وكان الأمر بعد ذلك أكثر يسرا ، زحفت تجارب الباشا على الأرض البور فدبت الحياة فى عشرة آلاف من الأفدنة .. إن ما قام به الباشا عمل جليل ..

وراح ينظر إلى الأرض الواسعة منتشيا ، وطاف بذهنه خاطر : أهذه الأرض كلها حلال طيب لم يدخلها حرام ؟! وكان يحب الباشا حقا ، ويدافع عن كل تصرفاته إذا ما حاولت نفسه أن تحط من شأن الباشا أو توجه إليه اتهام صغيرا ، فراح يقنع نفسه أن الباشا يطهر أمواله بالزكاة التى يدفعها للفقراء والمساكين كل سنة ، إنه يوزع بيده عليهم اثني عشر ألفا من الجنيهات فى كل عام ..

هل تكفى الزكاة لتطهير المال إذا كان أصله خبيثا ؟ إنه لا يظن ، وهو يذكر الساعة ذلك الذى كون ثروة طائلة من الحرام ، ولم ينبج إلا ولدا واحدا ، راح يرعاه حتى صار طبيبا ، وفى ذات يوم أنفق كل ثروته فى وجوه الخير ، ولما سأله ابنه عن ذلك ، قال : ليبارك الله فيك ..

كان هذا الرجل واثقا من أن الزكاة لا تطهر ما كان خبيثا ، وإلا لاكتفى بإخراج الزكاة ، وهو ذاته يعتقد ذلك ، ولكن ما الذى يدفعه إلى أن يلج فى هذا التفكير ؟ فأبوه قد كون ثروته بجهد ولم يسرق أحدا ..

وهمس في أغواره هامس : هل من الدين أن يعطى الفقراء والمساكين ويحرم ابنه ؟ وجعل يتلمس لأبيه المعاذير ، إنه يعتقد اعتقادا جازما أن عبد الخالق حاول قتله وأنه يتعجل موته ليرثه فأغلق قلبه دونه ، وهو معذور .. إنه بشر .. لو أن عبد الخالق خفض له جناح الذل من الرحمة ، ولو أن بثينة لم تؤجج نار العداوة المشبوبة بينهما ، لكان من الميسور تصفية ما في النفوس ، ولكن ما ارتكبته بثينة أخيرا من حماقة يجعل أمر التوفيق بين أخيه والباشا أمرا صعبا .. إنه هو نفسه قد ثار لما جاءت هي ورفعت لعيادة أخيه المريض ، وزاد في ثورته حرصها على أن تقول إنها تقابلت هي ورفعت عند باب المستشفى مصادفة ، كأن في نفسها شيئا تريد أن تخفيه وتؤكد عكسه .. لم يسألها أحد متى قابلت رفعت ، وهل جاءا معا من البيت ، فلماذا تصر على أن تقول إنهما تقابلا مصادفة ، دون أن يكون لذلك مناسبة ، أو موضع في الحديث ؟ إنه لا يستطيع أن يبرئ بثينة مما يتهمها به الباشا ، ولكن ذلك لن يثنيه عن أن يبذل كل ما في طاقته ليعيد السلام إلى الأسرة التي لم تعرف السلام يوما .. سيعود أبوه غدا ، وسيقنعه بزيارة عبد الخالق بالمستشفى ، وهو واثق من أن رؤية الباشا لابنه الذابل ستحرك عواطفه ، وتمحو ما في النفوس .. وعد أمه قبل سفرها أن يحتفل بعودتها احتفالا يفوق ذلك الذي أقيم لها ليلة زفافها ، وقام في نفسه سؤال : وهل رأيت ليلة زفافها حتى تعد بإقامة حفل يزهو على ما أقيم تلك الليلة ؟ إنه ما قال ذلك إلا للدلالة على فخامة ما يعتزم أن يصنعه يوم عودتها ، ولكنه وطن النفس على ألا يفعل شيئا ، فكيف يقيم الزينات وأخوه في المستشفى طريح الفراش يكاد يجود بأنفاسه .. طفق يفكر في عبد الخالق وفي موته ، إنه لو مات فلن يبحث أصله ، سيبقى محمد من بعده ليدفروعه ، سيعيش في أبنائه وأحفاده وذريته من بعده ، أما هو إذا كتب عليه أن يموت ، فلا فروع ولا حفدة ولا ذرية ، سيفنى .. سيذهب هباء منثورا ..

وأفزع ذلك الخاطر ، فراح يؤكد لنفسه أنه لن يفنى ، فابنه من إيفا سيمد فروعه ، سيكون له عقب ، وإن غرس في بيئة أخرى وتفرع في وطن آخر ، إنه بعد عن أصله ولكنه منه ، إن قبس روحه سيسرى في أجساد كثيرة ولن ينطفئ أبدا ..

ورن في جوفه صوت أجش يقول في قسوة : وما أدراك أن ابنك من إيفا لا يزال على قيد الحياة أو أنه لن يموت قبل أن يتزوج ؟ وضاق بذلك الصوت وراح يطمئن نفسه أن امتداد الآباء في الأبناء إن هو إلا وهم كبير يخدع البشر به أنفسهم ليخففوا عن أرواحهم بشاعة الفناء ، فمن يمت يذهب وتنقطع بينه وبين هذه الأرض الأسباب ..

واطمأن عقله إلى ما ذهب إليه ، ولكن وجدانه استمر في قلقه ، إنه يتلهف على أن يكون له ولد ، إنه أضعف من أن يقاوم غريزة البقاء ، إنه يريد أن يجد ابنا إلى جواره يرثه بعد أن يموت ، فإن كانت سميرة لم تعطه الولد الذي يتمناه ، فسيتزوج بأخرى تمنحه قرة عينه ..

أبت سميرة أن تنتظر أمه وأباه لتستقبلهما عند عودتهما وسافرت إلى الإسكندرية تمضي الصيف عند أبيها ، إنها تحس أن نهاية أيامه معها تقترب ، لذلك تخلق أسباب الشقاق حتى إذا ما هجرها قالت إنها كانت كارهة لمعاشرته ، تريد أن تبدو أمام الناس مرفوعة الرأس ، وأنها هي التي كانت تريد الانفصال إذا ما انفصلت عرى حياتهما الزوجية ..

إذا كان يفكر في تركها ، فما الذي يضيره لو حفظ لها كبرياءها ؟ لو تركها تقول ما تشاء وتفعل ما تشاء لتحفظ ماء وجهها من أن يراق ؟ إنها ستحاول وهي تدافع عن نفسها أن تطعن فيه ، فهل يستطيع أن يتلقى طعناتها وهو رابض الجأش ، لا يتبس بكلمة ؟ إنه لا يظن أنه قادر على الصمت والانتهاكات توجه إليه ، فهو كأبيه لا يجب أن يقف موقفا ذليلا أو يتكشف ضعفه أمام الناس ..

وانزاحت عن عينيه في تلك اللحظة غشاوة كانت تحول بينه وبين حقيقة معدن أبيه ، كان يحسب أن أباه يبادر بالهجوم على من يدخل معه في جدل عن قوة وصلابة رأى ، فإذا به يقطن من واقع حاله وهو أن الباشا يبدأ بالهجوم عن ضعف ، لأنه لا يقوى على الصمود في وجه أى هجوم ، لذلك يسارع إلى وضع مناوئته في موضع الدفاع ، وما من مرة اشتد الجدل فيها بين الباشا وعبد الخالق إلا وهاجم الباشا عبد الخالق هجوما قاسيا لا هوادة فيه ، ترى لو أن عبد الخالق هو الذى بدأ بالهجوم ، أكان الباشا ينكسر ويتبدل الحال ؟ إنه واثق في هذه اللحظة أنه لو أن عبد الخالق فاجأ أباه بالهجوم ، لما كان الآن على حافة القبر ..

لو مات عبد الخالق لأصبح هو وريث الباشا وحده ، لا ينازعه في هذه الأرض كلها منازع ، ولكن ماذا يكون مصير هذه الأرض كلها لو مات هو أيضا قبل أن يكون له غلام ؟ وعادت إيفا تحتل صفحة ذهنه ، وأخذ يحن إلى ابنه منها ويتمنى لو أن هذه الأرض كلها قد غاضت وعاد ابنه من إيفا إليه .. ووقفت السيارة الجيب أمام قصر الباشا ، وهبط منها وراح يصعد في الدرج الرخامي الواسع متمهلا وقد طأطأ رأسه أسى ، ودخل إلى الردهة الواسعة وخلع قبعته الكبيرة ونظر إلى وجهه في المرآة ، إنه لا يزال شابا ، ولكن روحه قد شاخت ، وكل من حوله عبثت بهم السنين ، إلا إيفا ظلت في ذهنه شابة ، إنها الشباب الدائم الذى لا يشيخ ..

٥٧

عاد الباشا وأمينه هانم إلى السراى ولم يكن في استقبالهما إلا الخدم وبعض الطامعات في البركة القادمة من الأرض المقدسة ، ولم يأت من أسرة الباشا إنسان للتهنئة ، فقد أقام الباشا بينه وبينهم سدا .. وراح حلمى يغدو ويروح

وهو يتسهم ويداعب الحاجة ، ولكنه كان في قرارة نفسه منقبضا ، ضايقه إعراض الناس عن استقبال أمه وأبيه ، حتى محفوظ باشا لم يفكر في أن يعث ببرقية .

لو كان الوفد في الحكم ، لهرع إلى سراى الباشا الشيوخ والتواب وأصحاب الحاجات والطامعون في وساطة الباشا ، لكن سحر الباشا السياسي قد بطل ..

وسرح يفكر : لماذا لا يشاركونهم الناس أفراحهم ؟ أحقا يحسدونهم على غناهم ويتمنون على الله زوال النعمة السابغة عليهم ؟ إنه سمع من الباشا هذا القول أكثر من مرة ، ولكنه يشك فيه ، فهو ليس كل الحقيقة ، فقد أغلق الباشا قلبه دون الناس ، ولم يمد لأحد منهم يدا ، إنه كان يصد كل من لجأ إليه يلتمس خدمة عنده ، وكان يغلظ القول لكل قريب يأتيه حتى انفض الأقارب من حوله ..

وساءه أنه لام الباشا في ضميره ، فراح يبرر لنفسه تصرفاته ، فما كان من المعقول أن يجعل الباشا من بيته تكية لأهله ، يكد ويكدح وهم جالسون كتنابلة السلطان ، يأكلون دون أن يعملوا شيئا ، وما من أحد يطالبه بأن ينقطع لأصحاب الحاجات يذهب ويحجى معهم دون أن يلتفت إلى مصالحه ، إنه لو فعل لكان الآن مثلهم من أصحاب الحاجات !

وأمه لماذا كانت تعتذر بضيق ذات اليد لكل قريب من أقاربها يلجأ إليها ملتسما منها سداد مصاريف الجامعة ؟ إنها لو مدت يدها إلى هؤلاء الذين طرخوا بابها لتمكن لهم مواصلة دراساتهم لأسدت إلى أسرتها أجل خدمة ، ولخففت بحبها قلوب أسرتها بإحسانها ، ولكنها كانت نخس بصدقاتها فقراء مكة والمدينة ، ويا طالما حدثها في هذا الشأن ولم تصغ لنصحه ، بل كانت تهمة أحيانا بأنه يعوقها عن بناء قصرها الذي تبنيه في الجنة ، وكان يضطر إلى السكوت بعد أن ييأس من إقناعها ، فمن المستحيل أن يغير مفاهيم أمه (الحصاد)

للإحسان والصدقة ..

وجاءت الخادم تحمل أول برقية تهنئة ، إنها من الإسكندرية، إنه يرجو أن تكون من سميرة ، فعلى الرغم مما بينه وبينها من مشاحنات هذه الأيام ، فهو يحب أن تظهر اهتمامها بعوده والديه ، وإن كان واثقا من أنها يعملان على تطبيقه منها ..

ونشر البرقية وقرأها ، إنها من بدر الدين وإلهام ، وهو يحس إحساسا صادقا أن إلهام هي التي فكرت في إرسالها ، فما من مناسبة طيبة إلا وسارعت إلهام تظهر رقيق عواطفها .. آه لو كانت بثينة عاقلة كأختها ولم تنزل في طريق الطيش ، لكانت اليوم سيدة هذا البيت ، إنه سيء الحظ لأنه لم يتزوج بإلهام ..

وراح يسأل نفسه : أكانت إلهام تجود بكل هذه الرقة لو أنه تزوج بها ؟ أليس لبدر الدين يد في كشف كنوز قلبها ؟ أكان الباشا يفسدها بتدليله أو يجفف بحور رقتها بصرامته ، أكانت أمه تتلف كل جمال روحها وتحرق نضارة طباعها بغيرتها ؟ إنه لا يدري ، كل ما يعرفه أن إلهام وبدر الدين سعيدان ، وأن كلا منهما قد خلق للآخر ..

ودخلوا غرفة الباشا ، وشرع الباشا يفتح حقائب الهدايا ، وأخذ يقدم حلمى عباءة من وبر الجمل لونها برتقالى ، ومفرش سفرة من المخمل الذهبى زين بورود حمراء بارزة ، وسجادة صلاة ، وراح حلمى يقلب سجادة الصلاة وفي عينيه مولد بسمة ، وفطن الباشا إلى ما يدور برأس ابنه ، فقال :

— ستحتاج إليها يوما ..

وأسرع حلمى يقول :

— ما أكثر ما صليت ..

فقال الباشا وهو عاكف على إخراج ما فى الحقيبة :

— ربما ..

وقالت الحاجة :

— ربنا يوعذك بالوقوف أمام الحبيب المصطفى ، ما من إنسان وقف أمامه
بناجيه إلا وخشع قلبه وسالت الدموع من عينيه ..
وراحت الحاجة تقص على ابنها ذكرياتها ، فهي كل ما بقى لها من حجها ،
ورفع الباشا عباءة سوداء بيده ، وراح يفحصها بعينيه ثم قال :
— وهذه العباءة لعثمان ..

وصمت حلمى ولم ينبس بكلمة ، لم يشأ أن يعكر صفو اللحظة ، كان أبوه
مغتبلاً ، فآثر أن ينتظر حتى إذا ما ذهبوا إلى العزبة ، وسيذهبون بعد يوم
أو يومين ، وضع بين يديه الوثائق التى تثبت خيانة عثمان الذى اتخذ أبوه إماما
ربع قرن من الزمان ..

وقالت الحاجة وقد التمت عيناها ببريق الأمل :

— وقفت عند باب الكعبة ودعوت الله أن يرزقك زوجة صالحة تعطيك
الولد ..

وسرح حلمى بخياله ، وراح يمصغ الألم الذى أثارت كوامنه أمه ،
واستمرت الحاجة فى حديثها وهو غائب عنها بالمشاعر التى تحركت فى جوفه ،
قالت :

— وصليت ركعتين فى مقام إبراهيم ، ولما انتهيت منهما أحسست أن الله
استجاب دعائى ..

وأراد أن يفر من نفسه التى كانت تحتشد لتعذبه ، فالتفت إلى أبيه وقال :
— وماذا ستهدى إلى عبد الخالق ؟

وجهد الباشا لحظة ، ثم التفت إلى ابنه بكل جسمه وقال فى انفعال :
— لا شيء ..

قال حلمى فى هدوء :

— لماذا ؟

فاتجه إلى ابنه وهو مقطب الجبين ، وقال فى غضب :
— لأننى برىء من عبد الخالق حتى يطلق زوجته ..
فقال الحاجة وهى تنظر إلى الباشا فى توسل :
— حرام تضيع حجتك بهذا الكلام ، ربنا يكره الخوض فى أعراض
الولاياء ..

والتفت الباشا إلى الحاجة فى ثورة وقال فى حدة :
— أنا واثق من كل ما أقول ، بشينة فاجرة ، وتحت يدي كل ما يثبت
فجورها ، فإن لم يطلقها عبد الخالق فسأمرغها فى الوحل ، إننى لا أقبل أبداً أن
تكون بغى فى أهل بيتى ..
فقال حلمى ليطفى ثورة أبيه :

— عبد الخالق طريح الفراش مذ خرج من عندك ، وقد حمل إلى المستشفى
ولم يغادرها حتى الآن ، إنه أعجز من أن يفعل شيئاً ..
فقال الباشا دون أن يلين أو يرق قلبه لابنه المريض :
— الرجل يطلق زوجته التى خانتها حتى لو كان على خشبة الغسل ..
فقال حلمى فى حرارة :
— عبد الخالق معذور ، لم تكن أمامه فسحة من الوقت ليستوثق من خيانة
زوجته له ؟

ولم يعجب الباشا ذلك المنطق ، فقال متأففاً :
— إننى قلت له إن زوجته فاجرة وأنها تخونه ، فهل كان يظن أننى أفترى
عليها ؟! إننى لا أقول شيئاً إلا إذا كنت واثقاً من صدقه ، عيب عبد الخالق أنه
يتشكك فى قولى ، لو أنه استمع إلى نصيحى ولم يجادلنى ، لما وصل إلى ما وصل
إليه الآن ..

فقال الحاجة فى خوف :
— إنه ابنك على كل حال ..

فقال الباشا فى إنكار :

— لا .. لا .. إنه لم يرث عنى شيئا ، وورث عن أخواله خنوعهم وخيبتهم .. لو كان ابنى حقا لما قبل هذا الهوان ، ولشرب من دمائها التى خانتها ا ابنى أنا يعيش مع امرأة يعرف أنها تخونه !؟

فدنا حلمى من أبيه وقال :

— إنه مريض لا يستحق كل هذه الثورة ، إنه فى حاجة إلى صفحك وعطفك ..

وقالت الحاجة لتشد أزر ابنها :

— إنه ابنك ولن تستطيع أن تنكره مهما قلت ..

فقال الباشا فى حدة وإن خفت ثورته :

— ابنى هذا أراد قتلى .. تمنى موتى ، ويا ليتة كان يقول متى يوم أبى ؟ ولكنه ما من مرة قابل فيها عثمان إلا وقال له : « متى نقرأ نعى عمك فى الصحف » .. كأننى عم عثمان ولست أباه !

ولم يشأ حلمى أن يؤجج النار المشبوبة .. فقال فى هدوء :

— أنا واثق أن عثمان يبالغ فى كل ما ينقله عن عبد الخالق ..

فقال الباشا مدافعا عن عثمان :

— عثمان لا يكذب .. إنه تربيتى ، ليت عبد الخالق كان كعثمان .

وتراقص الكلام على لسان حلمى ، ففى يده الدليل الذى يفضح به ابن عمه الذى استغل ثقة الباشا أسوأ استغلال طوال الستين التى عملها معه ، ولكنه آثر أن يترىث ، وكبح زمام لسانه فى جهد ، وراح يجمع كل ما فى طاقته من توسل وقال :

— لو زرت عبد الخالق لعاونته على التغلب على مرضه ، إنه فى حاجة إليك ،

لم يعد له أحد غيرك بعد أن بذرت فى نفسه بذور الشك فى زوجته ..

وأحس الباشا كأن كبرياءه طعنت ، فقال فى ثورة مفتعلة خشية أن تتغلب

عليه المشاعر الرقيقة التي بدأت تنبثق في جوفه :
— تكسر رجلى قبل أن تحملنى إليه ، فوالله الذى وقفت بباب بيته لن تقع
عينى عليه ما دامت الفاجرة فى عصمته ..

وساد صمت قلق ، والتفت حلمى إلى أمه ، وقال :
— إذا كان الباشا لا يزال غاضبا عليه ، فلا أقل من أن تزوريه أنت ..
وراحت الحاجة تنظر إلى الباشا فى قلق ، وخفق قلبها رهبة ، وأرهفت
سمعها ، ولكن الباشا أطبق شفثيه ولم يعترض على هذه الزيارة ، وإن كان
يباركها فى أعماق نفسه ، فلو لا صلفه ولو لا أنه لا يحب أن يبدو ضعيفا أبدا أمام
الناس ، لاستمع لتوسلات حلمى ، وذهب إلى المستشفى من فوره ..
وشرع الباشا يقلب فى هداياه ، وأخرج صينية من الفضة عليها طاقم قهوة
من الفضة ، دقيق الصنع ، زخرفته هندية ، وقال فى انشراح :

— هذه لإلهام ..

وقالت الحاجة :

— ما من مناسبة إلا وجاملتنا فيها ..

وانتظر حلمى أن يرى ما جلبه الباشا لسميرة ، فهو على الرغم من النفور
الذى بينه وبينها يحب أن يذكرها الباشا إكراما له ، فهى لا تزال زوجته
ولكن الباشا لم يذكر اسمها على طرف لسانه منذ عاد ، وأحسن حلمى
كدرا كان ينكره ولم يكن قادرا على أن يقاومه ..

ودار دورة حتى أصبح ظهره لأبيه ، لكيلا تفضحه الانفعالات التى
انعكست على مرآة وجهه ، وقال :

— إذا كنت لا تزال غاضبا على عبد الخالق ، فماذا أحضرت لابنه ؟

وأخذ الباشا يعث فى الحقيبة الكبيرة الموضوعة أمامه ، وأخرج منها كوفية
وعقالا صغيرا ، ومد بهما إلى حلمى ، فتناولهما حلمى وهو صامت ، وإن
كان فى نفسه لا يقر أباه على الهدية التى جاء بها لحفيده الوحيد ..

وراح يرنو إلى الباشا من طرف عينيه ، إنه لا يصدق أن قلب هذا الرجل قد من صخر ، فما بال كل هذه القسوة تشع منه ؟ يا طالما حيره بتصرفاته التي لا تخطر على بال .. إن هذا الرجل غريب ، ولولا هذه الغرابة والصلابة ما استطاع أن يحول فدانا واحدا إلى عشرة آلاف من الأفدنة من أجود الأطنان .. إنه كثيرا ما ينكره خفية من نفسه ولكنه بالنسبة إليه كالشمس لعباد الشمس ، يدور ورائها حيث تدور ..

وحان أو انصرافه ، فانطلق يشتري لابن أخيه ساعة قيمة ، يقدمها إليه مع الكوفية والعقال يوم يذهب إلى الإسكندرية ، ويقول له : إنها هدايا جده الذى يحبه ، فهو يرجو أن يتغذى قلبه اليافع بالحب والحنان حتى لا يقسو وتغلظ مشاعره ..

وخطر له خاطر ، لو أن ابنه من إيفا كان معه ، أكان الباشا يهدى إليه كوفية وعقالا ؟ وحرك هذا الخاطر أشجانه ، فراح يجتر ذكرياته مع إيفا ويدندن بأغنية الفالس التي كانت تغنيها له وهو يقبلها :

I kiss your hand, madam,

أقبل يدك يا سيدتي

I wish it was your lips.

وأتمنى لو أنها كانت شفتيك

٥٨

ذهب الباشا إلى الحاجة فألفاها في ثيابها البيضاء ، وقد جلست على سجادة الصلاة ، فلما رآته نظرت إليه بعينين قلقتين ، ولاح في وجهها هم ، وفطن إلى الاضطراب الذى يلفها ، فقال لها وهو ينظر إليها فى تساؤل :

— ماذا بك ؟

فقالت وقد أسبلت جفניה على عينها :

— رأيت رؤيا أفزعتنى ..

فقال فى اهتمام :

— خيرا ؟

— رأيت بقرة نزلت إلى مجرى الماء فى العزبة ، وراحت تشرب حتى شربت المياه التى كانت تجرى فى كل القنوات ..

وأطرق مهموما ، حركت هذه الرؤيا مخاوفه ، وسرعان ما خنق دلائل الضعف التى كادت تنعكس على مرآة وجهه ، وقال فى هدوء :

— سأبيت الليلة فى العزبة ، وأسافر إلى الإسكندرية غدا ، فمن الأفضل أن تسافرى إلى هناك رأسا ..

فقالت فى ضيق :

— اشتريت بعض مناديل من الحجاز للبنات اللاتي يخدمنا فى العزبة ..

وكأنما ساءها أن تضيق برأى أبداه ، فقالت وهى تنهض :

— خذ المناديل معك وأعطها البنات ..

وذهبت وأحضرت لفافة وقدمتها إليه وهى مشرقة الوجه ، تبالغ فى البسمة التى رفت على شفتيها ، كانت حريصة على أن تمسح أى أثر تركته فى نفسه نبرات الضيق التى نددت منها ..

وتناول الباشا اللفافة ودسها فى حقيته ، ثم انطلق ..

ودلفت السيارة إلى القناء الواسع الذى تطل عليه سراى الباشا وفيلا الضيافة ، والشمس ترتفع من الأفق الشرق وتبعث أشعتها الحامية التى كانت تلفح الوجوه بحرارتها ، وخف عثمان لاستقبال الباشا ، ومد يده يفتح الباب ، فقد كانت يده أسرع إليه من يد السائق الذى قفز فى خفة ليفتح باب السيارة ..

وهبط الباشا والعرق يتفصد من وجهه ، وراح عثمان يقول متملقا :

— ألف حمد لله على سلامتك ، هذا يوم مبارك ، والله لقد كانت العزبة

مظلمة بدونك ، كانت بلا روح ولا طعم ، ألف حمد لله على السلامة ..

وسار الباشا إلى مكتبه وعثمان خلفه لا يكف عن الحديث ولا ينتظر حتى

يدخل الباشا ويلتقط أنفاسه ، واستمر يقول :
— أنت خير هذه الأرض وأنت بركتها ، فبالله عليك لا تغب عنها ، فشهر
واحد تبتعد عنها كفيل بأن يفسد ما صنعتته بكفاحك في سنين ..
وفطن الباشا إلى أن عثمان يريد أن يحدثه عما فعله حلمى طوال مدة سفره ،
فقال وهو يجلس فى مقعده خلف المكتب :
— ما الأخبار ؟

فقال عثمان وهو ينحنى كعادته ليلتقم أذن الباشا :
— الأخبار كثيرة حتى أننى لا أدرى بأياها أبدأ ..
فقال الباشا وهو يضطجع فى مكتبه :
— نبدأ بأخبار العزبة ..
فقال عثمان وهو يلوح بيده ، ويضيق عينيه :
— أوه أخبار العزبة يطول شرحها ، وأرى أن نرجئها إلى آخر الحديث ..
فقال الباشا وهو يقرأ الانفعالات المرتسمة على وجه عثمان ، ويستشف منها
بعض ما جرى بينه وبين ابنه :
— ابدأ بما تشاء ..

وصمت عثمان قليلا ثم قال :
— هل ذهبت لزيارة ابن عمى فى المستشفى ؟
فاعتدل الباشا وقال :
— أقسمت ألا أقابله ما دامت الفاجرة على ذمته .
فقال عثمان فى صوت خافت :
— فعلت خيرا ، فالناس كلهم ينهشون فى عرضنا ، إننى أنحاشى الآن
الظهور فى أى مجتمع حتى لا أسمع ما يقال ، بثينة فجرت ، لم تعد تأبه بأقوال
الناس ، إنها تظهر مع رفعت فى كل مكان .. ويقال ..
وصمت ثم قال ليؤجج النيران المشتعلة فى جوف الباشا :

— لا حول ولا قوة إلا بالله ..

فهب الباشا واقفا وقال والشرر يتطاير من عينيه :

— وماذا سيقال أكثر مما قيل ١٩

فخفض عثمان بصره وقال :

— يقال إن رفعت بيت في فراش ابن عمى كل ليلة ، بينا ابن عمى في

المستشفى ..

فقال الباشا في غضب :

— المغفل ! لماذا لا يطلقها ويريجنا من هذا الهوان ١٩

قال عثمان في فحيح كفحيح الأفعى :

— قيل ، وأستغفر الله ، إن ابن عمى قد تخاذل حتى إن خيانة زوجته له

لم تعد تفرعه ، إنه ..

وانفجر الباشا قائلا :

— اخرس ..

وانكمش عثمان فترة ، وما لبث أن عاد للحديث الذى يلذه أن يلوكه على

الرغم من قسوته ، قال :

— يقال إنها تذهب لزيارته ومعها رفعت ، وأنه لو كان لا يقر ما بين زوجته

ورفعت لما سكت على ما يرى ..

فقال الباشا وعيناه تكادان أن تفرا من محجريهما ، ونفسه مكروب :

— الكلبة ! سأذهب إليها يوما وأكتم أنفاسها بيدي هذه ، سأغسل بدمها

العار الذى لطختنا به ..

قال عثمان في تأفف :

— الناس كلهم في راحة .. لماذا كتب علينا النكد دون الناس ١٩

وعاد الباشا إلى مكتبه وارتمى في مقعده ، وقال في صوت خافت ليعزى

نفسه :

— المؤمن مصاب ..

وقال عثمان في نبرات خبيثة ليمهد لوثبته الثانية :

— آسف يا باشا إذا كنت قد تسببت في مضايقتك ، ولكن ما باليد حيلة ، لا بد أن تعرف كل شيء ، لقد عاهدت نفسي على مصارحتك ، إننى لا أحب أن أغشك ، إننى أقول دائما ما يرضى الله ، وإن كان فيه غضبك على .. قال الباشا وهو مقطب الجبين :

— وما ذنبك أنت فيما جرت به المقادير ؟ تعلم يا عثمان أننى أثور لما يقع ، ولا أثور عليك .. إننى لا أحب الحال المائل ، فأى انحراف يحز في نفسى ، فما بالك إذا كان ذلك الانحراف قد أدى إلى التردى في هاوية الدنس ؟ هذا شيء لا أسكت عليه أبدا ، ولا يقبله رجل شريف مثلى ..

ونظر إليه عثمان نظرة مأكرة وصوت يهمس في جوفه قائلا : « يا نمس ، جمعية الفتيات الصالحات ؟! والست أنهار ؟! والراتب الشهرى الذى لم ينقطع حتى في شهر الحج ؟ أهذه تصرفات رجل شريف ؟! » ، وظل الباشا شارد البصر تضايقه المشاعر المواراة في صدره ، وصمت عثمان لا احتراما لصمت الباشا ، بل ليجمع حججه ، ويشحذ أسلحته ، والتفت الباشا إليه وقال :

— لماذا سكت ؟ تكلم ..

قال عثمان في صوت خافت وهو يشيح بوجهه بعيدا عن عيني الباشا :

— ماذا أقول وحديثى اليوم كله مضايقات ؟!

— تكلم ولا عليك ..

قال عثمان في صوت حزين حقا ، فالأمر يعنيه :

— بعد أن سافرت يا باشا بيوم واحد جاء حلمى ومعه بعض شباب حديثى عهد بالتخرج في الجامعة ، يحملون بكالوريوس في الزراعة وأحدهم طبيب بيطرى ، وسلمهم العمل في العزبة ، فاعترضت على ما يفعله ، قلت له إن

العزبة ليست حقل تجارب لمن لا تجارب عندهم ، إننا نزرع ونفلق قبل أن يولدوا ، وإننا قادرون على أن نعلمهم ما لا يعلمون ، فراح يسخر منى وأنا ساكت إكراما للبasha ، وراحوا يعيشون فى الأرض فسادا ، وشرع الطبيب البيطرى فى عمل سجلات لكل بقرة وكل جاموسة وكل ثور ، يسجل لها شهادة ميلاد وشجرة نسب ، فقلت له إننى وسعادة البasha نعرف تاريخ كل حيوان هنا ونعرف نسبه دون سجل ، إننا فى غنى عن هذا الجهد الذى لا طائل تحته ، فإن كانوا يريدون أن يعثوا فليبحثوا لهم عن مكان آخر ..

واشتد الجدل بينى وبين حلمى بك ، وصبرت إكراما للبasha ، ولكن لما وجدت أن حلمى بك مصمم على إفساد ما بذلنا فى صنعه العرق وأغلى سنين العمر ، لم أستطع صبرا ، وابتعدت عن العزبة وأنا حزين لا ألوى على شيء .. إن هذه الأرض أغلى عندى من أبنائى ، رعتها أكثر من رعايتى لهم قد أحتمل أن أرى ابنى يذبح أمام عينى ، ولكننى لا أحتمل أن تمتد يد الفساد إلى هذه الأرض ، أن تنتزع روحى من بين جنبى أهون من أن يعيث عاث بأرضنا التى ما جرت الحياة فيها إلا بدماء الرجال ودمائنا ..

واغرورقت عيناه بالدموع ، وتأثر البasha لبكائه ، فقام يربت على كتفه فى رفق وهو يقول :

— لا تغضب من حلمى ، حلمى أخوك الصغير ..

قال عثمان وهو يجفف دموعه بظهر يده :

— إننى لم أغضب منه ، ولكننى غضبت للأرض الطيبة التى راح هو وأصحابه يقسون عليها ..

ورمقه البasha فى حب وقال فى هدوء :

— هل لو رأيت حلمى يشعل النار فى نفسه ، أكنت تتركه ؟

قال عثمان دون تردد :

— كنت أفديه بروحى ..

— وهل إفساده للأرض أهون من إشعال النار في نفسه ؟
وفطن عثمان إلى الفخ الذى يستدرجه الباشا إليه ، فصمت وإن بانّت الحيرة
في عينيه ، وقال الباشا :
— إذا كنت ستفديه بروحك إذا رأيته يشعل النار في نفسه ، فلماذا تركته
يفسد الأرض ؟
قال عثمان مدافعا عن نفسه :
— نصحته فلم يستمع لنصحي ، ثرت في وجهه فتار في وجهي حتى هم
بأن يطردني ..
— إذا كنت تعتقد أنه كان يفسد الأرض ، فكان من الواجب عليك أن
تقاومه ..
قال عثمان وهو ينظر إلى الباشا بعينين مفتوحتين :
— بأى حق يا باشا ؟
— بحق رعايتك له ولهذه الأرض ..
أطرق عثمان وقد لآخ في وجهه التأثير ، وقال الباشا في هدوء :
— لا بأس .. حلمي قادم اليوم ، فتعال في الليل نصفي ما كان بينك وبينه ،
ونعيد المياه إلى مجاريها :

٥٩

دخلت المريضة غرفة عبد الخالق وهي تنظر في الساعة المثبتة في معصمها ،
وتقدمت حتى دنت من السرير ، وألقت على نفسها نظرة سريعة في المرأة التي
مرت بها ، وأصلحت شعرها بيدها ثم قالت :
— عبد الخالق بك ، حان ميعاد الحقنة ..
وظل عبد الخالق مسبلا جفنيه على عينيه ، وكشفت عن ذراعه ، وغرست

الإبرة فيها دون أن يفتح فمه بكلمة ، ووقفت تديم النظر في وجهه الدابل ثم انسلت من المكان ..

كان يحس أنه يذوى وأن روحه تكاد تنطفئ ، وأن الموت يزحف نحوه وعلى الرغم من ذلك لم يجزع ولم ينزل الفرع بقلبه بل كان يستسلم ليأسه ، ولا يحاول أن يقاوم الفناء الذى يسرى فى حناياه .

أصبح يفكر من الرؤى التى تذكره ببشنة ورفعت واصدقائه وماضيه ، وصار يرتاح لذكرى بعينها كانت تحتل صفحة ذهنه طالما كان واعيا ويراهها فى نومه على الدوام ، إنها أمه وهى مسجاة فى فراش موتها وقد انكب فوقها يلثمها هنا وهناك ، ودموعه الحارة تتساقط على وجهها الشاحب فى لون الشمع ، الفارغ من كل حياة .

كان فى أول عهده بمرضه يرى أيام طفولته ، وكانت البسمات ترف على شفثيه كلما تذكر شقاوته ، وكانت ذاكرته تطوف أحيانا بيت مرسى وبيت أنهار ، وكان يرى أباه وهو يصرخ فيه طالبا منه أن يطلق بشنة ، وكان يفعل أحيانا حتى يبلغ انفعاله منتهاه ، ويرق أحيانا حتى يكاد يذوب فى رفته ، وقد رأى ذات ليلة فى منامه أنه وهو فى سنه هذه يرضع من ثدى أمه ، وقد تذكر حلمه بعد أن استيقظ من نومه ، وفكر فيه طويلا ، ولكنه لم يجد له تأويلا .. كان هذا حاله أول ما جاء إلى المستشفى ، أما فى هذه الأيام الأخيرة ، فما كان يرى إلا أمه فى رقدتها الأخيرة ، وهو يقبلها ويكيها أحر بكاء ، وكانت فى خياله لا تريم ، حتى إذا ناء بمرضه كان يراها وهى تدور فى دوامة لا تغيب عن وعيه ، حتى يروح فى غيبوبة ، يغيب فيها عن حاضره وكل ما فى ماضيه من آمال وآلام ..

وجاء حلمى وأمينه هانم وكانت ترتدى ثيابا بيضاء وتلف طرحة بيضاء حول وجهها ، وتقدم نحو عبد الخالق ، فلما مس أذنيه وقع أقدامهما خيل إليه أنه ببشنة ورفعت أقبلًا ، فانقبضت تقاسيم وجهه وانتشرت فى جوفه موجة من

الأسى ، وقلب رأسه على الوسادة بحيث إذا فتح عينيه لا تقعان عليهما ..
وقال حلمى فى رقة :
— كيف أنت اليوم ؟

وسرى صوت حلمى إلى قلبه فانقشع غضبه والتفت ينظر مفتوح العينين ،
ورأى أمينة هانم ، فهم بأن يقوم جالسا ، ولكن يد أمينة هانم كانت أسرع .
منه ، فقد وضعتها على صدره تمنعه من الحركة وقالت :
— كيف أنت الآن يا بنى ، والله كنا نذكرك دوماً وندعو لك بالشفاء ..
قال عبد الخالق وهو منبسط الأسارير :
— حمداً لله على السلامة يا حاجة ، وكيف حال الباشا ؟
فقالت أمينة هانم فى ارتباك :

— بخير ، وكان يجب أن يأتى لزيارتك لولا أنه اضطر للسفر فى الصباح إلى
العزبة لأمر هام ..

ولم يغضب عبد الخالق لعدم مجيء أبيه ، فما كان ينتظر مجيئه ، وما كان
يطمح فى أن يسمح للحاجة بعيادته ، إنه واثق من أن حلمى هو الذى ضغط على
أمه للقيام بهذه الزيارة ، فحلمى يعمل دائماً على أن يرأب كل صدع يشقه
الباشا فى كيان الأسرة ، ولكن هيهات ، فالباشا بركان نائر لا تهدأ حممه ،
ولا يعرف الاستقرار .

وقال عبد الخالق فى هدوء ، كأنما يقرر حقيقة لا تمسه :
— أعرف أن الباشا لا يحبنى ، ولكن لى رجاء واحد ، هو أن يغفر لى إن
كنت أسأت إليه ..

قال حلمى فى انفعال :
— لا تقل هذا ، وأنت والد تعرف مشاعر الأب نحو ابنه ، إننى لا أتصور
أن هناك أباً لا يحب ابنه ، أنت تعرف الباشا وتعرف كبريائه ، إنه يتألم لعدم
مجيئه للاطمئنان عليك ، ويحتمل ذلك الألم ليحافظ على المظاهر ، ليقنع نفسه

أنه أقوى من ضعفه ..

وقالت أمينة هانم وهي تدنو من عبد الخالق :

— والله يا بنى ، وحياء النبى الذى وقفت خاشعة أمامه إن الباشا وقف وهو محرم أمام باب بيت الله ورفع أكف الضراعة وأخذ يدعو الله فى حرارة أن يشفيك ودموعه تغسل وجهه ، والله الذى حبجت بيته ما رأيت الباشا باكيا أبدا إلا هذه المرة .. لا تصدق يا بنى أن الباشا لا يحبك ، إنه إن كان قد قسا عليك فإنما فعل. ذلك لأنه يظن أن فى هذه الشدة صلاحك ..

قال عبد الخالق فى ضعف :

— كل ما أرجوه أن يساعحنى قبل أن أموت ..

قالت أمينة هانم فى تأثر :

— بعد الشر ..

وقال عبد الخالق وهو يلتفت إلى أخيه :

— أريد يا حلمى أن أعود إلى البيت ، أريد أن أموت فى دارى .

فقال حلمى وهو ينتزع ابتسامة من نفسه الغارقة فى الأحران :

— ستعود يا عبد الخالق إلى دارك قريبا ، بعد أن يتم علاجك .

وقالت أمينة هانم فى صدق :

— ستعود يا بنى لبيتك ولشبابك ..

قال عبد الخالق فى إنكسار :

— لم يعد لى فى هذه الدنيا مطمع بعد أن سمم الباشا حياتى .

وأطرق حلمى دون أن تتحرك شفتاه بكلمة ، ووجهه باسر ، فطن إلى

ما يقصده أخوه ، وقالت أمينة هانم فى براءة :

— الأيام كفيلة بإصلاح ما فسد ..

وأراد عبد الخالق أن ينفس عن مشاعره القاسية التى يضيق بها صدره . إنه

واثق من أنهما يعلمان بما بين زوجته وصديقه ، ولكنهما يتحاميان ذلك

الحديث حتى لا ينكأ جرح وجدانه ، وصمم على أن يجرحهما إليه جرا اليشار كاه
في حمل ذلك العبء الذى ناءت به نفسه ، قال :

— الأيام عاجزة عن إصلاح ما أكده الباشا ، طلب منى أن أطلق بثينة لأنها
تخوننى مع صديقى ، فإن كان هذا صحيحا ، فكيف تصلحه الأيام ؟! الأيام
أعجز من أن تعيد شرفا سلب ، وثقة اجثت من جذورها ..

قال حلمى فى ضعف وإن تظاهر بالحماسة :

— هذا غير صحيح ..

فقال عبد الخالق فى مرارة :

— بل أنا واثق أنه صحيح ..

ونظرت إليه أمينة هانم نظرة قلقة ، وراح عبد الخالق يرقبها برهة ثم قال :
— أقرأ ما فى عينيك وإن أمسكت عنه لسانك ، تتساءلين لماذا أنا غاضب
على الباشا إذا كان ما يقوله صحيحا ؟ وأقول لك : إننى لست حاقدا على
الباشا ، كل ما أرجوه منه أن يصفح عني ، أن يسامحني ، وإن كان سبب غضبه
على الآن أننى لم أطلق بثينة ، فإننى لم أفعل لأننى سأطلق الدنيا كلها دون أن
أقتص من أحد ، سأترك كلا لنفسه تقتص منه ، كما تقتص منى نفسى الساعة
على ما قدمت يداى ، فقصاص النفس من نفسها أقسى قصاص ..

وئارت أشجان حلمى ، فكلمات أخيه وجدت صدى فى نفسه ،
وراحت تمزق نياط قلبه ، فقد كابد من قبل ما يكابده عبد الخالق ، اقتصت
نفسه منه قصاصا مرا لا يزال يحس مرارته فى نفسه حتى الساعة ، مذهجرا أيضا
وتنكر لابنه الذى كان فى بطنها ذلك النكران الدنىء الذى أفسد عليه كل
حياته ، وأراد أن يفر من نفسه وأن ييث حب الحياة فى روح أخيه المنهارة ، لعله
يعاود مقاومة الفناء السارى فى جنباته ، فقال فى حماسة نابضة بالركة :

— ومحمدا لمن تتركه ؟!

وسرت رجفة خفيفة فى أوصال عبد الخالق ، وخنق قلبه حنانا وكاد أن
(الحصاد)

يضعف ، وإذا به يحشد كل قوى كبريائه كأبيه ويقول فى هدوء كلفه كثيرا من الجهد :

— سأتركه لك أنت ، وأنا واثق من أنك ستكون له نعم الأب ، إنه يحبك وأنت تحبه .. مستقبل محمد معك خير من مستقبله معنا ، إننى سأتركه وديعة فى أيد رحيمة وسأذهب وأنا مطمئن البال .. ولم تملك أمينة هائم عبراتها فأجهشت بالبكاء ، فقال لها عبد الخالق فى هدوء :

— لا تبكى يا أماء ، الموت ليس بالبشاعة التى تتصورينها ، كم فى الموت من راحة ؟ وما أكثر ما يكون صدر الموت أرفأ بنا من صدر الحياة .. قال حلمى فى انفعال :

— لا يا عبد الخالق ، لا تستسلم هكذا ليأسك ، لا بد أن تعيش من أجل محمد ، حنان الدنيا كلها لا يعوض عن حنان الأب .. فقال عبد الخالق وقد اغرورقت عيناه بالدموع لأول مرة :

— بل لا يعوض عن حنان الأم ، ولكن ماذا نستطيع أن نفعل إذا كانت أمه قد غمرت بحنانها رجلا آخر ؟ سلبته حقه من الحنان لتغدقه على رجل غريب ؟

— لا يا عبد الخالق ، لا تصدق هذه الأوهام ، ولا تترك نفسك فريسة لها ، بشينة تحب محمد ، تعبده عبادة ، قلبها كله له ، لا ينازعه فيه منازع حتى أنت ..

وأراد أن يؤكد فى نفس أخيه حديثه ، فمد يده فى جيبه وأخرج ساعة اليد التى اشتراها وقدمها إلى أخيه وهو يقول :

— حتى الباشا الذى تحسب أنه لا يحبك لم ينس محمد ، اشترى له هذه الساعة من الحجاز وأحضر له كوفية وعقالا ، إننى مسافر غدا إلى الإسكندرية ، وسأقابل محمدا وأعطيه هدايا جده ، وسأقبله قبلة لى وقبلة

منك ، أتريد أن أقول له شيئا ؟

وراحت أمينة هانم تنظر إلى الساعة الصغيرة الأنيقة التى كان عبد الخالق يقلبها فى فرح بين يديه ، إن الباشا لم يشتريها ولم يفكر فى شرائها ، إنه حلمى الذى اشتراها ليقدّمها إلى ابن أخيه على أنها من جده ، وحسنا فعل .. لو كانت تعلم أن هدية صغيرة مثل هذه تفعل ما يعجز عن أن يفعله السحر فى النفوس لاشرت عشرات منها ، ولكنها ما كانت تعلم ، وما أكثر الأشياء التافهة التى تأسر القلوب وغابت عن فطنتها ..

ووضع عبد الخالق الساعة على أذنه وارتسمت على وجهه آى البشر ، ثم وضعها على شفتيه وقبلها وأعادها إلى أخيه وقال :
— شكرا لكم ..

وساد الصمت المعبر برهة ، ثم التفت عبد الخالق إلى أخيه وقال :

— حلمى .. أريد أن أعود إلى بيتى ..

قال حلمى وهو ينهض لينصرف :

— أعدك أننى سأكلم الطبيب فى هذا ، وأنت ستعود إلى البيت إذا لم يكن فى عودتك ما يعوق علاجك ..

ونفضت أمينة هانم وصافحت عبد الخالق وهى تقول :

— أرجو أن أراك فى المرة القادمة إن شاء الله وأنت معافى وأنت فى بيتك ..

قال عبد الخالق وهو يبتسم :

— أشكر لك هذه الزيارة ، وحمدا لله على سلامة العودة ، بلغنى الباشا

تحياى ..

وانصرف حلمى وأمينة هانم ، وفيما هما فى طريقهما إلى السيارة ، التفتت

أمينة هانم إلى ابنها وقالت :

— لماذا لا يعود عبد الخالق إلى داره ؟

قال حلمى وهو مطرق :

— قلب عبد الخالق ضعيف جدا ، وأقل انفعال قد يقضى عليه ، إننى أنا الذى أمانع فى عودته ، لأنه إذا عاد فستكون بثينة دائما إلى جواره ، وقد تتطور المناقشات بينها وبينه إلى مشاحنات تقضى عليه ، إن عودة عبد الخالق الآن إلى بيته معناها موته ..

وراح عبد الخالق يتلملعل فى فراشه ، ويعيد فى ذاكرته كل ما كان بينه وبين أخيه والحاجة ، ثم فكر فى ابنه ، وما لبث أن فكر فى بثينة ورفعت ، فطلق يتقلب كأنما يتقلب على جمر ، ويثن أنينا ينطلق فى جوفه كسهم من نار ، ورن فى أذنيه صوت الباشا وهو يصيح به أن يطلق زوجته لأنها مرغت شرفه فى الوحل ، فكاد يصرخ من الألم الذى يمزق وجدانه ، وبلغ به الجهد منتهاه ، فراح ينوء والصورة التى بات يرتاح إليها تطفو على سطح ذهنه ، صورة أمه المسجاة فى فراش الموت وقد أكب عليها يقبل شفيتها الباردتين اللتين فرت منهما كل مقومات الحياة ..

٦٠

سرح خيال حلمى وهو منطلق بسيارته فى الطريق الزراعى ، كانت التربة عن يمينه والأرض السوداء والخضراء تمتد على مدى البصر على يساره ، والشمس ترسل أشعتها الجامية فيتفصد العرق منه دون أن يضيق به ، كان مشغولا عنه بالأفكار التى تترادف فى رأسه ، والمشاعر المتباينة التى تمور فى صدره ..

كان يفكر فى أسرته فيعجب ، وكان كلما أمعن فى التفكير ازداد عجبه ، إنه وزوجه وأمه وأبوه وأخوه وزوجته وابنه لا يزيدون على سبعة ويملكون عشرة آلاف من الأفدنة من أجود الأراضى ، وعلى الرغم من ذلك لم يعرفوا السعادة يوما ، إنه عرف إيفا ولما تحرك ابنه فى أحشائها طردها لأنه كان أجبن

من أن يتحمل نتيجة ما فعل ، يا ليتة استطاع في ذلك الوقت أن يهتك حجب الغيب ليرى اللوعة التي تربص به ، إذن لوقف إلى جوار إيفا وابنه ولو واجه العالم كله .. وتزوج من سميرة وهو يأمل أن تمنحه الولد ولكنها كانت عاقرا ، كأنما شاء قدره أن ينتقم لإيفا وابنها ، وعزم على أن يطلقها ولم يوافق الباشا حتى لا يفقد تأييد محفوظ باشا ، فهو لا يزال يأمل في عودة الوفد وتعيينه وزيرا ! وعبد الخالق خاتته زوجته ، وطعنت كبرياء الأسرة ، وأصر الباشا على أن يطلق عبد الخالق بثينة ولم يفعل عبد الخالق شيئا ، إنه يريد أن يطلق سميرة والباشا لا يؤيد هذه الرغبة ، وعبد الخالق لا يريد أن يطلق زوجته والباشا يصصر على تطليقها ، إن الباشا على الرغم من ثرائه لم يذق طعم السعادة ، فهو يريد أن تسير الدنيا حسب هواه ولكن الدنيا لا تنصاع لأمره .. ووسوس في نفسه قول سمعه : « خذ من الدنيا على قدر ما تشاء ، وخذ من همومها على قدر ما أخذت منها » ..

ورن في جوفه قول أخيه : « مستقبل محمد معك خير من ، مستقبله معنا » وأخذ يفكر في محمد وفيما ينتظره لو مات أخوه ، أهو حقاً . قى به بعد موت أخيه من بثينة ؟ إنه يستشعر في أعماقه أن بثينة خير له منه - نى ولو كانت بثينة تردت في الخطيئة .. إنها أمه وما يظن أن حنانا مهما فاض يتسامى إلى حنان الأمومة ، إنه يحس إحساسا عميقا أن بثينة ستكرس ما بقى من حياتها لابنها ، وستهجر ذلك النزق الذي اتهمت به أخيرا ، وكاد يطمئن لما ذهب إليه ، وسرعان ما راح فكره يمدد بقصص أمهات هجرن أولادهن في سبيل حبهن ، وما أدراه أن بثينة لا تكون من النسوة اللاتي يفضلن العشيق على قلذات أكبادهن !؟

وشرد يفكر والأشجار على جانبي الطريق تمر مر السحاب ، إنه لو أخذ محمد فسيمنحه كل حبه .. أيعوضه ذلك الحب عن حب أمه وأبيه ؟ وهل يعوضه محمد عن إنجاب ابن من صلبه ، إنه ابن أخيه ، وهيئات أن يكون

كأبنة ، إنه يحب محمد ما في ذلك ريب ، ولكن حبه لذلك الشيء الذى حملته
إيفا منه يفوق كل حب عمر به قلبه ..

ودخلت السيارة من الباب الكبير وانسابت إلى الفناء الذى تطل عليه سراى
الباشا وفيللا الضيوف ، ولحق عثمان وهو فى مكتبه ابن عمه ، فلم يتحرك
ولم يسرع إليه كما يفعل كلما جاء الباشا ، بل استمر يفكر ويجمع حنجه
ويشحذ كل منطقة ودهائه لمعركة الليلة ..

ووقفت السيارة أمام الدرج الرخامى الواسع ، وهبط حلمى منها وهو
يحجف عرقه ، ويسرع الخطا ليفر من حرارة أغسطس ، ودخل على الباشا
فألفاه فى جلاباب أبيض فحياه ، وارتقى فى مقعد وثير يلتقط أنفاسه ..
قال الباشا فى حنان :

— تأخرت حتى ارتفعت الشمس ..

قال حلمى وهو يحجف عرقه :

— ذهبت أنا والحاجة لزيارة عبد الخالق فى المستشفى ..

ولاح الاهتمام فى وجه الباشا ، ولكن لم تتحرك شفته بكلمة ، وقال
حلمى :

— إنه يرجو أن تسامحه ، وأن تصفح عنه قبل أن يموت ..

واضطرب الباشا وخشى أن يستبد به ضعفه ، فقال فى حدة :

— لن أصفح عنه أبدا قبل أن يطلق بشينة ..

— الواجب يا باشا أن تزوره فى مرضه ..

— أنا أزوره ١٢ وإذا زرتة وهو متمسك بزوجته التى تخونه فماذا يقول

الناس عنى ؟ سيقولون إننى راض عن الفساد الذى يجرى فى أهل بيتي .. لا ..

لن أزوره أبدا ، لست ديوثا ، لن أزوره حتى ولو مات ما دامت بشينة على

ذمته ..

وقال حلمى وهو مطرق :

— إنه تأكد أن بثينة تخونه ..

فقال الباشا في ثورة :

— فماذا ينتظر ؟

— قال إنه لا يطلق بثينة لأنه طلق الدنيا كلها ، ستركها لنفسها تقتص

منها .

— اسكت ، لا أريد أن أسمع هذه الخيبة ، إنه لا يطلقها لأنه أضعف من أن

يطلقها .. أنا أعرف عبد الخالق ، خوار دائما ، يفر من واقعه بمثل هذه الآراء

السخيفة ، إنه طلق الدنيا ، يا للهوان ! أريد منى أن أنشر في الصحف أن ابني

طلق زوجته التي تخونه يوم طلق الدنيا ! لا بد أن أضع حدا لهذه المهزلة ، إنني

ما حضرت اجتماعا إلا ورأيت الناس يتغامزون على ، وأكاد أسمع سخرياتهم ..

سأذهب بنفسى إلى بثينة ، وأضعها في مكانها ..

فقال حلمى في توسل :

— أرجوك ألا تفعل ..

قال الباشا في انفعال :

— بل سأفعل ، وسأضع حدا لهذا الهوان ..

ووجد حلمى ألا فائدة ترجى من معارضة أبيه ، فقد عزم وما من قوة في

الأرض تثنيه عن عزمه ، فقام يخلع ثيابه ويستريح ..

وغابت الشمس ، وكسرت حدة الحرارة ، وخرج حلمى في سيارته

الجيب يطوف حول الأرض ويفكر فيما إذا كان الوقت مناسبا في مفاتحة أبيه في

أمر عثمان وسرقاته التي وضع يده عليها ، وقرقراره أن يترث قليلا حتى يستريح

الباشا من متاعب الحج .. كان يشفق عليه من الصدمة ، ويا لها من صدمة يوم

يكشف أن عثمان كان يخدعه طوال العمر كله ، إنه موضع ثقته ، وقد طعن

الباشا من مأمنه ..

وعاد إلى السراى وقد غرق الكون في الظلام ، وصعد في الدرج متمهلا

يفكر فى نفسه وفى سميرة وفى عبد الخالق وبثينة وفى محمد وفى إلهام وبدر الدين ،
وراح يتساءل فى نفسه : إلهام سعيدة حقاً فى حياتها كما تبدو للناس ؟ وأنكر على
نفسه هذا السؤال ، وراح يحاسب نفسه : لماذا نبت هذا السؤال فى ذهنه ؟
أيريد أن يشكك فى إمكان وجود سعادة خالصة ؟ إنه لم يسعد ، هذا حق ،
وأبوه وأمه وأخوه لم يعرفوا السعادة ، هذا حق ، ولكن ليس معنى هذا أن ليس
هناك سعداء ، فما أكثر الذين عرفوا السعادة من أقصر طريق ..

وبلغ غرفة الباشا ، وألقى النور متألقاً فيها فدخل ، ووقع بصره على عثمان
وهو يلتقم أذن الباشا كعادته ، فاستشعر ضيقاً وألقى عليه تحية مقتضبة ، ودار
على عقبيه لينسحب من المكان ..

قال الباشا فى رقة :

— حلمى !

فالتفت حلمى إلى الباشا من فوق كتفه ، وقال الباشا :

— أقعد ، ابن عمك يريد أن يعاتبك ..

وابتسم حلمى وجلس وراح ينظر إلى عثمان فى استخفاف ، كان قد قرر أن
يؤجل مهاجمته إلى فرصة أخرى ، ولكن الظاهر أنه يتعجل المعركة ، ومال
حلمى إلى الوراء ، وسدد نظرة إلى عثمان وعلى شفثيه بسمة وقال :

— هات ما عندك يا عثمان بك ..

قال الباشا دون أن يفطن إلى خطورة المعركة التى سيشهد وطيسها بعد
حين ، وسيخوض غمارها ثائراً مزجراً :

— قل كل ما عندك يا عثمان ، فإننا نريد أن نصفى ما بينك وبين ابن عمك
لتسلم القلوب مما شابهها ..

فاعتدل عثمان وقال :

— والله لولا أننى أعز ابن عمى ما صبرت على ما فعله ، لقد جاء ببعض
شبان لا يدرون عن الزراعة شيئاً ، كل مؤهلاتهم أنهم يحملون شهادة من

الجامعة ، ويا ليتهم جاء بهم ليتدربوا عندنا ، بل سلمهم الأرض كلها ، وراحوا يفسدون فيها ، جاعوا يتعلمون الزبانة في رعوس يتامى ، ولكننا لم نكن يتامى . جئت لابن عمى وقلت له أن الباشا لو كان موجودا لما وافق أبدا على هذا ، ولم يصغ إلى اعتراضى ، واستمر فيما رسمه ، وصبرت على مضض ، وفاض صبرى فلم أطق أن أرى الأرض التى أصلحناها بعرق جبيننا يعبث فيها العابثون وأنا واقف مكتوف اليدين ، فتركت العزبة وهربت ، إننى أعلم يا باشا أنك عاتب على لتركى الأولاد يعيشون فى الأرض فسادا ، ولكن ماذا كان فى مقدورى أن أفعل ؟ كنت مغلوبا على أمرى ..

وراح حلمى يعبث فى أصابعه ، لم يبد عليه الاهتمام ، وظل صامتا حتى قال له أبوه :

— ما رأيك فيما يقول ابن عمك ؟

قال حلمى فى هدوء :

— اسمح لى يا باشا أن أحضر ملفا من غرفتى ..

فقال الباشا وهو يفحص ابنه بنظرة ثاقبة :

— وما أهمية هذا الملف فى حديثنا ؟ قل رأيك ثم نصفى ما بينك وبين ابن

عمك ..

قال حلمى وهو ينهض :

— هذا الملف هو الذى سيصفى ما بينى وبين ابن عمى ..

وخرج حلمى ، وقال عثمان فى سخرية :

— سيحضر شهادات ميلاد الجاموس والبقر والخيل والحمير والأغنام

وأنسابها ..

وابتسم عثمان ولم يتبسم الباشا بل نبت فى جوفه قلق لم يدر له سببا ، وعاد

حلمى وجلس وراح يقول وهو يضرب ركبتيه بالملف :

— كنت قد عزمت على أن أؤجل هذا الحديث ، وما دام ابن عمى أبى

إلا أن يثيره الليلة ، فما باليد حيلة .. كل ما قاله ابن عمى صحيح ، ولكن ينقصه بعض التوضيح ، ولن أفعل أكثر من أن أوضح ما قاله .. كان ابن عمى هو كل شيء في هذه الأرض ، لا يعرف المحصول أحد غيره ، ولا يستطيع أحد أن يتصرف في شيء إلا بإذنه ، هو الوزان وهو الكيال وهو المقدر لأسعار البيع وأسعار الشراء ، ولما كان التنظيم الصحيح يقضى بالتخصص فقد خصصت واحدا مسئولا عن كل عملية ..

قال عثمان معترضا :

— هذا تبذير ليس له ما يبرره ، لماذا ندفع أجورا ومهايا لأناس نستطيع أن نقوم بأعمالهم ؟

— ثبت بالإحصاء أن هذا ليس تبذيرا ، فاقت ثمار أعمالهم الأجور والمهايا التي دفعت لهم ، وظهر بالدليل القاطع أن العزبة تغل أكثر مما كانت تغله .. فقال عثمان في حدة :

— ماذا تقصد أن تقول ؟

قال حلمى وهو يرمق عثمان في سخرية :

— أريد أن أقول. إن غلة الأرض الفعلية تفوق ما يتسلمه الباشا .

قال عثمان :

— لا . هذا لا يحتمل .. إننى لا أسمح لكائن من كان أن يشك في ذمتى ..

وأخذ الباشا يرقب ذلك النقاش في اهتمام ، دون أن تتحرك شفاته بكلمة ..

وقال حلمى وعلى شفتيه بسمة هازئة :

— من قال إننى أشك في ذمتك ؟ إننى لا أشك فيها لأننى واثق من

خرايبها ..

فهب عثمان واقفا وثار قائلا :

— أنا لا أطيق هذه الإهانة ..

قال الباشا في غلظة :

— اقعد .. أنا لا يهمنى إذا كنت تطيق هذا أو لا تطيقه ، أريد أن أعرف الحقيقة ..

فقال عثمان فى ثورة :

— أتريدنى أن أسكت على هذه الإهانة ، يتهمنى أنا بخراب الذمة ، أنا الذى أفنيت عمرى فى خدمتكم ! أنا لا أقبل هذا أبدا ، لا أقبل أن يكون هذا جزأى ..

قال الباشا فى غضب :

— قلت اقعد حتى تنجلي الحقيقة ..

وزاغت نظرات عثمان ، ووجد فى الثورة خير عون للدفاع عن كيانه الذى يوشك أن ينهار ، فقال :

— أنا أعرف أن حلمى بك لا يطيقنى ، إنه يريد أن ينفرد بإدارة العزبة ، هذا حقه ، إننى لا أعارض فيه ولكننى لا أقبل أبدا أن يكون ذلك على أنقاضى ، هناك أكثر من طريقة مهذبة تمكنه من أن ينحىنى دون أن يتهمنى فى أعز ما أملك ، وهل أملك أعز من شرفى ؟! إننى لا أسمح لكائن من كان أن يطمعننى فى شرفى ..

ووقف الباشا منفعلا وقال :

— قلت لك اقعد واسمع ما يقول ابن عمك ودافع عن نفسك ، أريد الحقيقة .. أريد الحقيقة ..

وجلس عثمان مبهور النفس ، والتفت الباشا إليه وقال :

— آه لو كنت تغشنى كل هذه السنين !

فقال حلمى وهو يهز الملف فى وجه الباشا :

— يؤسفنى يا باشا أن أقول إنه كان يغشك كل هذه السنين ..

وضاق صدر الباشا بقول ابنه ، فهو يتمنى من أعماقه أن تنهار الاتهامات الموجهة لعثمان ، لا حيا فى ابن أخيه ، بل إرضاء لغروره ، ففكرة أنه كان

مخدوعا طوال هذه السنين تضايقه ، فقد وضع في عثمان كل ثقته ، وهو يرجو ألا يثبت أنه هو الرجل الحريص قد وضع ثقته في غير موضعها .. لو ثبت أن عثمان كان يخدعه ففيم كان طرده لعبد الخالق ؟

وقال حلمى في حدة :

— لا أريد اتهامات لا أساس لها ، أريد وقائع مدعمة بمستندات .

فقال حلمى في هدوء :

— وهل كنت أقدم على اتهام عثمان بك ما لم تكن مستندات إدانته في يدي !

وفتح الملف وأخرج منه ورقة وقال :

— أتذكر أن عثمان أجرى عمرة كاملة للمحاريث والجرارات ؟

— أذكر ..

وقدم الورقة إلى الباشا وقال :

— أتذكر أن هذه كانت التكاليف ؟

فتفكر الباشا في كشف الحساب وقال :

— وقد دفعنا هذه القيمة ..

ورمى حلمى عثمان بطرف عينيه فألقى لونه قد غاض ، فابتسم وقال :

— فما رأيك يا باشا إذا كانت هذه المحاريث والجرارات لم تفك قبل الآن ؟

وفهم الباشا ما يرمى إليه حلمى ، فاحتد قائلا :

— وما إثباتك ؟

فأخرج حلمى ورقة أخرى من الملف وقال :

— شهادة المهندس الذى قام بفك المحاريث والجرارات بأنها لم تفك من

قبل ..

فقال الباشا وهو يهز كشف الحساب في يده :

— وكشف الحساب هذا من الذى قبضه ؟

قال حلمى وهو ينظر إلى عثمان :

— اسأل عثمان بك ..

والتفت الباشا إلى عثمان وقال :

— انطق .. تكلم .. لماذا خرست ؟

فقال عثمان وقد احتقن وجهه بالدم :

— هذا كذب .. هذا افتراء .. إنه دبر هذه الاتهامات ليحطمني .

وقال حلمى وهو يخرج ورقة أخرى من الملف :

— وهذه شهادة أخرى من مهندس آخر بأن مضخات المياه التى قبض عثمان

بك قيمة إصلاحها لم تمس من قبل ..

والتفت حلمى إلى عثمان وقال وهو يهز الملف فى وجهه :

— وهنا شهادات بالمحاصيل بإشرافى وإشراف الشبان الذين تسخر منهم .

شهادات تثبت كلها أن حقيقة ما تغله الأرض يزيد على ما كنت تقدره على

هواك ..

وصاح عثمان قائلاً :

— إنك تريد أن تتخلص منى ، دبرت كل هذه المفتريات لتتخلص منى ،

إننى ذاهب ولن أسامحك أبدا .. أبدا ..

أراد عثمان أن يفر من سوط الاتهام الذى يلهب روحه ، ويجعل الأرض تميد

به ، ولكن الباشا أسرع وسد عليه المنافذ .. ودنا وجهه من وجهه وانفجر

صائحاً :

— يا لص .. خدعتنى .. وثقت فيك فخربت بيتى ، ورثتى وأنا حى

يا ضلالى .. سخرت منى كل هذه السنين .. خدعتنى حتى هان على أن أدفـ

خمسة آلاف من الجنيهات لأشتري لك أنت البكوية . يا لص .. خدعتنى ..

ولن أترك من خدعتنى يمشى على الأرض أبدا .. أبدا ..

وأطبق يديه على عنق عثمان وراح يضغط فى شدة ، وعثمان يجاهد ليفك

القبضة التى كادت تزهق روحه ، والباشا يزجر :

— لص .. ضلالى .. كيف وثقت فيك وأنا أعرف أباك خائنا لا يؤمن .
خربت بيتى .. خربت بيتى ..
وهرع حلمى إلى أبيه وراح يجاهد مع عثمان ليفك قبضته عن العنق الذى
كان يزداد ضغطه عليه ، وراح حلمى يقول :
— دعه .. سيموت فى يدك ، لن نجنى من قتله إلا المتاعب ..
وقال الباشا وقد انقلب وحشا :
— لا بد أن يموت . لن أدع من خدعنى يمشى على الأرض أبدا .
وجعل حلمى يقاوم أباه ويقول :
— اتركه .. اتركه .. إنه لا يستحق أن يؤخذ به ..
وخلص عنق عثمان من يدى الباشا ، فوقف يترنخ ثم انسل من المكان
لا يلوى على شيء ، وسباب الباشا يلاحقه :
— يا خائن .. يا ابن الخائن .. خربت بيتى .. الله يخرّب بيتك ، والله لن
تهدا نارى حتى أواريك التراب ..
وغاب عثمان عن العيون والباشا يسب ويلعن ، ثم ارتقى فى مقعده وراح
يقول فى انفعال :
— خدعنى الكلب .. خدعنى أنا ! غشنى الكلب .. غشنى أنا !
فدنا حلمى من أبيه وقال :
— هون عليك ..
فقال الباشا فى أسى :
— ليت مات ولم أكشف خيائته ، فلو مات لترحمت عليه ، أما الآن فسألعه
فى الغدو والآصال ، سألعه ولن تسلم نفسى من لومى ..
— وماذا كنت تستطيع أن تصنع ؟
— كان ينبغى ألا أثق فيه كل هذه الثقة ..
— هذا كلام نقوله بعد أن نكتشف الخيانة ، إنها الشيء الذى لا نستطيع أن

نمنعه ..

— ما أقسى أن نكتشف فجأة أن من كنا نضع فيه ثقتنا يخوننا .
وأراد حلمى أن ينتهز فرصة ضعف أبيه ليرق قلبه على أخيه ، فقال :
— ائتمنت عثمان وخانك ، ووثق عبد الخالق فى بشينة وخائنه .
فاحتد الباشا قائلا :

— لا .. لا تشبهنى يا حلمى بعبد الخالق ، إنه جبن عن أن يطلق زوجته التى
خائنه ، أما أنا فلا أتردد فى قطع يدى إن خائننى ، إننا لا نلام على أن يخوننا
الآخرون ، ولكننا نلام إذا ما استكنا للخيانة .

٦١

ضاق سليم بوسوسات وجدانه ، فما أن يختلى بنفسه حتى تتحرك همسات
ساخرة فى جوفه تلسعه لسع الأفعى وتجرح كبرياءه فيتلوى خزيا ، هدد بأنه
سيلصق خد بشينة بالأرض إن لم ترعو وتكف عن عبثها ، وهاهى ذى سادرة فى
استهتارها دون أن يحرك ساكنا ، فقد ظهرت فى حفل عام مع رفعت بينا
عبد الخالق فى المستشفى يرجو أن يحمل إلى بيته ليموت بين أهله ..
وتدفقت دماؤه حارة فى عروقه ، وراحت ترن فى جنباته أصوات ثائرة
تخرضه على أن يقوم من فوره وينطلق إلى بشينة لوضع حد لفجورها الذى باتت
تعلنه على الملأ كأنما تفعل ذلك عامدة لتلطخه بالعار ، فهب واقفا وقد عزم على
أن يذهب إليها لينفس عن المشاعر المزججة فى صدره ، وما دار بخلده أن سبب
ضيقه هو أن الأمور لم تسر وفق هواه ، فقد ألغيت الألقاب ، وتقوض حلم
عودة الوفد إلى الحكم ، وشحن الجو بأحاديث اعتزام الحكومة تحديد الملكية
والقضاء على الإقطاع ..

وسار إلى بيت ابنه فى العصر ليضمن وجودها قبل أن تخرج إلى المستشفى

أو إلى حفل من الحفلات الكثيرة الفارغة التى أمست تمضى فيها أغلب لياليها ، ونشبت معركة حامية فى جوفه ، رأى بعين خياله بثينة واقفة منكسة الرأس خزيا والسباب والاتهامات والتهديدات تتدفق من فمه كسياط من نار دون أن تفتح فمها بكلمة ، فما كان يخطر له على قلب أنها تستطيع أن تفتح عينها لتواجه شرر الغضب المتطاير من عينيه ..

وفى هذه اللحظات المتأججة بالغضب طاف به خيال حلمى ، فإذا بطاقات الثورة الهوجاء المواراة فى جنبات صدره توجه إليه فيأخذ فى لوم نفسه على ما جناه فى حق ابنه ، إنه هو الذى حال بينه وبين سعادته ، كان حلمى يهفو إلى تطبيق سميرة ليتزوج بأخرى تمنحه الذرية التى يشتهيها ولكنه وقف بأنانيته فى سبيله ، كان يريد أن يرى ابنه وزيرا ، فضجى بهناء ابنه فى تحقيق أمانيه ، وإذا بالأيام تسفر عن غيبها العجيب ، فلا ابنه أصبح وزيرا ، ولا هو تزوج بامرأة ولود ..

ودخل غرفة الاستقبال وراحت الخادم تهوول إلى غرفة سيدتها تعلنها بمقدم الباشا ، إنها لم تره من قبل أبدا وإن عرفته من صورته الكبيرة المعلقة فى غرفة سيدها ، وفطنت الخادم إلى أنه ما جاء إلا لأمر ذى بال ، فأخذت تطرق الغرفة دقات متتابعات تنم عن القلق الذى نحسه ..

وقالت بثينة فى حدة :

— ادخلى ..

وفتحت الباب ، فإذا بثينة وابنها جالسان وفى يد كل منهما مجلة .. وقالت الخادم :

— سليم باشا جاء ..

فقال بثينة فى دهش :

— هنا ؟

— إنه فى غرفة الاستقبال ..

وأوجست بثينة خيفة وإن بدت هادئة ، ووضع محمد المجلة جانبا ، ونظر إلى الساعة التي في معصمه ثم نهض وهرول إلى غرفة الاستقبال ، ولم ترتج بثينة لوجود ابنها ، فهي على ثقة من أن الباشا ما جاء إلا ليثير المتاعب ويشعل نار العداوات ، كانت تتمنى أن تقابل حماتها وحدها حتى إذا ما قامت مشادة بينه وبينها وتطاييرت الاتهامات وتقاذفا بالسباب لم يصب أحد غيرهما ، أما وأن محمدا قد يشهد المعركة فهي تخشى أن تصيبه الأسلحة القذرة التي قد يلجأ كل منهما إلى طعن غريمه بها .. آه لو وصمها الباشا بخيانة زوجها أمام ابنها لقضى عليها ، إنها تحس إحساسا خفيا أن الباشا ما جاء إلا لهذا ..

وتقاصرت نفسها واستشعرت هوانا ، وكأنما أرادت أن تسترد ثقتها في نفسها ، فراحت تهمس في سخرية لشد نخاؤها : « الباشا !؟ لم يعد باشا ، ألغيت الألقاب واستل منه كل سلطان ، وهبط من عليائه ، ويا ليت لا يطلق لسانه حتى لا أزلزل الأرض تحت أقدامه ، إن تكلم فلن أسكت أبدا ، سأرد عليه الكلمة بعشر أمثالها ..

وقامت تتأهب لاستقبال الرجل العنيد الذي جاء ليهاجمها في عقر دارها ، وتلم أطراف شجاعته التي قلما تخلت عنها ..
وذهب محمد إلى جده بقلب سليم ، وقال له وهو يشير إلى الساعة التي في معصمه :

— شكرا لك يا جدي على هديتك ..

ونظر الباشا إلى الساعة في إنكار ، إنه لا يعرفها ، وهذه أول مرة تقع فيها عليها عيناه ، وقال محمد في فرح :

— قال لي عمي حلمي : هذه الساعة اشتراها لك جدك من الحجاز ، وأعطاني كوفية وعقالا ..

ودنا محمد من جده فضمه الباشا إلى صدره ، وتحركت في جوفه مشاعر الغضب رقيقة دغدغت حواسه واستكان لها حتى كادت تغمر مشاعر الغضب (الحصاد)

التي اندلعت ألسنتها في أعماقه ، وأحس الصبي راحة وهو بين أحضان الباشا
ذكرته بالحنان الدافق الذي يستشعره كلما احتواه أبوه بين ذراعيه ، فالتفت
محمد إلى جده وقال :

— سيعود أبى إلى البيت بعد غد ، سيفادر المستشفى ..

وقال الباشا في صوت متهدج :

— وكيف هو الآن ؟

— قال لي أمس لما ذهبت لزيارته إنه بخير ..

وصمت الباشا وانزوى غضبه ، وزحف الأسى ينتشر في حناياه ، قال لي
حلمى إن عبد الخالق أصر على أن يعود إلى داره ليموت فيها ، وأن الطبيب وافق
على عودته لا لأنه برأ من مرضه ، فلا شفاء لمن وهن قلبه ، بل لأن بقاءه في
البيت أو في المستشفى سواء ، إنه يهفو إلى الذهاب لرؤيته ولكنه يخشى أن يفسر
ذهابه لعيادة ابنه بأنه إقرار بعثت زوجته وتسليم بسلوكها المشين ..

إنه جاء اليوم ليعلن غضبه على بثينة وليقول لها إنه برىء منها وأنها ليست
زوجة ابنه ، فإذا كان المرض قد أقعد عبد الخالق عن أن يطلقها فلن يقبل أبداً أن
يجمع بينه وبين من خانت بيت واحد ، سيطردها طرد الكلاب أول ما يسترد
أنفاسه ..

وانتشر الغضب ثانية في صدره واندلع لهيبه ، وأقبلت بثينة في زينتها فهب
الباشا واقفاً بعد أن دفع محمداً بعيداً عنه في رفق ، وأخذت دماؤه تتدفق حارة في
شرايينه حتى احتقن وجهه وصار في لون طربوشه ..

وانتهجت بثينة إليه تتصنع الهدوء وإن اشتد وجيب قلبها ، ومدت يدها إليه
لتصافحه ، فتجاهل اليد الممدودة ، وأحست أنه طعنها طعنة مسمومة كادت
تترنح لها ، وفي مثل لمح البصر جمعت ثباتها الذي كاد يذهب شعاعاً ، وعزمت
على أن ترد له الطعنة ، فقالت وهي تشير بيدها المرفوضة إلى مقعد وثير :
— تفضل سليم أفندى ..

وأحس وقع سخريتها في قلبه ، وزادت في حدة غضبه ، فقال في قسوة :
— ما جئت إلا لأقول لك إن رائحة فضائحك قاحت وزكمت الأنوف ،
وأن الناس كلها تتحدث عن علاقتك الشائنة برفعت ، وأتينا لا نرضى هذا
الهوان ، فإذا كان عبد الخالق لم يطلقك حتى الآن فسيطلقك ، فما أحسب أن
رجلا منا يقبل أن يظل مرتبطا بفاجرة مثلك ..

وانفجر محمد باكيا وهو ينقل عينيه بين أمه وجده في ذهول ، ثم جرى
ليذرف دموعه وينشج وينتحب بعيدا ، ووقفت بثينة برهة وهي مذهولة ، فلو
أن هذا القول وجه إليها وحدها ، دون أن يؤذى سمع ابنها الذي كانت تفضل أن
تموت على أن يتدسس إلى وجدانه شك في طهارتها ، لما أحست ذلك الانهيار
الذي يرسى في أوصالها ، إنه طعنها طعنة نجلاء في شرفها أمام أعز من لها في الوجود ،
ويا ليت الطعنة استقرت في فؤادها إذن لما تموت وهي ترجو حب ابنها ، أما الآن
فقد بذرت في سريرته بذور احتقاره إياها ، وهي أمر بذور تغرس في ضمير
الصغير ..

وعز عليها أن تنهار ، ورأت أن تدافع عن نفسها لا لتقنع الباشا ، ببراءتها ،
فهذا ضرب من المحال ، بل لتدخل في روع ابنها أنها مفترى عليها ، فقالت في
ثورة :

— إننى لا أسمح لك أبدا أن تأتى إلى بيتى لتفترى على كل هذا الافتراء ،
أعلم أنك تكرهنى ، ولكننى ما كنت أظن أن دناءتك تصل بك إلى تلويث
امرأة شريفة .. اخرج .. اخرج من بيتى ..

ونظر الباشا إليها والشرر يتطاير من عينيه ، وقال وهو يصرف أنيابه :
— يا فاجرة ! تحت يدي ما يثبت خيانتك ، فإن لم تتركى عبد الخالق وأنت
صاغرة فسأشهر بك ، سأكون لسانا عليك ، سأجرك إلى المحاكم لتفصل بينك
وبين ابنى ، إننى عشت شريفا ، ولن أسكت على هذه الدناءة أبدا ..
وزمجت كوحش جريح وقالت :

— أنت ؟ إنك لم تعرف الشرف يوما ، إذا خدعت الناس كلهم بحجك
فلن تخدعنى أنا .. إلى أعرف كل نفاقك ، كل ماضيك .. أعرف جمعية
الفتيات الصالحات .. أعرف الست أنهار .. أعرف أنك ضببت أنت وابنك
في بيت واحد من بيوت الدعارة .. أعرف يا جاج الكثير ..

فقال الباشا في ثورة ورأسه يدور :

— يا فاجرة .. يا فاجرة ..

وأحست أنها زلزلته ، فقالت في تهديد :

— اسمع يا سليم أفندى ، إذا كان بيتك من زجاج فلا تقذف الناس
بالحجارة ..

وقال الباشا في تهديد وهو ينسحب ليفر من الهوان الذى تردى فيه :

— والله إن لم يتركك عبد الخالق فلن تمشى على الأرض أبدا ، لن أسمح بأن

أرى عارى يسير بين الناس ..

— أتقتلنى ؟

— إذا كان قتلك هو آخر ما تغسل به العار الذى لطبخنا ..

وانسل هاربا وبشينة تنظر إليه شاردة ، وصوت يرن فى أغوارها : « ليتك
قتلتنى قبل أن تغرس فى قلب ابنى احتقارى .. يا ظالم ، إننى ضحيتك ، فلولا
عبثك وعبث ابنك ما سقطت ، كنت طاهرة الذيل حتى ذلك اليوم المشئوم
الذى علمت فيه أنك ضببت أنت وعبد الخالق فى بيت أنهار ، ليتنى لم أسقط ،
ليتنى لم أتمرغ فى الوحل ، ليت ابنى يصفح » ..

وأفاقت من شرودها ، وراحت تجرى إلى حيث كان محمد يركب ، فمالت
عليه ورفعته ، وحاولت أن تضمه إلى صدرها ، فإذا به يشيح بوجهه عن
وجهها ويتملص من بين يديها ، ويجرى مبتعدا عنها وقد زاد نحيبه ، وجعلت
ترقبه وفى عينها دموع ، وفى جوفها وقدة نار ، ثم أخفت وجهها فى المقعد
الذى ارتمى ابنها فيه من قبل ، لتخفى الصور الأليمة التى راحت تراها بعقلها ،

واستبد بها اليأس ، فأخذت تجذب خصلات من شعرها الأسود في عصبية وانفعال ..

٦٢

كان محمد مسرورا لعودة أبيه إلى البيت ، إنه لا يزال محدودا في فراشه ، شاحب اللون ، مكروب النفس ، ولكن وجوده أمام عينيه سد فراغا كان يحسه في نفسه ، وزاد في غبطته قدوم عمه حلمى مع أبيه يوم عودته ، وحده عليه ، وبذل كل ما في جعبته لراحته .. إنه لا ينسى وصية عمه لأبيه قبل أن ينصرف ، طفق يؤكد عليه أن يلزم الهدوء وألا يفعل ، وكان رقيقا في حديثه ، صادقا في مشاعره ، حتى إن كلماته البسيطة هزت قلب الصغير ، وهيجت منابع أشجانه ، فأطلت دمعتان من زوايا عينيه أزاهما سريعا بأصبعه ..

وفي غمرة سروره كاذ ينسى الطعنات المسمومة التي سددها جده دون أن يدري إلى أحشائه ، وأوشكت قشرة رقيقة أن تغلف قبح نفسه ، فراح يجوس خلال الدار مغتبطا والبشر يتألق في وجهه ..

وجلس إلى جوار أبيه مطمئن البال ، مستريح الضمير وجاءت أمه ودنت من السرير ، فإذا بوجه أبيه يتقلص ، ويتحامي أن تلتقى عيناه بعينيها ، فراح ينقل عينيه بين أمه وأبيه في قلق ، وأخذ النور الساطع في ضميره ينطفئ ، وانتشر في وجدانه ظلام وتحركت هوام مشاعره البغيضة ، وسرت كراهيته في جنباته كالصديد ، فقسّمت أبيه وانفعالاته تؤكد اتهامات جده لأمه ، تلك الاتهامات البغيضة التي يهب من نومه مفزوعا مرات ليضرب رأسه بقبضته في غيظ شديد ..

كم هو قاس أن يعرف أبوه أن أمه تخونه مع صديقه ، وكم هو بغيض أن تكون

أمه على صلة برجل غريب ، وأحس أنه يكاد أن ينفجر من ضغط الدماء المتدفقة في عروقه ، وأن حرارة دمائه تكاد تشوى وجهه ، فسدد إلى أمه نظرة ملؤها الغضب ، والتقت عيناه بعينيها فلم يستطع أن ينظر إليها طويلا .. تضاعل وغمره الحزى فأطرق رأسه هوانا ، وإن ربت ثورة البركان الذى يقذف حمم الغضب والمقت والعار فى أغواره ..

واضطربت بثينة من الرأس إلى أخمص القدم ، كانت نظرة ابنها تصرخ باحتقارها ، ولو أن سوطا من لبيب هوى على روحها ما خلف ذلك الألم الذى تحسه فى ضميرها ، وكادت تن من نار العذاب الذى استشرت بين ضلوعها ، ولكنها كتمت آلامها ، ولم تقو على الصمود أمام ابنها الغاضب فى صمت بليغ ، فانسلت من حيث جاءت دون أن تنبس بكلمة ..

وانزوت بعيدا وراحت تفكر فى حالها بعقلها ، الاتهام الذى يشع من عيني ابنها يمزق نياط قلبها ، وكل المتعة التى حصلت بها بطيشها لا تساوى نظرة احتقار واحدة يسدها إليها .. إنها أخطأت فى حقه دون أن تتدبر ، لوئته بأقذارها عن غير عمد ، أعماها حقدتها فحسبت أنها تطعن الباشا وحده فى شرفه باستهتارها ، وما دار بخلدتها لحظة أنها تمرغ ابنها الحبيب فى الوحل ..

لا بد أن تنشل نفسها من الهوة التى تردت فيها من أجل ابنها ، ستقطع كل صلة بينها وبين رفعت ، ستعيش ما بقى لها من عمر طاهرة الذيل ، ولكن هل هذا يغير من واقعها شيئا ، لقد ترك رفعت بصمات أصابعه فى روحها ، ستظل طول حياتها موصومة بعارها ، ولن ينسى محمد أنها سقطت مرة ..

ورن فى أعماقها صوت أجش يصيح بها : « ساقطة .. ساقطة .. ساقطة » ووضعت أصابعها فى أذنيها لتصمهما عن صوت ضميرها الذى استيقظ بعد فوات الأوان ، ولكن هيهات فقد استمريرن فى كهف نفسها ويتردد صده .. وسيطر عليها عقلها فقررت أن تسدل ستارا كثيفا على ماضيها ، وأن تطرد رفعت من حياتها ، وأن تغمر ابنها بجنانها حتى تسترد ثقته التى تزعزعت .. إنها

لن تقتلع ما بذره جده في نفسه إلا بحسن سلوكها ، وإن اختفاء رفعت من مسرح حياتها سيشكك ابنها في حقيقة الاتهامات التي رميت بها ..

وكادت تطمئن إلى القرار الذي اتخذته عقلها ، وإذا بهامس بهمس في أعماقها أنها سبق أن قررت قطع كل صلة بينها وبين رفعت ، وكانت صادقة في قرارها ، وما إن جاء رفعت حتى أنستها المرأة الأخرى المنهومة التي تعيش في داخلها قرارها ، واستجابت لندائه دون تردد أو ندم ..

وفطنت إلى حقيقتها ، إنها وهي وحدها يسيرها عقلها ، أما إذا جاء رفعت فما أسرع أن يغفو العقل وتنقاد لعواطفها ، فإن أرادت السلامة ، وهي تريدها من أجل ابنها ، فلتكبح جماح عواطفها ولتطلق عقل ضميرها ، وعجبت في نفسها كيف ينتصر ضعفها على قوتها ..

وراح الوقت يمر وقد غمر الدار بحر من الصمت ، موجاته قلقت ، ومضاته شك ، وأنفاسه أنات مكتومة ، وساد الغرفة ظلام ، فقام محمد وانسل من جوار أبيه على أطراف أصابعه ، وقبل أن يغادر الغرفة مس أذنيه صوت أبيه :

— محمد ! أدر زر الكهرباء ..

فقال محمد وهو ينظر إليه في الظلام ..

— من الأفضل أن تستريح ..

قال الأب في وجد :

— محمد ! تعال ..

وذهب إليه ، فلف ذراعه حوله وضمه إلى صدره وقبله ، فأحس محمد كأن فيضاً من الحنان ينسكب في جوفه ، واتسل من الغرفة خافق القلب دون أن يرى الدموع التي جرت على خد أبيه ..

وجلس محمد بعيداً ، وما لبث أن سمع حركة عند الباب ، فذهب ليرى القادم ، فإذا به أمام رفعت وجهاً لوجه ، فانقبض ، وفاض صدره الصغير بالغضب والعداوة والنفور ، ومد رفعت يده ليداعبه ، فلما مست أصابعه

خده أحس كأن وقدة نار لسعته فجفل ولم يلحظ رفعت الثورة المشتعلة في جوف الفتى ، فقال في هدوء :

— كيف حال أبيك الآن ؟

وضايق محمد أن يسأله عن أبيه كأنما يسأل عن صديق عزيز ، فلم يجر جوابا ، ولم يكن رفعت ينتظر رده ، فراح يقول :

— هل عنده أحد ؟

وأحس رغبة خفية في أن يحول بينه وبين أبيه ، فقال :

— إنه نائم ، وقد أمرنا عمى حلمى إلا نوقظه من نومه مهما كانت الظروف ..

وسار رفعت إلى غرفة الاستقبال ومحمد خلفه ، وجاءت بشينة وصافحته في تحفظ وإن أخذ قلبها يدوى بين جنبها ، ولحت محمدا يرقبها فتضاءلت وأحست ذلك الشعور الذى تحسه المرأة إذا ما ضبطت متلبسة بجريمتها ..

وقال رفعت :

— كيف حال عبد الخالق ؟

وقالت دون أن ترفع بصرها :

— بخير ..

وتمنى محمد لو أن هذه الزيارة تنتهى سريعا ويذهب رفعت دون عودة ..

وقال رفعت وهو ينظر إلى محمد ويتسم :

— قال لى محمد إن عبد الخالق نائم ..

وراح محمد يرقب أمه بعينين مفتوحتين ، قالت :

— نعم .. إنه نائم ..

وراحت الأم ورفعت يتحدثان حديثا عاديا ، وضاق محمد بجلسته ، وراودته فكرة الانصراف أكثر من مرة ، ولم يطاوعه قلبه على أن يترك أمه ورفعت وحدهما ..

وطالت زيارة رفعت ، وتئأب محمد أكثر من مرة من الملل ، وأخيرا نهض الرجل واستأذن في الانصراف ، فشقق محمد نفسا طويلا في راحة ، وما إن خرج رفعت وأغلق الباب خلفه حتى ذهب محمد إلى فراشه مطمئن البال .. وجاء رفعت ذات ليلة بعد أن نام محمد ، ووجدت بشينة نفسها معه وحده لأول مرة بعد عودة زوجها من المستشفى ، إنها وطنت العزم على أن تقطع كل علاقة تربطها به ، وكانت تنتظر فرصة انفرادها لتقول له إن كل ما بينها وبينه قد انتهى ، وإنها ترجوه أن ينسى ما كان من أجل ابنها ، ولكن ما أن ألقت نفسها معه حتى ماتت الكلمات التي غمقتها طوال الليالي على شفيتها وتحركت مخاوفها ، لم تكن تخشاه بل كانت تخشى نفسها ..

ورنا إليها رنوة زلزلت كيائها ، نام بعدها عقلها وهمد ضميرها بينما استيقظت المرأة الأخرى المتعطشة إلى الحب المستكينة في أعماقها وطغت حتى استولت على كل حواسها ..

وقام رفعت إليها يضمها إلى صدره ويقبلها ، فلم تقاومه ولم تدفعه بعيدا ، بل راحت تبادله قبلاته في نشوة وقد تخدرت كل مشاعرها ، نسيت زوجها ونسيت ابنها ولم تعد تحس إلا ذلك الغول الذي تحرك بين ضلوعها ولا هم له إلا أن يطفى ما يستشعره من ظمأ ..

وتملل عبد الخالق في سريره وفتح عينيه ينظر فلم يجد أحدا إلى جواره ، وضاق برقدته ، فقام يمشي الهوينى في أرجاء الدار ، ودنا من الغرفة التي كان فيها رفعت وبشينة ، ومس أذنيه همس فتسمر في مكانه وانتشرت رهبة في صدره وخفق قلبه في شدة وكاد يتعطل تفكيره ، سرعان ما راحت الحقيقة تتكشف لذهنه فأخذ يدنو من مبعث الصوت وهو مذهول ..

وأشرف على مسرح فاجعته ورأى مصرع شرقه ، فدارت الأرض به ووضع يديه على قلبه كأنما يحاول أن يمنعه من أن يفر من مكانه ، ثم انسدت غيوبة على ذهنه فلم يعد يعي شيئا ، وانهار فاقد الوعي ..

والتفت رفعت وبثينة مفزوعين إلى مصدر الصوت ، ولما رأت زوجها ممدودا على الأرض اتسعت عيناها رعبا ، وغاض لونها حتى صار في صفرة الموتى ، ووقفت جامدة في مكانها كتمثال لا تكاد تحس شيئا من هول المباغثة ..

واستمر قلبها يدوى دويا ، وظلت تتقلب في حيرة ، وبدأت مأساتها تتكشف لعقلها فتمنت لو تموت الساعة ، وذهب رفعت إلى عبد الخالق ومال عليه فألفاه يتنفس في جهد ، فالتفت إلى بثينة وقال لها في صوت مضطرب :
— تعالى ..

وظلت بثينة في مكانها مذهولة ، وقالت لرفعت :
— تعالى نحمله ..

وتقدمت وقشعريرة تسرى في بدنها ، وراحت تعاون رفعت على حمله وهي ترتجف ، لا تجد في نفسها الشجاعة أن تنظر إلى وجهه ، صارت ترهبه وهو لا حول له ولا قوة أكثر مما كانت ترهبه وهو معافي ، وسارت وروحها تكاد أن تفر من فمها خوفا ، وزاد في فزعها خشيتها من أن يستيقظ ابنها في هذه الساعة ..

ووضعاه في فراشه وهو مسبل العينين ، مكروب النفس ونظر إليه رفعت نظرة طويلة ثم انسل من المكان ، وانهارت بثينة إلى جوار السرير وجعلت تنظر أمامها بعينين مفتوحتين دون أن ترى شيئا ..

٦٣

كان السيد سليم باسر الوجه ، منقبض الصدر ، في قلبه حزن ثقيل ، وكان حلمى مطرقا ، شاردا الذهن ، يستشعر أسى عميقا ، وضاق السيد سليم بالانفعالات التي كانت تتدفق في جوفه ، فقام يذرع غرفة مكتبه في العزبة وهو

يجاهد الثورة المتأججة في أحشائه ، وزاد في تعذيبه شعوره بالهوان الذى غمره ..

ونظر في ساعته وضاق بالصمت القلق المسيطر على المكان ، فالتفت إلى حلمى وقال :

— متى سيحضرون ؟

قال حلمى دون أن يرفع رأسه :

— قالوا : سيأتون فى العاشرة صباحا ..

وقال السيد سليم فى حدة :

— الساعة الآن العاشرة والرابع ..

وظل حلمى صامتا ، وعاد أبوه يغدو ويروح فى الغرفة وهو قلق ، ارتسم على محياه انزعاج شديد ، فقد حددت الملكية وهو ينتظر رجال الإصلاح ليتسلموا منه الأرض ويسلموه الفدادين التى يختارها لتظل من أملاكه ..

وزفر فى ضيق ، وضرب كفه بقبضة يده نافذ الصبر ، كان يتعنى من كل قلبه أن تنتهى هذه الإجراءات سريعا ، أن يتسر هذا اليوم ، ففى أقصى يوم مر به طوال حياته ، فما بال اللحظات تطول وتقطر مرارة ؟!

وازدرد ريقه كأنما يزدرد وقدة نار ، وارتفعت حرارته على الرغم من برودة الجو ، وراح يمسح وجهه بكفه وهو يرم بالضالة التى يحسها فى ضميره ، إنه يستشعر أن نفسه قد ضمرت ، أنه قد هان وصار محتقرا ، وراحت تسرى فيه المشاعر التى تثور فى جنبات ملك خلع من عرشه ..

ولأول مرة فى حياته أحس رهبة من مواجهة الناس ، كان يقابلهم من قبل مرفوع الرأس ، شاخ الأنف ، يتيه بقوته التى يستمدّها من ماله ، وينشرح صدره لنظرات الحسد التى يرمق بها ، وإذا به اليوم يرتجف فرقا من تصويره أن العيون الشامتة ستسدّد إليه ويصبح هدفا ، إنه ليخيل إليه أنه سيذوب تحت وهجها ، ولن يقوى على الصمود لها ، وما دار بخلده قبل الساعة أن مجرد

نظرات زاخرة بالعداوة يمكن أن تعصف بإنسان !
وهتك الصنمت صوت طرقات متتابعة على الباب ، فقام حلمى فى ثناقل ،
وراح السيد سليم يجاهد الانفعالات التى كادت تهده ، وحاول أن يبدو
هادئا ، فهو يفضل الموت على أن يظهر ضعيفا أمام الناس ..
وقال بعد أن دفن مشاعره فى سريره ، وبسط أساريه :
— ادخل ..

ودخل شيخ مسن يرتدى جلبابا من الصوف وعلى رأسه طاقة من نفس
قماش الجلباب ، وقال فى صوت متهدج :
— رجال الإصلاح الزراعى ..

وتقدم السيد سليم بعد أن رفع رأسه ، وسار حلمى خلفه مطرقا حزينا يكاد
ينوء من الإعياء ، وبلغ الفناء الواقع بين السراى وفىلا الضيافة ولم يجد أحدا ،
فتقدم ثابت الخطو إلى الباب الخارجى وقلبه ينزأسى ، ولم يقو حلمى على مجارة
أبيه ، كان منهار الأعصاب وخشى أن يجهد بالبكاء ، فعرج إلى السيارة
الواقفة أمام باب المكتب وارتمى خلف عجلة قيادتها مكروب النفس ..
ودنا السيد سليم من الرجال الواقفين عند الباب ، ووقعت عيناه على الحشد
الهائل من الفلاحين المتجمهرين خلف رجال الإصلاح ، فعجب من أين جاء
كل هؤلاء الرجال والنساء والأولاد ، واشتد وجيب قلبه ، وتفجرت مرارة
العداوة فى جوفه ، وكادت أعصابه تخونه ، وراح يجاهد حتى لا يفلت منه
زمائها ..

وقال وهو ينتزع ابتسامة من شفثيه :
— تفضلوا اشربوا القهوة ..
واشربت أعناق الفلاحين ، وتركزت عيونهم فى السيد ، وقال قائل من
رجال الدولة :
— نؤجل القهوة إلى ما بعد أن ننتهى من عملنا ..

والتفت إلى الرجال الذين جاءوا معه فانصرفوا إلى السيارات التي جاءوا بها ، فنظر السيد سليم خلفه وأشار لحلمى أن تعال .. وزحف حلمى بالسيارة إلى حيث كان أبوه ، وفتح له الباب فركب إلى جواره ، وما إن خرجت السيارة من الباب الكبير حتى دوت زغرودة طويلة أعقبتها زغاريد ، وشعر السيد سليم بالزغاريد كألسنة من النار تلسع روحه ، وعجز حلمى عن أن يكبت عواطفه فطفرت الدموع من مآقيه .. وفسحت السيارة طريقا لحلمى ليتقدم بسيارته الركب ، فإذا بجموع الفلاحين تطبق عليه كالموج حتى إنه لم يستطع أن يتقدم خطوة ، وهتف هاتف :

— أرض آبائنا ردت إلينا ..

وانفجر غضب حلمى فراح يدفع سيارته في الجموع فالتحسروا عنه وشق من بينهم طريقا ، وسار على رأس الركب والسيارات خلفه والرجال والنساء والأطفال يهرولون من ورائهم وهم يرقصون ويقفزون ويهتفون في غبطة وسرور ..

وانسابت السيارة تشق الأرض الخضراء ، وحلمى يفكر في الهتافات التي تصك أذنيه وهو حزين ، وربما حنقه حتى كاد يفجر صدره ، فإن كانت كل الأرض سلبت من الشعب وردت إليه ، فهذه الأرض من خلق أبيه .. وأخذ السيد سليم ينظر إلى أشجار السرو والسنط والنخيل في وله ، ويمسح الأرض الخضراء الممتدة إلى مدى البصر في حسرة ، كان يلقي على كل ما تقع عليه عيناه نظرات كتلك التي يودع بها فقيدا عزيزا ، وما كان سيفقد يوما كائنا أحب إليه من أرضه ..

ووقفت السيارة عند أول أرض ملكها السيد سليم ، إنها أحب أرضه إلى قلبه ، وهى التي عزم على أن يحتفظ بها ، ووقفت السيارات خلفها ، وهبط الجميع وراحوا يعملون ، وما أسرع أن لحق بهم الفلاحون وهم يتصايحون في

غبطة وسرور ..

وقيست الأرض ودقت الحدود ، وكتبت أوراق ومهرت بتوقيعات ..
وارتفعت هتافات وانشرحت صدور وانقبضت قلوب ، وعلا وجوها بشر
وانسدلت على وجوه غيرة .. وانتهى كل شيء فدارت أكواب الشرابات على
رجال الدولة ، وانطلقت الزغاريد وارتفعت أهاليج النصر والهتافات الزاخرة
بالفرحة ..

وانسل السيد سليم وحلمى إلى السيارة ، لم يعد لهما مكان في هذه النشوة
المعربة وقلباهما مثقلان بالأحزان والهموم ، وانطلقا دون أن يحس أحد بهما
أو يهتم لانصرافهما ..

وعادا إلى السراى ، وراح السيد سليم يصعد في الدرج الرخامى الواسع في
تثاقل ، يحس أنه سينوء تحت وطأة أحزانه ، وأخذ حلمى يجر نفسه جرا ، وكل
خالجة تنزف أسى وحزنا ..

وبلغا الردهة الخارجية-، فارتمى السيد سليم في أول مقعد صادفه وطفق
يصرف أنيابه غيظا ويزفر في شدة كأنما يزفر ذوب نفسه ، وبلغ حزن حلمى
منتهاه وأفلت منه زمام أمره ، فراح ينتحب ثم أجهش بالبكاء ..

وانصرفا من العزبة منكسى الرأس ، في قلبيهما حزن ثقيل ، وتصرمت
الأيام دون أن يفكر أحدهما في العودة ، وفي ذات صباح قبل أن يندمل جرح
نفسيهما ، طلب السيد سليم من ابنه أن يستعد للذهاب معه لزيارة أرضه ، فهو
لا يطيق أن يبعد عنها طويلا .. قال حلمى :

— أعفنى أرجوك ..

— لماذا ؟

— ذهابى إلى هناك سينكأ جرح نفسى ، ويجدد أشجائى ..

— اسمع يا حلمى ، سنذهب إلى هناك يوما ما ، فلماذا تؤجل ذلك اليوم ؟

لماذا نفر من مواجهته ؟ علمتنى تجارى أن خير ما نفعله أن نواجهه واقعنا

وألانهرب منه مهما كان مرا ، إننا بلقائه نقضى على الخوف الذى يتتابنا منه
وهو أسوأ ما فيه .. مجابهة الحقيقة أهون من الفرار منها ..
ودنا من ابنه وقال له :

— قم ..

ونفض حلمى كارها ، وانطلق مع أبيه على مضض ..
واقتربا من العزبة ، وزاغت الأبصار ، وخفقت القلوب فى الصدور
رهبة ، وكان السيد سليم يحس نفس المشاعر التى يحسها ابنه ، ولكنه لم يكن
يستسلم لها ، بل كان يقاومها ، ودلفت السيارة إلى السراى ، فخف
الفلاحون إليهما يحيونهما ويرحبون بهما كأن لم يقع حدث جلل ، وكأنما الدنيا
لم تبدل ..

وذهب السيد سليم إلى أرضه وبقي حلمى فى السراى وحده ، وراحت
تراوده فكرة أن يخرج للطواف حول الأرض كلها كما كان يفعل ، وأخذ يقاوم
هذه الرغبة الجياشة فى صدره ..

واستمرت الفكرة تلح عليه ، وهو يفزع من أن يلبي نداءها ، كان يشفق
على نفسه من المشاعر القاسية التى ستزهزها .. واستبدت به الرغبة فذهب
مضطربا إلى السيارة الجيب التى كان يدور بها حول أرض أبيه ..

وانطلقت السيارة وهو خافق القلب ، وسرت فيه رهبة ، وجعل يمد بصره
إلى كل شئ فى حنين ، وراح يطوف بالأرض كلها ، وهمس فى أغواره
هامس : « لم تعد أرض أنيك ، إنها أرض الإصلاح » وانقبض صدره برهة ،
وسرعان ما خفت حدة توتر أعصابه ..

ومربفرحات وهو يعمل فى أرضه ، وكان من قبل أجيرا عندهم ، فهم بأن
يشيح بوجهه عنه ، خشية أن يرميه بنظراته الشامتة أو أن يسخر منه ، ولحه
فرحات فصاح به وهو يلوح بيده فى سرور :

— حلمى بك .. حلمى بك .. تفضل ..

وهبط حلمى من سيارته وذهب إليه ، فقابلته الرجل بالبشر والترحاب ، وأخذ يقص عليه بعض ذكرياته وهو مسرور ، وحلمى يصغى إليه فى ود ، وانتقل فرحات من ذكرى إلى ذكرى ، وراح يقص حادثة بعينها وقعت من سنين ، كانت حادثة خطيرة صدعت كيان أسرته ، فأرهف سمعه وراح يتبسط معه ليفضى إليه بكل دقائقه ، وظل فرحات يتحدث فى بساطة كأنما يتحدث عن المحصول ..

وعاد حلمى إلى سيارته وقد شغل بالحديث الذى سمعه اليوم مصادفة عن كل ما حوله ، وانطلق إلى السراى ينهب الأرض ليقابل أباه ، فلما لم يجد سيارته عادت تضايق ، لم يعد يحتمل الاحتفاظ بالسر الذى عرفه .. وظل يغدو ويروح فى قلق ، وفكر أكثر من مرة فى أن ينطلق إلى أبيه يفضى إليه بالنبا ، ولكنه كان يتواصى بالصبر على كره منه ، وجاء أبوه أخيرا فخف إليه يقول :

— قابلت الآن فرحات وأفضى إليّ فى بساطة بسر عجيب ، قال لى وهو يتحدثني عن ذكرياته أن عثمان ذهب إليه يوما من أكثر من عشر سنين ، وطلب منه أن يختبئ فى الذرة ويتنظر حتى تدنو منه ، ثم يطلق عيارا فى الهواء .. فقال السيد سليم فى دهش :

— عثمان فعل هذا ؟

قال حلمى فى حماسة :

— هذا ما قاله لى فرحات الآن ..

قال السيد سليم وقد زوى ما بين حاجبيه :

— ولماذا فعل عثمان ذلك ؟ لماذا ؟

— ليوسع الهوة التى كانت بينك وبين عبد الخالق ، ليوهنك أن عبد الخالق يريد قتلك فتغلق قلبك دونه ، ويخلو له الجو ، وقد نجح فى تدبيره ، وصار وحده المسيطر على العزبة ، يفعل ما يشاء ، ويسرق كما يشاء دون رقيب

أو حسيب ..

وأطرق السيد سليم في أسي وهو يغمغم :

— الكلب .. اللص ابن اللص ..

قال حلمي في إشفاق :

— ظلمنا عبد الخالق .. ظلمناه طويلا ..

كان السيد سليم يصارع نفسه ويواجه واقعه ليبدد الحزن الذي عشنش في كهوف وجدانه ، وكاد ينجح في بلوغ أربه ، وإذا بحلمي يأتيه نبأ يقلع كل طمأنينة من نفسه ، ويريق في جوفه دنان الأسي والخزي والندم ، وأطرق مهموما يحس كأن خناجر مسمومة تطعن قلبه وتمزق أحشائه ، وزاد في حنقه أنه عاش طوال عمره يتغذى بالأوهام والأكاذيب ..

٦٤

خف حلمي إلى سيارته وهو قلق ، ينز قلبه بالأسى والخوف ، فقد اتصلت به إلهام وقالت له إن عبد الخالق في النزاع الأخير ، وانساب بسيارته في شوارع القاهرة المزدهمة يسابق الريح حتى إذا بلغ دار أبيه راح يهرول وهو خائف القلب وفي وجهه فزع ، ودخل على أبيه مرعوبا ، وقرأ الأب في وجه ابنه انفعالات نفسه المتتعة ، فمشيت إلى قلبه رهبة ، وقام إليه دون تفكير وقال له :

— خيرا ؟

قال حلمي والغصة في حلقه :

— عبد الخالق يموت !

وتخلخلت مفاصل الأب ، وأحس بأحشائه تسقط ، وبقلمه يتناثر ، وبالأرض تميد تحت قدميه ، وبنار تحرق كبده ، وكاد أن ينهار ، ولكنه تجلثم انطلق يتلفت في اضطراب وحلمي في أثره .. واندسا في السيارة صامتين ،
(الحصاد)

وإن كان رأساها مزدحمين بالأفكار .. كان الأب يفكر في ابنه المريض الذى بعث إليه يلتمس منه أن يصفح عنه قبل أن يموت فأبت كبرياؤه عليه أن يصفى إليه .. إنه ظلمه ، قسا عليه ، كان يعتقد أن ابنه حاول أن يقتله ، فإذا بالأيام تكشف له أنه لم يفعل وأنه برىء .. فيا للقسوة ! أسفرت الحقيقة عن وجهها وابنه يلفظ آخر أنفاسه !

طلب ابنه منه أن يسامحه .. عن ماذا ؟ عن الظلم الذى وقع عليه ؟ عن الحرمان الذى عاش فيه ؟ عن العطف الذى حرم منه ؟ عن السخرية التى كان يخزها بها كلما التقى به ؟ إذا كانت زوجته خائنه ، فهو ليس أول من خائنه زوجته ، ليته يرى عبد الخالق قبل أن يموت ويلتمس منه صفحه ، فلو مات دون أن يصفح عنه ، فسيمضى الأيام الباقية له على ظهر الأرض وهو معذب حزين ..

أيموت عبد الخالق حقا ؟ إنه ليرتجف فرقا للفكرة ويغص حلقه وتندلع نار لوعته ، أيفقده يوم أن وجده ، فقيم كان انجلاء الحقيقة إذن ؟ وما وجه الحكمة فى اكتشافها ؟ لو أن عبد الخالق مات قبل أن تنزاح الغشاوة عن عينيه لما أحس وقدة النار التى تلسع روحه وتحرق أحشائه ، هل انكشف السر ليربو عذابه ويتضاعف أساه ؟ أكتب عليه الشقاء ؟ ورننا إلى السماء وراح يغمغم :
— ربي غفرانك .. ربي رحماك ..

ولم تظفر الدموع من عينيه ، وإن أحسها تبلل وجدانه ..
وكان حلمى يفكر فى أخيه وهو منخلع القلب ، يغمره قلق وحيرة ، ودون أن يتدبر ثارت فى نفسه أسئلة طغت على مشاعره : ما الألم ؟ وما الحزن ؟ وما الحياة ؟ وما الموت ؟ وما الروح ؟ ولماذا جئنا ؟ ولماذا نفنى ؟ ولم يحاول أن يجد جوابا ، ولم يخلق وراء شطحات خياله بل هوى إلى الأرض بمضغ آلامه .. ووقفت السيارة أمام بيت عبد الخالق خلف سيارة إلهام ، وقفز حلمى منها ، وغادرها أبوه فى لهفة ، وراحا يصعدان فى الدرج وبين جوانبهما لوعة ،

وفي نفسيهما جزع ، وفي أعينهما حيرة تترقرق ..
وانطلقا إلى غرفته ، إنه ممدود في فراشه وبثينة بالقرب منه ورفعت
خلفهما ، ووقفت في الناحية الأخرى من السرير لإهام مقطبة الجبين وإلى
جوارها محمد يسح الدمع السخين ..
كان شبح الموت يطوف بالغرفة ، ووقف السيد سليم جامدا برهة عند
الباب زائع البصر ، ثم اندفع إلى ابنه المسجى لا يلوى على شيء ، ولا يحفل
بالواقفين عنده ..

وسار حلمى مطرق الرأس ، دامع العين ، في وجهه أسى ووله ، حتى بلغ
ابن أخيه فوقف إلى جواره ينظر والنار تسرى بين ضلوعه ، وزاد في عذابه بكاء
محمد ، فمد يده إليه وجذبه في رفق وراح يضمه لعله يشعره أنه في هذه اللحظة
البالغة القسوة ليس وحده ، وأن قلوبا كثيرة تشاطره مصابه ، ولن تألو وسعا
في تضמיד جراحه ..

وراحت تطفو على سطح ذهنه أحاديث أخيه ، وترن في أعماقه رنيناً قاسياً
تمزق نياط قلبه : « إننى لست حاقداً على الباشا .. كل ما أرجوه منه أن يصفح
عنى .. أن يسامحنى ، وإن كان سبب غضبه علىّ الآن أننى لم أطلق بثينة ، فإننى
لم أفعل لأننى سأطلق الدنيا كلها دون أن أقتص من أحد ، سأترك كلا لنفسه
تقتص منه ، كما تقتص منى نفسى الساعة على ما قدمت يداى ، فقصاص النفس
من نفسها أقسى قصاص .. ومحمد لمن تتركه ؟ .. سأتركه لك أنت وأنا واثق
أنك ستكون له نعم الأب ، إنه يحبك وأنت تحبه ، مستقبل محمد معك خير من
مستقبله معنا .. إننى أتركه وديعة في أيدي رحمة وسأذهب وأنا مطمئن البال .
كم من الموت من راحة ! ما أكثر ما يكون صدر الموت أرأف بنا من صدر
الحياة .. ماذا نستطيع أن نفعل إذا كانت أمه قد غمرت بحنانها رجلاً آخر ،
سلبته حقه من الحنان لتغدقه على رجل غريب ؟ .. »

وزاد ضغط يده على ظهر ابن أخيه ، ولم يقو على احتمال النار السارية في

أحشائه ، فأخذ ينشج بالبكاء .. وركع السيد سليم إلى جوار ابنه وراح يناديه وهو ينظر إلى وجهه الذابل والحزن يهصر قلبه :
— عبد الخالق ! عبد الخالق ! أنا أبوك .. أنا أبوك يا حبيبي ..
عبد الخالق .. سامحنى يا بنى ..

كان صوته متهدجا ، زاخرا باللوعة وصدق الشاعر حتى إن إلهام سمحت الدموع ، وبكت بثينة وجفف رفعت دمة سالت على خده ..
كان غاية ما يرجوه الأب في تلك اللحظة أن يغفر له الابن قسوته وظلمه إياه ، وأن يصفح عن إساءاته ، ولم يتسرب اليأس إلى قلبه ، فاستمر ينادى في ذلة وهو يرقب النفس المتردد في وهن بين جنات ابنه المحتضر :

— عبد الخالق ! ابنى ! عبد الخالق .. سامحنى . سامحنى يا بنى !
ورفت على شفتى عبد الخالق بسمة باهتة ، لم يسمع أباه ولم يدر به ولم يصفح عنه ، وما كانت تلك البسمة لأهل الأرض ، كانت روحه في البرزخ ، لا هى فى دنيا المادة ولا هى فى عالم الروح ، وإن كانت تتأهب للانطلاق من سجن الجسد .. رأى أمه مقبلة عليه هاشة باشة ، إنها تمد يدها لتأخذه معها ، إنه مسرور وسروره من نوع جديد لم يستشعره أبدا من قبل ، سروره لا يشوبه ألم أو رهبة من مجهول ، أو خوف من أن يزول ، إنه سرور ناعم دائم هفهاف مجنح ، وكانت تلك البسمة آخر مشاركة بين روحه وجسده ، ولفظ آخر نفس ختم كل صلة تربطه بالأرض ، وهامت روحه مع روح أمه راضية بميلادها الجديد ..

وأخفى الأب وجهه فى صدر ابنه الذى ذهب وأجهش بالبكاء ، وارتفع نحيب إلهام وبثينة ، وأقلت محمد من يد عمه ، وارتقى على جثمان أبيه يذرف الدمع السخين وينادى من قلب مجروح هصره الألم :

— بابا .. بابا .. رد على .. أنا محمد .. أنا ابنك .. بابا .. بابا .. بابا .
وأخفى حلمى وجهه بيديه .. إنه يبكى ، ولكن بكاء قلبه كان أحر من

بكاء عينيه ، حز في نفسه صوت أخيه ، وزاد في لوعته رؤيته لأبيه يبكي
كالأطفال لأول مرة مذ تفتحت عيناه عليه ..

وجفف رفعت دموعه ، ومد يده وأسبل عيني عبد الخالق وقال في صوت
خافت مضطرب :

— البقية في حياتكم ..

وقام الأب وقد انحنى ظهره ، وفي لحظة تجمعت في ذهنه كل مآسيه ، ثكل
ابنه ، وفقد أرضه ، وضياع شرفه ، ولم يجن من دنياه إلا المرارة والأسى
والهوان ، وسار مطرقا يجتر نفسه جرا ، ولما بلغ الباب التفت خلفه في بطاء
شديد ونادى في صوت واهن حزين :

— حلمى !

وذهب حلمى إلى أبيه ، وسار إلى جواره ، وراح الأب يقول :
— اتصل بالفراش ومره أن يقيم سرادقا كبيرا يليق بأخيك ، واكتب نعيه في
جميع الصحف ، ستشيع الجنازة غدا بعد الظهر ، حتى تتاح الفرصة للمشيعين
الآتين من بلاد بعيدة ، وأبرق إلى العزبة ليرسلوا ثلاثة عجل ..

وصمت السيد سليم قليلا .. وعلى الرغم من الحزن الذى كان يكابده
لم ينس طبعه ، فرفع رأسه والتفت إلى ابنه وقال :

— وبعد أن ينتهى العزاء اذهب إلى المحامى واطلب منه أن يرفع قضية لضم
ابن المرحوم إلينا ، فلن أتركه أبدا يعيش مع الفاجرة ..

قال حلمى في صوت متهدج :

— هذا ما كان يتمناه المرحوم ..

وذهبت إلهام إلى محمد ، وجذبه لتبعده عن جثمان أبيه ، متقبضة الصدر ،

دامعة العين ، وحاول محمد أن يتملص من يدها وقد زاد نشيجه ، ولكنها استمرت في جذبه حتى سار معها ، وانطلقا هي لتلبس ثياب الحداد ، وهو ليحكث مع ابنها حتى يقبر المرحوم .

ومرا بحلمى والسيد سليم ، وأطرقت الرعوس ، وهمس في نفس إلهام هامس راح يقول :

— من يزرع الزوابع يجنى الأعاصير ..

المؤلف

الطبعة الأولى		
مايو سنة ١٩٤٣	قصة	أحمس بطل الاستقلال
يوليو سنة ١٩٤٣		أبو ذر الغفارى
مايو سنة ١٩٤٤		بلال مؤذن الرسول
ديسمبر سنة ١٩٤٤	مجموعة أقاصيص	فى الوظيفة
يوليو سنة ١٩٤٥		سعد بن أبى وقاص
فبراير سنة ١٩٤٦	مجموعة أقاصيص	همزات الشياطين
أكتوبر سنة ١٩٤٦		أبناء أبى بكر الصديق
يناير سنة ١٩٤٧		الرسول (حياة محمد ترجمه مع محمد محمد فرج)
سنة ١٩٤٧	رواية	فى قافلة الزمان
مايو سنة ١٩٤٨		أهل بيت النبى
سنة ١٩٤٩	قصة	أميرة قرطبة
مايو سنة ١٩٥٠	قصة	النفاب الأزرق
سنة ١٩٥١		المسيح عيسى بن مريم
سنة ١٩٥٢		قصص من الكتب المقدسة
سنة ١٩٥٢	رواية	الشارع الجديد
سنة ١٩٥٣	مجموعة أقاصيص	صدى السنين
سنة ١٩٥٤		حياة الحسين
سنة ١٩٥٤	قصة	قلعة الأبطال
ديسمبر سنة ١٩٥٧	قصة	المستقع
يناير سنة ١٩٥٨		أم العروسة
مارس سنة ١٩٥٨	قصة	وكان مساء
يوليو سنة ١٩٥٨	قصة	أذرع وسيفان

محمد رسول الله

والذين معه

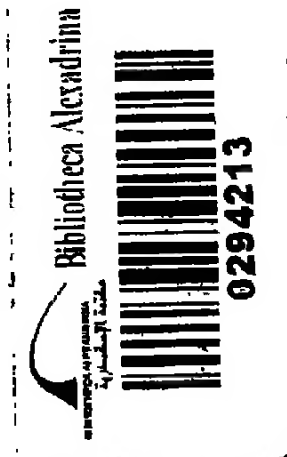
في عشرين جزءا

أكتوبر ١٩٦٥	١ — إبراهيم أبو الأنبياء
مارس ١٩٦٦	٢ — هاجر المصرية أم العرب
سبتمبر ١٩٦٦	٣ — بنو إسماعيل
فبراير ١٩٦٧	٤ — العدنانيون
مايو ١٩٦٧	٥ — قريش
يولية ١٩٦٧	٦ — مولد الرسول
أكتوبر ١٩٦٧	٧ — اليتيم
يناير ١٩٦٨	٨ — خديجة بنت خويلد
مارس ١٩٦٨	٩ — دعوة إبراهيم
مارس ١٩٦٨	١٠ — عام الحزن
سبتمبر ١٩٦٨	١١ — الهجرة
نوفمبر ١٩٦٨	١٢ — غزوة بدر
يناير ١٩٦٩	١٣ — غزوة أحد
مايو ١٩٦٩	١٤ — غزوة الخندق
يونية ١٩٦٩	١٥ — صلح الحديبية
نوفمبر ١٩٦٩	١٦ — فتح مكة
نوفمبر ١٩٧٠	١٧ — غزوة تبوك
مايو ١٩٧٠	١٨ — عام الوفود
نوفمبر ١٩٧٠	١٩ — حجة الوداع
ديسمبر ١٩٧٠	٢٠ — وفاة الرسول

رقم الإيداع ١٥٨١

الترقيم الدولي ١ — ١٠٢ — ٣١٦ — ٩٧٧

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفيحالة



الثلث ٧٠٠ قرش

دار مصر للطباعة
سعيد جوده السحار وشركاه

To: www.al-mostafa.com